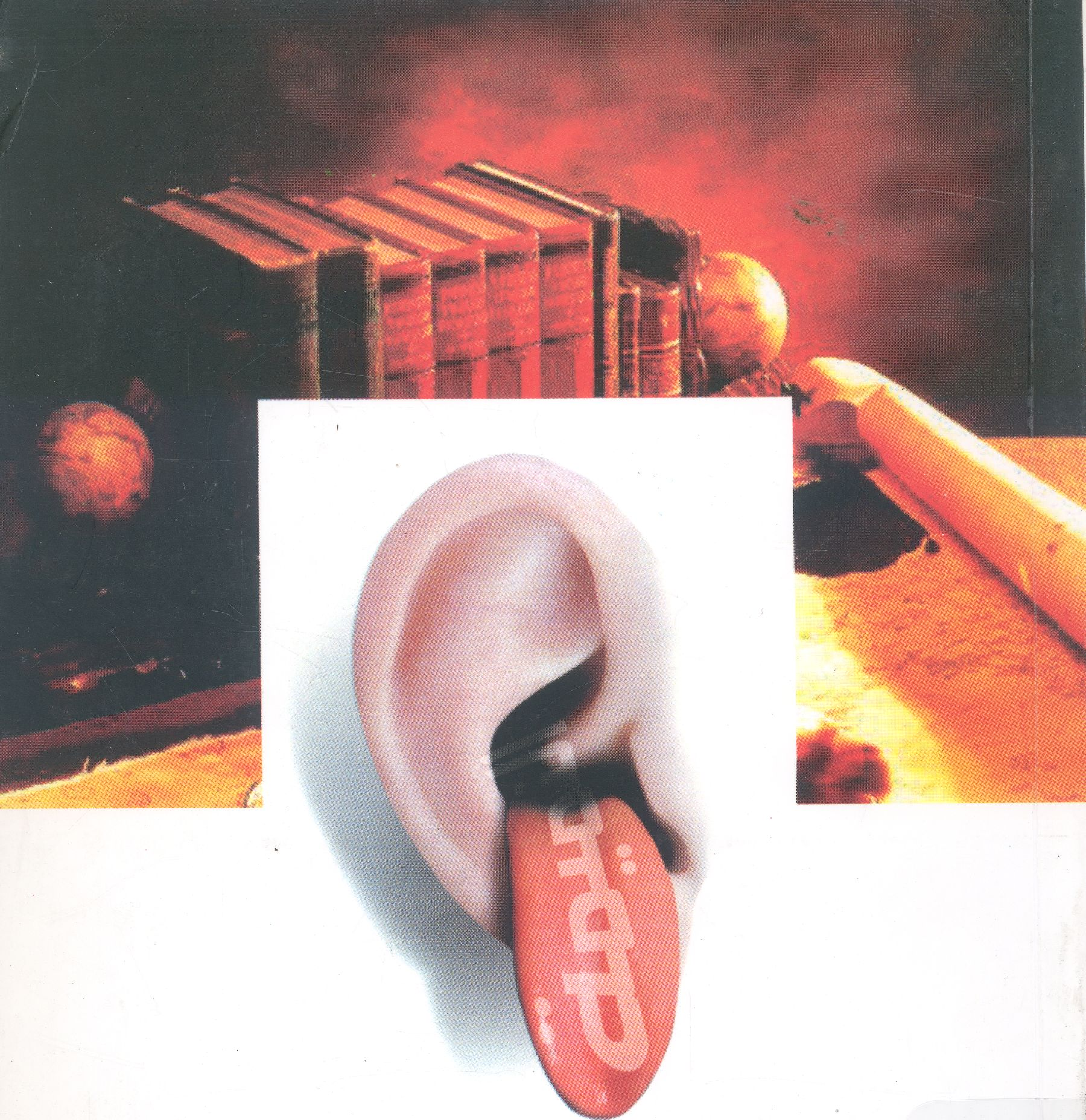


كتاب النميمة

سليمان فياض

دار مصر المحروسة

كتاب النميمة

الكتاب: كتاب النميمة
المؤلف: سليمان فياض
الناشر: دارمصر المحروسة
الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٠٦
المدير العام: خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع: يحيى إسماعيل
الغلاف: علاء قابيل
رقم الإيداع بدار الكتب: ٢١٧٤٨ / ٢٠٠٥

١٣ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون - فاكس : ٣٩٦٠٥٠٠
d_misr _ elmahrosa @ hotmail . com

كتاب النميمة

سليمان فياض

القاهرة ٢٠٠٦

إهداء

إلى الأجيال الجديدة
تذكرة بأن الإنسان تاريخ وموقف
فلا سر يُخفى
ولاشهادة تموت

سليمان فياض

مقدمة

فى اللغة تعنى كلمة " النميمة " : الكتابة وصوت الكتابة الخفى من حركة مشى أو وطء قدم كما تعنى: الوشاية والكذب. وفى اللغة ترتبط حروف جذر مادة الكتابة: (ك ت ب) بالخط والتدوين أى بـ (الكتابة) وحبس ما فى النفس والشهوة (الكبت) واللوم والتقريع (البكت والتبكيت).

وليس كل النم طعنا في الظهر، ولا وشاية بآخر، كما يقول الأخلاقيون والمتدينون، فمن النم في اللغة والأدب، ماهو إظهار الخفي، ونشمه لرائحة طيبة كانت أو خبيثة، وكشف لجمال أو قبح وهل يفعل سوي ذلك الكاتبون من المبدعين والنقاد.

ولأن قصص هذا الكتاب فيها قدر من هذا كله أصواتا لحركة خفية وآثار السائرين وكذب الواشين وإطلاقا للحبيس فى النفس مثلما فيه لوم وتقريع للنفس وللغير فقد اخترت لهذه القصص أن تحمل عنوان: «كتاب النميمة».

وقصص النميمة عندى فى كتاب النميمة هى لنماذج وأنماط من الناس عامة والكاتبين خاصة الذين عرفتهم عن قرب خلال رحلة العمر فى القرية والمدينة الصغيرة أو الكبيرة من الرجال والنساء.

وكل من شخوص هذه النماذج والأنماط عندى جزء من ظاهرة من الظواهر الاجتماعية يمثل فى تصورى الشخصى، ورؤيتى الخاصة عالما متفردا وخاصا لنفس بشرية تحيا. وهم فى مجموعهم يجسدون واقعا من وقائع ناس عاشوا فى زمن ووطن بكل أحلامهم وآمالهم وآلامهم.

وفى الوقت نفسه. ففى هذه اللوحات أجزاء من سيرة حياتى الشخصية فأنا دائما راويها وأحد أطرافها وشهودها.

ولا أنكر أن فيها قدرا من التصورات والتحليلات والانطباعات بل أيضا

التخيلات سعيا إلى تحقيق قدر من الحبكة والإبداع فى القص قد تتجاوز الوقائع الحقيقية هنا أو هناك. لكنها دائما تسعى إلى تجسيد روح عصر والتعبير عن ظواهر حياة فى وطن من حيوات بعض من عرفت من الناس.

وبعض هذه البورتريهات أو اللوحات يسمى فيها نماذج بأسمائها وبعضها يتجاوز الأسماء إلى الصفات التى تتسم بها عندى لأسباب فكاهية خاصة ببعض هذه الشخصيات. بل قد ألجأ إلى تركيب عدد من الشخصيات والنماذج فى نموذج واحد سعيا إلى مزيد من التجسيد للظاهرة وللنمط ولتحقيق قدر من النظام الفنى فى ركامات الفوضى التى تسود وقائع الحياة عند كثير من الناس.

ولذلك فلست مسئولا عن أية اسقاطات أو تصورات شخصية لقارئ ما على أحد النماذج فى هذه اللوحات لمجرد أنها معماة ولا تحمل اسما من الأسماء. ولست مسئولا عن أية وقائع أو مشابهات فى هذه البورتريهات إلا عمن من سميتهم بأسمائهم.

وغايتى من جهة أخرى فى هذا الجزء من كتاب النميمة أن أقبض على اللحظات الهاربة والظواهر المستمرة أو الآفلة التى يغفل عنها دائما التاريخ العام، والخاص أيضا لأنه يتجاوز فى الشرق ما يعتبر أسرارا شخصية فى حياة الناس.

لكن عين الفن اليقظى بوسعها دائما القبض على هذه اللحظات وسجنها إلى الأبد فى سجن الكلمات بوسيلة ما من وسائل القص، وطريقة ما من طرائق الإبداع، وأن تروى تاريخ ما ينساه التاريخ من حيوات المشهورين والمغمورين على السواء.

ولا تزال تدوى فى أذنى كلمات «لينين» عن « أنوريه دى بلزاك» : «لقد عرفت عن باريس من قراءاتى لأعمال بلزاك ما لم أعرفه من كل كتب التاريخ».

سليمان فياض

القاهرة: (٢٠٠١)

الأستاذ

لا أعرف على وجه التحديد، ماذا كان يمكن أن يؤول إليه أمرى مع القراءة والكتابة والثقافة، خارج دراستى الأزهرية من الصف الأول الأبتدائى، إلى الصف الخامس عشر الجامعى، لو لم ألتق بالأستاذ الأستاذ، لكننى أحس أنه لو لم يقيض لى الالتقاء به، ولو لم يتكرر هذا اللقاء، لتنمو فى ظل هذا التكرار صداقة حميمة، ومحبة عميقة، واحترام شديد، لكنت ذلك الأزهرى، المقطوع الصلة بثقافة العصر وعلومه، خارج علوم الأزهر المحدودة العدد والكتب، والأسيرة فى القرن العشرين، لعقلية عصر المماليك والأتراك العثمانيين، إنجازاتها الثقافية من المتون والشروح والحواشى والتذييلات، فى علوم الدين والعربية، ولربما حرمت، أو تأجلت طويلا، صلتى بعلوم: الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة الحديثة، والمنطق الحديث، والسياسة، والاقتصاد، وسواها من علوم العصر، بل آدابه وفنونه.

البداية:

كانت أسرتى قد انتقلت من مدينة «السمبلاوين» إلى مدينة «المنصورة» عام ١٩٥٠ بانتقال عمل أبى من سكرتير لمدرسة البنات الأبتدائية إلى سكرتير لمدرسة الأيوبية الثانوية، ومع الأسرة انتقلت فى العام نفسه، فى أجازة الصيف، إلى المعهد الدينى بالمنصورة، فى أول سنة أنشئ بها ذلك المعهد، وكنت قد اجتزت الصف الثانى الثانوى بمعهد الزقازيق الدينى.

وتوقفت بهذا النقل سنوات غربتى ووحدتى بعيدا عن الأسرة وسنوات محاولة العيش والسكن بمائة وخمسين قرشا فى الشهر، ولكننى حرمت حقا من حرية المغترب الأغرب، المتصعلك فى الزقازيق، وأحيائها، ومراكزها، وقراها، ومن مواصلة الخبرة الحقيقية بقيعان المجتمع. وحرمت من شاطئ بحر مويس وأشجاره، ومراقبة قطارات الإنجليز ومعسكراتهم، وحرمت من مكتبة بحر مويس، التى قرأت بها مجلدات من القصص البوليسية عن مغامرات طرزان، وباردليان وفوستا، وروكامبول، وروايات الجيب الشهيرة، وحرمت من التنقل بين أعمال جانبية فى التجارة، والنسخ، وحرمت من الصعلكة والفرجة فى بلاد الله، على خلق الله.

استقر بنا المسكن فى شقة بشارع متفرع من سوق الخواجات، وصار همى هو البحث عن مكتبة المنصورة، حتى عثرت عليها، على شاطئ النهر بحى المختلط، كانت مكتبة بيضاء، يصعد إليها الزائرون بدرج من الرخام، تطل نوافذ قاعتها الكبيرة على النهر، ونرى منها درجا نازلا إلى المياه، وعند أدنى درجة كانت حلقات حديدية لقوارب كانت تشد حبالها إليها فى زمن مضى، وكان مبنى المكتبة فيلا للاستراحة، يقولون إنها كانت لإحدى الأميرات وإنها كانت تأتى إليها فى شهور الشتاء والصيف، حبا للمنصورة، عروس النيل، وأجمل مدائن دلتا النيل.

من جديد، عاودت مطالعة قصص المغامرات فى المكتبة، وعكفت عليها عكوف مدمن، فى ساعات الصباح والمساء التى تفتح فيها المكتبة أبوابها للقارئين، وكنت لسأمى من دراسة الأزهر، وتكرار علومه، وكتبه، أعطى لملاحظ الغياب بالمعهد جرايتى الشهرية «٢٥ قرشا» مقابل أن يسجلنى حاضر لدروس كل يوم، وظللت أياما، أياما فقط، أقرأ قصص المغامرات، سبع ساعات فى كل يوم، أربع منها فى الصباح، وثلاثة فى المساء.

•

اللقاء الأول:

فوجئت عصر يوم، ولم يكن قد انقضى على أسبوع بمكتبة المنصورة، بذلك الشاب الفتى، الناحل العود، الواسع العينين، البارز عظام الوجنتين، يترك مكانه على منضدة للمطالعة، ويأتى بكتابه ويجلس بجانبى، على منضدتى، كنت أراقبه عصر كل يوم بدهشة فلم يكن يأتى للمكتبة إلا مع العصر، وكانت دائما يلبس جلبابا على اللحم، ويضع فى قدميه قبقابا، وكان دائما حاسر الرأس، حليقة، ولا يتجاوز طول شعره نصف سنتيمتر، وكان مظهره هو سر دهشتى، وكان الوحيد بين قراء المكتبة الذى يبدو هذا المظهر الفردى، العجيب، وفى مكتبة لها احترامها، وفى مدينة حريص أهلها على حسن المظهر حين يغادرون عتبات بيوتهم، أو على الأقل أبناء الطبقة المتوسطة منهم، قال لى:

- تسمح؟

وسحب الكتاب الذى أقرأ فيه، وقال لى:

- كم عمرك؟

ولم أضق به، وبدأ التعارف، بحوار هامس، فنحن فى حرم من حرم المعرفة، أثار صوته الريفى القوى، وتحدد مخارجه، وقوة نطقها، فضولى، مثلما تثير هذا الفضول شخصيات المغامرات، فى قصص المغامرات، ولم نطل المكوث ذلك اليوم بقاعة المطالعة، فخرجنا إلى كورنيش بجانب المكتبة، وواصلنا التعارف والحكى، على سور الكورنيش. ولم يخف عنى منذ ذلك اليوم، سخريته من قراءاتى ولا تهكمه على إدمانى القراءة للقصص، فهى فى رأيه «لعب أطفال».

مكتبة المنصورة:

كانت مكتبة المنصورة مكتبة فريدة من نوعها كمكتبة بالأقاليم، كان بها ثلاثون ألف كتاب، وكان أمينها شيخا معمما يلبس الجبة والقفطان، وكان سمينا للغاية، لا هم له طوال وجوده فى المكتبة سوى أن يغفو، ويصحو لأول نأمة، وكان ملاحظ المكتبة المعير لكتبها شابا أعجف يهوى تصليح الراديو، بل صنع الراديو يدويا من أشلاء راديوهات قديمة، ويهوى الرسم على الزجاج لصوان منزلية يصنعها بيديه، وكثيرا ماكان هذا الملاحظ يتخلف عن الحضور إلى المكتبة، فيقوم به من سيصير لى أستاذا، ويزيد عليه بتوجيهه للقارئين المستعيرين، بصوته القوى الهامس الهادىء.

وإلى هذه المكتبة كانت يتردد: شاب أزهرى، مرووش، غدته الدرقية لاتجعله يستقر لحظة فى مكان، متعب العينين، تفسد سمرته صفرة قبيحة، شعره كأنه شعر ماعز خفيف، جذور شعر لحيته، تبدو حين ينمو شعرها قليلة، متنافرة، ينمو كل منها فى اتجاه. وشاب كان أنيقا للغاية بكرافته وبدلته وشعره المسبسب، يهوى القراءة فى علم النفس، وممارسته التحليل النفسى على كل من يصاحبه، فيوقعه فى اضطراب وبلبلة شديدين، كان واضحا أنه يعانى من كتب وبرانويا، ومصاب بذلك الجنون المعرفى الصاخب فى داخله، الهادئ على وجهه الوسيم. وشاب ثالث لم ينل حظا من التعليم، لكن الأستاذ علمه فى سنة ما القراءة والكتابة، وأغواه فحصل على الشهادة الابتدائية فى سنة، وعلى الثانوية العامة «نظام قديم» فى ثلاث سنوات، بدلا من خمس سنوات، والتحق بالقاهرة، بقدرة قادر وهو الشديد المسبغة بكلية الحقوق، ثم بالكلية الحربية، وصار محققا رفيع المنصب بالقوت المسلحة. وشاب رابع سمنى الوجه، شهوانيه، أنيقا أناقة واضحة، يرتدى دائما جاكيت كروهات، وبنطلونا سادة، أيا كان لونهما المتناسقين، لم يكن مغرما بالقراءة، وتحلو له صاحبتنا عصر كل يوم، وقدر له، حين تخرج من كلية الزراعة، وعمل بسرس الليان، أن يحصل على منحة بالسويد، بفضل سهرات الحشيش مع الخبراء الخواجات، وأن ينال درجة الدكتوراه، وأن يعمل سفيرا متجولا فى قطاع الزراعة للأمم المتحدة، وكان هو الآخر من الصحبة التى تناوش القراءة أحيانا، ويعجب دائما لجدية الأستاذ، الذى يعرف الضحك، ويعرف الغضب، ولايعرف الإبتسام، والوجه البشوش، ويفتقد حس النكتة وبهارات الكلام، وشاب سادس من الصحبة أيضا، أكثر قصرا، وأقوى عضلا وبنية، من شقيقه ذى شعر الماعز، يقرأ لماما، ونراه أحيانا، ويعطى كل حياته للمصارعة، وقدر له أن يصير بطلا فى وزنه، فيما بعد، على مستوى الجمهورية، وأن يتزوج من فتاة بنت بلد، طاردته بحبها، وحاصرته بجيرتها، حتى تزوجها، وفى الليلة الأولى، قص لها شعر رأسها بالموسى، وهى نائمة، وتأكد عنندئذ أنه لافرق بينها وبين الرجل، فجاءنا شاكيا فى الصباح من أنه تزوج من رجل، وظل فى عجب لأنها حملت فى تلك الليلة، وشاب سابع

مجنون غراما بالزعيم مصطفى كامل الذى لم يره، ويحلم بإنشاء حزب اسمه حزب البعث، بعد أن يلتحق بكلية الحقوق، ويتخرج منها، فى عهد كان كل طلبة الحقوق فيه يعتقدون أنهم سيصبحون وزراء إثر تخرجهم، وكان حظه أسوأ الحظوظ، فقد صار محاميا تعيس الحظ «كتبت عنه قصة اللوحة».وشاب ثامن وأخير، من الصحبة، التى تكن احتراما بالغا لمن قدر له أن يكون أستاذا لى، يؤثر شراء الكتب على استعارتها غالبا، ويواصل كتابته لقصص رومانسية، تنشرها له مجلة الرسالة، وتمنحه لقبا يسبق اسمه: بقلم القصصى الشاب: «محمد أبو المعاطى أبوالنجا» وتحذف من قطار اسمه بقية هذا الاسم: «السيد أحمد سالم»، وكانت عناوين قصصه، من مثل هذه العناوين: أحلام صغيرة، فوفوا أو فيفى أو فوزية، حلم ليلة الزفاف. وبين هذه الصحبة كان الشاب ذو الشعر المميزى، يحقق نفسه، مثل «أبو المعاطى» على صفحات الرسالة الزياتية بتصويب الأخطاء اللغوية التصريفية، التى يقع فيها كتابنا الأفاضل، عددا بعد عدد، ولم يكن بين هذه الشلة، القارئة، حقا أحد لم يعرف الطريق بعد إلى تحقيق ذاته، سواى، فقد كانت طفولتى لاتزال ممتدة ومرهقة ومضنية.

وحين نغادر المكتبة فى فترة المساء،لم نكن نعرف الطريق إلى بيوتنا، كان حى المختلط هادئا، وذلك الجزء من كورنيش النيل، نادر السابلة، فكنا نجلس على سور الكورنيش، وبعضنا يقف لمواجهة الجالسين، وتدور بيننا مناقشات صاخبة ساخنة حول السياسة، والإقطاع، وأحداث الفلاحين، نادرا ماكانت هذه المناقشات تدور حول: الله، ومحمد، والدين، والثقافة، والكتابة، والكاتبين، وفى تلك المناقشات النادرة كانت عددنا أبدا محدودا، ومحصورا فى المجموعة القارئة من صحبة المكتبة، يقودها المايسترو والأستاذ، على طريقة محاورات أفلاطون، يطرح المشكلة، والأسئلة، ونروح معا نبحث عن جواب، وهو وحده يفند كل أجوبتنا، بل يصل بنا إلى درجة من طرح الاحتمالات فى الأجوبة، نجد معها أنفسنا عاجزين عن معرفة الصواب والحقيقة، كان عقله فلسفيا، على الطريقة اليونانية، وكان يؤكد لنا أنه ليست هناك حقيقة، وأن الحقيقة نسبية، ومتعددة، وليست حقيقة واحدة، وتتبع دائما عشرات المواقف وأشبار الأرض التى يقف عليها الناس.

وذات يوم، وكنت قد انتهيت لتوى، من قراءة كتاب «مذكرات لينين» فى المكتبة، دار الحوار صاخبا حول الماركسية والشيوعية، وبرهن لنا الأستاذ فى ذلك اليوم على أن الماركسية ليست فلسفة، وأنها منهج من مناهج الاقتصاد، لا أكثر ولا أقل، فى مسار الحضارة الغربية، وأن الشيوعية حلم لا سبيل له إلى التحقيق، وإن الماركسية فى النهاية هى رومانسية، تلوى رقبة الواقع، وتتعجل تطوره، وأنها صارت دينا بهذه الرومانسية، وأن العلم يتطور، ويتجاوز المعارف العلمية التى اعتمدت عليها الماركسية فى رؤيتها للتاريخ، والتطور.

وفى يوم آخر التفـفنا حول الأستاذ، ورحنا نهاجم السراى، والملاك، والأحزاب، والفساد السياسى، وأكد لنا الأستاذ أننا مقبلون حقا على ثورة،

والكارثة أن تحدث هذه الثورة على أيدى العسكر، فتجهض الثورة، وتصبح انقلابا فى نظام الحكم، يؤدى إلى حكم شمولى سافر، بدلا من الحكم الشمولى الملكى المقنع، وفوجئنا وألجمنا، بضابط جيش عالى الرتبة فى زى الرتبة العسكرية، يتقدم نحونا، ونكتشف أنه كان منزويا بجانب شجرة وراء سور الكورنيش، وأنه أنصت لكل ماقلناه، ولم يزد على أن قال لنا:

- ماتقولونه خطير، لاتتحدثوا به فى الطريق.

وبدأ لنا أنه سعيد بنا، وهو يمضى مبتعدا عنا.

وخلال هذه الفترة التى دامت من عمرى أربع سنوات، كنت أواصل قراءاتى المؤسسة بتوجيه الأستاذ، الأستاذ؟

صائد الثعابين:

فى سنوات إقامتى بالمنصورة، أزعم أننى، بفضل الأستاذ، قرأت الكثير من مراجع التراث، والعلوم الحديثة، وتعلمت على يديه، ودون قصد دائما كيف أفكر تفكيرا منهجيا، وأنفذ إلى جوهر الأمور، وأدرب عقلى على التذكر، والتركيز، وأغير منهجى، فى التفكير المعرفى، حسب طبيعة كل علم ومجاله.

وفى تلك السنوات العجيبة، بفصولها، تعرفت معرفة عميقة، وحقيقية، إلى الأستاذ فى حياته اليومية، وفى نشاطه العام.

كان آنذاك، فى العام الأول للقائى معه، طالبا بمدرسة الملك الكامل الثانوية، يلبس لها بدلة وحيدة، وكرافتة، ويناوب تغيير قميصيه الوحيدين، ولايفارق رأسه طربوشه، إلى أن يعود إلى بيته الريفى، بأطراف المدينة، فى حى «عزبة عقل»، بيت طينى مكون من غرفتين، وصالة صغيرة بين الغرفتين، وكان يلفت نظرى حذاؤه، اللامع دائما، والمصنوع لكى يعيش عشرة أعوام على الأقل، وعلى قدميه أن تتوقفا عن النمو طولا وعرضا وسمكا، وكان يؤمن بأن للمدرسة احترامها، ولحياته الخاصة، بل نشاطه الذهنى حريته، التى لا يحدها قيد.

دعانى لقضاء يوم نزهة معه، فى أرض معشبة، حول مبنى لخزان مياه عند البحر الصغير، وجلسنا نأكل عيشا ناشفا، وجبنا قريشا، وأعدادا من أعواد الجرجير، ورءوسا من البصل، وكنا نتحدث فيما لا أذكره، وتغير مكاننا على الحشائش، بسبب خرطوم يروى به بستانى الأرض الفسيحة، طلبا لمكان جاف جديد نجلس فيه، ودهشت يومها وأنا أرى لأول مرة، كيف يروى الجناينى الأرض بخرطومه من الخزان العالى، كان يمسك بطرف الخرطوم الجلدى ويجذب منه أنفاسا حتى تتحدر منه المياه، عبر طرفه الأعلى، المدسوس، فى قلب مياه الخزان، ويضع قرب طرف الخرطوم حجرا، ثم يتركه يدفع بمياهه الباردة دون توقف، وفجأة رأيت الأستاذ يقفز فى الهواء، بالقرب منه، ويهبط بقدمين مفتوحتين فوق عنق ثعبان وذيله، ويصيح صيحة الفوز! ها، وينحنى ويمسك بذيل الثعبان، ويرفعه فى الهواء فجأة، وهو يبعد قدميه عنه فى اللحظة

ذاتها، وينفض الثعبان الأملس نفضتين لاغير فى الهواء، ثم يلقى به كشئ مهمل ويروح جسد الثعبان ينتفض دون قدرة على التلولب، ثم يسكن ميتا، وقال لى الأستاذ إنه قد قتله لأنه ثعبان سام، ولعله ذكر لى اسما له، لا أذكره الآن.

منقذ الغرقى:

وعصر يوم جمعة، وكانت المكتبة تغلق أبوابها فى كل يوم جمعة، سئمت لعبة الطاولة، والشطرنج، والدومينو، بمقهى بشارع عباس، فذهبت إلى بيت الأستاذ أسأل عنه، فقالت لى أمه إنه يستحم فى البحر الصغير، كانت أمه فقيرة للغاية، مهضومة الجسد، ساكنة العينين الواسعتين، تثير فى القلب الحب والأسى، خاصة وأنها أم الأستاذ.

وجدت الأستاذ جالسا على الشط، حزينا، ومطرقا، بين أولاد الحى، وثمة أصوات نسوية نائحة، وصارخة، أصوات مفجوعة تبكى ولدا غريقا مسجى على الشط، وكان الكل يتوافد من الحى، لنجدة الأهل المكلومين.

على البحر الصغير كانت قنطرة، لها بوابة حديدية، تتحكم فى المياه المنحدرة من نهر النيل، وكانت تلك البوابة، فى ذلك اليوم نازلة إلى نصف ارتفاعها، والمياه تتدفق من تحتها، صانعة فى البحر الصغير، بالقرب اللصيق بالقنطرة، دوامة ماء تدور حول نفسها، وقد تجوف مركزها فى حركة لولبية، وكان الأولاد يستحمون بالقرب منها، واقترب الولد الذى غرق فى سباحته من الدوامة، فجرته إلى جوفها، ودارت به حول نفسها، ثم ابتلعته إلى القاع دون أن يحدث صوتا واحدا للاستغاثة، ورآه الأستاذ، وذقنه فوق المياه، يختفى، فاندفع يسبح إلى الشاطىء غاضبا كعادته، وصعب إلى جسد القنطرة، وقفز فى جوف الدوامة غائصا بكل جسده، وخرج بعد هنية بعيدا عن الدوامة يجر الولد الغريق من وسطه إلى الشاطىء، وحمله من فخذيه وراح ينفضه مقلوبا، وخرج الماء من جوفه، لكن الولد كان قد مات من قبل فى جوف الدوامة.

وعند غروب يوم، صيفى على ما أذكر، والفيضان عالى فى نهر النيل، خرجنا من المكتبة مسرعين على صيحات قريبة من المكتبة، ورأينا الناس متجمعين عند كوبرى طلخا الحديدى الذى تعبره القطارات، وعرفنا أن سيارة قد سقطت براكبيها فى النهر، وكان سائقها خارج السيارة يرتجف، كان أفنديا شيكا للغاية، ولم يكن يبكى، بدا فقط مذهولا.

وحاول الأستاذ أن ينزع ثوبه الذى على اللحم، ويغطس لإنقاذ الغرقى، لكن الناس أمسكوا به، ومنعوه.

وقال لى الأستاذ:

- هنا، قبل سنوات، غرقت اسمهان، كان صوتها لا يعوض.

الأستاذ:

كان الأستاذ لايزال طالبا بالصف الثالث الثانوى، ولكنه كان يسبق عمره وتعليمه معا، بذكائه وثقافته الموسوعية عامة، والفلسفية خاصة، كان ذا تفكير إغريقى حقيقى، وتلميذا أصيلا لأرسطو، وسقراط، وأفلاطون، واحدا من مدرسة أحمد لطفى السيد الذين لم يروه، ولم يسمع هو بهم يوما، ومع ذلك ظل عجبى شديدا من هذا الأستاذ الصغير، فقد كان واحدا من كتاب مجلة الرسالة الزياتية اللامعين، وهو لايعلم مدى لمعانه فى ذلك الحين.

كان يكتب مقالاته، ويقرئها لى، ولأن خطه لم يكن حسنا، وعلامات ترقيمه لجمل لم تكن دقيقة تماما، فقد كنت أقوم له، بحب، بتلك المهمة، وأنا أجهد لاكتشف له خطأ املائيا أو لغويا واحدا، وكانت كتاباته، كما حاول أن يعلمنى، من تلك الكتابات التى تكثف أفكارها، وتنفذ إلى الجوهر، وفى بساطة ووضوح، دون إسراف فى الاستشهادات والإحالات والاقتسابات، وفى الحقيقة، واضعا أمام عينيه دائما كل الاحتمالات لأوجه القضية، وللأسئلة حولها والأجوبة.

فى تلك السنوات بالمنصورة، كان نشاط الأستاذ الفكرى، يدور متدرجا فى أربعة محاور: محود التصويب لأخطاء الكاتبين، ومحور كتابة المقالات الفلسفية التى يبادر بها لطرح وجهة نظره، مثل مقالاته الثلاث عن «المستقبلية فى العلم والأدب والفن»، ومحور تعليمى، فى سلسلة من المقالات، يكتبها فى كل عام، شهرا بعد شهر، وأسبوعا بعد أسبوع، فى مجلة الرسالة، ليشرح فيها، ويلخص، ويعلق، ويضع الأسئلة وأجوبتها لكتب الفلسفة، المقررة على شعبة أدبى بالثانوية العامة «البكالوريا»، مثل كتابات عن ابن مسكويه، وكان الزيات يبادر بنشرها أولا بأول، ويكتب إليه رسائل يتعجله بها، وأعتقد أن الأستاذ، بسبب هذه المقالات الشهرية، قد قدم خدمة تعليمية قصوى، راجت بها مجلة الرسالة، فى السنوات التى انحسر فيها توزيع الرسالة، وتفرق فيها كتابها، بعد أن صاروا أعلاما، ومؤلفى كتب فكرية أو إسلامية، ثم محور الكتابة الفكرية الفلسفة الإسلامية، وهو محور لم ينشر مقالاته قط، خوفا منها على حياته، ويأسا من إمكانية نشرها، حتى فى ذلك الزمن الذى لم تكن قد حدثت فيها بعد، وبرغم نشاط الإخوان المسلمين، تلك الردة الفكرية، ووصاية الكهنة من رجال الدين، وحماقات التنظيم السرى، ثم الجماعات الإسلامية، وكانت تلك المقالات فى الحقيقة، فصولا فى كتاب، عنوانه: «الإسلام تلاؤم مع الواقع»، وكانت فصولا سبق بها صديقنا: نصر أبو زيد، ومعتمدا فى الوقت نفسه على مرجعيه الأساسين: الإمام السيوطى، والزركشى، ويزيد عليها فى اعتماده على أسباب النزول، وكتابته لفصل خاص بما لم يدون من القرآن الكريم، وأسباب عدم تدوينه، ويتفوق عليه بهذا التركيز الفلسفى، النفاذ إلى الجوهر، دون إغراق فى الاقتباسات، والاستشهادات والإرحالات المرجعية، ولقد قمت بتبييض هذا الكتاب، وكنت سعيدا به قارئا وناسخا، وللأسف لم يكن تصوير «الفوتوكوبيا»

قد ظهر فى العالم بعد، فظل الكتاب نسخة وحيدة عند الأستاذ، إلى أن ودع الدنيا، ولقصة هذا الكتاب بقية.

الطريق إلى مصر:

سبقنى هذا الأستاذ الصغير، إلى القاهرة، ملتحقا بجامعتها، مع أخى الذى يصغرنى بخمسة أعوام فى ذلك الحين، لم تكن الثورة قد قامت قيامتها بعد فى القاهرة والإسكندرية، وكانت الجامعة بمصروفات، ينوء بها على ضآلتها كاهل الفقراء ومتوسطوا الحال، وبينهم أبو الأستاذ الذى كان مجرد عامل تليفونات، فى الخطوط الزراعية الممتدة بين المدينة ومراكزها وقراها، لكن الأستاذ نجح فى الالتحاق بالجامعة، وبالمجان، بل ونال مكافأة شهرية، ظل يحصل عليها طوال سنواته الدراسية الأربع، بقسم الفلسفة، بكلية الآداب، بجامعة القاهرة، وكانت لاتزال لهذا القسم سمعته، وهيبته، وأساتذتة العلماء المستنيرون، وكان الفضل فى هذه الامتيازات التى منحت للأستاذ، مشاركته فى مسابقة فلسفية لا أذكر موضوعها، كان المحكم فى أبحاثها هو الأستاذ الدكتور: زكى نجيب محمود، وفاز الأستاذ بالتقدير الأول والممتاز عن بحثه، ولربما اكتشف الأستاذ الكبير عندئذ أن الأستاذ الصغير آنئذ، وهو كاتب الرسالة المفكر، وأصابته الدهشة والحيرة، حتى أفاق فى لقائهما للمناقشة، وقبله فى جبينه، وعانقه.

وفى تلك السنة، حدث حريق يوليو بالقاهرة، وتسامعنا به فى الدساكر والمدائن، وحدث السلب والنهب للمحال العامة، وصدق الأستاذ لأول وهلة أنها ثورة، فكاد أن يشارك فيها، لولا الروع والفزع الذى نزل بالمدينة التيه.

وكانت ثورة العسكر قد قامت قيامتها، ونحن لانزال فى الصيف بالمنصورة، ننتظر نتيجة امتحاناتنا الأزهرية، وفرحنا بحدوثها فى عروس النيل فرحا لايحده الوصف، قفزت من نافذة بيت صديق إلى الشارع، ورحت أقطع الطريق بقفزات المقص الأكروباتية على يدى، مقصا بعد مقص، إلى أن سقطت لاهثا من الفرح والتعب فى عرض الطريق، ورحت أصرخ صرخات لامعنى لها.

وأفلحت وأبو المعاطى فى اجتياز امتحانات العامة الأزهرية، ووفدنا على القاهرة كقرويين مبهورين بمصر، وكان اسمها عندنا: مصر، فهى كل مصر، ولم نكن قد رأيناها من قبل، والتحق أبو المعاطى طالبا بكلية دار العلوم، ودخلت أنا كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

الكلب:

فى القاهرة كان الأستاذ يسكن فى شقة فى بيت بشارع الهرم، يطل على مزارع شاسعة، يهاجم بعوضها البيوت ليلا، وزرته عصر يوم، وجلسنا بفرندة واسعة نرشف الشاى، وكانت أمامنا على الجانب الآخر، على حافة المزارع، فيلا أنيقة واسعة الشرفة، ورأينا فتاة سيدة جالسة تقرأ فى مجلة، وقد ارتدت

بنطلونا أزرق، وبلوزة بيضاء، عارية الذراعين، وبجانبها كلب أبيض، صغير للغاية، طويل اللسان، وفوجئت بالأستاذ يمصمص بشفتيه للكلب، فى حركة قبلات متوالية، ودهشت إذ رأيت الكلب يستجيب للدعوة، ويقبل نحونا عاديا صاعدا درج فرندة الأستاذ، وسبق الأستاذ الكلب إلى سريره واتمى عليه فاثنى ساقيه للكلب، وفى الحال رأيت الكلب يدخل بين ساقى الأستاذ شارعا لسانه، دهشت وراح الأستاذ يضحك، وكانت الفتاة السيدة تنادى: ماكس، ماكس.... وحمل الأستاذ الكلب إلى الشرفة، وأنزله، فاستجاب لنداء سيدته، وسألت الأستاذ فى دهشة: لماذا فعلت ذلك، فقال لى: الكلب يؤدى مهمة لسيدته التى لايؤديها رجلها، وحملت الفتاة السيدة الكلب، وهى تنتحى عليه معاتبة بما لم نسمعه، ودخلت من باب الشرفة، وجاء زوجها، وجلس غاضبا فى كرسى السيدة الهزاز صامتا، ينظر نحوها بغيظ، وقال لى الأستاذ: لو خيرت هذه المرأة بين الكلب وزوجها، لاختارت الكلب.

ولدان صغيران:

غادر أخى سكناه مع الأستاذ، وسكنت إياه مع أبى المعاطى بدور أرضى فى بيت يطل على حديقة صغيرة بحى الروضة، كان طراز البيت يرجع إلى القرن التاسع عشر، عالى الجدران، طويل النوافذ والأبواب، وكان يطل على شارع الروضة قريبا من الميدان، عند مفرق الطرق، وكان يمر بالطريق ترام يقبل قداما من كوبرى عباس إلى كوبرى الملك الصالح، ويقبل عائداً من هذا إلى ذاك، ولا ينقطع صريره وضجيجه إلا ساعات قليلة قبل السادسة كل صباح، واعتدت مع الوقت أن أنام على صوته، واعتدت أيضا أن أعيش بعيدا عن الأستاذ، فهو مشغول بحياته، وبدراسته بكلية الآداب، وأنا ومن معى لا نقل انشغالا عنه، فى مدينة التيه، طوال أربع سنوات، وبدل كلانا فى مدينة التيه أصدقاء وأحبابا دون قصد، وكنت أتسامع من بعيد بأخبار الأستاذ وحيويته، وجدله، ولمعانه، بآداب القاهرة، ومعه بالكلية نفسها، كان: رجاء النقاش، وعبدالمحسن بدر، وصبحى شفيق، ووحيد النقاش، وقدر لهم أن يكونوا بين ألمع الأساتذة فى مدينة التيه، يعيشون ضياع مدينة التيه، ولايطيقون بعدا عنها، عن خوفها، وقلقها، توترها، ومدينتها وسوقيتها، وغناها وفقرها، مثلنا جميعا، نحن، أبناء القرى والمدن الصغيرة، القادمين إليها من الشمال والجنوب.

حدثنى القصصى الشاب أبو المعاطى أبو النجا أنه ذهب هو والأستاذ لزيارة أحمد حسن الزيات، فى مكتبه بمقر مجلة الرسالة، فاستقبلهما واقفا، وكان فى اجتماع مع صفوة من كتاب مصر ومفكريها، وقدما أنفسهما للزيات، فصعق حين سمع الاسمين، ورأى الشخصين، وانحط جالسا شاعرا بخيبة الأمل، وهو يقول لهما: ظننت أنكما شيخين «مطمطمين»، فضحك على الخفيف على ما رواه أبو المعاطى لى، وقال برضا: زرعنا زرعا وأينع، وغرسنا غرسا وأثمر، ماذا

فى ذلك يا أحمد؟ ولا أذكر بقية الرواية، لكننى أعرف أن الزيات كف عن النشر لهما، هما الولدان، طالبا الجامعة، إلى أن احتجبت الرسالة عن الصدور، ظاهريا لعجزها فى مواجهة الضرائب، وباطنيا لأنها لا تعبر عن إرادة هذا الانقلاب الثورى، فيما حكاه النمامون من أهل الصحافة والثقافة.

دعوة إلى العشاء:

كنا نلتقى كمجموعة من الشباب المبدع الواعد، فى بيت المغترب الأبدى، بشارع التحرير الدقى، وأحيانا نادرة كان معنا الأستاذ، نلخص لبعضنا آخر ما قرأناه، وينصح أحدنا الأخرين، بمشاهدة فيلم هو عنده أفضل ما شاهده مؤخرا، أو بقراءة كتاب جيد صدر حديثا، وربما بقراءة مقال بعينه، أو قصيدة أو قصة، لسين من المبدعين، ونقرأ قصص بعضنا البعض، ونعلق عليها، استهجانا أو استحسانا أو اختلافا فى الرأى، مصحوبا بالشجار والشتائم العالية، ولا أظن أن الأستاذ قد شهد ندوتنا الخاصة فى بيت المغترب الأبدى، التى كنا نعقدها كل خميس، ونحتشد لها طوال أيام الأسبوع، بجنيهات ندخرها، وقنانى نحملها، وكتب نقرؤها، وعمل نكتبه، ولهفة عميقة إلى هذا اللقاء.

وكان بين أفراد مجموعتنا، عمدة أدباء مدينة التيه وقارئها الذواقة، وأقلهم ممارسة للإبداع: إبراهيم منصور، بضحكته العالية، وتهريجه المتواصل الخفيف الظل، وآرائه المفاجئة النفاذة، وثقافته الواسعة، وكان عارفا بالإنجليزية إلى حد طيب، بقدر فقره الواضح، آنذاك فى الصلة بكتب التراث، ولقد كانت آرواءه النقدية، وفى قصصى القليلة آنذاك، أهم عندى وأصدق، من كل آراء الآخرين.

دعانا إبراهيم هذا إلى عشاء بيته بالمعادى، وكان معنا، فيما أذكر، محيى الدين محمد، حامل أكبر قنينة، وعبدالمحسن طه بدر، والمغترب الأبدى غالب هلسا، والأستاذ. وفوجئت ببيت إبراهيم الدائم الاقتراض منا، كان فيلا من طابقين، وله حديقة، وكان مفروشا بالسجاد، ومليئا بكتب أبيه، وعصيه التى قدرت أنه كان يؤدب عليها إبراهيم أخيب بنيه وبناته، فى رأيه على الأقل، واكتشفت أن إبراهيم مسلم وليس بمسيحى، وأن أباه كان مديرا للتربية والتعليم، وجلسنا حينا فى قاعة الاستقبال، وبالشرفة الدائرية حينا، وحين دعانا إبراهيم للعشاء رأينا منضدة بيضاوية بيضاء، تحيط بها مقاعد سفرة بيضاء وقد وضعت فوقها أطباق وسرافيس من الصينى الفاخر، الذى لاعهد لنا به من قبل، وتناثرت قنانينا تتوسطها قنينة محى الدين محمد، ولم يكن الأستاذ قد لحق بنا بعد، وحين حاولنا أن نمد أيدينا إلى الطعام، الفائح الرائحة، الساخن الشواء، رأينا إبراهيم يمنعنا بطرف عصا قائلا لنا: كل واحد يدفع أولا جنيها ونصفا، ثمن هذه الأكلة، ولم نجد مفرا أمام روائح الطعام من الدفع، والاقتراض من بعضنا البعض للدفع، أو التعهد بالدفع تعهدا شفويا لحسن الحظ، وبدأنا نشرب ونأكل، وجاء الأستاذ.

صاح إذا رآنا منتشين بالطعام والشراب: ياأولاد الإيه، سبقتونى.

وملأنا له كوبا، فجرعه دفعة واحدة ليأخذ بحقه مثلنا فيما قال، وانكب على الطعام بشهية، ويخيل لى أن داعينا قد نسى أن يطلب منه جنيها ونصف.

وكنا جالسين لانزال نأكل على مهل، ونشرب على مهل، حين رأينا الأستاذ، يسأل عن الحمام، وبان من وجهه أن قد شعر بالغثيان، فصحبه الداعى إليه وعاد يصرح بنا: الحقوا صاحبكم.. أسرعت إليه، فوجددته قد أتم قيئه، ودهشت حين رأيت الحوض مملوءا بريش اللحم، التى أخرجها الأستاذ من جوفه، والتى ابتلعها دون أن يدرى، ولازلت حائرا فى كيفية بلعه لها دون أن نلحظ ذلك، وكيفية إخراجه إياها من بطنه، عبر قناة الهضم، ولاحظت أن حمام ابراهيم منصور كان لبنى اللون: البانيو، والبلاط، والحوض ذى القاعدة والبيدية، وقاعدة المرحاض، والجدران، مثل حمامات البرجوازية فى أيامنا الراهنة، وبدا لى هذا الحمام آنذاك مستوردا، فلا عهد لمصر آنئذ بمثله، إلا ربما فى البيوت إياها، وأخبرنى من لاأذكر اسمه، بحمام آخر فى الفيلا بمبنى اللون، وآرانى إياه، وأذكر أننى منذ ذلك الحين، قد بت أتردد كثيرا فى إقراض إبراهيم منصور، حين ينزل وسط البلد، طوال خمس وثلاثين سنة.

لصالح الأمن العام:

سبقنا الأستاذ بالتخرج من قسم الفلسفة بآداب القاهرة، وكان تقديره بامتياز مع درجة الشرف، وأيقنا جميعا أنه سيعين معيدا بالقسم، وأنه جدير بهذا الشرف، لكننا فوجئنا بقسمه يعلن أنه ليس بحاجة إلى معيدين فى هذا العام، وكان واضحا ذعر أساتذة القسم من وجود الأستاذ فى «اصطاف» القسم، فهو عندهم، فيما جزمنا منه، شمس تكسف كل الأقمار والنجوم، ولم يكن بوسع أحد أن يلغى قرار القسم، لا زكى نجيب محمود، ولا سواه، فسعى الأستاذ كى يعمل مدرسا بمدارس التربية والتعليم، وعين مدرسا للفلسفة واللغة الإنجليزية بمدرسة شبرا، لكنه سرعان ما قبض عليه لصالح الأمن العام، وأوقف راتبه، وقيل لنا إنه كان متهما بأنه من الإخوان المسلمين، وكانت تهمته مضحكة، ولربما أخذ على الأستاذ أنه قد تبرع بخمسة قروش للإخوان، أو شوهد يجادل شباب الجامعة الشيوعيين ويقارعهم الحجة بالحجة، مثلما يجادل سواهم، من الإخوان، متشحا برداء سقراط، فى حرم الجامعة، أو خارجها، وكان واحدا من المشائين.

الأول دائما:

وحين انتهت سنوات اعتقال الأستاذ، ودون محاكمة، ووجد الأستاذ نفسه فى مدينة التيه بلا عمل، ولم تمض شهور حتى استعان به عثمان نجاتى، للعمل معه فى إعداد وجمع وتحليل استبيان، عمم على عينات من الطلاب والأساتذة بمدارس وزارة التربية، ولصالح الجامعة الأمريكية، وظل الأستاذ فى هذا العمل،

قرابة عامين على ماأذكر، دون أن يقدر الآن العام، على منعه من هذا العمل، وربما لعدم علمه به، وحين انتهى العمل بمشروع هذا الاستبيان، وجد الأستاذ نفسه مرة أخرى، ضائعا بمدينة التيه، وراح يبحث عن عمل.

وأعلن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، عن حاجته إلى باحثين، وتقدم الأستاذ ليكون باحثا بين الباحثين، ودرس، خلال شهر واحد، كل المواد التى سيختبر بها، واجتاز اختبار المواد وكان ترتيبه الأول، فعينه المركز باحثا، وتسلم مرتبه عن شهر واحد عمله، ثم فوجىء بفصله مرة أخرى لصالح الأمن العام، ووجد الأستاذ نفسه مرة أخرى بالطريق فى مدينة التيه، فى ظل الثورة المباركة، زمنا لا أذكر تقديره حتى الآن.

وأعلنت الجامعة العربية عن حاجتها للمحقين ثقافيين يعملون بإحدى منظماتها، وتقدم الأستاذ لهذه الوظيفة، واستعد لها بقراءة مراجع بعينها، ودخل اختباراتها التحريرية، ولقاءاتها الشفوية، ومع أبناء سفراء، ووزراء، من العالم العربى، وفاز بالشرف الأول أيضا فى الاختيار، وتسلم عمله بالفعل، بمقر الجامعة، واشترى لنفسه بدلة أنيقة، جديرة بالمنصب، والراتب، وتسلم بالفعل راتبه عن شهر، لكنه فوجىء بقرار فصله، ومرة أخرى لصالح الأمن العام.

وعاد الأستاذ عاطلا بلا عمل، فى مدينة التيه، متعففا، لا يقترض من أحد، ولا يطلب عون أحد، ولا نعرف من أين كان ينفق، ولا كيف كان يحيا، يعيش فى شقة متواضعة فقيرة الأثاث إلا من الكتب، بشقة بائسة، بأحد دروب شبرا.

محرر مكتب:

ضجحنا من الثورة وأفاعيلها، والأمن العام وأحابيله، وكان عبدالمحسن طه بدر قد رضى الله عنه، وحصل على الماجستير والدكتوراه، وهو مدرس بمدرسة فى مدينة من مدن القناة، والتحق مدرسا بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، واهتز عبدالمحسن لمحنة الأستاذ، فسعى إلى زميل له بالجامعة، كان شقيقا لضابط كبير المقام بالقوات المسلحة، بل أكبر ضباطها آنذاك على الإطلاق، ونجح هذا الزميل فى إعادة الأستاذ إلى عمله الأول، كمدرس بمدرسة محمد فريد الثانوية بشبرا، ولم يلاحقه الأمن العام فى هذه المرة، وتركه فى عمله بصورة مستمرة، ولضعف الراتب، عن ملاحقة موجة الغلاء المتصاعد، قبل الأستاذ أن يعمل محرر مكتب بمجلة الكاتب، ذات الفكر السياسى، مع أحمد عباس صالح، وجلال السيد، وسعد عبدالوهاب، وكانت هذه المجلة مشمولة برعاية كمال رفعت، أحد ضباط الصف الثانى، بالثورة المباركة.

وفى هذه المجلة، دخل الأستاذ، ومعه جلال السيد، فى معركة جدلية خاصة، مع وزارة الثقافة، ووزيرها، وكتبا مقالات ساخنة، ومقنعة، حول سياسة هذه الوزارة، ووزيرها، من تلك المقالات التى تصبح تاريخا ووثيقة، وينتهى دورها بانتهاء زمنها، وهو دور لم يكن له مفر، كمحرر مكتب، من القيام به، مساهمة

فى النشاط الثقافى العام، المتغير الألوان، والدوافع والأساليب، حسب رغبات النظام، فى إثارة الرأى والرأى الآخر، وأحسب أن الأستاذ بثقافته الموسوعية عامة، والتراثية خاصة، كان وراء كتاب «اليسار فى الإسلام» لعباس صالح.

لقاءات فى مدينة التيه:

زرت الأستاذ بمكتبه بمقر مجلة الكاتب بشارع حسين حجازى، القريب جدا من مصلحة الضرائب، ومجلس الشعب، ومجلس الوزراء، كان الوقت ظهرا، ودعانى الأستاذ للغداء معه، وكان غداء متواضعا: جبن، وخبز جاف منفوخ، وأعواد من الجرجير، ثم دعانى إلى شراب معه، فذهبنا إلى مقهى ريش، وجلسنا بالداخل، وطلب الأستاذ زجاجة واحدة من الجعة، واقتسمناها فى كوبين، وحين أتينا على الكوبين، كان الأستاذ قد انتشى، فلم تكن له قدرة على التحمل، وصاح بى فى رضا: تمام، فصحت على أثره، وقد أدركت أن دعوته قد انتهت: ياملك.. هات لنا زجاجتين.

ودعانى الأستاذ مرة أخرى على غداء ببيته، فى أقصى مدينة نصر، وتعبت حتى وصلت إلى بيته، وكان قد تزوج، ولم يكن قد أنجب بعد، من فتاة خريجة كلية التجارة فيما أذكر، كان طعام الغداء على تواضعه طيبا: أرز، خضار، ومرق، ولحم... وانفردنا بغرفة مكتبه، ووقع يدى على كتابه: الإسلام تلاؤم مع الواقع، ودعوته إلى نشره، فقال لى بذعر: أجننت، سأشنق، وأحرق بميدان التحرير، وحتى الآن لا أرى بهذا الكتاب ما يستحق المراقبة، أو المنع، فضلا عن الشنق أو الحرق، فقد كان كتابا مبكرا من كتب التنوير النفاذة، لا أكثر ولا أقل.

وقرب الغروب، وقد حان موعد انصرافى من بيت الأستاذ، شاهدت الأستاذ وقد قرر نزول وسط البلد معى، يتوسل إلى زوجته، مقبلا، ومراضيا، وصابرا، لكى تعطيه مصروفه، فأعطته خمس سجائر، وعشرة قروش، وشعرت بحزن شديد من أجل الأستاذ، وقررت فى ذلك اليوم أن أحتفى به على طريقتى لكى أسعده، وبدأت برد أربعة جنيهات كانت له عندى منذ سنين مضت.

لاتقل ذلك لأحد:

كنت أعمل آنذاك مدرسا بدار المعلمين بالدقى، وكانت مكتبتها، كعادتى، هى مجلسى فى فترات الفراغ بالمدرسة، وكانت هذه المكتبة لاتزال عامرة على تواضعها بالكتب التى زودت بها قبل الثورة، والكتب التى أرسلت إليها من قسم المكتبات بوزارة التربية قبل الثورة، وكانت فى العادة أقل عددا من الكتب التى كانت ترسل إلى مكتبات المدارس، من هذا القسم، قبل الثورة، ولكنها كانت، على أى حال، أفضل حالا من كف هذا القسم كلية عن إرسال الكتب إلى مكتبات المدارس، وفى وقت كان يصدر فيه بمصر كتاب فى كل ست دقائق.

فى هذه المكتبة، وقعت عينى على كتاب ضخم، بدولاب الدوريات، عن فن

المكتبات، وعلى غلافه كان اسم مؤلفيه أحدهما مفتش عام بقسم المكتبات بوزارة التربية، والآخر هو اسم الأستاذ مع الاستغناء عن لقبه بهذا الاسم، أدركت أنه هو، وتذكرت أن هذا المفتش قد أعجب به، فسحبه للعمل معه بديوان الوزارة، وأن الأستاذ هو المؤلف الحقيقى للكتاب، فهو خبير أيضا بالتصنيف العشرى لجون ديوى، الذى تسير مكتبات الوزارةعلى بنظامه المكتبى، وحين التقيت بالأستاذ حدثته عن اكتشافى لكتابه، فهمس لى محذرا: لا تقل ذلك لأحد، فليس هذا الكتاب جديرا بى، ولم يكن قد نشر له أى كتاب آخر.

الرحيل غربا:

فوجئت مثل سواى، من أهل الثقافة والأدب فى مصر، بهجرة الأستاذ مع زوجته للعمل بليبيا، ولأن هناك ثورة أخرى، فقد أيقنت أن ضرورات العيش، وإنجابه لأولاده، هى التى دفعته إلى العمل بليبيا، فى نظام شمولى آخر، وعلى أرض غير أرض وطنه وأهله وناسه، وأيقنت أنه هناك، وحتى لايلاحق، أو يطرد، أو يحبس سيحدث تعديلا فى اسمه ويستخفى قدر استطاعته عن الوسط الصحفى، والثقافى بطرابلس، وسواها من مدائن ليبيا، وما أدهشنى، طوال السنين التالية، هو أنه كان يأتى إلى القاهرة ويلازم بيته ولا يغادره إلا لزيارات بعينها، إحداها، فيما أعلم، كانت لبيت عبدالمحسن طه بدر، كلما نزل إلى القاهرة، وأدهشنى أيضا أن أحدا بليبيا من المثقفين، الذين يقدمون إلى القاهرة، لا يعرف عنه شيئا، ولم يسمع به فى ليبيا، وأدهشنى أن سنوات إعارته قد انتهت، ولكنه قطع عمله بمصر، وفصل منه، وظل يعمل بليبيا، وكنت أتمزق، فى داخلى، حيرة، وقلقا، وحزنا، من أجل الأستاذ، وبدأت أفكر أن على أن أقتنع بأنه كف عن أنه يكون أستاذا، منذ وئد حلمه بالعمل بالجامعة، بين أحفاد أرسطو، وسقراط، وأفلاطون، وأفلوطين، وابن سينا، والكندى، والفارابى، وابن رشد.

أنت حمار سياسة:

دعيت مع أصدقاء لامعين مع أخى، للعشاء، عند أبى المعاطى فى بيته بالمعادى، وكان أبو المعاطى حريصا على هذه الدعوة، كلما عاد إلى القاهرة فى إجازة الصيف قادما من الكويت، حيث كان يعمل طوال الأعوام الأخيرة بمجلة العربى.

وجاء الأستاذ، واحتفينا به، لكننى لاحظت أنه قد صارت بينه وبين الجميع فجوة ما، عدا عبدالمحسن، وجرنا المجلس إلى الحديث عن ليبيا، وأذكر أننى قد قلت رأيا خاصا فى عقيد ثورة ليبيا، ودهشت إذ ثار الأستاذ قائلا لى أنت حمار سياسة، ضحكت، ولم أغضب، فربما كان بداخله، على، عتاب ما، وقلت له وسط الوجوه: مقبولة يا أستاذ، واتفقت معه، وقد أحس بالحرج الذى ران على

المجلس، وعلى لقاء معى غدا، بمكان ما، فى ساعة ما، كى نتم حوارنا الخاص، ويسمع منى، وأسمع منه، ولم يأت الأستاذ، ولم يحدث أن التقيت به طيلة سنوات عدة، إلى أن جاءنى خبر وفاته بليبيا، وبعد عام من وفاته، ولم يكن أحد يعلم عنها شيئا طوال ذلك العام.

والمثوى بليبيا:

رحل الأستاذ، مودعا الدنيا، فى ليبيا، غريبا، وفى صمت، وبمرض لم يتح لنا أن نعلمه، وربما بدون مرض، رحل لأنه «طق»، وانتهى الأمر معه، لكن الخبر بدا لى شائعة لا تصدق، مع أن الموت حق ومحتوم، على كل حى، والفناء مكتوب على كل موجود، حيا أو غير حى، فغامرت بكتابة كلمة نشرها لى جمال الغيطانى، بصفحة الأدب، عن شائعة هذه الوفاة.

فى اليوم التالى لنشر الخبر، فوجئت بأخت شقيقة للأستاذ، أعرفها منذ صغرها، تتصل بى باكية، وقد حصلت على رقم تليفونى من الأخبار، وأكدت لى الخبر، وذكرت لى أن نشرى لخبر وفاته، قد وصل الآن إلى أبيه ولابد، وأنه يقيم لايزال بعزية عقل بالمنصورة، وأنها ستضطر هى وزوجها إلى السفر إلى المنصورة لمواساة الأب، وأنها وزوجها وزوجة الأستاذ وأبناؤه قد تكتموا الخبر عن أبيه، لأنه كان ابنه الوحيد، وأنها ستعاود الاتصال بى، عندما تعود من المنصورة، وقدرت أنها كانت ترسل إلى أبيه هى وزوجها نقودا شهرية زاعمين أنها من الأستاذ الحى، المشغول بعمله عن الكتابة إليه.

وحدثتنى حين عادت، أن رئيسة الأستاذ فى عمله قد اتصلت بزوجته فى القاهرة، وأخبرتها بوفاة الأستاذ، وسألتها عما إذا كانت تريد إرسال جثمانه إلى مصر ليدفن بها، فطلبت منها دفنه بليبيا، وأخبرتها أنها قادمة إلى ليبيا لتسوية الأمور، وذكرت لى أخت الأستاذ أمورا أخرى، كان أخطرها أن الأستاذ ظل بعيدا عن أسرته بالقاهرة سنوات عديدة، تاركا بها زوجته وأولاده.

تراث الأستاذ:

طوال أسابيع، واصل صديقى العزيز جلال السيد الاتصال بزوجة الأستاذ، لنحصل منها على أوراق الأستاذ، وكتبه، التى لم تنشر بعد، والتى نشرت فى مجالات، لإصدارها مكتملة فى مجلد واحد أو أكثر، وعد بنشره صديقنا سمير سرحان بهيئة الكتاب، وكان له صديقا، لكن المحاولة فشلت، وكان الحجة، ليست هى أن هذه الأوراق، والكتب غير موجودة تحت يدها، وإنما كانت الحجة هى أن هذه الأوراق والكتب، بها ما لا ترضى هى عنه، وأنها لكى تنشرها يجب عليها أن تراجعها، وتراقبها، ففيها ما لا ترضى هى عنه، وهو الذى كان إليه المرجع حتى من أساتذة كبار، وباحثين أفاضل، بالجامعة، وخارج الجامعة، فى مصادر ومراجع دراساتهم، حتى حين كان مشردا بلا عمل، فى مدينة التيه.

كائن وحيد وفريد

فى باريس، فى اليوم الأخير من شهر أكتوبر، ودع الدنيا والأهل والأصدقاء، والأديب الشاب الصديق «وحيد النقاش»، مات فى عامه الرابع والثلاثين، اغتاله داء كامن فى الجسد، طالما قضى ويقضى على الآلاف من أبناء مصر، فكانت مأساته مع الحياة، فى سنواته الأخيرة، مأساة الملايين من أبناء القرية المصرية، الذين يقعون فريسة هذا المرض المتوطن اللعين: البلهارسيا، يحملونها معهم أينما رحلوا، أو أقاموا، تهددهم بالعمر القصير، والحياة المعذبة، تفجعهم، وتفجع قلب مصر عليهم، ولما يحققوا بعد وجودهم، ولما يرتووا من الدنيا، تسلبهم الوجود والحلم معا.

فى باريس، مات «وحيد النقاش»، وهو يوشك أن يقدم رسالته، لنيل درجة الدكتوراه من جامعة السوربون، عن المسرح المصرى، مات وهو فى عامه الرابع بباريس، يغنم لنفسه ولنا، خبرة حياة، وروح عصر، وثقافة جيل، لم ينقطع خلال هذه الأعوام عن المعاناة، والكدح من أجل العيش، وعن الدراسة من أجل الغد، وعن الكتابة من أجل الوطن، خارج مجال دراسته فى صحف باريس، ومجلاتها، وإذاعتها، وفى صحف وطنه العربى ومجلاته، لقد حمل وحيد وطنه معه، وبه عاش، وله كتب، حمله نفسا، كما حمله جسدا، وجاء وداعه المفاجئ لنا، فى إحدى مستشفيات باريس، صرخة أسى، صيحة قلب محاصر بالأدواء المقدورة، معبرا عن مأساة إنسان مصر، ومأساة جيل من المثقفين والكتاب، فى كنانة الله فى أرضه!!.

فى قرية من قرى مصر، ولد «وحيد النقاش»، أسرته كلها فريدة ومتوحدة، تحمل ميسم النبوغ المصرى الأصيل، الذى قلما يجتمع بين سائر الإخوة والأخوات، فى أسرة مصرية واحدة، وكانت أعصابه أكثرها ارهافا، وحساسيته أكثرها رقة، وشافية، وسرعة استجابة، موهوبا كان وحيد، وموهبته كانت، قبل فنه، فى غنى قلبه، وخصوبة روحه، حيال الحياة، والأحداث، والناس: الأهل والزملاء، والأصدقاء، من هذه الموهبة كان أدبه، وكانت كتابته، كان القلم، والورق، والمداد، كانت قصصه المؤلفة، وتعليقاته النقدية المركزة، والساحرة، فى المسرح، فى القصة، فى شئون الحياة الأدبية الأخرى، فى وطنه العربى الأم:

مصر، وفى وطنه الثقافى الحلم: باريس، وكانت اختياراته المترجمة من روائع المسرح العالمى، وكان سلوكه وحركته فى الحياة، وبين الناس: أهلا، وزملاء، وأصدقاء، وكانت سرعة ألفة الناس له، قابليتهم معه، أكثر من سواه، أن يكونوا له أصدقاء، أن يتركهم، بعد لقاءات قليلة، بما لايتجاوز لقاءين، وقد صاروا له أصدقاء، حتى لو لم تتصل بينه وبينهم علاقات الناس، ولقاءات الأيام، لقد كان وحيد طاقة الحياة، وينبوعا دافقا بالحب الدافىء، والبراءة المفتوحة القلب، للحياة، وللناس، والفضول الذكى الحساس، للمعرفة والاكتشاف.

وبقدر غنى قلبه، وخصوبة روحه، ورهافة إحساسه ومشاعره، وشفافية نفسه وحدة ذكائه، وتواضع خلقه، ويقظة أعصابه، كانت رقة جسده ورهافته، أمام أمراض العصر المستوطنة، التى تصيب منا النفس، أمام أمراض مصر العريقة، التى تحاصر منا الجسد، فسقط وحيد صريع الداء، الذى سقطت به، من قبل، أمه هو، والذى تتساقط فيه معنا، فى كل يوم، أمنا مصر، أهلنا فى مصر، نحن فى مصر، فى النصف الثانى من القرن العشرين!!.

من القسم الفرنسى، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، تخرج «وحيد»، ومارس من أجل العيش، الصحافة إلى جانب الأدب. عمل بمركز الفنون الشعبية فى القاهرة، ثم محررا بصحيفة الأهرام، فى قسمه الأدبى، ثم دارسا للحياة، وللفكر، فى باريس، عشر سنوات أو تزيد، عاشها وحيد بالعرض بعد سنواته بالجامعة، ولم يستطع أن يعيشها بالطول، أن يعيشها هى نفسها، بهذا الطول المفروض أن يكون لكل حى، فقد قضى أكثر هذه السنوات، يناوشه المرض، ويحاول هو الصمود فى وجهه، والمقاومة له، هاربا إلى روحه، وحلمه، إلى عالم التحقق الندى الرطب، قضاها هذه السنوات، وحيدا كأسمه كاسمه تماما، مع المرض الكامن، المناوش، المراوغ، فرارا من نهاية تأتى، قبل أن يتحقق الحلم، قبل أن يمنح وجوده تبريره العظيم، الباقى من بعده، الذى عاش له، وربما عاش به، هذه السنوات الأخيرة القليلة، من عمره.

هكذا كان يفكر وحيد، أو هكذا أراه الآن، لشدة شعوره بذلك، وإحساسه به، ومعانقته له، ببعد الحلم، بأن عمله الكبير لم ينجز بعد، بل لم يبلغ أعتابه البعيدة المنال، صار الكل من حوله يحس بإحساسه، يفكر بما يفكر به، يتقبله على أنه الواقع والحقيقة، وغفلوا كما غفل هو، عن قيمة ما يعمله، عن الشوط الذى قطعه إنتاجا، وثقافة، فى مصر، ثم فى باريس، على صفحات المجلات والصحف، بوطنه الأم المقدور، ثم بوطنه الحلم والرؤية، صار الكل كما صار هو، بل كما أراد هو، لشدة طموحه، وغنى روحه، وسمو وعوده المقبلة، صار الكل، كما صار هو.. ينتظر... ينتظر... ما الذى كان ينتظره هو؟ وما الذى كنا ننتظره نحن، وعمله أمام عينه، وبين أيدينا؟!

لثقته بنفسه، فى الغد لا فى الحاضر، وربما لتواثب روحه المحدثة أبدا فى الغد.. لثقتنا به، ويقيننا من موهبته ومقدرته على العطاء التى لا تحد، أهمل هو

نفسه، فوقع فريسة الرضا، ووقعنا معه فريسة الإهمال، إهمال أن نناقش عمله، أن نراه، وأن نجلس إليه، وأن نتحدث معه، ومن العجيب أنه ظل قانعا لايحتج، يعانى من جسده، ومن نفسه، ومن الصمت الغامر من حوله، صمت له رنين وطنين، ولا يشكو، يتألم ولا ينطق، يتأمل ولا يئن يقنع ولا يرضى، يظل وحيدا، يعمل وحيدا، يعيش وحيدا، يظل ينتج فى صمت، ذلك الإنتاج... فى صمت يسعى إلى حلمه وئيدا، وسط كل المثبطات، بصبر غير بشرى، صبر النحال والنمال، يجهد وسط سعيه للتحقق، لتحقيق الوعود المرتجاة منه، لنفسه، وللآخرين، ليعيش حبه للحياة، ومعانقته لها، ناسا، ووطنه، حبه للمرأة رمز الحياة، حبة للأبناء رمز امتدادها وامتداده، ليعيش حلمه الوسيلة: باريس، وحلمه القيمة: الإنتاج الأدبى الكبير، ليعيش بالعمل موظفا وصحفيا، ليكتب فى الوقت نفسه ما يريده، وحده، قانعا بما يمنحه له العمل، والعمل وحده، بالقليل الذى يمنحه له عمله، كموظف وصحفى، وكاتب أديب، فأبدا لم يستدرج وحيد إلى أن يكتب غير مايريده، لم تستدرجه إلى ذلك صحيفة، أو إذاعة أو تليفزيون، كما استدرجت الكثيرين من أبناء جيله، وفريقه، حتى من أجل توفير لقمة العيش الهنية، حتى من أجل تحقيق رفاهية صغيرة، عابرة، لبيته، وولده، حتى بأهون صور الاستدراج، حين يكتب مايريده، بمستوى لايرضاه هو لنفسه، ولا نرضاه نحن لأحد.

قسا وحيد على نفسه، ليعيش قيمته الوحيدة، وقسا على من معه، من أجل هذه القيمة: الشىء الشريف، العمل الشريف، الإنتاج الشّريف، الحياة غير الملوثة،التى لا تسبب قيئا لأهلها، وغثيانا لقارئيها وسامعيها، وشعورا بالتهريج، فى وقت الجد، وإضاعة وقت للجميع، وفرصة الحياة ضيقة، وسنوات العمر قليلة، بالغة القلة، بخاصة حياته هو، بل كان يبذل من نفسه، من ذات نفسه، ومن القليل الذى يملك، لأصدقائه، لم يكفه أن يكون عفيفا، أن يعيش بنبل، عفيفا مترفعا!! وعاش ذلك الوحيد المتوحد، المستوحش أبدا للدفء والأمن، الذى يعيش من رفعة الروح، بعذوبة، وفى حزن داخلى محض، فى خوف من العالم، تقلقه طقوس الحياة اليومية والعائلية الواسعة، ينطوى على نفسه، يلملم علاقاته فى دائرة من الأصدقاء، ممن يحب، يحج إليهم زائرا، كلما اشتاق إلى أنيس، دائرة محدودة العدد، غنية القيمة.

برغم صغر سنه، انتمى وحيد النقاش ككاتب، إلى كتاب الخمسينيات، وهو دون العشرين من عمره، فى النصف الثانى من خمسينيات هذا القرن، وإلى فريق منهم على وجه التحديد، فريق لم يكن أبدا شلة، ولاتجمعا، ولاحلفا غير مقدس، وربما لم تجمعه وحدة نظر وإنما جمعته وحدة الخلق تقريبا، ووحدة الأمزجة والصداقات، ووحدة الجدية إلى حد لابأس به، حد غالب بينهم، برغم سقوط الكثيرين من هذا الفريق، فريسة الاستدراج، وفريق آثر العمل، حسب طاقته وقدرته وموهبته، بل أحيانا أكثر من هذه الطاقة والقدرة، لإنقاذ ما يمكن

إنقاذه، من إنتاجهم الأدبى المتوقع، ومن أنفسهم، وتعرض وحيد، كما تعرضوا غالبا، لذلك الإهمال، الذى كان يمكن وحده، أن يكون مثبطا رهيبا وقاتلا، ولكنهم ظلوا يعملون، ويتساقطون، وسط الظروف الاجتماعية التى يتساقط فيها الكثيرون من أبناء شعبنا، يتساقطون فريسة للمرض، مثل وحيد، فريسة للكرامة الإنسانية، مثل أنور المعداوى، فريسة للعزوف عن الحياة: القيمة والتحقق، مثل محيى الدين محمد، وعسى ألا يكون وداعنا لوحيد هذه الأيام، مثل وداعنا لأنور المعداوى، نذيرا آخر بانفراط العقد، شارة الخطر، للموت فى الحياة، بعد الغنى فى النفس، والصمت فى المجتمع والانتظار الممل المميت لما تقبل به الأيام من مر وعلقم.

خلال ستة عشر عاما تقريبا، أنجز وحيد أعمالا طيبة فى حياتنا، لم يقدر لها أن تحقق الفاعلية المطلوبة فى حياتنا الثقافية والاجتماعية، وأن تقع بها وبه فى دائرة الضوء، كما هو الحال مع معظم أفراد الفريق الذى ينتمى إليه، بل الجيل الذى ينتسب إليه، لأكثر من سبب، أخطرها أن هذا الفريق، بل هذا الجيل من الكتاب، أبناء الثلاثينيات والأربعينيات، قد وقع فى دائرة الظل القمرى، ظل ثلاثة أجيال أدبية سابقة عليه: جيل طه حسين، وجيل نجيب محفوظ، وجيل يوسف إدريس، وقع، فى هذا الظل، من الناحية الاجتماعية، وليس من الناحية الأدبية، ليس ذلك مهما الآن، المهم هو: ماذا فعل وحيد النقاش، لنفسه، ولنا؟!.

فى أواسط الخمسينيات: بدأ وحيد كتابته المنشورة، بتعليق نقدى، بالغ العمق، والصدق، والشفافية، عن مجموعة قصصية مترجمة، صدرت عام ١٩٥٤، بعنوان «عشر قصص عالمية»، ترجمها الدكتور «سهيل إدريس»، ونشر التعليق فى مجلة الآداب البيروتية، وبعده توالت تعليقات قليلة متناثرة، عن كتب أخرى، فى السنوات التالية، فلم يكن وحيد يكتب للمجاملة، أو الرغبةفى إثبات الوجود، فى أن يقول للكل: «إننى هنا»، أو لكسب قروش معدودة، مجرد الكسب، أو حتى لتغطية عمل لا يقبل تغطيته، كان فقط، ودائما، يكتب مايعتقده، يكتب عما يستثير فيه إعجابا ما، ويرضيه، ويبرر تقديمه للناس، عندئذ كان يفعل ذلك بسعادة بالغة، بل يحمله معه أينما ذهب، ويقول للأصدقاء فى مقاهيهم، فى بيوتهم: هل قرأتم كذا لفلان؟ هذا الكتاب؟ تلك القصة؟ هذا المقال؟ يستوى فى ذلك أن يكون هذا الفلان عربيا أو أجنبيا، مازلنا نذكر له سهرته معنا، ونحن طلاب بالجامعة، حتى ساعة متأخرة من الليل، وهو يقرأ لنا قصيدة «رحلة فى الليل» للشاعر صلاح عبدالصبور، ويعيد قراءتها المرة بعد المرة، مؤكدا أنه أفضل شاعر، وأنها أجمل قصيدة، متغنيا من القلب بالقصيدة، وبإعجابه به، العكس تماما كان موقفه حيال إنتاجه هو، نادرا مايشير إليه، وإذا حدثناه عنه، اضطرب اضطرابا حقيقيا، فى خجل وتواضع، معبرا بكلمات كالتمتمة، عن أنه غير راض عما يفعل، عن أنه لم يفعل بعد ما يود.

فى السنوات الأخيرة من الخمسينيات، وأوائل الستينيات، كتب وحيد النقاش عددا من القصص القصيرة، ظهرت فيها مبكرا لغته الشعرية الرهيفة، ولمساته الذكية، واختياراته العميقة الدلالة، للتفاصيل الصغيرة، وحساسية الوجدان المرهفة، أذكر من بينها: «على المنحدر» و«الموجة الأولى» و«الضوء عند حافة الأفق»، وبينها كانت قصص قصيرة وصغيرة، كتبها بخطه الفريد، الدقيق، الصغير المنمنم، الأنيق، المركز كروحه وكفاياته، على صفحة صغيرة بحجم كف اليد، لم تنشر قط هذه الأقاصيص، ولعلها أن تكون الآن بين أوراق المخطوطة التى لم تنشر بعد، شيئان مازلت أذكرهما لهذه القصص: الحزن الأسيان الذى تشف منه فى رقة بالغة ونداوة مشعة، أسلوبه الخاص جدا، الذى يستمد رقة من روحه، ونعومة من ثقافته الفرنسية، المشع أبدا بهذه الخصوبة، بذلك الصفاء، بتلك العذوبة والأناقة، المتحرر أبدا من القوالب المأنوسة، والأكليشهات المأثورة.

فى السنوات التالية، كف وحيد، فيما أعلم، عن كتابة القصص، وعسى أن يخيب ظنى وعلمى، توالت تعليقات وحيد النقاش، ومقالاته النقدية، بصحف القاهرة ومجلاتها، ومجلة الآداب البيروتية على وجه الخصوص، عن الحياة الأدبية فى القاهرة، وإنتاجها، عن الحياة الأدبية فى باريس، وثمراتها فى مقالات مفردة حينا، أو فى أبواب ثابتة حينا آخر، بعضها من تأليفه، وبعضها الآخر من ترجمته، وترجمها لأنها تعبر عن رأيه، أو تطرح وجهة نظر جديدة، وليس لمجرد العمل، والترجمة.

وبين إنتاج هذه السنوات، صدرت له أكثر من مسرحية مترجمة، اختارها بنفس العناية، بنفس الطريقة، لأنها أرضته، وحملت تبرير ترجمتها إلى العربية: «نساء طروادة» لسارتر، «يرما» للوركا، ونشرتهما له دار الآداب، و«عندما تعمى البصيرة» أو «مالا تستا» لهنرى دى مونترلان، التى نشرتها له هيئة التأليف والنشر فى سلسلتها المسرحية، ثم.... روايته المترجمة «صمت البحر» لفيركور، التى نشرتها له روايات الهلال، والكتاب الهام «ثورة ماو الثقافية» لمورافيا، والذى قام وحيد بترجمته وهو فى باريس، ونشرته له دار الآداب فى كتاب.

بين أعمال وحيد التى لم تنشر بعد فى كتاب، مسرحيتان قصيرتان، هما: «أيها الرجل... لكم أنت جميل» لجان جيرودو، و«وردة لكل عام» لتنيسى وليامز، ونشرت كلتاهما فى عدد من مجلة المسرح عام ١٩٦٦، وبين ما لم ينشر أيضا فى كتاب من إنتاجه المترجم، عدد من الأقصاصيص اليابانية، لكاتب كبير من اليابان، فاز بجائزة نوبل، ونشرت هذه القصص بصحيفة الأهرام، وقصة «الغرفة» لسارتر بمجلة «الشهر» على عددين، وقصة «الثوب» التى نشرت بالآداب عام ١٩٥٨.

لقد صدرت لوحيد ثمانية كتب، من المحزن أنها كلها، بين رواية ومسرحية ودراسة من المترجمات، هى على أهميتها، قيمة وفنية، واختيارا رفيعا للترجمة،

وتوفيقا فى نقلها إلى اللغة العربية، لاتعبر عن الموهبة الحقيقية لوحيد، ذلك الإنسان المبدع الخلاق أنها تعبر فقط عن مدى ثقافته، وحسن ذوقه، ومواكبته لثقافة العالم المعاصر، ورغبته الغيرية الحارقة، فى أن يفتننا بما فتنه، يسحرنا بما سحره، يفيدنا بما أفاده.

ومازال قابعة هناك، على أوراق الصحف والمجلات، وربما بين أوراقه المخطوطة أيضا: قصصه القصيرة، ومقالاته وتعليقاته النقدية، عن المسرح والمسرحيات، والقصة والقصاصين، والظواهر السلبية والإيجابية فى حياتنا الأدبية، ورسائله الثقافية التى كان يبعث بها من باريس، إلى الأهرام فى القاهرة، والآداب فى بيروت، ومن منا ينسى مقالاته الممتعة، والمذهلة بصدقها وعمق تحليلها، وتركيزها المكثف المدهش، ولغته الشعرية، عن «ثورة الشباب فى باريس» و«الحائط الذى فى أورشليم» «والقلاع التى تنهض فى باريس»، ثم مقاله المبكر، ولعله الأول، عن كتاب «عشر قصص عالمية» عام ١٩٥٤... ليتها تصدر جميعا فى كتب، يجمع بين كل منها وحدة الموضوع، قبل أن تجرفها الرمال المتحركة، التى نسير فوقها، فى النصف الثانى، من القرن العشرين.

بين قصص كتاب «عشر قصص عالمية»، كانت هناك أقصوصة قصيرة، مدهشة، وبالغة الامتياز، قصة «لكى يموت وحيدا»، وهى لكاتب فرنسى، حملها وحيد، فى العدد الذى نشرت به من الآداب، فى أوائل الخمسينيات، وقبل أن تنشر فى كتاب، وراح يقرؤها، ويقرئها، للأصدقاء، والمعارف، فى البيوت، والمقاهى، كانت القصة تحكى عن مجموعة من الناس سقطت بهم طائرة فى الصحراء، وآثروا البقاء والانتظار بجوار الطائرة، فى ظل جسمها، أينما استدار مع الجوع والعطش، وخطر الموت، إلا بطل القصة، آثر البطل أن يسير صوب البحر، الرمز، والأمل، والحلم بالنجاة، عابرا الرمال، والسرابات، مقاوما الظمأ والجوع، وتشقق اللسان والشفاه، حتى بلغ الشاطىء وحيدا، وعندما حملوه إلى المستشفى، وسألوه، أجابهم: «لا... لم يعد هناك أحدا».. لكأن هذه القصة، كانت نبوءة وحيد المبكرة، لكأن إعجابه بها، كان حدسه المبكر، بتجربة حياته كلها، مثله أبحر وحيد نحو البحر، آملا فى النجاة بالحلم، فى الوطن الحلم، آملا بالعودة بالحلم، إلى الأرض القدر، فهل نجا حقا؟ لو سألوه هنا، كما سألوا ذلك البطل، ماذا عساه كان يجيب؟ لعله أجاب... يقينا أن رسائله ويومياته من باريس، تحمل الجواب، ولعلنا نعرفه الآن!!.

عرفته سنوات عديدة، معظم سنوات الخمسينيات، كنا فريقا: هو، وشقيقه رجاء، وغالب هلسا، ومحى الدين محمد، وعبدالمحسن بدر، وإبراهيم منصور، وعبدالجليل حسن، وأبو المعاطى أبو النجا، وأنا، وبهاء طاهر. بهاء كان ومايزال فى طبيعته أشبه بوحيد، عيناه المفترستان فى براءة طفولية، تذكرنى به دائما، بفضوله المحدق أبدا فى الأشياء، ومن بينهم، كنا ثالوثا أدبيا، فيما يخيل لى، نتبادل الهمس والنجوى، والبوح والاعتراف، والشكوى والأحلام: هو، وأبو

المعاطى، وأنا... وكان هو خيرنا، إنسانا، وفنانا، معه، بل به، تفتحت أعيننا، فى سنواتنا الأولى بالقاهرة، على الأدب الفرنسى، والفلسفة الوجودية، والمترجمات العالمية، التى كانت، ولاتزال، تتدفق على قاهرتنا، من بيروت، ودمشق، ومن اختياره، قرأنا أعظم الروايات التى عرفها العالم، كنا: هو، وأنا، وأبو المعاطى أبو النجا، برغم بعدنا طويلا، وكثيرا، أحدنا على الآخر، فقد كنا نشعر بأننا معا، وأننا أحباء، وأننا أصدقاء، وأننا موجودون اللحظة فى مكان ما، الآن، نحن وحيدان من بعده، أنا وحيد من بعده، فرقت بيننا الأيام عشرة أعوام أو تزيد، رأيته خلالها ثلاث مرات، ياللكارثة، باعدت بيننا ظروف العمل من أجل العيش وأثقال الأيام، حملتنا رياح السندباد شرقا وغربا، حتى عندما كنا فى مدينة واحدة، وحين عدت إليه، انتظر أوبته من بلاد الشمال.. ياللوحدة الرهيبة القاسية؟! كم أخطأنا!! وكم نفرط فيما كنا نملك ألا نفقده!! على الأقل! ألا نبتعد عنه، ولايفارق أعيننا!!...

فى رواية «والدة» لفرانسوا مورياك، وقف الزوج بجوار زوجه المسجاة. شعر فجأة، هو الذى كان بعيدا عنها، على شدة قربه منها، يهملها بسبب أمه، بل يجفوها، ويقسو عليها، بأنها كانت خير النساء: جميلة، وصبورة وطيبة، وحين حطت على وجهها ذبابة، فزع، وراح يطاردها، يطردها، يذبها، يدفعها عن وجهها الحبيب، جسدها النبيل، أترانى أفعل ذلك الآن أخر عن وجهه الحبيب تلك الشائعة القاسية، التى تصبح لنا، فى بلادنا، موتا ثانيا بعد الموت، موتا حقيقيا للروح والذكرى، بعد موت الجسد: النسيان؟!.

وداعا وحيد... لا... فليودعك كل العالم.. إلاى!!

«كتب البورتريه فى عام وفاته»

دار مصر المحروسة

الصوفى

اللوحة القلمية أيضا قصص:

فى ضوء تجربة عمنا يحيى الأدبية، ينبغى أن نعيد النظر بحذر ودقة، فى تمييزنا للقص عما سواه، من أشكال الأدب النثرية، فما هو قص، وفق تقييمنا التقليدى، بل تقييم يحيى حقى نفسه للقص، ربما تواضعا، لا يصدق إلا على سبعة من كتبه الثمانية والعشرين، فلا نحن، ولا هو، ندرج فى القص، تلك الصور الوصفية «كما يسميها فاروق عبدالقادر» أو اللوحات القلمية «كما يسميها يحيى حقى» التى رسم بها عمنا يحيى، ببراعة وتركيز وتكثيف، وبلغة قص مقتصدة، موحية الألفاظ، مشحونة الصور، شخوصا من شخوص الوطن، أو لحظة من لحظات الحياة، أو موقفا من مواقفها الدالة، وهى، فى رأيى، هذه الصور أو اللوحات، قص من القص، قص قصير جدا، قد يصح معه أن نسميه بالأقصوصة، ذلك المصطلح الذى «سكه» يوما صديقنا صبرى حافظ فى إحدى مقالاته بمجلة «المجلة».

وبذلك الصنيع تكتمل دائرة القص عند يحيى حقى، بين الأقصوصة فى «ناس فى الظل»، والقصة القصيرة فى «دماء وطين» والقصة القصيرة الطويلة، أو الرواية القصيرة فى: «البوسطجى» و«قنديل أم هاشم».

وهذا الأمر فات عمنا يحيى نفسه، وربما عن عمد، وهو يجمع حصاده الإبداعى قصا ونقدا أو أدب خواطر، فى كتب هى كل مؤلفاته، وبالتحديد، حدث هذا مع أثنى عشر كتابا لعمنا يحيى، كلها بحاجة إلى إعادة نظر نقدية، يجرى بها تمييز وفرز، لما هو أقاصيص عما عداها، و«ناس فى الظل» شاهد يحتذى، ودليل نسترشد به.

الغيط أم الحقل:

استجبت لعمنا يحيى، أقصد لدعوته لى، بعد نشرى لمجموعتى القصصية الأولى: «عطشان ياصبايا».

وأعطيته قصتى «العيون»، وكنت أعرف ذوقه المصرى الرفيع، وحبه لرصد نفوس الشخوص، والتجارب المحلية المعاشة، وقلت له:

ـ إذا لم تعجبك لا تنشرها، ولا تسخر منى حين تخبرنى.
فابتسم بحنو، وقال لى مداعبا، وهو يأخذ القصة من يدى:
ـ أنت كاتب جيد، لكن: ما أسمك؟
ضحكت، وقلت لى اسمى، وأنا أعرف أنه يعرف اسمى، فعاد يقول لى:
ـ هل كتبت قصة قبل هذه؟
فابتسمت وذكرته بمجموعتى التى أهديتها إليه، وذكرت اسمها.
وقلت:
ـ ياعم يحيى، رفقا بنا، ماذا ستقول لى إذن، بعد أن تقرأ هذه القصة؟
فضحك عم يحيى من قلبه، بلا صوت، وقال:
ـ اشرب شايا معى.
وعدت إليه بعد شهر، أو شهرين، وتعمدت أن أكون زائرا، فلا أسأله عن القصة قط، لكنه فاجأنى، وكان جالسا وحده، بقوله:
ـ أجلس، وأخرج قصتك من هذا الصف.
جلست، وتربع هو كعادته، على كرسيه المنخفض، ووضع جبينه على عصاه، وقد أخرجت قصتى من صف القصص، وقال لى:
ـ اقرأها لى، أحب أن أسمع صوتك وأنت تقرأها.
تعمدت فى قراءتى ألا أخطىء، فى الوقت نفسه، أن تكون قراءتى أداء، وأن ألون صوتى الرتيب مع هذا الأداء، قدر الاستطاعة، فقال لى بعد حين:
لا تجهد نفسك فى عدم الخطأ والسماع، فبعض الخطأ مفيد فى الأداء.
واستجبت له، فحبه يملأ قلبى، رضى عن قصتى أو لم يرض عنها، نشرها أو لم ينشرها، ولم يستوقفنى فى قصتى، إلا مرة، قال لى، وقد قلت لتوى، كلمة «الحقل»:
ـ انتظر، هذه الكلمة هى التى نتوقف عندها.
أدركت أنه قرأ قصتى من قبل، وأنه يريد أن يعطينى درسا، صبر لأجله مدة قراءتى كلها، وقال لى:
ـ ألا ترى معى، أن كلمة «الغيط» أوقع وأحسن، نحسها أفضل، وتوحى لنا بالكثير.
قلت:
ـ نعم، لكن..
فعاجلنى بقوله:
ـ من أين تخرجت؟
قلت:
ـ من الأزهر.
فقال لى:
ـ هذا هو السبب، تخفف، الكلمة المصرية كلها حياة، وذوق، أكمل قراءتك.

وقال لى فى النهاية:

ـ قصة بديعة.. وغير بيدك آلان كلمة الحقل.. إذا شئت، فأنت مسئول عن عملك.

وغيرت الكلمة راضيا، وأنا فى دهشة لأمرين: أنا أقرأ قصة ليقف بى عند كلمة، وأن يسمع بأذنيه صوت الكاتب وهو يقرأ عمله.

مرة أخرى: من أنت؟

كان الصديقان: أنور المعداوى، وفؤاد دوارة، يعملان آنذاك، مع عمنا يحيى، بمجلة، «المجلة»، يجلسان معه كل صباح، ويتوافد عليهم معا الأدباء، من شباب الستينيات، بينهم الأصحاء النفوس والعقول، وبينهم من هم مرضى النفس، أو على حافة المرض، بنوع أو آخر من أمراض، الفصام، بينهم مبدعون حقا، وآخرون خدعوا عن أنفسهم، وعما يسرهم له الله فى هذه الدنيا، فجاءوا يدقون أبواب النشر، طلبا لتحقيق الذات، أو للوجاهة الاجتماعية، بين الأهل والأقارب والأصحاب، ومرايا السطوح والجدران، وكانت هذه اللقاءات تجف أحيانا مع الوافدين، فيملؤها عم يحيى بدعاباته، ومعاكساته، وكان بها مغرما، والعجيب أن هذا الغرام كان يجىء منه فى صفوة ومودة، وتومض معهما عيناه بشقاوة محببة.

قال لى، فور رؤيته لى، وكان قد نشر لى قصتى «العيون»:

ـ أين أنت؟ أين قصائدك؟

على معرفتى به، أخذت وذهلت، وصديقنا «أنور» ينظر لى راصدا، ضاحك العينين، مبتسما بلا صوت، وقلت:

ـ ياعم يحيى، أنا لاأكتب الشعر.

فقال لى:

ـ عال، أنت تكتب إذن المقال.

ابتسمت، وقد فهمت، قلت:

ـ ولا المقال.

ففجأنى بقوله:

ـ أنت إذن تكتب القصة، لكن قل لى: أى قصة تكتب: أى بوليسية، أم عاطفية... أم واقعية.. أم قصة من قصص هذه الأيام.

كان موجوعا إذن من أكثر قصص تلك الأيام، تلك المرصوصة فى صفوف على مكتبين، وكان يعانى، فما أفظع معاناة من يصدر مجلة، ومجلة أدبية رفيعة المستوى من الكاتبين، ومما كتبوه معا.

وحين رويت ماحدث، فى اليوم التالى، لصديقنا الشاعر «محمد إبراهيم أبو سنة» أخبرنى بموقف معه، مماثل لما حدث معى، وصارت مثل هذا المواقف من النوادر التى نذكر بها يحيى حقى، حين نعرض لاسمه أو لقصصه، معا.

أنشودة للبساطة:

تلفت النظر، دائما، عناوين عمنا يحيى التى اختارها بلماحية لكتبه، وكتاباته، مثلما يختار فى طى ما يكتبه تعابير مأثورة، اعتدنا على وصفها بالأكليشيهات، وإدانة من يكتبونها، إلا من عم يحيى، فهو الوحيد، بيننا القادر على وضعها فى موضعها، ومنحها فى هذا الموضع حياة جديدة، مليئة بالود والمحبة، تلقى الرضا والقبول، وتثير الدهشة.

وبين هذه العناوين «أنشودة للبساطة» الذى قرأته، إثر صدوره، بشغف واستفزتنى قراءته، كان الكتاب يضم نقودات تطبيقية، لظواهر أدبية وقصصية فى قصص جيلنا من شباب وكهول الستينيات، أو بالأحرى فى أدب متأدبين، من حقبة مابين الحرب العالمية الثانية، وحرب عام ١٩٦٧، وكلهم من كتاب الطبقة الثالثة ـ والعاشرة وبينهم من كتب له مقدمة لمجموعة فى سنوات الخمسينيات والستينيات، وكان فى انتقاداته لتلك الظواهر رقيقا ومتألقا، وهو يقطع بشفرة رفيقة.

وبين تلك الظواهر، كانت توقفاته، على ما أذكر، عند القصة النكتة ـ والقصة المغامرة، والقصة المراهقة، والقصة الحدوتة العارية من كل لغة للقص، والقصة المسرفة فى المجاز، والقصة التى تخلط بين ماهو تجربة للشعر وما هو تجربة للقص، والقصة التى لا تحسن استخدام اللغة ومهاراتها ووسائلها، والقصة ذات العضلات السياسية المباشرة، والقصة الاستاتيكية التى لا نمو فيها ولا تطور، ولا أثر لعين لماحة ذكية.

ولقلة خبرتى، تصديت مدافعا عن الأدب الشاب، وعن بداياته التى لا تستحق أن تخنق بهذا المنهج القاسى، ونشرت تعليقى على «أنشودة للبساطة» فى صحيفة «المساء»، واتصل عمنا يحيى بى، وبارك ضاحكا، بروح الأب، ثورتى، ثم قال لى: «والله أنا لا أحب هؤلاء الشباب، وأتمنى لهم كل خير، أحبهم يا سليمان أكثر مما تحبهم أنت، وأفرح بكل موهبة، لكن القص لايكون هكذا، وهم لا يصبرون، ولا يقرأون، ولا يريدون أن يتعلموا شيئا من أحد، عذبونى فى صمت ياسليمان، وأنا راض بهذا العذاب على أمل أن يخرج واحد من كل مائة، ويوما يا سليمان ستكون فى مثل مكانى، وعسى عندئذ أن تكون بهم رحيما» وتحققت نبوءة عمنا يحيى، فهأنذا أعانى الأمرين، من المتأدبين وبريد المتأدبين، وهوج المتأدبين، وفى المقر نفسه الذى كانت به مجلة «المجلة».

كوتيب يهدد بالانتحار:

روى لى عمنا وخالنا يحيى حقى، موقفا من معاناته ممن يحترفون الكتابة، لمجرد أن لديهم حدوتة، من حواديت الناس، وهى، كما قال، أكثر من الهم على القلب: جاء أحدهم إليه، حاملا ما يسميه قصة، وقدمها له قائلا:

ـ هذه قصة هايلة، أحسن قصة كتبتها فى حياتى، واخترت مجلة «المجلة»

بالذات لنشرها، فلا أحد سيعجب بها سوى يحيى حقى، أقصد مثل يحيى حقى.

قال يحيى حقى:

- أتركها لى، وسوف أقرؤها.

وألح الكوتيب على عمنا يحيى أن يقرأها الآن، ولم يجد عمنا يحيى مفرا، فأعطاها له، وهو يتربع، مستعدا، وقال:

- اقرأها لى بنفسك، أريد أن أسمعك.

فجلس الكوتيب محرجا، ومضطرا، وأخذ يقرأ بثقة، قراءة لا نحو فيها ولا صرف ولا إملاء، قرأ فقرة كاملة، وأزعج نشازها وهيافتها عم يحيى، فقال له بدعابة:

- يا بنى، ربما كانت قصتك أفضل من قراءتك، اتركها لى، وإذا وجدتها صالحة، سأنشرها أول قصة بالمجلة، فمزاجى الآن ليس طيبا.

عندئذ، نهض الكويتب، وبدا له عريضا، ورياضيا، بفانلته الرياضية، وحذائه الرياضى، وقال الكويتب:

- سأعود فى أول فرصة من بلدى، فأنا قاوم إليك خصيصا، وكل أهل البلد يسلمون عليك، وينتظرون قراءة قصة ابنهم فى مجلتك.

فضحك يحيى حقى، وضحكته ابتسامة، لها ألف معنى، وقال:

- ماتنساش تسلم لى عليهم، أزعل جدا لو نسيت سلامى.

وذهب الكويتب، ليعود مرارا، كل أسبوع، وعمنا يحيى حقى يشفق على نفه والمجلة، من الكويتب الرياضى، المعلق الروح بنشر قصة، ويتعلل بالأعذار، عن أنه لم يقرأ قصته بعد، فالكتبة بالمئات، كالزؤان فى أرز لم يغربل، حتى كانت مرة أعتذر له فيها عمنا يحيى عن نشر قصته، وموصيا إياه بالقراءة، والمحاولة، فاندفع الكويتب الرياضى نحو شرفة المجلة، وفرد ساقية جالسا على حديد سورها، وهدد بالانتحار، إذا لم تنشر قصته، وإذا لم يقل له ذلك الآن، وفى أول عدد قادم من «المجلة»، فذوق رئيس التحرير ليس هو كل أذواق القراء، وأسرع إليه عمنا يحيى، مشفقا على هذا الجسد الرياضى من الانتحار فعلا، فى لحظة جد أو تهديد أو هزل، وأمسك به، قائلا له:

- سأنشرها يا ابنى، سأنشرها، والله سأنشرها، وفى العدد القادم بس انزل، وتعال معى.

وجلس يحيى معه، يرنو إلى واحد من خلق الله، ولم يستسلم إليه تماما، فقال له:

- سأنشرها فى العدد القادم، كما وعدتك، لكن لى شرطا واحدا، لا تأتى لى بقصة أخرى.

فقال الكويتب بلهفة:

- أعدك وعد شرف، فأمنية حياتى أن أنشر فى مجلة «المجلة» ولو مرة، مرة واحدة.

ونشر عمنا يحيى القصة، وروض نفسه على الاعتذار لمن يزورونه، عن رداءة هذه القصة، ويأخذ فى حكاية الحكاية من جديد لكل لائم، أو معاتب.

هذا المقال هو المقدمة:

ودع الدنيا صديقنا، «وحيد النقاش»، وجمعنا نحن أصدقاءه، مع أشقائه، حصاد كتاباته الأدبية: قصصا ومقالات ومترجمات، لتصدر معا فى مجلد واحد، وضممنا إليها كل ما كتب عن وحيد النقاش فى عام الوداع، وفى طليعته ذلك الملف الطيب الذى نشرته عنه مجلة «الآداب» البيروتية، والذى كان لى شرف تحريره من القاهرة، وذهب رجاء النقاش بذلك الكتاب، المجلد، إلى عمنا يحيى ليكتب له مقدمة، عنه، وعن صديقه الشاب الراحل، الذى كان يؤثره بالحب، لكن عمنا يحيى حين قرأ ما كتب عن وحيد، توقف عند مقالى عنه، وقال معتذرا لآل وحيد عن مشاركته: هذا المقال (مقالى) هو المقدمة التى تليق بهذا الكتاب، وكدت، حين بلغنى قوله، أن آتيه، على حزنى، زهوا، بتقدير عمنا يحيى، وبرغم طبع ملازم هذا الكتاب، لم يطبع غلافه، ولم يره قارئ، ولا مساهم فى تحريره، فقد انزلقت عليه أحداث محزنة جرت مع رجاء، وربما كان ذلك الكتاب قد «دشتت» ملازمه، وحين سألنى عمنا يحيى عن الكتاب، وعرف ما حدث له، قال بقلب ينفرط أسى: ذهب جهدكم هباء وسدى.

أمام المصعد:

وقفت فى الطابور، انتظر نزول المصعد، بمبنى التليفزيون، وجاء المصعد وخرج منه يحيى حقى، رأيته بعصاه، ونظرته المطرقة، ولم يرنى، فخرجت من الطابور متوجها إليه، استوقفته، وصافحته، كان قد ترك مجلة «المجلة» إلى الأبد، وترك سواها معها، عدا لجان الثقافة والإعلام بالدولة قال لى:

- لم جئت هنا؟

قلت ضاحكا، ومعتذرا:

- نرتزق من «قافات» الإذاعة ياعم يحيى.

فقال لى غاضبا:

- نربى عددا معدودا من كتاب القصة، ويأخذهم منا هذا المبنى!؟

فقلت له:

- يا عم يحيى.. لا نجد ما نكتبه من قصص دائما، لو كتبت فى السنة كلها ثلاث قصص أو أربع، فأنا الرابح.

فقال لى:

- يا سليمان، القصة لا تحب الشريك، احترس.

وتركنى ومضى وحيدا كعادته.

آمسية ثقافية:

فوجئت بالصديق «فاروق شوشة» يخبرنى، أننى مدعو كضيف، فى برنامجه «أمسية ثقافية»، وقال لى فاروق: المناسبة هى عيد ميلاد يحيى حقى «الكذا» وأنه قد طلبك بالاسم، أنت، «ونعيم عطية»، و«إسماعيل ولى الدين» لتكونوا معه فى الأمسية.

ودهشت لطلب عمنا يحيى، فأنا لم أكتب عنه حرفا، ولم أعبر له قط عن حبى لقصصه، وافتتانى بكيفية تعامله مع اللغة، والصور.

وظللت حائرا أياما، أفكر فى إعادة قراءة أعماله، ولا أفعل، وأتوجس خيفة من حرارة اللقاء، أمام الكاميرا وضوء الكشافات المروع، الذى يسيح كل الأفكار من الرأس، حتى وجدتنى جالسا معه، ومع نعيم وفاروق أمام الكاميرا، وخطر لى قبل أن يبدأ التسجيل، أن عمنا يحيى أراد بوجودى، أن يرى نفسه، حياته بأسرها فى شهادة مبدع، من جيل يلى جيله، ويرى عمله وصنيعه فى مرآة الغير، فالمشافهة عنده، هكذا قدرت، أصدق من الكتابة ألف مرة، وأوجز، آنئذ، تبدد خوفى، وقلت لنفسى: «سأفتح قلبى فحسب»، وكنت أعلم أن صديقنا «نعيم» يمر بظرف صعب، لا يعلمه عمنا يحيى، وعلى أن أملأ وعمنا يحيى هذه الأمسية بالكلام، وأذكر أنى توقفت، فيما قلته، ليس عند حياة عمنا يحيى، وإنما عند إنجازه القصصى، ونجاحه فيما يدعو إليه، ودائما، كل القصاصين: اللغة المقتصدة فى القص، والأسلوب العلمى فى القص، ومع ذلك تظل هذه اللغة شعرا من الشعر، وتنأى عن الفصحى العالية، إلى الفصحى المخففة، مع ذلك فهى أنقى وأروع من كل فصحى، هذه اللغة تضافر فيها، ولها: العقل والقلب، والوعى واللاوعى، كان ذلك، فيما أذكر، أهم ما تحدثت عنه فى تلك الأمسية، وبلغة حديث ثقافة لا نحو فيها ولا صرف غالبا، وكنت ألمح أحيانا وجه عمنا يحيى سعيدا بقولى، سعيدا بهذه النقطة التى توقفت عندها، وركزت عليها، إلى درجة أنه قال مؤكدا: أنا لايهمنى ما يبقى منى، ما يهمنى هو هذه الدعوة: اللغة المقتصدة، هذه اللغة كيف يمكن شرحها إذا لم نحمل هذه الفكرة معنا، ونعاود قراءة قصص عمنا يحيى، لنرى رؤية العين لغة عمنا يحيى المقتصدة، وننصت إلى إيقاعها، ونحن نقرأ لغة يحيى حقى، ونتوقف عند مثل هذا التعبير المشحون بثقل الوجود كله «الدنيا داست عليها ومشيت»، أعتقد أننى تعلمت درسا من هذه اللغة المقتصدة، اللغة التى لا تغرق فى الترادف، ولا المجاز، لغة الواقع اليومى محملة بالإيقاع، والإيحاء، بالشعر كله، وأذكر هنا أننى أجبت عن سؤال سأله لى الناشر الفرنسى «هنرى مارسيلان»، المسئول عن النشر بدار «دنويل» الفرنسية، فى باريس، والذى نشر لى روايتى «أصوات» بالفرنسية، وكان يترجم بيننا صديقى «عبدالعظيم الوردانى» طوال خمس ساعات، قال لى:

. روايتك «أصوات» مركزة، وشديدة الاقتصاد كان بوسعك أن تجعل منها رواية طويلة، ضخمة، ممن تعلمت هذا الاقتصاد فى القص؟

قلت له دون تردد، فأنا أعرف أستاذى:

ـ من يحيى حقى، ومن أرنست همينجواى، ويحيى حقى كان درسا أدبيا لى، بأعمال أدبية، فى هذا الاقتصاد، أقوى من درس همينجواى معى، فقد قرأته عبر ترجمة من الإنجليزية إلى العربية.

وأخبرنى هنرى مارسيلان بأن «دنويل» ستنشر ليحيى حقى روايتيه القصيرتين: «قنديل أم هاشم» و«البوسطجى» فكان تعليقى هو:

ـ لقد تأخرتم كثيرا فى ترجمة يحيى حقى، وأخشى أن لا تتمكن الفرنسية من نقل ما توحى به كلمات عمنا يحيى إليها، أما أنا، فالأمر معى أيسر، فلغتى أقل شاعرية، من لغة شاعر القصة العربية، وشيخها: يحيى حقى.

الجائزة التى لا تغنى أحدا:

حين تمنح الدولة جائزتها «الرسمية» التقديرية لفائز بها، يفوتها أمور: يفوتها أن القيمة المادية لتلك الجائزة لا تطعم كاتبا ولا عالما ولا فنانا، فمبلغها الزهيد «خمسة آلاف جنيه» لا تغنيه عن ضروراته إلا لعام، وهى عادة لا تمنح لأحد إلا فى ختام عمره، وهو يواجه فى سنوات المعاش، أمراض الشيخوخة الصائتة والصامتة، والظاهرة والمستترة، ويعانى من قلة الكسب لعدم القدرة، وضعف الطاقة، ووهن البصر والحركة.. ويفوتها أن هذا المبلغ كانت له قيمة شرائية ورصيدية، نسبيا، قبل أكثر من ربع قرن، ولو أننا قسمناه على قدرته الشرائية التى آل إليها الآن، على خمسين مرة مثلا، لصارت لاتزيد عن مائة جنيه.. ويفوتها أن القيمة المادية لهذه الجائزة المصرية «الرسمية» تنافس منافسة حادة، تثير الحزن والضحك معا، بجوائز تقديرية أخرى، بل وجوائز تشجيعية، من دول عربية أخرى، وأشخاص عرب، ولن يضير دولة مثل مصر، بحجمها ومنزلتها الريادية، وتاريخها وحضارتها، أن ترفع قيمة هذه الجائزة التقديرية «الرسمية» إلى مائة ألف مثلا، كى تتوازى مع معانى التقدير والحماية لكاتب أو عالم أو فنان، هو، بوجوده وذاته وعمله، ثروة قومية، وهى التى تبقى فى النهاية من حضارة الوطن للأجيال اللاحقة، وتشهد لها مثلما تشهد عليها.

وهذا الحرج هو الذى واجهه عمنا يحيى، وربما أكثر مما واجهه سواه، ممن نالوا جوائز الدولة التقديرية «الرسمية» فى مصرنا العجيب، واجتمع عليه هذا الحرج مع حرج آخر، هو ذلك المعاش الهزيل الذى أخرج به يحيى حقى فى سن المعاش، دون أن يشكوا إلا لخالقه سوء الحال، أو يقدم التماسا لمنحه معاشا استثنائيا، أو يسمح لأحد من أصدقائه ومحبيه أن يكتب عن هذا الأمر الذى فوتح فيه مرارا، بل كان يغضب من محدثيه ويحذرهم بأن ذلك سيؤذيه، ويؤثر ألا يسأل الدولة إلحافا، أو يسألها نيابة عن أحد، ويؤثر أن ينطوى وآل بيته، تعففا، وعلى مسغبة، ويسعى ليشترى ضرورات بقروش، يقسمها على أيامه، وأدوية مرضه تقسيما بالقسطاس، وأن يشترى ضرورات بيته بنفسه، وقد جاوز الثمانين، واحتاج سمعه إلى ترجمان، وبصره إلى دليل، وأن ينتظر من يحمل له

غسيله إلى المغسلة من الأصدقاء لعجزه عن حمله، إلى... إلى أن منحت له جائزة الملك فيصل العالمية، قبل أعوام قليلة، ولهذه الجائزة معه قصة.

قصة جائزة فيصل العالمية:

صباح يوم الأربعاء، أحرص على متابعة أخبار الأدب، فى صفحة الأدب الأسبوعية بجريدة الأخبار، ويوم أربعاء وقعت عينى على خبر ترشيح جامعة الإسكندرية، وبالضرورة كلية الآداب بها، لأحد مدرسيها أو أساتذتها لجائزة فيصل العالمية، لينال القيمة الأدبية والمادية لهذه الجائزة عندئذ طار صوابى، فذلك المرشح لم تعرف له جودة قص، ولا نعرف له نحن قبيلة القصاصين أثرا فى القص بيننا.

وكيف تشرح كلية، فى جامعة محترمة مثله، وتترك أعلاما أحياء فى القص، فى مصر، والوطن العربى، يجاوز عددهم العشر، وعبر أربعة أجيال فى القرن العشرين؟ وكيف ستمنح هذه الجائزة، وأول جائزة لها فى القص، لمثله؟ وما الذى سيقوله عنا أشقاؤنا العرب من المغرب إلى الرياض؟.

وحملت الصحيفة إلى الدكتور عبدالقادر القط، فى مكتبه بمجلة «إبداع»، وكان آنئذ رئيس تحرير لها، وأحد المحكمين البارزين، فى جائزة الملك فيصل العالمية، وهو الذى اقترح أن تكون للقصة العربية جائزتها بين الجوائز الأخرى، وقرأ الدكتور عبد القادر الخبر فى صمت، وشاركنى الوجوم مع الصديقين: سعيد الكفراوى، «وعبدالله الماجد» الأديب السعودى، قلت له مستحثا:

ـ كيف يرشح مثله، ولدينا نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وقبلهما: يحيى حقى، عمرا، وأثرا، وحياة، وهو يعد فى ظرف صعب مع أمراض الشيخوخة، والمعاش القليل، و... هو بها أحق لألف سبب؟!

وقال عبدالله الماجد عندئذ:

ـ إذا لم ترشح مصر يحيى حقى، سأسافر إلى السعودية، وأدعو الجامعات السعودية إلى ترشيحه.

فقال لى الدكتور عبدالقادر بهدوء:

ـ سأعمل على أن ترشح جامعة عين شمس يحيى حقى للجائزة، عليك أنت بصديقيك: عبدالمحسن طه بدر، وجابر عصفور كى ترشحه أيضا جامعة القاهرة، ولم أكذب خبرا، وكان. رشح «يحيى حقى» من الجامعتين للجائزة وهو لا يعلم، فقد كان فى باريس للعلاج، وملئت استمارة تقديمه للجائزة وهو لايعلم، وحين أرسلوا من الرياض يطلبون عشر نسخ من كتبه، كانت المشكلة هى كيفية إرسالها، وهى تزيد على العشرين كتابا، وكم يكلف شحنها؟

واتصلنا بمكتب الحرس الوطنى بالقاهرة، فحملها مشكورا إلى أمانة الجائزة، ومنح يحيى حقى الجائزة، ولم يقدر عمنا يحيى لمرضه على حضور الاحتفال بمنحه إياها، فتسلمها عنه زوج كريمته.

مفاجآت أخيرة:

قبل أيام من وداع عمنا يحيى لنا، سألتنى كاتبة أجنبية، تزور «أتيليه القاهرة» عن الطريق إلى بيت عمنا يحيى، قالت لى أنها تريد أن تجرى معه حديثا لصحيفة فى وطنها، فأخبرتها بمرضه فى عمره المتقدم، وأعطيتها رقم تليفونه لتحدد معه موعدا، وتأخذ منه عنوانه إذا شاء أن يعطيه لها، فهذا حقه على.

وفى اليوم التالى أخبرتنى، تلك الكاتبة، أن عمنا يحيى رد عليها قائلا بحزن: «يا ابنتى، أنا لم أعد قادرا على ذلك أيضا، قد تقرئين غدا، أو بعد غد نعى فى الصحف، فدعينى فى حالى».

ولم ينقض ذلك الأسبوع، إلا وكان وداع عمنا يحيى لنا، بلا حقيبة سفر فى يده. وداع آثر عمنا يحيى ألا يخلو من دعابة أخيرة، هو بها الفائز حقا، بين ستين مليونا من أهل مصر.

دق جرس التليفون فى مجلة إبداع، وسأل السائل عن الشاعر «أحمد عبدالمعطى حجازى»، فذكرت له أنه مشغول الآن مع ضيف، وذكرت اسمى، عفوا، للسائل، فطلب منى كلمة من عمنا يحيى لصحيفة الجمهورية، فسألته عن المناسبة، وقد توجست خيفة فقال لى: تعيش أنت، وجمت، مع أن رحيله متوقعا، ثم قلت: ليس هذا وقته، فقال لى: أنت تعرف الصحافة ودورها، فى مثل هذا الموقف، أمليته مافتح الله به على، واتصلت سكرتيرة المجلة، «سلوى مصطفى» ببيت يحيى لتسأل عن موعد الجنازة، فقال لها من بالبيت: لقد تم دفنه فعلا، هذه كانت وصيته أن يكرم بدفنه إثر موته، ولا يبلغ أحدا بنعيه قبل ذلك، وجاءت المفاجأة التالية، فى اليوم التالى، مع نشر نعيه، فقد طلب ممن يقرأ نعيه أن يقرأ له الفاتحة، فقلت: لقد فاز بها وقرأ له الفاتحة كل قارئ، وكانت المفاجأة الأخيرة أنه أوصى أيضا ألا يقيم له أهله سرادق عزاء، ومع ذلك ذهبنا للعزاء فى عمنا يحيى، فى سرادق بعمر مكرم، بعد يومين، وأقامه له صديقنا سعد الدين وهبة، باسم اتحاد الفنانين العرب.

ومن عجب، أننى لم أر تلك الوجوه التى أحبت يحيى حقى، وأحب هو أصحابها فردا فردا، حتى بدون تقدير أدبى فيه لأهلها، فلا وجوه مثقفين تذكر، ولا قراء، إلا من قلة قليلة، لعل أكثرهم كانوا من موظفى الدولة، واتحاد الفنانين، وبين هذه الوجوه كان: سعد الدين وهبة، ومصطفى حلمى، ونجيب محفوظ، وصبرى موسى، وعبدالله الطوخى، وسعيد الكفراوى، ومحمد ابراهيم أبو سنة، وعبدالعال الحمامصى.

وأدركت كم كانت وحدة عمنا يحيى، فى سنواته الأخيرة قاسية، وكم صارت وحدته فريدة، بعد وداعه لنا، فى هذا السرداق، ولعله أن يعرف الآن أن هذه الوحدة لاتدل على شىء، فحبه حياة وحصادا كان فى مليون قلب قرأ له أصحابها الفاتحة، فقد كان بحياته، ذلك الصوفى الفنان، صاحب الطريقة والقول، وشاهدا حيا على الزهد والتعفف، والحب والعطاء، والقول من القلب، والكتابة بمداد الروح، لدى العارفين، والمريدين، من الكاتبين، والقارئين.

العبقري المقهور

بين عام وآخر، تتذكر القاهرة، واحدا من عباقرتها «المقهورين»، كلما جاءت ذكرى رحيله، وهى فى قلبى وقلوب محبيه، كأنها ذكراه الأولى، أو كأنها يوم وادعنا نحن الذين أحببناه كاتبا وناقدا، ينفذ بقلمه إلى الجوهر، دون غرق فى التفاصيل، ودون لجوء إلى البطاقات، والمونتاج، والقص واللزق، وفى كل دراساته وأبحاثه، ومقالاته وأحاديثه، ومحاضراته وندواته، كان يملأ بحضوره الفكرى، والحياتى، عقول وقلوب من عاصروه.

فى ذكراه تنشر، أحيانا، باقة من المقالات فى مجلة أدبية، أو تعقد ندوة فى ناد للفنانين عن كاتبنا العبقرى «الدكتور محمد مندور».

وفى ذكراه أنا بهذه المواقف.

..

حوار:

مررت إذ كنت بمبنى إذاعة القاهرة «فى أواخر الخمسينيات» حين كانت ماتزال بمبناها العتيق بشارع الشريفين، على استوديو «١٢»، لزيارة صديق، وجدته بالأستوديو يقدم نشرة الظهيرة، وكانت أمام الأستوديو طرقة كالركن، وابتهج قلبى حين رأيت الدكتور «محمد مندور» جالسا، يلف لنفسه سيجارة، ويلصق ورقها بطرف لسانه، كنت أعرفه من صوره، وكانت عطاؤه القلمى صديقا حميما لعقلى وقلبى، حييت، وجلست، ودهشت إذ رأيت معه الراقصة الشهيرة «سهير زكى» فى فستان باهر يليق بها، وكانت مزهوة بنفسها: الحركة، والنظرة، والالتفافة، وكان مندور فى بدلته البيضاء، يبدو على جرمه، ضائعا فى اتساعها.

أشعل مندور سيجارته اللف، قال لها: للمرأة التى يحدثها:

- رأيت رقصك يابنت يا «سهير».

ضحكت سهير وقالت:

- أعجبك.

مط مندور شفتيه، وقال لها:

- لا بأس.

فقالت «سهير» بزهو:

ـ لو رأيتنى ببدلة الرقص الحقيقية، وليس فى هذه البدلة الحشمة، التى فرضها علينا «يحيى حقى» ومصلحة الفنون، لقلت كلمة أفضل من ذلك.

ابتسم مندور وقال بسخرية:

ـ البركة فى نوادى آخر الليل!!

وتضاحكت «سهير»، وسكتت مغاضبة، فالرجل الكهل «قفل»، ورمقها مندور، وقال:

ـ بنت يا «سهير» كم تكسبين فى الشهر؟.

ضحكت وقال مغيظة:

ـ لم تسأل يا دكتور؟

فأجابها وهو يتنهد:

ـ فضول سخيف، لا تجيبى.

تضاحكت «سهير»، ووضعت ساقا على ساق، وقالت:

ـ أحسب لى يا دكتور مندور، آخذ فى النصف ساعة مائة وخمسين جنيه، وأرقص أربعة أنصاف ساعة فى كل ليلة، حتى فى ليالى الجمع، كم تظننى أكسب فى الشهر، هذا طبعا، عدا الأفلام، والأفراح والليالى الملاح.

وفرقع ضحكها فى الركن الضيق، الوثير المقاعد، والأريكة.

وصمت مندور، وراح يعد كالطفل على أصابعه، ويحرك كفيه بالزائد والناقص ثم قال:

ـ حسنة تحير يا «سهير»، أظن دخلك فى الشهر عشرين ألفا، صاحت المرأة بظفر:

ـ بل ثلاثين يا دكتور، بلا مبالغة، فى المتوسط يعنى.

وبدا «مندور» لى مبهوتا، وقد لاذ بالصمت، وأشعل سيجارة لف أخرى وأطرق، كنت أعلم أن «مندور»، قد أبعد عن الجامعة، بفضل جهود زميله «ر. ر» كرجل غير مرغوب فيه، فى علم يتصل فيه بالشباب، ولأنه لم ينتهز الفرصة، ويتقرب، ويتودد، بفكرة، وقلمه، واتصاله، بأولى الشأن الجدد فى هذا البلد، وكنت أعلم أنه عولج من انفصال شبكى فى عينيه الاثنتين، خارج البلاد، بسبب قطعه لسنوات عمره كلها فى القراءة والكتابة، وإذ رفع مندور رأسه، قال لـ«سهير» فى غضب أبوى، حزين، ورفيق، وضاحك:

ـ وأنا ضيعت عمرى فى الورق والقلم يا «سهير»، بوسعى الجلوس على صف من كتبى يا سهير.

ووجمت سهير وارتجفت شفتاها، ولم تجد ما تقوله، فأطرقت صامتة.

والتفت لى «مندور» وقال:

ـ وأنت يا بنى، لم جئت هنا الآن؟

قلت، والقلب من اللحظة مثقل:

ـ أرتزق.

ضحك مندور عندئذ، وقال:

- مثلى!!

ثم قال:

- حدثنى عن نفسك يا... ما اسمك؟

البحث عن عمل:

مبنى الاستعلامات مايزال قائما، ولنفس غاياته بشارع طلعت حرب «سليمان باشا سابقا»، وكنت أصعد سلالمه التى لاتنتهى، فالمصعد لم يكن مباحا لغير الموظفين، إلى الدور «كذا» لأقدم طلبا للعمل بمصلحة الاستعلامات، أو بهيئتها، لا أذكر، كنت قد تخرجت من الكلية، وكان ترتيبى يسمح لى بالتعيين، لولا عدم وجود ميزانية لوظائف التدريس بالتربية والتعليم فرحت أطرق أبواب مبانى أجهزة الثقافة والإعلام الجديدة فى البلاد.

وفوجئت بمن يضع يدا رفيقة على كتفى، ويسألنى: إلى أين يا أبا داود، رأيت الدكتور «مندور» أمامى، غارقا لم يزل فى بدلته البيضاء «الشاركسكين»، وتوقفنا على الدرج، وأخبرته بما جئت لأجله، فقال لى:

- تعال معى، سأقدمك إلى رئيس الاستعلامات «عبدالمنعم شميس»، وأوصيه بك.

وعاد الرجل يصعد معى سلالم لا تنتهى، كان قد فرغ من نزولها لتوه، ودخل معى مكتب «عبدالمنعم شميس»، وهو يلهث، ولم ينظر إلينا عبد المنعم شميس، أحس بنا من ظل ألقاه مصباح وراءنا على مكتبه، فقال: نعم، فأخذ منى «مندور» الطلب، وألقى عليه نظرة، وقدمه لعبد المنعم شميس وقال:

- هذا الولد يريد أن يعمل معك، وأنا أوصيك به، فهو أهل للعمل فى الثقافة.

رفع عبدالمنعم رأسه، بدا ممتعض الوجه، فى وجهه قرف الدنيا، والأوراق مطروحة بلا نظام فى مكتبه الواسع، وقال بضيق:

- أمن أجل هذا عدت؟

فقال «مندور» بهدوء:

- نعم، وصعدت سلالم، فهو عزيز على.

فقال عبدالمنعم بنفس الضيق، وقد سقطت «شوافته» إلى أرنبة أنفه:

- طيب دعه لى.

وعاد عبدالمنعم ينكب على الأوراق، وسحبنى «مندور» جانبا وهمس لى:

- اجلس ولا تغادر المكتب، حتى يبت فى طلبك، سأنتظر بمقهى «لاباس».

وانصرف «مندور» عنى، وظللت واقفا حتى مللت، فجلست، وحين رفع عبدالمنعم رأسه عن الورق، ورآنى قال:

- ألا تزال هنا؟ اذهب، وسوف نخبرك إن كنا نريدك.

وقفت، وعرفت نتيجة طلبى فى تلك اللحظة، وأسرعت إلى مقهى «لاباس».

وجلست صامتا، فتضاحك مندور، وقال لى:

ـ قال لك: سوف نخبرك إن كنا نريدك.

فهززت رأسى، وهمست: «لاعليك يادكتور»، فقال لى ضاحكا:

ـ لاتيأس يا أبا داود، مازال باقيا لنا أن نكتب بالقطعة!!

حفل تكريم:

كنت قد التحقت بعمل فى «مطبخ» مجلة مصورة، مهمتى فيه المراجعة الفنية صحفيا ولغويا، لما ينشر بالمجلة، وكان «مندور» آنذاك من كتابها الدائمين، بالقطعة أيضا، وحدث أن سكرتير تحرير المجلة «س» قرر أن يترك المجلة، ليعمل نائبا لرئيس تحرير صحيفة يومية، ودعينا، نحن الذين نعمل بها، كتابا بالقطعة، ومحررين دائمين، إلى حفل تكريم، تقيمه المجلة بالنادى الذى تصدر باسمه المجلة، لسكرتير التحرير «س» وفوجئنا بمائدة حافلة بطول القاعة، وعلى رأسها رئيس التحرير «ص» الذى لم نكن نراه إلا نادرا، فقد كان آنذاك شخصية بالغة الخطر والخطورة فى البلاد.

وإثر انتهاء وليمة الشاى والجاتوهات، جلسنا فى الليلة الباردة، بقاعة دافئة، ودارت أحاديث متقطعة لا قيمة لها حتى يذكرها أحد، وكان الدكتور «مندور» جالسا معنا، يمارس هوايته المعتادة: لف سيجارة من تبغ بعلبة صفيح بنية اللون، وكان صامتا، مطرقا، ومن وجهه، أدركت أنه قد عزم على أمر، ولمحه رئيس التحرير «ص» فقال له متضاحكا بغموض:

ـ لم نسمع صوتك يادكتور مندور.

فقال مندور بجسارة صادقة ومبهرة:

ـ وهل تركتم لى صوتا يا أستاذ...؟

بهت «ص» وقال:

ـ لم يا دكتور مندور؟ مازلت تكتب، وتمشى، وتعود إلى بيتك، وتروح وتجىء، وها أنت معنا من كتاب المجلة.

فقال مندور:

ـ اسمح لى يا أستاذ... بسؤالين: أولا: لم فصلت من الجامعة يا أستاذ؟

فقال «ص» متضاحكا:

ـ دعك من هذا السؤال الآن هذه مسألة عليا.

فعاد مندور يقول:

ـ ولم أصدرتم تعليمات للعاملين بالإذاعة، حتى لايطلب منى حديث، أو ادعى إلى ندوة؟

فقال «ص» بثقة وتأكيد:

ـ لم يحدث ذلك يادكتور مندور، ليست هناك تعليمات بمنع أحد، لا أنت ولا غيرك.

وتضاحك، ثم قال:

- ربما كانت هذه المواقف من تصرفات العاملين بالإذاعة الصغار، من مقدمى البرامج يعبرون عن رأيهم فيك، كجيل جديد.

فهز «مندور» رأسه نفيا، وقال:

- لا يا أستاذ كلهم من تلاميذى، وقد قرأوا لى، ويتعاطفون معى، ويعرفون أن ورائى: «حياتى»، وسجائرى اللف هذه، والأقلام التى أحتاجها، والكتب التى أشتريها، والورق الذى لابد منه.. و«كوم» عيال يا أستاذ...

وكأن الصمت قد صار له رنين، ولم يدم الصمت طويلا فقد قطعه «مندور» بقوله:

- هناك أوراق يوقعها مقدمو البرامج بأسماء المتعاملين إلى فوق، وتعود الأوراق إليهم من فوق، وعليها إشارة «×» أما بعض الأسماء، بالقلم الرصاص يا أستاذ..

وعاد الصمت ذو الرنين، وبدا «ص» جامد الوجه، ومحرجا بين الحضور، ثم قال «مندور»:

- وأحيانا يا أستاذ تكفى مكالمة تليفونية من فوق.. فلان: لا... ويشيع الخبر فى المبنى كله، بل فى المدينة بأسرها يا أستاذ.... لقد عرفت هذه المعلومات من الشارع يا أستاذ.

أخذ «ص» يتضاحك، وقال:

- إذن سأحدثك بصراحة يا دكتور مندور، أفكارك لاتتفق معنا...!!

عندئذ ضحك مندور وقال:

- وأنتم يا أستاذ، ألم تتأثروا بهذه الأفكار، وتستفيدوا منها فى عملكم فى نطاق واسع، ومع ذلك فأنا فيما أقول وأكتبه حريص على عدم الصدام المباشر، فكريا، حرصى على «كوم» العيال، أذكر لى قولا واحدا بالإذاعة حذف من التسجيل، أو سطرا بمقال حذفه الرقيب؟

وعاد الصمت ذو الرنين، حتى قال رئيس التحرير «ص»:

- مر على غدا بمكتبى يا دكتور مندور، وسأسوى هذا الأمر.

ونهض رئيس التحرير مغادرا المكان، وهو يشير بيده بتحية عامة، وأخذ الكل فى الانصراف، وبقيت جالسا مع الدكتور «مندور»، وبقى معنا سكرتير التحرير «س» الذى قال:

- هذا الرجل عضو لجنة الإشراف بأعلى مؤسسة بالبلاد، أحد أعضاء خمسة، ولا يعرف كيف يكتب حرفا يا دكتور، أنا نفسى كتبت باسمه عشرات المقالات السياسية، بل المئات، فلا تحزن يا دكتور.

وانصرف «س»، وانصرف «مندور» وبقيت جالسا مبهوتا، وإذ غادرت القاعة الدافئة، للحديقة الباردة، رأيت «مندور» يسير وحيدا، تائها فى بدلته البيضاء بين مصابيح الأشجار، سرت بجواره، ولمحته يمسح دموعا لا صوت لها.

قال لى:

- اسمع يا ولد فى أول فرصة تتاح لك، ابتعد عن الصحافة وأهلها، لا تضع وقتك وقلمك فى «خية»، كن كاتبا صعلوكا، أو فى عمل وظيفى لا يعرف رفاقك فيه أنك كاتب.

وعاد مندور إلى الكتابة بالقطعة للإذاعة، والعجيب أنه لم يدع للكتابة فى المجلة، منذ أن جاءها سكرتير جديد للتحرير.

اللقاء الأخير:

٤٠توقفت مسلما سألنى:

- ماذا تعمل الآن؟

قلت:

- أكتب قصصا، وأغلقت المجلة، بسبب صراعات «أهلها»، وأخذنى «س» بالصحيفة التى يعمل بها نائبا لرئيس التحرير، ومازلت أبحث عن طريق آخر أعمل فيه بنصيحتك!!

فقال لى:

- وكيف حال الصحيفة الآن؟

فقلت:

- العجيب أنها صارت توزع مائة وعشرين ألفا، بعد أن كان توزيعها سبعة عشر ألفا فقط، وكله بسبب «كوبون اليانصيب» الذى تنشره فى الصفحة الأولى، والقراء الغلابة الذين يحملون بالثراء.

فضحك «مندور» وقال بمرارة:

- وماذا فى ذلك.. «الكلأ» يوزع أكثر!!

ولم ألتق بأستاذى وصديقى «مندور» بعدها، لكن مشهد ابتسامته المرورة، لايزال ماثلا أمام عينى!!

فارس العصر

وجه:

كنا صحبة «ريفيون حالمون» قراء أدب كسوس الخشب، مشاريع كتاب نبحث عن حظوظنا فى العاصمة والجامعات، كلنا كنا ندرس العلوم النظرية والإنسانية، نشترى الكتب بقروشنا القليلة لنقرأها، ونجد أكثر ما نقرؤه فى مكتبات الأحياء العامة، والكليات، ونتردد على مقاهى الأدب وندواته: إيزافيتش، وريش والعجمى، وعبدالله، وفى كل مقهى كانت صحبة ومجموعة، شلة أو جماعة أدبية، لا يجمع بين أفرادها سوى المعرفة والصداقة والصحبة.

صحبنى الصديق، القصصى الشاب آنذاك: «أبو المعاطى أبو النجا»، إلى صديقه الناقد اللامع «أنور المعداوى»، وكان «أبو المعاطى» يكتب قصصا تنشر بآخر صفحة أو صفحتين بمجلة «الرسالة» الثقافية الأدبية الأسبوعية، وكان «أنور المعداوى»، آنذاك، نجم الحركة النقدية بالمجلة صاحب أسلوب أدبى فريد، ونظرة نقدية خاصة، فيما يعرضه من أعمال الأدب التى تنشر، وفيما يخوضه من معارك أدبية ساخنة، كان «أنور المعداوى» فارس مجلة «الرسالة» والحركة الأدبية على اتساعها فى أواخر الأربعينيات، وأوائل الخمسينيات، وكان «أبو المعاطى» قد حرص على لقائه والتعرف به، وتوطدت بينهما صداقة بينهما صداقة الأستاذ بالتلميذ، وقدمنى «أبو المعاطى» إليه، بمقهى «عبدالله» بالجيزة.

كنا نجلس على هامش المجلس على رصيف المقهى بميدان الجيزة، فى الصيف، وبداخله فى الشتاء، وكان مجلسا يوميا، نسمع، ونرى ونحتفظ بآرائنا داخلنا، فيما نسمع، فى ندوة «أنور المعداوى» اليومية هذه، وكانت مجلة «الرسالة» قد احتجبت، ورأينا شعراء كبار، وأساتذة جامعيين، وتعرفنا إلى شباب مثلنا، ريفيين حالمين، مشاريع كتاب، ونمت بيننا الصحبة، وبعضنا شق طريقا، وبعضنا توارى عن الدنيا، أو تخلى عن حلمه.

بدا لى الكاتب «أنور المعداوى» مثلنا تخيلته فى تعقيباته النقدية، فارسا حقيقيا، فى حديثه، ومرحه، واعتزازه بنفسه، وتعاليه عن آلامه الخاصة التى لا أعرفها، ولا أظن أنه باح بها كثيرا إلا لقلة قليلة، ولم أنفذ قط إلى قلبه عدة سنين، مثل صديقى «أبو المعاطى»، و «ر. ن».

وكنت أعلم أن بين كل منهما، و«أنور المعداوى» مودة القلب والسر والنجوى، لكن «أنور المعداوى» كان قادرا أبدا على أن يوزع حبه، وحفاوته على الجميع فى مجلسه، فلا يشعر أحد من ناشئى الكتاب خاصة بغبن ما، وأحيانا كنا نجد «أنور المعداوى» يلعب الشطرنج، أو النرد مع الدكتور «عبدالقادر القط» كانت له ضحكة حلوة، ما أرقها، وأعذبها، وأقربها إلى النفوس، وهو صامت، وهو يدخن، وهو يتسلى باللعب.

وكان من عاداته أن يحيى أى وافد جديد من ناشئة الأدب، بشاى، أو قهوة، مرة واحدة، وبعدها يشرب الوافد على حسابه، فقد أصبح تلقائيا عضوا فى الندوة، من حقه أن يتكلم إذا شاء، ويصمت إذا شاء، وينكت إذا أحب، النبل كان يشع من وجهه، وروحه، وابتسامته الندية أبدا، وكان بوسع أى أحد أن يقرأ له شعرا، أو يعطيه قصة يقرؤها فى بيته، ودائما كان «أنور المعداوى» يقول رأيه فيما قرأه، لصاحب الشعر أو القصة منفردا، خاصة حين تكون له ملاحظات غير طيبة عما سمعه من شعر، أو قرأه من قصة، وكنا جميعا نجل قوله، مثلما نجله، ونعتبر رأيه فيما كتبناه درسا، ينبغى أن نفكر فيه، قبلنا رأيه أو رفضناه.

كان يحدثنا أحيانا عن صديقه الشاعر الراحل «على محمود طه»، عن فروسيته ونبله، وحبه لترف الروح، والجسد، والطعام، والبيت الذى لم نره نحن، العامر بالتحف والتماثيل، وكنا نشعر من حديثه عنه، أنه قد فقد بفقده، نصف روحه، ونصف حياته.

قرأ لى قصتين، لم يرض عنهما، فأعادهما لى، وقال:

- استمر، ما كتبته محاولة.

ولزم الصمت، وشعرت بالحرج، فلم يقل لى أى تعليق آخر.

الصمت:

نشر صديقى «أبو المعاطى» مجموعته القصصية الأولى «فتاة فى المدينة»، وتصدرت قصص مجموعته مقدمة ضافية، مليئة بالتحليل والرضا، كتبها: «أنور» عن قصص «أبو المعاطى»، وكنت قد بدأت أنشر قصصا فى مجلة «الآداب» البيروتية، وأذيعها هى نفسها فى البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة، اخترت من بينها ثمانى قصص لنشرها فى كتاب، وقدمتها إلى «أنور» ليقرأها، ويقدم لها، إن رضى عنها، وشاء ذلك، هكذا قلت له، أخذ ملف القصص، وحمله معه إلى بيته، سألته، بعد شهر وشهرين وكان يقول لى:

- لم أقرأها بعد.

ويلوذ بصمت عميق، لم أشفق على نفسى من الحرج، بقدر إشفاقى على حرجه هو معى، حدثتنى نفسى أنه غير راضى عما صنعت، ولمته فى نفسى لأنه لا يقول ذلك، ودون أى حاجة منى إلى اعتذار منه، فأنا أحبه، بقدر ثقتى بما كتبته.

كانت قد حدثت جفوة بسبب سوء تفاهم، بينى وبين الصديق «ر. ن»، وقيل لى إنه قد شكانى إلى «أنور»، وإنه لذلك يلزم الصمت، وكأنه قد عزف عن التقديم لقصصى، تركت هذا الأمر فى نفسى مفتوحا لاحتمالات المصارحة يوما، وكانت فى

النفس مرارة، يطويها في القلب ذلك الحب للصديقين، وسافرت للعمل بالسعودية.

عدت بعد أشهر تسعة، سألت «أنور» عن المجموعة، طلبتها لأنشرها فأعادها إلى، ولم أعاتبه، ولم يعتب على فى أمر، لكننى كنت أرى، فى عينيه حزنا لا أعرف سببه، قلت لنفسى: «هذا الرجل لا يكتب إلا إذا أحب الكتابة والكاتب معا»، وكان على أن أتعلم من نبله، وصمته، وترفعه درسا، فطبعت من مجموعتى الأولى، على قدر مالى، ألف نسخة، وأهديت أول نسخة إليه، قال لى:

- مبروك.

ولزم الصمت، وحيانى بقهوة بعد غياب، وغادرت القاهرة إلى السعودية بعد يومين، عائدا إلى عملى، مدرسا بالطائف هذه المرة.

بداية النهاية:

إذ عدت إلى القاهرة، دهشت للحفاوة التى استقبلت بها مجموعتى القصصية الأولى من الأدباء الشبان خاصة، كتبوا عنها خمسة عشر مقالا.

ولم ألتق بالصديق «أنور»، فقد كان على الرحيل إلى مركز البدارى ، الذى عينت به مدرسا بمدرسته الإعدادية الثانوية، وحزنت أشد الحزن، إذ علمت أن صديقنا «أنور» قد نقل من عمله، كعضو بالإدارة الثقافية العليا بوزارة التربية والتعليم، كان رئيس الإدارة عندئذ هو الدكتور «سليمان» حزين»، وقيل لى أن كلا منهما: «أنور»، و«سليمان» لم يهضم الآخر، وأن الخلاف قد كبر بينهما وغذى، فنقل «سليمان» صديقنا الفارس مدرسا بمدرسة ثانوية بحدائق القبة، وصار الحزن عميقا فى القلب، حين عدت فى زورة إلى القاهرة، وكنت قد نقلت إلى الإسكندرية، وجلست مع «أنور» فى ندوته اليومية، كانت ضحكته العذبة قد صارت ممرورة، وحزينة وبدا لى أنه كعادته، يترفع، ويتصالب، حدثنا فيما حدث، قال:

- هل تتصورون أن ناظر المدرسة خصص لى يوما للإشراف على حوش المدرسة، مهمتى فيه أن أحمل عصا، وأمنع التلاميذ من التزويغ، ونط السور؟ لم أكترث بشىء مما قاله، وتركت التلاميذ يفعلون ما يشاءون، فغضب، وأظن أنه سيتخذ إجراء ما.

ساد بيننا الصمت فى المجلس، وبدا هو كأنه لا يبالى بهذا الأمر، عاد إلى الحديث، والنقاش، وكأنه قد لام نفسه على بوحه وشكواه، وجاء صديق الشاب، كان بلا عمل، فقال له «أنور» إنه قد حدث صديقه رئيس التحرير «فلان»، فوافق على عمله بمجلته، وطلب منه الذهاب إليها، وعاد يؤكد أنه سيذهب إليه معه إلى غدا.

وحدثت الواقعة، قدم «أنور» استقالته من عمله كمدرس، وبقى بلا عمل، ينام ويقرأ نهاره، ويسهر ليله بندوته مع الكتاب والأدباء، من كل الأجيال، عجبت لأمر صاحبنا «أنور»، يقدم خدماته، ويستثمر علاقاته لغيره، ويأبى أن يطلب ذلك لنفسه، وربما لأننا كنا نهابه، ونعرف ترفعه، فيما يخصه، لم نحدثه فى الأمر.

المأساة:

«علمت وأنا بالإسكندرية أن صديقنا الفارس قد صار نائبا لرئيس تحرير مجلة «المجلة»، التى كان يرأس تحريرها آنذاك «يحيى حقى» مع «فؤاد دوارة»، وبأجر مضحك هو خمسة وعشرون جنيها، زرته فى المجلة، فرحب بى ضاحك الثغر، وقدمنى إلى «يحيى حقى»، وعدت إلى الإسكندرية.

فوجئت، ذات صباح بمقال كتبه «غالى شكرى» بصحيفة «الأهرام» يروى فيما مأساة صديقنا الفارس «أنور»، انسلخ من الوسط كله بالقاهرة، ومن المدينة بأسرها، وحمل «غالى» الحياة الثقافية ووزارة الثقافة المسئولية، وطالب له بكذا وكذا.

عدت إلى القاهرة مفزعا، علمت أن صديقنا «أنور» قد غطس فى الإسكندرية عند أقارب له، وقيل إنه قد شوهد يسير شاردا، ساهما فى الليالى الباردة بالبيجاما والشبشب.

أخذت العنوان، وذهبت أبحث عن الحى، وعن البيت، نهارا، فلم أجده، قيل لى إنه خرج، ولا يعرف أحد متى يعود، تركت له خطابا حارا مخضبا بالدموع، أطلب لقاءه، وأدعوه للإقامة فى بيتى إلى أن يهدأ نفسا.

وعاد «أنور» إلى القاهرة، بعد أيام لا أذكر عددها، لكننى على يقين أن حب الأصحاب له هو الذى أعاده.

عادة كان أنور يجلس على المقهى، وذهبت للقائه، وجدته فى أطيب حال، يؤكد أنه سوف يعود للكتابة، وأنه سيكتب عن، وعن، ويقهر ضغط الدم الذى يعانى منه بالقلم وحده، وسعدنا به، ورجونا، وتساءلت فى نفسى: هل سيستطيع، هو الفارس، أن يعيش من قلمه، وهو يأبى فى روحه المجاملة، ووضع أى حسابات فى اعتباره؟!

العشاء الأخير:

سهرنا معه بالمقهى ذات ليلة، كان يتحدث ويضحك، ويعد بالمنى نفسه، ويمدنا بها معه، وأخذ يلعب «الطاولة» مع صديقه الناقد «عبدالقادر»، وغادرناه، ثم ذهب هو إلى مطعم كازينو بالهرم، فيما أذكر، مع صديقه الأثير «عبدالقادر»، ليسهرا، ويتعشيا معا.

فى اليوم التالى، حمل إلينا نعيه، بهت، ولم أبك، حتى اليوم ولم أبكه قط، لكنه ظل حيا فى القلب.

علمنا أنه أكل سمكا، ورفه عن نفسه فى مجلسه مع صاحبه بشرب البيرة، وعاد إلى بيته، قيل لنا إنه وجد نفسه مرهقا، وإنه قد وضع رأسه فى حجر أمه ليغفو، وربما تقلبت عليه مواجهة النفس مع مواجع الجسد، كان يعيش طول حياته وحيدا فى بيت صغير بالدقى، ولفظ نفسه الأخير بين يدى أمه، قيل لنا إن أمه، بحثت ليلا عمن تتصل به أو تخبره، بما حدث لفارسها، فلم تجد سوى بطاقة عليها اسم «نعمان عاشور»، ورقم تليفونه، فحدثته فى قلب الليل، تخبره، وتدعوه... لنجدتها.

تحولات كاتب

نسخ بالكوبون:

بين كتاب مجلة «الرسالة» للزيات، شدنى إليه الناقد الكبير «سيد قطب»، جذبنى إليه قلمه المرهف السيال، ولغته الشفيفة، الموحية بما ورائها من معان وظلال، وكأنها غلالات رقيقة نسجتها أنغام، بدت لى مقالاته على صفحات «الرسالة» آية من آيات النثر الفنى فى أروع وأوضح ذراه.

كان العقادا، صاحب أسلوب عصرى يستمد منطقة وتقاسيمه من أسلوب «ابن المقفع»، وكان «طه حسين» صاحب أسلوب عصرى آخر، يستمد ترسله من أسلوب «أبو عثمان الجاحظ»، وكان كلاهما يتربع على عرش عصرى من عروش فصحى اللغة، وكانت ساحة النثر، فى أدب المقال، تبدو وكأن ليس فيها من مزيد، كان «طه حسين»، فكان نسيجا فريدا فيه، وكذلك كان «المازنى»، و«العقاد» و«الرافعى»، وبدا الأمر وكأن ليس بوسع أحد سواهم أن يقدم أسلوبا عصريا جديدا فى «أدب المقال».

وجاء «سيد قطب»، ليقدم أسلوبا آخر جديدا، يجمع فى إهاب كلماته وتراكيبه، بين قدرة «طه حسين» على التنغيم والإيقاع، وقدرة «العقاد» على المنطق، وحسن التقسيم، فى جمله الطوال والقصار، بين قدرة «طه حسين» على توليد أبنية مهملة من الألفاظ، وقدرة العقاد على توليد الأفكار والمعانى، والاحتمالات والترجيحات، بل ويضيف إلى قدرات العملاقين هذه السيولة الدفاقة، واللاذعة السخرية للمازنى، دون أن يقع فى شراك الكلمات والتراكيب العامية، ويضيف هذه التسجيعات للرافعى، دون تكلف فيها أو إغراق وإسراف وغمرنى يقين بأن الأسلوب هو الكاتب، وأن الكاتب هو أسلوبه، انتقاء للألفاظ الدالة، والموحية، واختيارا للجمل الطوال أو القصار فى جو يصنع إطار الموضوع، ويقدم له صوره وإيقاعه ورؤاه.

وكان أول ما قرأت لسيد قطب، فى سن الصبا، ونحن ندرج مع اللغة والأدب، مقالين على صفحات «الرسالة»، يحمل أولهما عنوان: «نسخ بالكوبون»، وكان عن سيدة الغناء العربى «أم كلثوم»، وكان الثانى عن الموسيقار «محمد عبدالوهاب»، وأذكر أنه قال عن «أم كلثوم» إنها خامة صوتية، كونية، مدهشة، لم تجد بعد

الملحن الذى يحررها من طابع التطريب فى الأفراح، والليالى الملاح، ومجالس السمر، وكيف أن من يحاولون «تقليد أم كلثوم» نسخ بالكربون، لا ترقى إلى أصالة الأصل وبهائه ونصوعه، إلى آخر ماورد بالمقال.

وشد انتباهى إلى «سيد قطب» فى مقاله ذاك، روح دفاق فى قلب الكاتب، يجعله يغمس قلمه فى قلبه، وضميره، ومشاعره، وعقل فطن يوجه اليد التى تكتب، معلنا تمرده على كل محظور لا يقبله المنطق، ولا تباركه التجربة.

وقلت لنفسى: هذا كاتب له قضية، بل قضايا فى الحياة، والمجتمع، ونالس، صوت من أصوات التقدم الكونية بين البشر، ويقف طليعة فى مجال النثر الفنى لهذا الجيل التالى لجيل الرواد من أصحاب القضايا الاجتماعية، والثقافية، والأساليب الأدبية.

وجاءت مقالاته التالية، رسائل إلى صديقه الكاتب «عباس خضر» من أمريكا، وكان قد ذهب فى رحلة إليها، وتكشفت لى من هذه المقالات/ الرسائل قضيته الكبرى فى ذلك الحين، قضية العروبة والأصالة، بل قضية حضارة الشرق بأسره التى أثمرت فيها إنسانية وأديانا وضعية وسماوية، فى مواجهة حضارة الغرب، التى تفككت فيها الأسر، وشحب الشعور بما هو تواصل إنسانى فى العلاقات.

وفيما بعد اتسعت دائرة قراءتى، أدركت أنه كان كاتبا لا يتحيز ولا يتردد فى مواجهة صدمة الحضارة الغربية، أدرك بسرعة وبحسم ما لها من فضل، وما بها من قصور، وأدرك بفطنة ويقين ما نملكه من تراث رفيع من القيم الإنسانية، وما نفتقده من تنظيم للعمل، وأخذ بوسائل التطور العصرية، لم يقع فى فخاخ الصراع الحائر فى النفس الذى وقع فيه «أديب» طه حسين «وأيامه» و«عصفور» الحكيم، و«إسماعيل» يحيى حقى، استوعب دروس الصدمة بسرعة ووضوح، مثلما فعل من قبله رفاعة، والشدياق، فى مواجهة صدمة الحضارة.

تفتت قلبى معه، وهو يصف مشهدا رجل عصر عنقه فى أمريكا المصعد الكهربائى، فتدلى لسانه، والناس من حوله لا يرتجفون للمشهد، وإنما يضحكون له، ويقلدون تدلى اللسان فى الفم المفتوح فى العنق المعصور، وشعرت بموت الإنسانية هناك، وامتلأت بالدهشة، وهو يقول ساخرا لإحداهن، هناك، على المائدة: إن الناس فى بلاده يأكلون البطيخ وعليه الفلفل والشطة، فتسارع بسكب الفلفل والشطة على البطيخ، وتأكله، وتتلذذ بطعمه وتصيح: أوه كم هو لذيذ.

وأحسب أن هذه المقالات وسواها، مما نشرته له الرسالة ومجلات أخرى، فى سنوات الأربعينيات، لم تجمع بعد فى كتاب، مثلما لم يجمع ما نشره على صفحات الرسالة من أشعار فى ديوان، وانتقى هو من هذه المقالات مقالاته النقدية، ونشرها فى كتابه «كتب وشخصيات»، وليت أحد الناشرين يجمع بقية مقالاته، وينشرها فى أكثر من كتاب، فهى حلقة مفقودة من تحولات الكاتب «سيد قطب»، وتشهد على مرحلة ثقافية واجتماعية، من مراحل الثقافة والحياة الاجتماعية فى مصر العربية، وبينهما كتاباته فى صحيفة «مصر الفتاة»، وفى مجلات «الكشكول»، و«دار العلوم».

النقد التكاملى:

حين كنت طالبا بمدينة المنصورة، رحت أبحث فى المكتبة العامة بالمدينة، وأجمع من مكتبات السوق كتب «سيد» التى أحببتها، كانت كلها كتبا نقدية مباشرة، أو ترتبط بالنقد بسبب من أسباب بلاغة التعبير، وفصاحة الأسلوب، وحسن الأداء، واستقامة المعالجة.

كان بينها كتابان: «التصور الفنى فى القرآن»، و«مشهد القيامة فى القرآن»، وكلاهما درس من دروس بلاغة التعبير فى القرآن، تتموج مع تموج الموضوعات والسياقات.

وكان بينها كتاب نقدى بحت، توقفت عنده طويلا، وكان الكتاب عن «النقد التكاملى» ويطول الحديث، لو تحدثت الآن، عن موضوعات أبوابه وفصوله، وعن منهجه ورؤيته ومنحاه، ووجدتنى أربط بينه وبين كتاب آخر، فى مجال آخر، وقرأته ليوسف مراد، ذلك هو كتاب «علم النفس التكاملى».

كانت ثمة مدارس فى علم النفس، وكانت ثمة مدارس فى النقد الأدبى، وكان لكل منهما مناهجه، ودهشت لمحاولة «سيد» الجسور فى خلق منهج أدبى واحد، من مناهج الدراسات النقدية، وتجمع بينها فى إهاب، مثل دهشتى من محاولة «يوسف مراد» الجسور فى سهر مناهج المدارس النفسية فى منهج واحد.

وبدا لى الأمر وكأن روح عصر تتحرك فى النفس العربية، والعقل العربى، وتوجههما نحو هذا الصهر للمتفرقات من مدارس العصر فى بوتقة واحدة، فالموضوع واحد، وسبل النظر إليه تتعدد، وكأن النفس العربية، والعقل العربى، يميلان أبدا إلى هذا النهج الحضارى منذ ميلاد الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى، فهو النهج نفسه الذى سار عليه إخوان الصفاء، وفلاسفة المسلمين وعلماؤهم، منذ القرن الثانى للهجرة، الثامن للميلاد، ولقد ظلوا يسيرون على هذا النهج، فى دأب مقدور، حتى فى عصور الانحطاط السياسية، إلى بدايات القرن الميلادى التاسع عشر.

وكان بينها كتاب «كتب وشخصيات»، وكنت قد قرأت قبل وقت قريب رواية «خان الخليلى» لنجيب محفوظ، واكتشفت كاتبا، يقف على قدم المساواة فى المحاولة مع بلزاك، وديكنز، وزولا، ووجدت فى هذا الكتاب دراسة نقدية لهذه الرواية، ودراسة أخرى عن رواية «مليم الأكبر» لعادل كامل، الذى عرفت فيما بعد أنه رائد الواقعية الحقيقى فى مصر، والأستاذ الأول لنجيب محفوظ على تقاربهما فى سنوات العمر، مثلما عرفت فيما بعد أن «سيد قطب» كان أول ناقد يقيم هذين الكتابين للناس، فى وقت كان النقاد فيه لا يكترثون بغير نقد الشعر، ونقد أدب التراث، ولايحفلون فى قليل أو كثير، بنقد المسرح والقصة، إلا فى نادر الأحيان.

ولم يدر بخاطرى أن كاتبى «سيد قطب»، سوف يتوقف ذات يوم عن عطائه

النقدى، ومساهمته فى الحياة الأدبية، وسوف يخسره المبدعون للأدب، فى شكليه الجديدين خاصة: المسرح، والقص، إلى درجة أنه كتب سطورا قليلة، وجهها للشاعرة نازك الملائكة، يعتذر فيها عن المشاركة بمقال نقدى فى مجلة «الآداب» البيروتية، لأنه وجه اهتمامه وعمره لقضية أخرى أكبر عنده وأجل، هى الدعوة إلى مجتمع الإسلام.

الخراف الضالة:

دهشت ذات يوم حين رأيت لسيد قطب، كتابا يحمل عنوان: «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، قلت لنفسى: «من النقد يتحول الكاتب سيد قطب إلى الكتابات الإسلامية، مثلما تحول من قبله طه حسين فى: (على هامش السيرة»، و«الشيخان»، و«الوعد الحق»، و«مرآة الإسلام»، ومثلما تحول من قبله العقاد فى «العبقريات» وسواها من كتبه الإسلامية..».

قرأت كتاب سيد عن «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، أعجبنى نهجه فيه ومنطقه، وحيثياته من نصوص القرآن والحديث، وواقع التاريخ، لكننى ظللت أسأل نفسى بحيرة: «لم كان هذا التحول فجأة؟ هل كان كتاباه «التصوير الفنى» و«مشاهد القيامة»، وهما من النقد البلاغى الحديث، إرهاصا بسيره فى طريق الدراسات الإسلامية؟ هل يئس الكاتب من دور ما لفعالية الكلمة المبدعة والناقدة فى تغيير المجتمع، وشعر بخلو الساحة العربية من فلسفة عصرية، تفجر وتحدو إمكانيات المجتمع العربى وناسه، فطرق بكتابه هذا الدرب، ليقدم بالإسلام نهجا وفلسفة لوطن وعصر.. أم أن سيد يجرى عليه مايجرى على غيره من الكتاب العرب من تحولات، فى زمن عز فيه تحت سماء الشرق، العثور على فلسفة، ونظام يحقق التوازن العصرى لناس هذه البلاد؟ أم أن الخراف الضالة لا تلبث أن تعود إلى حظائرها بعد طول اغتراب؟».

ولم أجد جوابا لسؤالى إلا بعد لقائى بضع مرات بسيد قطب، فى داره الفسيحة بضاحية حلوان، وكانت الثورة قد بسطت سلطان الجيش على أرضى مصر، وأخذت تناوئ الأحزاب، وكنت قد كتبت مقالا بمجلة الرسالة، بعثت به بالبريد من المنصورة، ونشرته الرسالة فى باب عرض الكتب، وكان المقال عن كتابه الإسلامى التالى: «السلام العالمى والإسلام».

وكان «سيد» قد أخذ يكتب تفسيرا للقرآن، تحت عنوان «فى ظلال القرآن»، وينحو فى تفسيره نحوا نفسيا، وبلاغيا، ويفسر فيه القرآن بالقرآن، وبالحديث الصحيح، وبمناسبة النزول للآيات، فى لغة شاعرية نثرية عزيزة المنال، وقدر له أن ينجز بقية أجزاء هذا التفسير، وهو فى قلب السجن، قبل شنقه بحبل مجدول!

اللقاء الأول:

فى اليوم الأول لى بالقاهرة، ومن فندق شعبى بشارع «كلوت بك» بحثت فى دليل التليفون عن رقم تليفون كاتبى الأثير، وجاءنى صوته، فأخبرته باسمى،

وبرغبتى فى زيارته، فوصف لى العنوان إلى بيته فى حلوان، وأرشدنى إليه بدقة وكأنه حريص على اللقاء.

وجدته جالسا فى حديقة بيته، تحت شجرة عتيقة، تتدلى منها بين الأغصان مصابيح الكهرباء، أخذنى خادم إليه، كان يلبس جلبابا أبيض، كان أسمر اللون، بيضاوى الوجه، يحمل عينين واسعتين، غافيتين أبدا، وبدا لى وهو ينهض مصافحا نحيل القوام، وكان يجلس معه الشاعر «محمود أبو الوفا»، وشعرت إذا جلست معه، «وعينا أبو الوفا ترقبانى» بغربته، وغربتى.

شكرنى على مقالى عن كتابه، وشردت عيناه، ينصت إلى السكون، وزقزقة ما، خافتة، لطيور بين الأغصان فى أشجار الحديقة، سألنى من أين أنا، وشردت عيناه، وران الصمت، وسألنى فيم قدومى إلى القاهرة، وشردت عيناه، وران الصمت، وشعر «أبو الوفا» بحرجى، فأخذ يحدثنى و«سيد قطب» يسمع، وكأنه لايسمع، وتذكرت ما كتبه يوما «طه حسين» عن الحكيم إذ قال عنه: «هو غائب كحاضر»، و«حاضر كغائب»، ترددت ثم سألته عن رأيه فى هذه الثورة، فابتسم وقال لى:

ـ هنا، تحت هذه الشجرة، كان الضباط الأحرار يعقدون بعض اجتماعاتهم معى، فى فترة التمهيد للثورة.

كانت الحديقة واسعة يحيط سورها بها، وبهذا البيت الريفى المطلى الجدران، المنزوى فى جانب يسير منها، وكانت عيناه قد عادتا للشرق وكأنه لاوقت فى الزمن، ولاحساب لمرور اللحظات، وكأن الزمن ذلك الزمن الذى فى داخله وحده، رآنى أجوس بعينى فى الحديقة، فقال لى ضاحكا:

ـ لست غنيا، كان معى ألفا جنيه، وهذا البيت كان لمأذون حلوان مساحته نصف فدان، اشتريته منه بكل ما كان معى، وفى حديقته أقضى ليلى، ومكتبى بجانب هذه النافذة هناك، الخضرة تساعد الكاتب على الكتابة، ألست معى؟

وشردت عيناه، كأنما أرهقته الكلمات، أو كأنه أعتاد أن يكتبها، حتى نسى النطق بها، ونهض عائدا إلى البيت، حتى ظننت أننى لم أعد مرغوبا فى بقائى، فهممت بالانصراف فضحك «أبو الوفا» وقال:

ـ انتظر سيعود، الوقت فى الليل هنا بلا حساب.

وعاد «سيد قطب»، يحمل مظروفا، أخرج منه صورا، وأخذ يريها لى واحدة واحدة، وكان هو فى كل صورة، وتحت هذه الشجرة، وكانت كلها صورا ليلية أخذت فى أضواء الفلاش، وفى كل صورة كان هؤلاء الضباط الأحرار، وهو بينهم واسطة العقد، وإذ رددت إليه آخر صورة قلت:

ـ لا أرى بينهم محمد نجيب.

فابتسم وقال:

ـ هذا جاءوا به واجهة للثورة، الرتبة العسكرية لها حساب.

وأرانى الصورة التى رددتها مرة أخرى، وأشار إلى جمال عبدالناصر، وقال:

ـ هذا هو قائد الثورة الحقيقى، يتوارى الآن وراء محمد نجيب، وغدا سيكون له شأن آخر.

وأعاد الصورة إلى المظروف، ووضعه على أريكة خضراء مثل أرائك الحدائق العامة، قلت:

ـ أراضٍ أنت عن هذه الثورة؟!

قال سيد قطب:

ـ لا أجد فى تطور أمورها ما يريح، فهؤلاء الأمريكان يحاولون احتواءها بدلا من الإنجليز، أتفهم ما أعنيه؟

هززت رأسى، وأطرقت، وسمعت صوته يقول:

ـ هل تحس كشاب أنهم سيفلتون من الاحتواء.

ولم أجد على لسانى ما أجيب به، قلت بتردد:

ـ هل تحولت عن النقد؟

دهش، وقال:

ـ من قال ذلك؟

ثم ابتسم وقال:

ـ الكاتب حين تكون له قضية، يكتب فى النقد، وفى غير النقد، وغايته أن يبعث العافية فى أوصال الناس، الكاتب ليس ناقدا فحسب.

وطالت الجلسة، وطال الصمت، وفرغت أقداح الشاى للمرة الثانية، وانصرفت مودعا، عائدا إلى محطة المترو، عبر شوارع لا يقطع سكوتها، سوى نباح الكلاب، فى ليلة مظلمة، شاحبة الأنوار، مغبرة المصابيح.

الأطياف الأربعة:

أمام بائع صحف على رصيف، بوسط القاهرة، رأيت كتابا يحمل عنوان: «الأطياف الأبعة»، ودهشت إذ وجد عليه اسم «سيد قطب»، وأسماء ثلاثة قدرت من ألقابهم إنهم إخوته، اشتريت الكتاب، وجلست على أول مقهى مع الضحى.

كان الكتاب لونا من المذكرات وسيرة الحياة فى مجتمع متخلف، فى قرية نائية من قرى مصر، قدم لى الكتاب حياة الطفولة والصبا لسيد وإخوته، فى عالم القرية، مثلما فعل «طه حسين» فى الجزء الأول من أيامه.

وبدت لى سيرة الإخوة الأربعة، الصبية، أكثر صدقا، وبساطة وواقعية، من أيام «طه حسين»، ومن عالم معذبيه، وعجبت لأن الأسلوب واللغة، هما أسلوب سيد ولغته، فهل صب قلمه ما كتبه الإخوة فى نسق واحد، أم أنه هو الذى فكر وكتب ما فكر فيه؟ وهل تراه، وحياته مشتركة مع حياة إخوته، كان يترجم لفترة من العمر، لنفسه، ولإخوة يحبهم، فى آن واحد، وهو لهم بمثابة الأب والأم والأخ الأكبر معا؟

فيما بعد، لم أعرف من بين الإخوة الأربعة كاتبا، عدا سيد، سوى أخيه:

محمد قطب، وكان فى كتاباته، بعد أن تحول سيد تحوله الأخير، مثل الصدى للصوت، والشارح للمتن، والحاشية للشرح، والهامش للنص، والذيل للفصل، كان يردد أفكار أخيه وربما تكون الفكرة فقرة، مجرد فقرة فى كتاب، فتبصح تحت يده كتابا لأخ ذاب فى أخيه، وقارىء انصهر فى مثله الأعلى، ومن المدهش والعجيب أنه كان يحتذيه فى أسلوبه وألفاظه، وإيقاع جمله، حتى فى هذه الحروف الممدودة فى الكلمات الأخيرة من الجمل، أو الفقرات، قبل الحرف الأخير.

وأحزننى أن أعلم، من أحاديث الأدباء فى مقاهى الأدب، أن «سيد قطب»، يعيش برئة واحدة، بها يمد جسده بالهواء، وأنه ربما بسبب هذه الرئة الوحيدة، يلزم بيته، ويحيا من قلمه، ويغادر وظيفته باللجنة الثقافية بوزارة التربية والتعليم، ويترك الأدب إلى الكتابات الإسلامية، ودور الناقد، لدور الداعية، وأنه يوشك على الولوج فى عالم التصوف، أو علم الداعية.

واستبعدت بينى وبين نفسى، أن يتصوف «سيد»، فمن يحمل مثل روحه، حتى فى بدن نحيل، ومن يصبح القلم فى يده الصغير مثل سوط فى يد عملاق، لا يلج أبدا طريقا إلا من الباب الضيق، ومثله لايهرب من مشاق الدنيا وأبوابها الضيقة، إلى عالم التصوف، وأبوابه الوسيعة، كفضاء الدنيا.

اللقاء الأخير:

نشر فى صحيفة أن «سيد قطب»، يلازم فراشه لمرضه بوعكة صحية قد ألمت به، ومع أننى منذ أن سار «سيد» فى طريق غير الذى أخطه لنفسى، وفى درب غير الذى كنا، نحن الأدباء، نسير فيه، فقد قررت الذهاب لزيارته، فأنا أدين له، لم أزل فى روحى بالكثير.

كان أمر «الإخوان المسلمين» قد آل إلى المرشد العام الجديد: «حسن الهضيبى»، وكان «سيد قطب» قد صار، بعد ضرب الثورة للأحزاب بالإخوان، أشهر وألمع كاتب فى صحيفة الإخوان الجديدة «الدعوة»، صار كاتبا ثوريا على النهج الإسلامى، تحت راية «الإخوان المسلمين»، ولم يخف شكوكه عن قلمه، ولا عن الناس، وهى شكوك ظهر فيما بعد أنه كان مصيبا فيها جميعا.

كان يهاجم هذه الاتصالات بين الثورة والأمريكان، ويوشك أن يدعو الناس إلى الانتفاضة ضد ضباطها الأحرار، مثلما يدعو الفدائيين، قبل الثورة، للاستدارة إلى ضرب الجهات التى تعوقهم عن العمل الفدائى ضد الإنجليز فى داخل مصر، فهذه الجهات هى آنذاك - فى رأيه - العدو الرئيسى، والإنجليز سيأتى دورهم بعد ذلك، حين تتوحد الصفوف، وتتطهر أرض الوطن.. ومثلما كان يفعل فى صحيفة «مصر الفتاة» تحت عنوان «وراء الرغيف»، ومثلما كان يفعل فى مجلة «الكشكول»، محرضا، فى الاثنين، الناس على المطالبة بالعدالة، لينال الفقراء والمستضعفون حظهم من الدنيا، ويكون لإنسانيتهم حق الأخذ والعطاء.

كان رقدا على سريره، لاهث الأنفاس، يعانى من برد شديد، ومد لى يده الصغيرة مصافحا، وهو ينهض بنصف قومة، وجلست بجانبه على مقعد، وقلت له ضاحكا:

- ظننت أن مرضك مرض سياسى.

فقال لى:

- إن شئت الحق، الاثنان معا.

تذكرت يوما سمعت فيه عن محاضرة له فى قاعة «على مبارك» بكلية الآداب، جامعة القاهرة، فذهبت لأسمعه، يتحدث خطيبا لأول مرة، ورأيت ذلك النحيل البدن، الشارد العينين، الذى يؤثر القول بالقلم، على القول باللسان، خطيبا مفوها، وداعية إسلاميا حاضر الذهن، بالآيات والأحاديث، ووقائع التاريخ، يحدث الحاضرين فى القاعة عن طريق الإيمان، وعن عدم فصل الإسلام بين الدين والدنيا، والمادة والروح، والجسد والدولة، مثلما تفعل حضارات الغرب والشرق، ويروى من سيرة حياته «سمعت ذلك بأذنى» أنه ظل ملحدا أحد عشر عاما، حتى أخذ يكتب كتابه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام»، فإذا به يعثر على الطريق إلى الله، ويخرج من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان، وتسوقه الخطبة إلى مهاجمة الجامعة، فى قلب الجامعة، ويصف أساتذتها بقوله: «جهل يحمل الدكتوراه»، عند تلك القولة «الهفوة» شعرت أنه قد صار بينى وبينه بون شاسع.

جاءت شقيقته الصغرى بالشاى، وضعته بيننا، وقلت لسيد:

- ما رأيك فى الاشتراكية؟

فقال لى:

- لا هدف لها سوى العدالة، والإسلام عندى اشتراكى النزعة.

قلت له:

- وددت لو أعرف منك: لم انضممت إلى الإخوان، وصرت لهم خطيبا وداعية؟

فقال لى:

- فى الناس وحوش، ولا يوقف وحشيتهم بالوجدان سوى الدين، ولايجرئ الضعفاء عليهم سوى الدين.

فهمت فى تلك اللحظة نزعة المصلح الاجتماعى المثالى عند «سيد قطب»، وسر اختياره لهذا الطريق، رويت له كيف أننى كنت عضوا مغمورا بالإخوان قبل سنين، وكيف بكيت يوم مات مرشدهم «حسن البنا»، وكيف تركت الإخوان، حين جلست على رصيف محطة للسكة الحديد، أقرأ فى كتاب «علم النفس التكاملى» ليوسف مراد، فى ظل شجرة رطيب، فى عز الظهيرة، وجاء قائد من قادة الإخوان، وجذب الكتاب من يدى، وإذ قرأ عنوانه، طوح به، ودوت يده بصفعة على خدى وأذنى، وقال لى:

- أتقرأ هذه الكتب، وتترك كتاب الله؟

ابتسم «سيد» بحنو، وقال:

- ولذلك تركت الإخوان؟

قلت:

- أجل، هذا التطرف، والكراهية لعلوم الدنيا، لا أطيقها من أحد.

فقال لى:

- إنهم شباب ينقصهم الكثير من المعرفة بأمور الدين، وروح الدين، وغاية الدين.

ولم يفلح يوما «سيد» فى إعادتى إلى «الحظيرة»، ولم أتوقع منه أن يكون فى يوم ما، داعية لهذا التطرف العنيف، فى كتابه الرهيب: «معالم على الطريق»، وكأنه كان يشعر أنه سيودع الدنيا، شهيدا، بعد حين، ويستعجل الشهادة.

كثيرا ما كان يخالجنى الشك فى صلته بالعقاد، فأسلوب سيد فيه لمسات الاحتذاء للعقاد.

روى لى سيد ذكرى مريرة، بدا لى وهو يرويها كأنها لم تعد تحزنه، أو تعنيه فى شىء، قال لى وهو يبتسم:

- كنت له تلميذا محبا، وكنت أقدم له كتبى، فيثنى على، ويقربنى منه، حتى طلبت منه ذات يوم أن يكتب مقدمة لكتاب لى، يقدمنى به للناس، فأبى ذلك على نفسه وعلى، وشعرت بالغيظ، حين آثر أن يقدم لكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» لخليفة التونسى، ولا يقدم لكتابى، فجفوته وجفانى، وهجرت مجلسه.

سألته.

- أى كتاب كان؟

فقال لى:

- ليس ذلك مهما الآن.

وآثر سيد الصمت فى هذا الموضوع، لم ألح عليه، ولكننى فكرت أنه ولابد كان واحدا من كتابين: «التصور الفنى»، و«مشاهد القيامة»، وهما موضوعان يجدر أن يكتب فيهما العقاد، أيكون السبب هو غيرة الأستاذ من تلميذه الموهوب؟ أم يكون سبب الرفض والجفوة حدة القلم، وتمرد الروح فى كتابات «سيد قطب»؟

شقت صفوف الإخوان بعد ضرب الأحزاب، وإلغاء الدستور، وحل البرلمان، بإثارة اتجاهين داخل صفوف الإخوان، أحدهما ضد الآخر، اتجاه الدعاة من خريجى الأزهر، واتجاه الدعاة من خريجى الجامعات الحديثة، وكان «سيد قطب» علم الأعلام فى هذا الاتجاه الأخير.

وصدر كتاب «معالم على الطريق» لسيد قطب، وقد حلت جماعة الإخوان، وجرت المحاولة لاغتيال عبدالناصر، حقيقة كانت هذه المحاولة أو تمثيلا، وألقت الثورة القبض على مفكرى جماعة الإخوان، وفى طليعتهم «سيد قطب»، و«عبدالقادر عودة»، ودام سجنهما سنين معدودة، حتى شنقا، وودعا الدنيا شهيدين، لم تشفع لهما كمفكرين شهرين، برقيات الدنيا، ولا شفاعات حكام الدول الإسلامية أجمعين.

مازلت أذكر يوما جلست فيه مع الناس، بمقهى، ونحن ننصت إلى محاكمة الثورة «فى محكمة الشعب» لقيادات الإخوان، وإذا جاء الدور على «سيد قطب»، فوجئت به، عبر الأثير، يتكلم، هو النحيل البدن، ذو الرئة الواحدة، بقوة، لاحساب معها لخوف من ضرب أو تعذيب، قبل المحاكمة أو بعد المحاكمة، يتحدث بصفاء مدهش، إلى قاضيه، وقد كان واحدا من صفوف الثوار الذين يجتمعون عنده فى بيته، فى الليالى الحارة، والليالى الباردة، يتحاورون، فى أمور التمهيد للثورة، والإعداد لها، ولقد أرانى «سيد» يوم زرته أول مرة، صورة لهما، كانا يجلسان معا، ويأكلان معا «القاضى والمتهم» دون أن يدور لهما بخاطر، أن أحدهما سيكون ضحية لكلمة ينطق بها صاحبه.

ومازلت أذكر يوم قابلت شقيقه «محمد» وكنت أقد أصدرت أول مجموعة قصصية لى، وأهديتها لسيد فى سجنه، فأخذها إليه، فأخذها منه «سيد»، وقد أعاد إلى «سيد قطب» الغلاف الداخلى الذى خططت بيدى الإهداء عليه، وحمل محمد الورقة إلى قائلا لى:

ـ سيد يقول لك: إنه لا ينبغى أن ينالك أذى بسببى، فمزق هذه الورقة بيدك أنت.

أشفق «سيد» أن يمزق هو الورقة بيده ولا أعلم، فأقع ذات لحظة أسير الهواجس والمخاوف والظنون، وأظل أترقب، وقد كان ذلك يمكن أن يحدث لى، إثر إعلان الحكم عليه بالموت شنقا.

فارس الدائرة المشئومة

- ١ -

فى سنوات الثلاثينيات، كان التكوين الثقافى، وكانت بواكير الإنتاج القصصى لموجة جديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة، موجة أكثر عروبة، أو أكثر مصرية، وأصالة من الموجة السابقة فى حقل القصة، بعد أن عبدت لها بواكير الرواد الطريق فى العقدين السابقين: المازنى، وهيكل، وجورجى زيدان، وعيسى عبيد، وطاهر لاشين، وجمعة، وغيرهم، وكانت حركة «أبوللو» الشعرية فى أوجها، وجيل الرواد يزداد خصوبة: إنتاجا وفكرا، فى الإبداع والدراسة.

كانت الحركة الفكرية تناقش اتجاهاتها بين الأصالة والمعاصرة: الاتجاه الإسلامى، والاتجاه القومى العروبى والاتجاه الإقليمى المحلى، والكل، من يومها، فى حيص بيص، حيال حضارة الغرب المادية الحديثة، بنظاميها الرأسمالى، والاشتراكى، بين نافر، ومؤيد، وموفق للرؤوس، فى حلالات الفكر، وجازم بالتحريم فى لقاءات الشرق والغرب، والمادة والروح.

وفى هذا الجو الفكرى العاصف، والزاخر، والكل يبحث عن فلسفة وهوية، كان التكوين الثقافى لأعلام الموجة الجديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة، وصار أبرزهم فى سنوات الثلاثينيات، متوزعا بين الاتجاه فى القص إلى موضوعات التراث التاريخية، العربية، والفرعونية والإسلامية، العريان، وأبو حديد مثلا استغرقتهما موضوعات التراث الإسلامى والعربى، ومعهما كان «باكثير» و«السحار»، وكان كلاهما عضوا بلجنة النشر للجامعيين، مع «سيد قطب» و«نجيب محفوظ»، و«عادل كامل»، والأخران أن شدتهما إليهما فى البداية، موضوعات التراث الفرعونى، فكتب «نجيب» ثلاثيته الفرعونية، وبينها: «رادوبيس»، وعبث الأقدار، وكتب «عادل كامل» روايته «ملك شعاع».

وكان هذان الاثنان أكثر انفلاتا بين أعلام موجتهم، من حقل التراث عامة، فسار «عادل كامل» بروايته «مليم الأكبر» فى طريق جديد، طريق المحلية المصرية العصرية، ومثله فعل فيما بعد «نجيب محفوظ» حين كتب «خان الخليلى»، بعيدا عن موضوعات التاريخ والتراث، والمعالجة القصصية المباشرة لهما.

وكان «عادل كامل»، أحد الوجوه القليلة التى وعتها ذاكرتى بين أعلام هذه الموجة الجديدة من القصاصين.

ضباب ورماد:

فى أواخر الأربعينيات، كنا ثلاثة نرتاد المكتبة العامة بحى «المختلط» بمدينة المنصورة، كانت المكتبة، فيما مضى استراحة لإحدى أميرات القصر المالكى على شاطىء النيل، وكانت لهذه الاستراحة درجات تصل إلى مجرى النهر، يرسو عليه قارب الأميرة، وحلقات حديدية يشد إليها قاربها، وصارت الاستراحة فى العهد المالكى مكتبة للمدينة، تتبع دار الكتب المصرية فى «باب الخلق» بالقاهرة، واحدة من سبع وعشرين مكتبة تابعة لدار الكتب، فى مصر الكبرى، وعواصم مديرياتها.

كان قيم المكتبة هو «الشيخ أمين»، كان رجلا طيبا يعشق الثقافة، ويحب روادها المدمنين للقراءة، وبينهم كنا نحن الثلاثة: «عبدالجليل حسن»، و«أبو المعاطى أبو النجا»، وأنا، وبلغت علاقتنا بالمكتبة، وبقيمها «الشيخ أمين»، أننا كنا نتردد عليها فى أوقات عملها، عدا يوم الجمعة فى الصباح، وفى المساء، وصرنا بين مساعدى «الشيخ أمين»، نتجول فى صالات الكتب الداخلية بها، بين دواليب تحمل ثلاثين ألف كتاب، فلم يكن نظامها نظام المكتبات المفتوحة، وننتقى لأنفسنا ما نقرؤه، ونجلب للرواد ما يريدونه من كتب، حين يكون المساعد الوحيد للشيخ أمين غائبا، وكثيرا ما يتغيب، مطمئنا إلى وجودنا دائما.

وقعت عينى على صف لأعداد مجلة «المقتطف»، رحت أتجول بين صفحاتها أياما، وقرأت فيها بين ما قرأته، عملين أدبيين هامين للغاية: أحدهما كان محاورة أدبية ونقدية مترجمة، حول الإبداع والنقد، اشترك فيها ثلاثة: كان أولهم ناقدا أدبيا، والثانى عالم طبيعة، والثالث عالم رياضة هو «أينشتين» صاحب النظرية النسبية، وكنت قد قرأت فيها كتاب «نظرية النسبية العامة» لمشرفة، وفهمت ما كتبه مشرفة عنها، لكن كتابه الآخر عن «النسبية الخاصة» كان مليئا بالمعادلات الرياضية، فعز على التواصل معه، ودهشت لما قرأته فى المحاورة، فها هو ذا أينشتين، وصاحبه عالم الطبيعة، يفهمان عن الإبداع والنقد، أكثر مما يفهمه ناقد الأدب.

العمل الهام الآخر كان قصة لعادل كامل، تحمل عنوان «ضباب ورماد»، ولم آلف على صفحات أعداد المقتطف نشرها لقصة، ولقصة مؤلفة، ولكاتب مصرى، كانت القصة قصيرة طويلة، وتستغرق فيما أذكر أكثر من عشرين صفحة من صفحات عدد مجلة المقتطف الذى نشرت به، قرأت القصة مبهورا، مسحورا، لاهث الأنفاس.

كانت القصة مغامرة روحية ونفسية، لفيض من المشاعر والأحاسيس، لا حدث فيها يحكى، عالما متتابعا من الصور والرؤى، لا تخلو من دفق وجودى،

وتحديق فى الداخل، كما ينطبع عليه العالم الخارجى، واللغة فيها لغة جديدة، وفريدة، فى القص القصير الطويل، ولا عهد لى بنصاعة مثل نصاعتها، والصور باهرة التكوين، والزمن فيها يتداخل بانسياب فى كل زمنى واحد، والمشاعر حرة طليقة، كما الطير فى السماوات.

وفيما بعد، إذ وفدت إلى القاهرة فى الخمسينات، واتسعت دوائر قراءاتى للمترجمات، أدركت صلة هذا اللون من القص بعوالم جويس، وفرجينيا وولف، وبروست، وفيما بعد، فى الخميسنيات تذكرت أن تاريخ نشر هذه القصة بالمقطف، كان فى مطلع الثلاثينيات، وحدثت نفسى أن «عادل كامل» بهذه القصة، كان رائدا حقيقيا، وأنه كان سابقا لزمانه وأوانه، وحزنت لتوقفه عن القص.

ولقد استغرقت القصة المصرية زمنا، حتى بدت لاتجاهها الفنى إطلالات فى قصص قصاصى الستينيات، مجرد إطلالات لا ترقى إلى مستوى «ضباب ورماد» لغة، وبناء، وصورا، وعالما طليقا فى الزمن والمشاعر، وأشك أن واحدا منهم قد قرأ هذه القصة، القديمة العهد، التى لم تنشر فى كتاب.

مليم الأكبر:

فى القاهرة، فى سنوات الخمسينيات، قرأت، للمرة الأولى، رواية «مليم الأكبر» لعادل كامل، كانت سياقا فنيا آجر، غير سياق «ضباب ورماد» شحنة من الواقعية والعنفوان، حدثت نفسى أن هذا كاتب حقيقى، له روح، نيتشوى النزعة فى اختياره لموضوعه، وفى تجربة روايته، بل فى شخوصه ولغته، وحوارات ناسة فى عالم روايته، كاتب حقيقى له عالم واقعى خاص، يفيض بروح الدراما، بين فنانين ضائعين، فى جيل ضائع، واقعى خاص، يفيض بروح الدراما، بين فنانين ضائعين، فى جيل ضائع، فى «غرف مقبضة»، فى حارة شعبية ساكنة، ثابتة العادات، رتيبة الحركة.

عدت أقرأ مقدمة «عادل كامل» بين يدى الرواية، القوة فى المقدمة، هى نفسها التى وجدتها فى الرواية، اللغة الطليقة، والإرادة الحرة المتحدية، التى تريد خلق العالم من جديد، وإعادة صياغته، هى هى التى لناسه فى الرواية.

كان عادل كامل قد كتب هذه الرواية عام ١٩٣٦، ولم يتح له نشرها لأول مرة فى كتاب، لأسباب لا أعلمها «وقد كان عضوا بلجنة النشر للجماعيين» إلا فى عام ١٩٤٣، ولم تنشر فصوله، فى «الرواية» (الملحق القصصى لمجلة الرسالة الزياتية) التى كان ينشر بها «نجيب محفوظ» أقاصيصه الأولى، وكان «عادل كامل» قد تقدم بهذه الرواية لينال جائزة «مجمع فؤاد الأول للغة العربية» (مجمع اللغة الآن)، وأبت اللجنة فى تقريرها أن تمنح هذه الرواية الجائزة، وقد منحها المجمع لرواية «لقيطة» لمحمد عبدالحليم عبدالله (ربما لم يكن ذلك فى نفس السنة).

وعجبت لذوق أعضاء المجمع، فلقيطة كانت الباكورة الأولى لمؤلفها، وكانت مليئة بالسجع والمحسنات البديعة الأخرى، وكانت عالمها مليو دراما يستدر العواطف، فى استجداء، وتبدو لغتها ألفاظا وصورا وتراكيب كأنها خارجة لتوها من معطف «المنفلوطى» و«الرافعى» والزيات، غارقة فى قيود النثر الفنى غرق الشعر القديم فى قيوده، وثار «عادل كامل» فى مقدمته ضد المجمع ثورة فنية عارمة.

شعرت بالحزن لعادل كامل: كيف لا يدرك آنذاك أن عليه أن يسبح فى مياه أخرى غير مياه المجمع «آنذاك»؟ أو كيف تستدرجه جائزته، أو يخدع بمعنى هذه الجائزة لكاتب مثله؟ وأيقنت أنه أخطأ التقدير لنفسه، ولروايته، وقدرت أنه، ربما لهذا السبب، وغيره من الأسباب التى لا أعلمها، توقف عن كتابة القصة، وكان المثقفون يتحدثون آنذاك عمن توقفوا عن القص، وعن الشعر، وعن التأليف المسرحى.

وأدركت أن عادل كامل، بروايته «مليم الأكبر» وفى التاريخ الذى كتبت فيه عام ١٩٣٦، كان سابقا فى ارتياد الإبداع القصصى، فى تيار الواقعية النقدية، لنجيب محفوظ صاحب «بداية ونهاية».

ففى الوقت الذى كتب فيه عادل كامل قصة «ضباب ورماد» ورواية «مليم الأكبر»، كان نجيب يكتب أقاصيصه الأولى على صفحات «الرواية»، بين عامى ١٩٣٢ و١٩٤٣، ويجهد للاقتراب من لغة القص، وبساطة اللغة، والواقعية فى قصص أكثرها يعد من باب المفارقة، والنكتة، قصص بالعشرات، لم يختر منها نجيب سوى عدد محدود، نشره فى مجموعته الأولى «همس الجنون»، ورفض نشر سائرها فى مجموعات أخرى.

ملك من شعاع:

بين دعاة الإقليمية، أو المحلية فى الأدب، فى سنوات الثلاثينيات، كان «عادل كامل» و«نجيب محفوظ»، وليس لأحدهما، فيما أعرفه، مقالا فى هذا الصدد، لكن نزوعهما إلى هذا الاتجاه كان واضحا، فيما أبدعاه من روايات.

«نجيب محفوظ» كتب ثلاثة أعمال روائية فى التاريخ الفرعونى، بينهما: «رادوبيس» و«عبث الأقدار»، وعادل كامل كتب روايته التاريخية اليتيمة «ملك من شعاع» عن اخناتون الملك، موحد الآلهة فى إله واحد، هو: «الشمس».

ولأن الدعوة للإقليمية، بمعناها الخاص، بالتراث الفرعونى، وبإمكان ربط الواقع العصرى لمصر، بحضارة بادت وانقطعت فكرا، ولغة باللغة القبطية، ثم باللغة العربية، وبالحضارة اليونانية، ثم الرومانية، ثم العربية الإسلامية، فقد أخذت هذه الدعوة الإقليمية معنى جديدا، عند «نجيب محفوظ»، و«عادل كامل»، معنى المحلية، المصرية، والعصرية، فكانت روايتا «مليم الأكبر»، و«بداية ونهاية».

وإذ توقف «عادل كامل» بعد «مليم الأكبر» عن القص استمر «نجيب محفوظ»

فيه، فقد أضاف «نجيب» إلى نزعته المحلية المصرية العصرية، وفى ثنايا رواياته، معنى «الإيمان» بصورته الإسلامية، الصوفية، التى تمثلت فى بعض شخصياته، وراح يضفرها، فى ثلاثيته، وحرافيشه، وحاراته، جنبا إلى جنب مع: زيطة، والموظفين، والفتوات، واليساريين، والوفديين، والإخوان، وأحسب أن «عادل كامل» لو استمر فى القص، لانتهى به الأمر إلى الطريق نفسه، وإن تغيرت الرؤية، وتغيرت التجارب، وتغيرت طريقة المعالجة والتعبير.

عالم واحد، هو عالم «ملك من شعاع»، و«رادوبيس»، و«عبث الأقدار» لكن رواية «ملك من شعاع»، تبدو لى كرواية، سامقة روائيا، قصا وفن قص، على فرعونيات نجيب محفوظ، وما قدرت عمق العلاقة بين الاثنين خاصة، وهما أبناء حقبة واحدة، ورفيقا عمر، على كثرة لقاءاتى بنجيب فى مقهى الأوبرا، حتى أتيحت لى الفرصة للقاء «عادل كامل».

الدائرة المشئومة:

عام ١٩٥٩، عملت شهورا كصحفى بصحيفة الجمهورية، كان «سعد الدين وهبة»، كاتب المسرح، يعمل بالصحيفة نائبا لرئيس التحرير، وكان يشرف على تحرير صفحة منوعة مثيرة بالصحيفة، الصفحة الخامسة بالتحديد، عرضت عليه إدارة حديث صحفى مع «عادل كامل» صاحب «مليم الأكبر»، والتى صار بها شهيرا بين كتاب القصة فى مصر، ولم أكن قد كتبت سوى أربع قصص أو خمس، نشرتها بمجلة «الآداب»، وأذيعت من البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة، لكن معرفتى بعالم القصاصين فى مصر كان طيبا، وافق سعد على الفكرة، وكنت أعرف أن «عادل كامل» قد صار محاما منذ منتصف الأربعينيات، وذهبت للقائه.

كان مدخل مكتبه مليئا بشوانين الملفات والبطاقات والموظفين والمحامين، وخرج من باب جانبى رجل عمره جاوز الأربعين ببضع سنين، مصرى الوجه، أسمر، راعنى انحناؤه وهو يصافحنى، وراعنى هذا المنديل الأبيض الذى يدسه فى كم يسراه، مثل لورد إنجليزى، وصحبنى إلى مكتبه الخاص.

فاتحته فى سبب زيارتى له، فابتسم وقال لى:

- دعنا من الحديث، فهذا أمر نسيناه.

عدت أعرض ماجئت أسأله عنه، ولاأعرف تماما كيف تحول الموقف بيننا، صار المسئول يسأل، قال لى:

- أهم من ذلك أن نتعرف ببعضنا أنا وأنت، قد نصير صديقين، قدومك إلى يجعلنى أشعر أنك قرأت لى «مليم الأكبر»، وأنك تمارس كتابة القصة.

قلت:

- وقرأت رواية «ملك من شعاع»، وقصة «ضباب ورماد».

وكأنما مست فيه إشارتى لضباب ورماد ذكرى خاصة، انفتح صدر «عادل كامل» لى، خلع جاكتته، وألقى بمنديل كمه جانبا، وشمر قميصه إلى منتصف ساعديه، وقال:

- الآن نتكلم، أريد أن أقرأ لك.

حدثته عن نفسى، وحدثنى عن نفسه، مؤكدا بين حين وآخر أننا نتعارف، وأن ما يقوله ليس للحديث الصحفى، وأرانى صورة لبناته الثلاث، وباح لى أن «نجيب محفوظ»، لا يدخل أحدا بيته، فيما يعلم، سواه، وباح لى بأن «نجيب» لا يطلع أحدا قبله، على قصة له، إثر كتابتها بالآلة الكتابة، وأرانى رواية «أولاد حارتنا» الموضوعة على مكتبه (قبل أن تنشر مسلسلة بالأهرام، وقبل أن تصدر فى كتاب ببيروت «إثر اعتراض الرقابة الدينية على موضوعها»، وباح لى بأنه قدم لنجيب خدمة العمر، منذ أن عمل هو محاميا أتاح له أن يكتب سيناريوهات لأفلام السينما، فغطى بأجوره عنها نفقات أعوامه كموظف بالأوقاف، وأتاح له ذلك فراغا يوميا، يكتب فيه قصصه، كان سينفقه فى القلق على موارد المعيشة الشهرية، وفى العمل الإضافى بأى مكان، وضحك «عادل كامل»، وقال:

- أنا سعيد حقا، لأننى أتحت له هذه الفرصة، أحدنا على الأقل قد بقى فى ساحة القصة، يكتب قصصا.

رحت أسأله عن رأيه فى القصاصين اللامعين الذين تشهدهم ساحة الإبداع القصصية فى مصر: «محمد عبدالحليم عبدالله»، و«إحسان عبدالقدوس»، و«يوسف السباعى»، و«محمود البدوى»، وسواهم من المعروفين، وما ظننت أنه يجد وقتا أو رغبة لقراءة أحد من هؤلاء القصاصين الجدد، فى صحيفة «المساء» أو فى مجلة «روز اليوسف»، ولم يخف رأيه فيمن سألته عنهم، ولم يتحرج فى البوح به، ثم قال لى:

- هؤلاء صنعوا أنفسهم بالإعلام، لا أستثنى منهم سوى «محمود البدوى» فى بداياته الأولى، ويضيعون أنفسهم وأوقاتهم بكتابة القص.

كنا قد قضينا ساعتين من الثانية ظهرا، حتى الرابعة عصرا، ونسى كلانا حاجته إلى الطعام، لا شىء سوى الحديث وفناجين القهوة، سألت «عادل كامل»:

- لم توقفت عن كتابة القصة؟

قال لى:

- إثر موقف مجمع اللغة من روايتى أدركت أنه لا قبل لى بإضاعة الوقت فى مناطحة الصخر، وأدركت أننى لن أعيش من قلمى ككاتب، وأن قلمى لو صار فى يدى سيفا، ولاينبغى له أن يكون فى يد الكاتب، سوى سيف، سيجعلنى أعانى أكثر، مشقة مجرد العيش، قررت فى تلك اللحظة، أن أكون محاميا، وهأنذا كما ترى، ميسور الحال، الشوانين ملأى بالملفات والبطاقات، شركات كثيرة بقلب المدينة قضاياها بمكتبى هذا، وأنا بعد محامى الفنانين المقيمين فى مصر، والذين يفدون

إليها من الفنانين، أو يخرجون منها، وبفضل معرفتى بهؤلاء الفنانين، أتيحت الفرصة لنجيب ليكتب سيناريوهات للسينما، ويواصل كتابة قصصه.

ثم أكد على قائلا:

- ماقلته تعارف، وليس للحديث، اسمع.

وطلب منى أن ألقاه غدا، ومعى قصصى أختارها له، ليقرأها لى، ولنزداد معرفة ببعضنا البعض.

فى اليوم التالى، حملت له ثلاث قصص، ولم يكن بمكتبه، فرحت أتجول بين الكتب المجلدة، فى دواليبها الزجاجية التى تحيط بالجدران الأربعة، لا يقطعها سوى فراغى النافذة والباب، كانت كلها كتبا فى الأدب، بلغات ثلاث، وليس بينها كتاب واحد فى القانون، وجاء «عادل»، وجلسنا، وواصلنا ما انقطع من الحوار، وانصرفت على موعد فى الغد معه.

قال لى فى لقائنا الثالث:

- قرأت قصصك، ولاينبغى أن تتوقف عن كتابة القص يوما، مثلما فعلت أنا.

أسعدنى ما سمعته منه، وقلت له:

- أود أن أسألك سؤالا: أأنت حقا سعيد بما أنت فيه، ولا تحن إلى الكتابة؟

قال لى:

- سأقول لك الحق، لست الآن، ومنذ سنين، سعيدا بما فعلت، وإنى لشديد الحنين للكتابة، وحاولت العودة إليها، وقد استقرت لى الأحوال، كتبت جانبا من رواية لى بعنوان: «الدائرة المشئومة»، موضوعها عن هذه اللقاءات التى كانت تجمعنا، أنا، ونجيب، والسحار، وباكثير، تحت قاعدة تمثال، بآخر كوبرى قصر النيل، لقاءات ضائعة، حائرة، لجيل ضائع، لكننى اكتشفت أن قلمى قد صدىء، وأن روحى لم تعد روح كاتب، فقدت الدربة، احذر أن تفقدها يوما، الروح تتحفز وتتوهج بالممارسة، والقلم لا يجف مداده بالكتابة.

وزفر «عادل كامل» بأسى ساخر، ومرارة ضاحكة، وقال:

- سبقنى نجيب، وتطور، وأنا حيث توقفت، ولذلك لم أكمل روايتى، وأزحتها جانبا.

ثم قال لى:

- أنقذ نفسك من العمل بالصحافة، وبسرعة، لا تعمل شيئا سوى كتابة القصة، سأتيح لك الفرصة التى أتحتها لنجيب، وتعيش منها، وتفرغ معظم وقتك «لقصصك» والبحث عن تجارب لقصصك.

وضحك، وقال:

- سوف أعرفك أيضا بأجواء القاهرة التى لا تعرفها، ويعز عليك الدخول إليها.

قلت بذعر:

ـ لكننى لم أدرس السيناريو.

قال لى مؤكدا، وهو يقدم لى سيناريو لفيلم:

ـ خذ، هذا سيناريو فيلم «باب الحديد» اقرأه، واصنع مثله، لن تبحث عن قصة للسينما الآن، قصتك «يهوذا والجزار والضحية» لغتها لغة صورة، وذلك ما تريده السينما، ولا تحمل هم السيناريو، المنتج والمخرج سيرحبان به، وابدأ هذه القصة.

قلت:

ـ سأحاول، لكن..

قال لى ضاحكا:

ـ الرغبة فى نشر حديث معى تسيطر عليك، كما تشاء، أكتب الحديث.

قلت:

ـ سأطلعك على ما سأكتبه.

فقال لى:

ـ لا ذاكرتك طيبة، وأنا واثق بك، ولا تتحرج فى نشر ماقلته عن أحد، وكتبت الحديث، ونشرته، وثار المكتوب عنهم، ورفضوا الدخول معى فى أى حوار تعليقا على حديث «عادل كامل» لى.

وتهربت من لقاء «عادل كامل» مرة أخرى لقاء خاصا خفت من ضغطه على لأكتب السيناريو، طوال عشر سنوات، خفت من تأثير كتابة السيناريو على كتابتى للقص، فقد كنت، ما أزال، فى تقديرى لقصى، غض العود، وخفت أن أدخل بقصصى فى دائرة مشئومة أخرى.

أقل من عشرة جنيهات:

أغرى الشاعر «فاروق شوشة» بالحديث الذى نشرته مع «عادل كامل»، وكان «فاروق» يعمل مذيعا بإذاعة القاهرة، ويقدم البرنامج «مع النقاد» من البرنامج الثانى، واتخذ «فاروق» قرارا بإذاعة قصة «ضباب ورماد» من إذاعة البرنامج الثانى، وتقديم حلقة من البرنامج مع «عادل كامل»، وأذيعت القصة كاملة، وزاد وقت إذاعتها عن ساعة وربع ساعة، ولم يكن وقت الإرسال بالبرنامج يزيد آنذاك عن ثلاث ساعات. وأذيعت الحلقة فى حوار مدهش من الطرفين، السائل والمسئول، ومايزال نص الحوار الذى نقله «فاروق»، من الشريط المسجل تحت يده، مع نصوص لحلقات أخرى مع صفوة من الأدباء فى تلك السنوات ينتظر النشر فى كتاب.

وجاء موعد صرف المكافأة الإذاعية لعادل كامل عن قصة «ضباب ورماد»، وعن حديثه الحوارى فى برنامج «مع النقاد»، وسعى «عادل كامل» إلى الإذاعة، ربما حرجا منى ومن فاروق، ليتسلم مكافأته، وصحبه الساعى إلى وحدة العقود بين الدورين الرابع والعاشر، وفوجئت أنا وفاروق، بعادل كامل، يوقع إذنى

دار مصر المحروسة

الصرف عن القصة، والحديث الحوارى، ويعطيها لمصطفى الساعى، قائلا له: اصرف المكافأتين، وخذ قيمتهما لك.

ولم يضطرب عرق واحد، فى وجه «عادل كامل»، كانت المكافأة عن قصة «ضباب ورماد» جنيهين وستة وعشرين قرشا من جنيهين ونصف، بعد الاستقطاعات، وكانت المكافأة عن الحديث الحوارى لمدة ساعة، فيما أذكر، خمسة جنيهات وكسور من القروش والملاليم، بعد الاستقطاعات، فالحديث الحوارى أجره فى الإذاعة، مهما كان وقته، ثلاثة أرباع مكافأة الحديث غير الحوارى، وكلاهما لا يحسب له وقت فى تقدير المكافأة أكثر من عشر دقائق.

وغرقت فى العرق حياء من «عادل كامل»، فأنا الذى جررته، هو الذى استقرت به الأحوال، وتوقف عن الكتابة هربا من مواجهة مثل هذا الموقف، وما أحسب أن حال «فاروق» آنئذ كان أفضل من حالى، ونظر إلى «عادل كامل»، وأنا أسير معه إلى المصعد وقال لى:

ـ متى ستريح نفسك وتكتب سيناريو لفيلم؟!

ـ ٢ ـ

فرسان الحرافيش

أعرف، عن بعد، الصلة الوثيقة، بين رفقة جماعة «الحرافيش»، وأعرف أنها ضمت فرسانا للكلمة، وللريشة، وللصورة، شعرا، وقصا، ولوحة، وأفلاما: عادل كامل، ونجيب محفوظ، ومحمد عفيفى، وأحمد مظهر، وصلاح جاهين، وتوفيق صالح، وجميل شفيق، ينقصون واحدا بالفقد «أطال الله أعمار الأحياء ومتعهم بالصحة»، أو يزيدون واحدا بالاستلطاف فى عضوية هذه المجموعة، ولقاءاتها الأسبوعية الحرة، فى بيت أو فى لا بيت، لكن مايستوقفنى فى هذه المعرفة، هى هذه العلاقة الأبدية الحميمة بين «عادل كامل» و«أحمد مظهر»، ولعل ذلك راجع إلى روح الفروسية المثقفة لدى كليهما، فأحمد مظهر كان من فرسان القفز «إذا لم تخنى الذاكرة»، و«عادل كامل» كان من فرسان الكلمة، القادرين على قول: لا، حتى للأدب نفسه.. وبين عادل كامل ونجيب محفوظ من جهة أخرى، وهى علاقة تذكرى بهذه العلاقة الإنسانية والفكرية بين «إنجلز» و«ماركس»، ومع فارق التشبيه، فعادل كامل مثل إنجلز فى رعايته لماركس، ظل راعيا، وهو الأصغر سنا لنجيب محفوظ، لقد تبنى أحدهما الآخر، ووجد فيه استمراره وبقاءه، وتحقيق ما انشغل به، أو شغل نفسه عنه، وكم أتمنى لو أن حرفوشا من هؤلاء الحرافيش العظام، أرخ لحرفشتهم النبيلة، ولجزيرة «الحرافيش» الوهمية التى أرزوا إليها، وأنسوا لها، فى مجتمع أصم، ومدينة شديدة الصمم.

فاجأنى «جميل شفيق»، وقد نهض بدور إعلامى مفاجىء لعادل كامل،

بقصص ثلاث قصيرة له، حملها إلى تباعا، فهو يعلم أننى واحد من المحبين لعادل كامل، والآسين لتوقفه عن الكتابة، فسارعت بنشر إحداها فى مجلة «إبداع» مع تقديم سريع «على ما تيسر»، وأعطيت ثانيتها للصديق «مصطفى نبيل» فعجل بنشرها فرحا، وثالثتهما «ويك تحتمس» وقد نشرت بمجلة إبداع.

لم كيتب «عادل كامل» هذه القصص حديثا، فمن الأوراق التى صفرها الزمن، والتى تحمل ظهورها نماذج بيانات محاكم، ومحامين، ومحضرين، أدركت مع أنها لا تحمل تاريخ كتابتها، أنها كتبت مبكرا، وقبل أن يتوقف عادل كامل عن الكتابة، وفى بداية عمله بالمحاماة وربما قبل تخرجه من الجامعة، وحتى لا انسى هنا، سأذكر أن «عادل كامل» وهو راعى نجيب محفوظ، أصغر سنا من نجيب محفوظ، ولا اعرف تماما نتائج وأبعاد أمر آخر، فماذا كان سيحدث لو أن «عادل كامل» لم يتوقف عن الكتابة، أو لو أن نجيبا فقد صديقه الراعى، أو لو أن عادل كامل فقد أمنه المادى الخاص مع المحاماة، وفقد كلاهما الصلة بالفنانين، وبالسينما، وكل النتائج متوقعة ومحتملة.

وفاجأنى أيضا صديقى الفنان «جميل شفيق» رسام البقر، والسمك، والطير، والجسم البشرى عاريا بلا رتوش، غريزيا بلا عواطف، فاجأنى بروايتين لعادل كامل، رواية بعد أخرى، فآثرت عرضهما على الصديق «مصطفى نبيل»، وأشهد أنه قد طار بهما فرحا، وأعتقد أنهما وفق معلوماتى من الصديق الرسول «محمود قاسم»، وقد صدرتا معا فى كتاب واحد، بعدد «روايات الهلال».

ثم لو يدعنى «جميل شفيق»، أعتقد أن رصيد «عادل كامل» من الإبداع قبل أن يتوقف عن الكتابة أيضا، قد نفد، وانتهى، حتى حمل إلى «تباعا» ثلاث مسرحيات طويلة، لعادل كامل، تشهد مثل الروايتين، والقصص الثلاث، أن الحياة الثقافية والأدبية، قد فقدت بتوقف «عادل كامل» عن الكتابة، كاتبا آخر، صنوا لنجيب محفوظ، مثلما فقدت هذه الحياة بتوقف «محمد عفيفى» عن القص، وانشغاله ببابه الصحفى «ابتسم من فضلك» فى «اخر ساعة» فارسا من فرسان القص القصير.

والعزاء اليوم، والفضل، لرفقة «الحرافيش»، ولتلك المصادفة التى جعلت «عادل كامل»، يعيد ترتيب وفرز أوراقه القديمة، والتى جعلت رسام الحرافيش، مندوبا عن الجماعة، فى تقديم هذا الرصيد القديم، لعادل كامل، للنشر، والتى جعلت هذه الأوراق تؤول فى النهاية إلى، وإلى مصطفى نبيل، وكلانا بذلك سعيد.

لقد تضاعفت بهذه الأعمال، إبداعات «عادل كامل» الأولى، فصارت تضم مع «مليم الأكبر»، و«ملك شعاع»، و«ويك عنتر»، و«ضباب ورماد»، أعمالا جديدة، روايتين وثلاث مسرحيات أخرى، ومجموعة قصص قصيرة، إذا أضفنا إليها قصة «ضباب ورماد»، أى أن إبداع عادل كامل، قبل توقفه، يضم الآن: أربع

مسرحيات، وأربع روايات، ومجموعة قصص قصيرة واحدة، اللهم إلا إذا كانت لدى «عادل كامل»، بين أوراقه المهملة، إبداعات أخرى، لا نعلمها، وقد لا يذكرها هو.

ذكر لى «جميل شفيق»، فيما ذكره حين يعود مبهورا، إلى «أتيليه القاهرة»، كل خميس، قادما من لقاء «الحرافيش»، أن «عادل كامل» يقول: إنه لايعرف الآن لماذا توقف عن الكتابة، وأذكره هنا عندما قاله هو لى فى حواره معى عام ١٩٥٩، وبما كرره فى هذا اللقاء الجميل الذى أجراه معه «فاروق شوشة» فى برنامج «مع النقاد» قال: «توقفت عن الكتابة، لأننى سألت نفسى: هل يمكن أن يعيش الكاتب من قلمه، فى مصر؟ فكانت إجابتى هى: لا، سألت نفسى: هل يمكن أن تكون الكلمة فى يد الأديب فى مصر سيفا، فكانت إجابتى هى: لا، عندئذ قررت أن أتوقف عن الكتابة».

وهكذا رمى الكاتب بسيفه، عامدا متعمدا.

وما يستوقفنى هنا الآن، هو: هل كان ذلك الرمى للسيف صوابا؟ وكيف وجد هذا الكاتب المثقف، الموهوب، الصلب الإرادة، والقادر على القرار والالتزام به، القدرة على مثل هذا القرار، وتنفيذه، دون أن يضعف بعد أسابيع، أو شهور، أو سنين، مخالفا بذلك قوانين الطبيعة بأسرها، فالشجرة إذا توقفت عاما أو أعواما عن الإثمار ستعود إليه فى عام ما، وهل يغنى دعمه ورعايته لصديق عمره نجيب محفوظ.وإخلاصه لرفقة الحرافيش، عن مسئولية نحو أدبه، وفنه، وعقله المثقف الراجح، المغامر؟

لكن ما جدوى السؤال الآن والحياة الاجتماعية حافلة بالمواقف الشتى، متنوعة الحالات والأحداث.

صاحب العمامة المقدرة

بينى وبين صديقى، صاحب العمامة المقدرة: فاروق عبدالقادر، عشرتان، تقربان فى حياتى، من عمرى بالقاهرة.

عشرة حب لرفيق أنيس كلما جمعنا لقاء، لا تنبو فيه بيننا الكلمات، ولايشذ الإيقاع، فمعرفته بالتراث مثلى، وأوثق، وباللغة مثلى، وأرحب، وحضوره العصرى مع قبيلة المثقفين مثلى وأكبر، ولذلك جرى العرف بيننا ونحن نضحك أن يقول لى: يا فقى، يا مولانا، وأن أقول له: أنت صاحب عمامة مقدرة، صاحب عمامة بمعرفته العميقة بالتراث، جده وهزله وإن لم يرتدها قط، ولم يكن أزهريا يوما مثلى.

وعشرة احترام لأنه ناقد عنيد، أقصد أنه ملتزم، يقول ما يعتقد أنه حق، فى الكتاب وصاحبه، ودورهما فى الواقع إيجابا أو سلبا، ودائما أراه كذلك الفلاح الذى لم يكنه يوما، يحب الكلمة ويجلها، كما يحب الفلاح أرضه ويجلها، ويحب الإبداع لنفسه ولسواه، مثلما يحب الفلاح زرعه وغرسه وزرع جاره وغرسه، إن أجاده، وهو مثل الفلاح، ولم يكنه يوما، يحرص على تنقية فكره من العبث والتسلية، مثلما يحرص الفلاح على تنقية أرضه من الأعشاب والكلأ، ففاروق يلتفت للظواهر فى الحياة الثقافية، بين الحين والحين، وفاسدها أكثر من صالحها، وشرها أكثر من خيرها، وطفيلياتها المتسلقة أكثر من أشجارها الباسقة، ونباتاتها النضرة. هو كاتب، مبدع، فى الواقع، ومع الكلمة، وكاتب صريح يطيقه أمثاله من المبدعين المجيدين: فى النقد وغير النقد، ولا يطيقه الأفسال، والشلليون والإعلاميون، والمتسلقون من عبيد الواقع الراهن، وضعاف العطاء، ولذلك فأصدقاؤه قليلون، وأعداؤه كثيرون، ونادرهم محبوه، وشائع الداؤه.

رأيته أول مرة فى بيت بالمنيل، ولاأذكر أكان طالبا عندئذ أم أنه قد تخرج، ولم أعرف أنه قاهرى، وله بيت قاهرى، وأهل قاهريون، بشبرا، إلا بعد سنين، وعرفته منذ ذلك الحين صوتا ساخنا، وواعدا وصاحب روح وطموح، بعد هذا اللقاء الأول، والعابر، مع «محفوظ عبدالرحمن»، ولأنه لم يكن يحكى عن نفسه إلا نادرا، وربما حين يسأل، فقد احتجت إلى وقت لكى أعرف صفحات من

فوائت عمره وذكرياته وتعليمه، وحياة العبارات التراثية المفاجئة لى، على لسانه، وهو يعلق شفاها وكتابة، على قول أحد، أو أمر من الأمور، بعبارات تحمل معها، فى الموقف الحى، حضورا زاخرا، ومتألقا.

ثم عرفته معرفة أوثق، حين كان مشرفا مسئولا عن ملحق مجلة «الطليعة» الأدبى والفنى، كاتبا حريصا على التنظير للواقع الثقافى، حرصه على النقد للأعمال الأدبية الجيدة فى المسرح خاصة، ومشرفا يحمل روح الأب، لتقديم المواهب الشابة الواعدة والجيدة، على صفحات هذا الملحق، وبينهم من كان مجرد وعد، لكنه كسير الجناح، والقلب الرحب يتسع لهؤلاء وهؤلاء، إلا حين يأتونه بعمل ردىء، أو ينشرون مكلمة على أنها قص، أو مسرحية، عندئذ لا يتردد فى الشجب، والقبول بخسارة من شجبه، وعدائه.

ولم أعرف ناقدا على باب الله، مثل فاروق، يقبل بالحياة، بعيدا عن «الميرى»، ويسعى من الضيق إلى بركات «الميرى» فلايختاره له من يملكون مقاليد الأمور، ممن يلعبون على كافة الحبال من اليمين إلى اليسار، خوفا منه وحذرا، فمثله لا يعرف سوى صوت القلب، مثله لا يرضى بغير دور الشريك، وهم لا يريدون سوى الأتباع، والأعوان، وحملة الحقائب، وحاشا لفاروق وأضرابه أن يكون واحدا من هؤلاء، ويضطر فاروق إلى الدفاع عن نفسه وحياته وفكره، بقلمه والرضا بعائد هذا القلم، أو بدون عائد على الإطلاق، فالقليل من الخبز يكفى إذا ماحقق مبتغاه: كلمة الحق عن العمل المبدع وصاحبه، وكلمة الحق عن الواقع الثقافى بزهوره وأعشابه، فهو شاهد حى، وفاعل، على الواقع الحى المعيش، وكتبه كلها، وكتاباته كلها، بالصحف والمجلات، والحوارات القليلة معه هنا وهناك، داخل الوطن الصغير، وخارجه، فى أرض اللغة الكبيرة، شواهد حية على كونه شاهدا حيا، وفاعلا، لن يغفل دوره يوما، ولن يتوقف قط دين المبدعين المجيدين لقلمه، لأنه يطهر لهم الأرض من الأعشاب، ويعطيهم ويأخذ عليهم ما يستحقونه.

ونادرون هم أولئك الذين ظواهرهم مع القلم مثل بواطنهم، إن قالوا فى مجلس، وإن كتبوا فى دورية أو كتاب، والقول واحد هنا وهناك، فى صوت فاروق، وفى خربشات قلمه، فصار مجدا للكاتب أن يكتب عن إجادته فاروق، وضيقا للكاتب أن يكتب عن رداءته فاروق، ضيقا قد يستحيل إلى همز ولمز، وقد يصاعد إلى حرب شعواء، فى المقهى وعلى الورق.

ونادرون، هم أولئك الذين، فى الحياة، لايعرفون سوى الأبيض والأسود، ويفزعون من الرمادية فى القول، والفعل، حين تحزبهم ضرورة القول أو الفعل، ويصبح مجرد الصمت محالا من المحال، وفاروق واحد منهم، أعرف كاتب مسرح شهيرا من أعمدة المسرح فى هذا الوطن الصغير، أصدر عملا مسرحيا ونشره كنص، ومثل هذا العمل وشاهده الجمهور، وأشاد فاروق بعمله هذا وبأعماله السابقة، نصا لكاتب، ومسرحية لفريق، وعندئذ، كما هى العادة، طاب

له فاروق وصار صاحبا، ورفيق مجلس ومكلمة، فى البيت والتليفون، ولكن هذا الكاتب المبدع، له سقطة بين حين وآخر، مثلما لكل كاتب يخونه الحظ ويجانبه التوفيق، كتب هذا الكاتب نصا ومثل وأخذه فاروق عليه، فهو شخصية عامة تبدع، وحق الجمهور على الناقد عندئذ أن يسمع أيضا صوته، وفعل فاروق، ورأيت كاتب المسرح الشهير يهاجم «فاروق» لى ولغيرى، ويتهمه فى نقده، ويتهم الجمهور فى ذوقه، ويقول أشياء عن فاروق، أشياء شخصية جدا، ولم أجد مفرا من الرد على صديقى الكاتب المسرحى الشهير بقولى: أنت كتبت وهو قال، والناقد ليس أجيرا عند الكاتب، والصحبة بينهما صحبة شخصية، ولا ينبغى أن يفسدها قول ناقد، ولا كتابة كاتب، وعندئذ عرفت حجم الصداقة بينى وبين هذا الكاتب المسرحى الشهير، فقد نظر إلى من عل، وأزور عنى وأشاح، ثم مضى مبتعدا بدون تحية، ولا أعرف كيف يمكن أن تكون ثمة حرية وديمقراطية، إذا فقدناها فى ساحة القول، ونبذناها بيننا نحن قبيلة المثقفين، أصحاب الكلمة، والكلمة حرية لأنها ملك، ولملك «نظر»، وكمال، وإن أصابتنا أحيانا بلكم، أو كلم «حرج»، ذلك ما يجعلنى أرثى كثيرا للنقاد، وأشفق على الناقد من ردود الأفعال للكاتبين من المبدعين، وغير المبدعين، من الجواهر والأفسال.

ولأن فاروق لا يعرف فى حياته سوى الأبيض والأسود، وفى فكره سوى الحق والباطل، لأنه صريح، والصراحة لا تدع لصاحبها صديقا، إلا فيما ندر، من أصحاب العزم والقوة، فهو شديد الحرص فى حياته على الشرب من نبع الحياة حتى الثمالة ممارسا حريته الشخصية والخاصة، التى قد تؤدى به إلى الهلاك، حرصا يدفعه إلى أن يعيش كاتبا، وإنسانا، أقصى ما يستطيع أن يعيشه، والناس اعتادوا التوسط فى هذا وذاك، وألفوه، حتى صاروا لهذا التوسط أرقاء، يخافون من الإسراف هنا وهناك، فيفتقدون المغامرة هنا وهناك، والمغامرة لاتؤدى دائما إلى خسارة، مثلما لاتؤدى دائما إلى مكاسب ، لكنها بالتأكيد، مثلما فى حالة صديقى العزيز فاروق عبدالقادر، تغنى القلم، والروح، ويذكر فى طرازه بطرز أصحاب العزم الذى يزخر بهم التاريخ، ممن هم من فصائل الملائكة والشياطين، الذين لا يرضيهم العيش فى الظل، ولا الإيمان بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ويقبلون دائما بدفع ثمن الحرية والصدق، وأن تكون حيا، وأن تعى أنك لن تعيش على الأرض سوى حياة واحدة مليئة بالقوة، مثلما هى مليئة بالضعف، وتلك أمانة من الأمانات التى حملها الإنسان، الإنسان الأمثل.

هواية كاتب

فى مجلة «ب»، كان عملى بمطبخ التحرير، عمل متواضع بأجر قليل، أتدرب على الكتابة والصحافة، أغوانى به الصديق «ر. ن»، قال لى: «تعال معى وسوف تكون كاتبا كبيرا، وكنت قد تعاقدت على عمل بالتدريس فى الكويت»، فتركت عقدى، وذهبت معه.

فى نهار يوم ما من أيام الصيف، جاءنا شاب، وقدم لى نفسه، وتحقيقا عن حى بأسره من أحياء القاهرة، جلس الشاب «ع»، وشرعت فى قراءة الموضوع، الخط أنيق على ورق أصفر، وسطور الكلمات مريحة للعين، فانفتح قلبى، لا خطأ فى الإملاء، ولا اللغة، ولا التراكيب.

الحى حى القلعة، المجاور للحى الذى أسكنه، التحقيق يعرض ببراعة صحفية، مدربة، ومدهشة، تاريخ الحى فى الزمان والمكان، ويتداخل فيه بيسر، ودون تعقيد، الماضى والحاضر، الوجوه التى صارت ذكرى فى ذمة التاريخ، والوجوه التى لاتزال تعيش، وروائح الزمن عبر العصور، تفوح من السطور والكلمات، وانتهيت من قراءة التحقيق، وقلت لـ «ع» بانبهار وحب:

- تسعدنا حقا معرفتك، والتعامل معك.

لم يكن الصديق «ر» موجودا بالمكتب، لأعرض التحقيق عليه، وأقدم «ع» إليه، طلبت له شايا، وذهبت بالتحقيق إلى الغرفة المجاورة، كانت أبدا نصف مظلمة، ينيرها، فى عز النهار، ضوء خافت من الخارج، عبر الشيش والزجاج، طرقت الباب، وتقدمت إلى «س» سكرتير التحرير آنذاك، قدمت له التحقيق، قائلا:

- أرجوا أن تقرأه الآن، تحقيق مدهش.

أخذ «س» يقرؤه بسرعة، وجلست أرقب وجهه، وأنتظر، وكان وجهه كعادته محايدا تماما، وهو يقلب الصفحات الصفراء، رفع وجهه، ووضع الموضوع أمامه، وقال:

- موضوع جيد، ضعه فى هذا العدد، يحتاج لرسوم، وعناوين مانشيتات.

قلت:

- كاتبه معى الآن، واقترح تعيينه بالمجلة، كمحرر.

فقال «س»:

- لامانع، هاته إلى.

وجه «ع»:

عصر يوم آخر جاء «ع»، ومعه تحقيق آخر، عن قرية «سنباط»، قرية أعرف أن سواد سكانها يشتغلون بالغناء والرقص، فى الأفراح والموالد، كان التحقيق بخط غير الخط، لكنه كان مثل سابقه، لا أخطاء به فى الإملاء، ولا اللغة، ولا التراكيب، وبدا لى التحقيق، وأنا أقرؤه، وبرغم اختلاف الخط، يسير على نفس النسق، وبنفس البراعة الصحفية المدربة، نظرت إلى ذيل التحقيق، وجدته موقعا باسم «م»، ونظرت إلى «ع»، فقال لى:

- إنه لصديق أديب، وظروفه... وهو ينتظر بالخارج، فى الصالة.

نهضت، وفتحت الباب، رأيت شابا نحيلا، أسمر الوجه، واسع العينين، أليفا إلى القلب، دعوته للدخول، فوقف مبتسما، كان يرتدى بدلة شاركسكين «موضة هذه الفترة»، واسعة عليه من الأكتاف والسواعد، والساقين، جلس «م» وقال:

- مارأيك؟

طلبت من «ع» أن يتركنا وحدنا، فنهض وغادر الغرفة، فى وجه «ع» كانت ملامح غير مريحة، الوجه سمنى، أملس، من هذه الوجوه الشهوانية، غير المعبرة، وإذا أغلق الباب، وراءه، قلت لـ «م»:

- صارحنى، التحقيقان بقلم واحد، ولكاتب واحد، دعنا من اختلاف الخط، ضحك «م» بخجل ورقة، وأشعل سيجارة، وقال بشجاعة:

- هذا صحيح، وأنا الكاتب، وأنا كما ترى خجول، وأخاف من ظلى.

وجاء الصديق «ر» فعاونه كى يعمل معنا بالمجلة، كمحرر مكتب مثلى، فرحت به حقا، فهْو ظريف، وأنيس، وحلو الدعابة، وماهر مهارة بالغة فى إعادة كتابة موضوعات المحررين، المليئة بالأخطاء من كل نوع ولون.

واكتشفت من «م» خلال العمل، صداقته لـ «ع»، وأنه يكتب له، أو يعيد كتابة كل ما يقدمه «ع» للمجلة من موضوعات، فى البيت أو فى المقهى، يحدد له «م» المطلوب من معلومات لموضوعه، فيجمعها هذا، ثم يجلس «م» ويصوغها باقتدار فى نسق تحقيق، أو حديث.

سألته وأنا أضحك:

- لم؟ أتقسم معه؟

- لا ...

- أله عليك أفضال؟!

- ولا هذا..

عدت أقول بحيرة:

- لم إذن؟

فأجابنى بكلمة واحدة، وهو يضحك:

- هواية!!

دهشت، وصمت، وفى عقلى حيرة، أية هواية هذه التى يقدم بها شخص إلى

الناس على أنه كاتب، ولا مقدرة لديه على ذلك، أكثر من أنه كسواد العاملين فى الصحافة، جامع معلومات؟

حديث مع نجمة:

مع «س»، اشتغلنا لشهور فى صحيفة «ج»، أنا و«م» بمكافأة، لا تزيد عن عشرة جنيهات، كنا أيضا فى مطبخ صفحة «س» الأسبوعية، جهدت و«م» لزيادة المكافأة بعمل تحقيقات حراقة، وتقديم أخبار ساخنة، لكن الأجر ظل كما هو، وشهرا بعد شهر الجنيهات العشرة، هى هى، ولم يعجبنا الحال فخرجت أنا و«م» من المجلة، أنا إلى وزارة الأوقاف، و«م» غطس، ولم ألتق به إلا مصادفة، وفى إحدى المصادفات لقيته، وسألته موعدا للقاء، معا، فحدد لى موعدا بكافيتريا فوق حلوانى بشارع قصر العينى، ذهبت إلى «م» فى الموعد، وجدته يصوغ حديثا مع الممثلة النجمة الشهيرة «س»، يضع الأسئلة، ويضع الأجوبة أيضا، ومن الذاكرة، وجلست أنتظر فراغه مما يكتبه بخط أفقى كنبش الفراخ، لاماته وألفاته مثل نوناته، وحين انتهى أقرأنى الحديث، وهو يبتسم بسخرية، وعيناه تبرقان، كأنه يقدر سلفا انطباعاتى عما سوف أقرؤه، كان بين الأسئلة والأجوبة:

- هل تحبين الملوخية؟
- موت؟
- يطبخها لك الطباخ؟
- بل أطبخها بنفسى، ياسلام لو دقتها، تاكل صوابعك وراها.

وفى نهاية الحديث، كان التوقيع: «ع. ص».

قلت لـ «م»:

- حديث طيب ولكنه مضحك، وتوقعت أن يكون التوقيع لصاحبنا «ع»، أين سينشر؟
- فى مجلة «أ، ت» فصديقنا يعمل بها الآن.
- أمازلت تمارس نفس الهواية؟
- له بيت، وأعيش معه، وأنتظر عملا فى مجلة «م»، صديقنا «س» وعدنى بتوسطه عند رئيس التحرير.

كاتب عبقرى:

كنت قد عملت شهورا بوزارة الأوقاف، وبدأت أنسل منها لضآلة المكافأة، جنيهات عشرة أيضا، واستأنفت الكتابة للإذاعة فى برنامجين إذاعيين، وقدمت صديقى «م» إلى النجمة الإذاعية «س. ص»، وأعتقدت أن «م» سيستغنى بأجور مواده الإذاعية عن هوايته، ولكنه لدهشتى ظل يمارس هوايته لصالح «ع»، وبدا لى أن فى الأمر سرا، قد يكون الخجل من الرد والرفض، وقد يكون العادة، وقد

يكون الإشفاق على صديق، إلى أن أصبح صديقى «م» كاتب تمثيليات للتليفزيون، لم يلبث أن صار فيها نجما، مع المخرجة الصديقة «ع» فى السنوات التى هربت فيها من القاهرة، ومن الصحافة والإذاعة والتليفزيون، للعمل مدرسا بالسعودية.

التقيت بعد أعوام من العمل بالتدريس فى السعودية، ثم فى البدارى، ثم فى الإسكندرية، بصديقى «م» وكنت قد انتقلت إلى القاهرة، مدرسا أيضا، شكوت إليه ضآلة المرتب، وعدم كفايته للمعيشة، فصحبنى إلى النجمة الإذاعية «س. ص» وقدمنى إليها، فقد باعدتنى سنوات الانقطاع عن العمل من ذاكرتها، أعطتنى «س.ص» نصا إذاعيا لـ«م»، وقالت:

- أقرأه، واكتب مثله، إنه كاتب عبقرى.

نظرت إلى «م» وضحكنا بأسى، وحب، وقال «م» لـ: «س. ص» عنى، إننى عمه وأستاذه، فسجلتها عليه، ولم أعرف إلى اليوم سببا لهذا الوصف، سألته حين خرجنا من مكتب النجمة الإذاعية:

- أما زلت تمارس هوايتك؟

فقال بتأكيد:

- نعم.

- لم؟

ضحك وقال:

- هواية ماذا أفعل؟

عصر الزيف:

شاهدت فى دور السينما أفلاما جيدة، عن روايات لكاتب شهير، أدهشتنى أن يكون كاتب السيناريو لها هو: «م. ل»، وكان سبب الدهشة معرفتى بأنه كاتب ردىء، كان يقدم لنا ونحن نعمل بمجلة «ب» موضوعات صحفية، غير متماسكة، مليئة بأخطاء الكاتبين الصغار والناشئين، وكان «طبخ» موضوعاته يجهدنا غاية الإجهاد ، ولقيت الصديق «م»، وسألته فى دهشة:

- كيف يمكن أن يكتب «م.ل» مثل هذه السيناريوهات؟ من أين له هذه الخبرة، وتلك القدرة المفاجئة؟

فابتسم «م» وقال وهو ينفخ دخان سيجارته، بهدوء شديد:

- أنا كاتب هذه السيناريوهات.

صحت:

- لماذا؟

فانفجر ضاحكا وقال:

- هواية.

صحت:

ـ هوايتك كانت مع: «ع» وسكت، بينكما ود قديم، أفهم ذلك، لكن، مع «م. ل» أنت ترتكب جريمة، تصنع منه كاتبا، وستقدم له يوما، بسبب ذلك منصبا يتحكم به فى رقاب العباد.

فقال بهدوء: إن لم أكن أنا، سيجد غيرى، ويحقق ما سوف يصل إليه، نلت منه ألف جنيه عن كل سيناريو، بعيدا عن الضرائب، ولو استطعت تسليك هذه السيناريوهات لنفسى، وهذا عسير جدا لفعلت، ودفعت الضرائب.

ثم نظر إلى، وقال:

ـ نحن فى عصر الزيف، تذكر آلاف الأشياء والأمور من حولنا، سوف ترى صدق ماأقول، وتتفرج.

بداية... الهواية:

صدرت لكاتب قصصى: «ص»، مجموعة قصصية عن الطبقات الشعبية أحدثت بعض الضجة، وكتب عنها نقاد الأعمال الأدبية عن هؤلاء البسطاء الشرفاء، ولقيت صديقى «م»، وتحدثت معه عن المجموعة، وقلت له عن هذه المجموعة، إنها لا بأس بها، فقال لى:

ـ كتبت يوما أول ما نزلت القاهرة، عددا من قصصها، أستطيع أن أسميها لك بالاسم.

ضحكت، وقلت غير مصدق:

ـ للهواية أيضا؟

قال:

ـ ربما، لكننى حين كتبت له هذه القصص، عرفت الجوع، وفقد المأوى، كان يصحبنى معه إلى بيته، أتعشى، وأبيت، وأكتب له القصة، ينشرها باسمه، وأقترض منه جنيها.

ظننت مع ذلك أنه يبالغ فى الحديث عن هوايته، حتى لقيت الكاتب الصديق، المغترب الأبدى، فاعترف لى بدوره، أنه كتب له أيضا أكثر من قصة، وأحيانا كان يكمل له قصة كتب منها نصف صفحة، ولقيت صديقا آخر، شاعرا، ولا عهد لى بكونه كاتب قصة، فأخبرنى أن خير قصص صاحب المجموعة، التى تحمل المجموعة عنوانها، كتبها هو، قال لى:

ـ أعطيتها له: للنشر فى مجلة «ر» فهو يعمل بها، وإذا بى أفاجأ بأنها منشورة فى العدد التالى من المجلة باسمه، ثرت، وذهبت إلى المجلة «ر»، وفضحت الأمر، وحدث تحقيق، وبكى بحرقة أمام رئيس التحرير، أشفقت على مأساته، وسحبت شكواى، وأنهيت هذا الأمر.

نهاية هواية:

فر الصديق «م» بقلمه إلى شركات التليفزيون العربية، ثم هاجر مع قلمه بجسده، كان يسافر ويعود، ويذهب ويأتى، صار كاتب مسرح ناجحا، وكاتب مسلسلات تليفزيونية ناجحا، ولكنه عرف الصمت، والحزن، والشعور برغم عمله بللاجدوى، فثمرات فنه مسرحا وقصة، لا تعرف طريقها إلى العرض فى وطنه الصغير: مصر، وأكاد أجزم عن يقين أنه قد فارق هوايته، مع الزمن.

انضباط:

زرت صديقى الهاوى، بعد عودته من غربة طالت، كان قد غير زوجة بزوجة، وقرر أن يتفرغ لنفسه، ويؤكد استقراره، أن يستوطن بقعة من الأرض، عدة أمتار عشرة أو مائة، لا يحيد عنها أو يريم، وجدته فى بيت أنيق، تسود مدخله وصالته الظلمة، ويكسو جدرانه لون قاتم، يضيع فيه ضوء المصباح المنير فى عز النهار، والأرض كلها مفروشة بموكيت داكن اللون، حتى المقاعد، ومنضدة الطعام المستديرة، لا تخفى قتامتها على العين، وفى مواجهة باب المدخل، كان باب أبيض، مغلق، أدناه درجتان من الخشب، وبجانبه تليفون يسجل، وآخر لا يسجل، وعلى الباب الأبيض كانت لافتة عليها سطر مخطوط بلغة أجنبية، تحتها سطر بخط الرقعة العربى تقول: عفوا الفنان يعمل، بعد برهة أدخلت على الفنان الذى يعمل، كان جالسا فى غرفة رطبة، فى شرفتها رقعة شمس فاترة الحرارة، واهنة الضوء، تطل على منور، بين العمائر الشاهقة، ها هو الكاتب الهاوى وحيدا مع نفسه، وعقله، تعانقنا، تضاحكنا، سألته عما أراه بوجهه الأسمر من بقع بيضاء، قال لى:

- تعبت فى علاجها، أطباء، وأدوية، حتى أعشاب العطارين، كله بلا جدوى

قلت له:

- الا تخرج؟

قال لى:

- نادرا، لا أخرج فى سيارتى الأوبل إلا لعمل، وغالبا ليلا، وقد تمر أيام لا أغادر فيها بيتى.

قلت له بغيظ:

- والسير؟ والشمس؟ والناس الذين تحب أن تداعبهم.

تضاحك، وقال لى:

- أنا أعرف نفسى، لقد أصبت بالشيزوفرينيا، واسترحت لها، واستراحت لى.

وحين زرت أخى الطبيب، سألنى عنه، عن صديقنا الكاتب الهاوى، وحين أخبرته عن هذه البقع البيضاء، قال لى باندهاش وأسى:

- هل انضبط؟

سألته:

ـ ماذا تقصد؟

قال لى:

ـ هل كف عن الصعلكة، والضحك، والصياعة؟

قلت:

ـ نعم.

فقال لى:

ـ هذا بهاق عصبى، ولا علاج له سوى أن يكف عن انضباطه أولا، وساد بيننا الصمت والحزن، فهو صديق حبيب إلى النفس.

من أنت؟

فى زيارة له ذات ليلة، روى لى الكاتب الهاوى، عفوا، قال إنه ذهب حين استدعى ليكون مع والده، فى لحظات مرضه الأخيرة، وأنه جلس إليه، وقد طال بينهما الصمت، فكلاهما قد صار، منذ سنين، غريبا تماما عن الآخر، قال له: من أنت؟ عشت عمرى كله، وأنت ابنى، ولا أعرف: من أنت؟

وصمت صديقى الكاتب الهاوى، أطرف فحسب، وحزنت لحزنه وأساه.

الأقنعة السبعة

أزمة ورق:

فى سنوات الأربعينيات، كانت تصدر بمصر مجلة مصورة، هى مجلة «مسامرات الجيب»، كان يرأس تحريرها «عمر عبدالعزيز أمين» صاحب سلسلة «روايات الجيب» الشهيرة التى أثرت على شباب الأربعينيات، حبا للقص، وجرأة عليه، وكانت المسامرات تنتزع الأرض الصحفية من مجلتى «الأثنين»، و«الهلال» بصفة خاصة، وتنافس بصحيفتها وموادها التحريرية المنوعة مجلتى «الرسالة» و«الثقافة». وتواجه بالوجبات الثقافية السريعة، لجيل جديد، الوجبات الثقافية الدسمة بمجلات «الرسالة»، و«الثقافة»، و«الكتاب» و«الكاتب المصرى».

كانت مجلة رومانسية الطابع والتوجه، يجد فيها القراء، أثناء الحرب العالمية الثانية، وبعد هذه الحرب، التسلية والمهرب، وكانت تعتمد على فى جانب كبير منها على الترجمة للقصص الرومانسية، هذه الترجمة المشوهة، والتى لا تجد مانعا من التلخيص والإضافة، والحذف والتعديل، وكانت أزمة حصول المجلات والصحف على ورق فى ذلك الحين طاحنة.

إلى صاحب المسامرات أخذ شاب يبعث بفيض من القصص الرومانسية، تحمل توقيعه، وتمر الأسابيع، ولا قصة واحدة منها تنشر له، وذهب الشاب إلى صاحب المسامرات يسأله عن مصير قصصه، فقال له فيما يحكى العالمون ببواطن الأمور:

ـ قصصك صالحة للنشر بالمسامرات، ولكنها طويلة بعض الشىء، ونحن نعانى من أزمة ورق.

أوشك الشاب أن يقول له: إنه على استعداد لاختصارها للحيز المطلوب، لكن فكرة أخرى ومضت فى رأسه، كان له قريب، ربما كان خاله، يهيمن على توزيع الورق على الصحف والمجلات، فقال له فيما يرويه المعاصرون:

ـ وإذا حللت لك أزمة الورق هذه، وبالسعر الرسمى، بعيدا عن السوق السوداء.

فأجابه صاحب المسامرات:

ـ يا ليت، ننشر لك قصصك إذن، ونحن مطمئنون، ولانبالى معها بقصر ولا بطول.

منذ ذلك الحين صارت قصص هذا الشاب تتوسط صفحات هذه المجلة الأسبوعية، كل أسبوع تقريبا. مفرودة على الصفحات، ومزينة برسوم ملونة. يتصدرها اسم الضابط الشاب ببنط خطى كبير.

كانت القصص رومانسية، توشك أن تكون ضربا من الأساطير والخرافات، تتسق مع طابع المجلة الرومانسى العام، وتلبى حاجة أرباع المتعلمين، والمراهقين والمراهقات، إلى التسلية والترفيه، والهرب من الواقع المأسوى لجو الحرب العالمية، وآثارها.

ولمع اسم الشاب الجديد إلى جانب أسماء أخرى من نفس الطراز من الرومانسيين: الوردانى، وغراب، وكانت القصة العربية، فى مصر، تشق لنفسها دروبا واقعية أخرى على أيدى كتاب كبار، ويقال والعهدة على الرواة، إن قصص الشاب لم تكن له، وإنها كانت بين أوراق أبيه، ومن تأليف أبيه، وإنه تجرأ على نسبتها لنفسه، ولم يتسع لى الوقت ولا الجهد يوما للتحقق من هذا الأمر، ولا أذكر أن قصص الشاب بالمسامرات، قد نشرت فى كتاب بعد ذلك، بين كتبه الكثيرة، فهل طوى الشاب هذه الصفحة، بعد أن نال ثمرتها، وخجل فيما بعد من استمرار هذه الكذبة على أمل أن ينسى الناس، وحتى لا تخنق هذه الخدعة ضميره، أم أننى أسوق الشك جزافا دون تحقق من مدى صحته؟!

صانع المعجزات:

وكان صاحبنا هذا من الضباط الشبان الذين يمارسون الكتابة، ولم يكن من الضباط الأحرار.

بعد قيام الثورة، واستقرار الأمور، وفيما أذكر إثر جلاء المحتل، كانت الأحزاب قد حلت، والبرلمان قد ركن على الرف، والدستور قد ألغى، ليحل محله دستور مؤقت، كانت الثورة تستهدف السيطرة على الرأى العام بالصحف، وعلى الثقافة بالمجلات والأجهزة، وكان من الطبيعى أن تتقدم الثقة بالضباط المتصلين بالثقافة بسبب ما، على الثقة بغيرهم من المدنيين، أو على الأقل يوكل إليهم قيادة الأمور، وتدبيرها بالتخطيط، وكانت الفرصة ذهبية، للضابط الشاب، ليكون رجل الدولة الجديدة، فى الثقافة المصرية، وفيما بعد فى الثقافة العربية، والآسيوية، والأفريقية.

تقدم الشاب، بمشروعات لأجهزة وأندية ومصالح ثقافية، وتمت الموافقة عليها، فظهرت مهاراته الإدارية فى التخطيط والإشراف والمتابعة، وجاء حين صار فيها «مصريا، وعربيا، وأفرو أسيويا» صاحب مناصب سبعة، كان عليه أن يرتدى لكل منها قناعا، فى كل ساعة من ساعات يومه، وكان قوى البنيان، بائن الطول، ملون العينين، تشى ملامح وجهه وبشرته بأصوله التركية القديمة.

كانت غايته الأولى، وغاية الدولة منه، أن يستقطب دائما المثقفين إلى صف الخط السياسى للدولة، وإلى الولاء لشخصه، وإلى جانب ذلك أن يحقق لنفسه

لقب «الكاتب الكبير»، عبر محورين فى موضعات قصصه: أحداث الثورة. والحكايات التى تستهوى المراهقين والمراهقات، فى جو رومانسى، أكثر مصرية، يجهد ليكون واقعيا، ورمزيا، فى نفس الوقت، ففى مواجهته فى دنيا القص. كتاب كبار لوامع، كثيرا ما أثاروا غيرته وغيظه، فالقراء المثقفون يحفون بهم، أكثر منه ومن نظرائه، والنقاد دائمو الكتابة عنهم كلما صدر لأحدهم كتاب جديد، وكان يقول دائما للنقاد:

ـ أليس فى البلد سوى فلان وفلان؟ لماذا لا تكتبون عنى، حتى ولو بالشتيمة. وعن فلان، وفلان، وفلان؟ أنتم متحيزون، و...

كانت كل مقاليد الثقافة تقريبا فى يده، وكان نفوذه واسعا، على الصحف. وعلى المجلات، ولكنه لم يستطع أن يملك قلب أحد، أو قلم أحد، ممن يعنيه أن يمتلكهم، سوى المتحلقين، والمتزلقين، والوصوليين، ومع ذلك كان دائم الإصدار لكتبه، عبر دار نشر وحيدة، وكانت كتبه رائجة، واسعة الانتشار، وسرعان ما تتحول عناوينها إلى جمل محفوظة تتردد على ألسنة المراهقين والمراهقات فى كل حوار، وسرعان ما تتحول حكاياتها إلى أفلام، تتحدر معها دموع المشاهدين، فى المواقف الميلودرامية، وكان يقول لزائريه رافعا إحدى قدميه عن الأرض، وهو جالس، إلى أعلى قدر مستطاع:

ـ من فلان؟ ومن فلان؟... أنا وحدى تأتينى كل يوم رسائل من القراء، وبهذا الارتفاع، أنتم أيها المثقفون والنقاد مخدوعون.

كانت تلك محنته، وجراحه، وظل يحاول التعالى عليها بالوجه البشوش، فغايته هى استقطاب المثقفين، فى البداية بالإحسان إليهم، يوفر لهم عملا، ودخلا قليلا، ويظلون بحاجة إليه، عن طريق المكافآت، ثم عليهمـأنـأ أن يثبتوا ولاءهم لشخصه، ويحملون حقيبته عنه حين يرونه، أو ينقلون إليه أخبار الوسط الثقافى، أو يقفون له احتراما إثر حضوره، أو ينوبون عنه فى الرد على معارضيه وخصومه، يكيلون لهم شتى الاتهامات باللون الأحمر تارة، وبالانحراف تارة، وربما بالخيانة تارة أخرى، مصفقين له فى الندوات، مستخدمين عضلاتهم وأصواتهم المرتفعة تارات.

كن كما أهوى واتبعنى:

كان الشاب خدوما، لمن يطلب مكرمته، ممن أصابتهم حرفة الأدب، أتاح مرة لشاعر أكثر من مكافأة، فى أكثر من مكان من الأجهزة الثقافية، نظير عمل محدد، أن يتواجد فى كل ليلة بناد معين من أنديته، ومهمته أن يسمع ما يدور، ويرى ما يحدث بين الشباب المثقفين بصالة النادى، ثم ينقل له مايقولونه، قال فقط:

ـ أحب أن أراك مساء كل يوم بصالة النادى.

ولم يكن حقا يراه، إلا حين يريد الآخر مقابلته، ويغلق وراءه الباب، فقد كان

من عادته، ذلك «الضابط الشاب»، أن يصعد سلما خاصا به فى النادى، ويدخل غرفته، كرجل دولة، وعلى الكل أن يسعى إليه.

وأتاح مرة لكاتب قصة شاب متمرد، ولا انتماء سياسى له، جاء من «عروس البحر» يطلب عملا بالثقافة، ولا مؤهل له، كان بائع صحف متفتح القلب والعقل، جرته قراءته للصحف والكتب، مثلنا جميعا، لكتابة قصص من أدب اللامعقول، لم يرتد مثلها من كتاب العرب أحد قبله.

وكانت قد صدرت له مجموعة قصص «لامعقولة»، ورحب به الضابط الشاب، وأوكل له عملا بمكتبه، فى جهاز من أجهزته الثقافية، لكن القصاص الشاب لم ينجح فى أن يكون موظفا صغيرا، يتجمل بحسن المظهر، وذلاقة اللسان، وإظهار الطاعة، فاصطدم به بكلمات عنيفة، وعاد إلى «عروس البحر»، ربما ليبيع الصحف مرة أخرى، قال يوما لى على شاطىء «عروس البحر»:

- قلت له... وقلت له... لست من حملة الحقائب الذين يحيطون به، ويعيشون ساعات يومهم لأجل مرضاته، أنا لم أولد عبد الأحد.

وكانت تلك آفته فى الاستقطاب يريد أتباعا، ولا يريد رفاقا وإخوة، يريد «جنودا» له عليه الأمر، وعليهم السمع والطاعة.

كانت الحياة الثقافية الشابة منقسمة آنذاك: ثمة كتاب لهم انتماءاتهم السياسية التى تتجاوز واقع الثورة نفسه، وبيهم كان كتاب حقيقيون لهم قراؤهم ونقادهم أيضا، ويعارضونه، وكتاب من الطبقة الثالثة والرابعة ونازلا يتبعونه، وكانت لكل منهم خنادقه فى الحياة العامة، وكان الشاب بائسا من مجموعات المنتمين، لكنه كان دائم اللقاء لهم، والإحسان إلى من يطلب إحسانه منهم، ووضع عينيه على فئة من الكتاب، لا يؤيدونه، وهو يعلم أنهم بأقلامهم، وفكرهم، فى خندق الكتاب المنتمين، وبدأ محاولة يائسة لاستقطابهم، وكنت واحد منهم.

تجربة صغيرة:

قيل لى، على لسان صديق كاتب، إنه يريد مقابلتى، وذهبت معه إليه، فى غرفته الليلية بناديه، وجدناه جالسا إلى صدر منضدة اجتماعات محدودة المقاعد، ومعه عدد من حملة الحقائب، كانت المنضدة مكسوة بالجوخ الأخضر مثل مكتبه، ولامنى لأننى لست عضوا فى الناديين اللذين يشرف عليهما، مع أننى كاتب، وذكر لى أنه قد وقع لى استمارتى عضوية بالناديين، وقبل أن يسمع رأيى قذف بى فى التجربة، كانت ثمة مجلة لأحد الناديين، يريد مشاركتى فى إحيائها، مع صديقى الكاتب، وكنت وكان الكل يعلم مدى فشلها التحريرى، إلى درجة أنها لاتوزع إلا ستين نسخة بالسوق، برغم ماينفق عليها من أموال ميزانيتها تستقطع من بنود أجهزة ثقافية رسمية أخرى.

وكان ينظر إلى، بشك مستريب، لكنه كان، فيما يبدو خاضعا لإرادة رجل

دار مصر المحروسة

الدولة، طلبت شرطا واحدا لنفسى، ولصديقى الكاتب، ألا تنشر مادة بالمجلة إلا بموافقة منى ومن صديقى، وذلك يعنى أن يرفع هو، الضابط الشاب، ومع رئيس تحرير المجلة، يده عن التحرير، فلنا اختيار المادة للنشر، وليس لهما حق الإجازة للنشر، ولدهشتى قبل الشاب ذلك، وأبدى ودا مفاجئا لى، وهو يصافحنى قائلا كأنه يضع ذيلا ثانويا للأمر كله:

ـ سيكون معك، أنت وصديقك، فلان، وفلان، وفلان، ستكون مهمتهم معكما هى الإشراف على التنفيذ والطبع.

كانت المهمة غير مأجورة، لكن الرغبة فى إحياء المجلة، كانت فى نفسى كاسحة، ولم أسترح لحملة الحقائب الذين ذكرهم فاقترحت اسمين آخرين، أعرف قيمتهما، وكانا عونين له فى جهازين خطيرين للثقافة، فقال لى:

ـ لهما مهام أخرى معى، وهما مثلك وصاحبك، لا وقت لديهما للمطبعة.

بدأنا اجتماعاتنا لإعداد المجلة فى عهدها الجديد، مع عدد من الكتاب الشبان، واتصلنا بالأصدقاء، وبالفعل نجحنا فى إصدار مجلة ناجحة المادة والتحرير، برغم من أن اسمها، وكان قد مات، لم يتغير، كنا نجتمع فى مكتب رئيس التحرير، الوثير، بمقاعده الجلدية، حتى حدث أمر لاينسى.

وفدنا لاجتماع ذات ليلة قبل حضوره، فوجدنا باب غرفته بالنادى مغلقا فى وجوهنا، طلبنا من «ساعى» المكان، فتحه فأخبرنا أن المكتب خاص برئيس التحرير، وأن هذه هى أوامره، استبد بى الغيظ، وراح صديقى الكاتب، يهدىء من ثائرتى، وجلسنا فى انتظار رئيس التحرير بالصالة، ولكنه جاء، ولم يلتفت إلينا، ودخل مكتبه، وأغلق وراءه بابه، ذهبت إليه، وسألته عن السبب، فقال منتفخا بزهو تركى:

ـ المكتب لرئيس التحرير، ولا يجلس فيه أبناء الفلاحين.

ثرت فى وجهه، وأعلنت انسحابى من المجلة، ولحق بى حملة الحقائب فى الطريق لإثنائى عن قرارى، وليسمعوا منى ما يرحم فى الضابط الشاب، وفى رئيس التحرير، وينقلونه إليهما، ولم أتحسب فى التعبير عن رأيى.

كان السبب فى هذا التغير واضحا لى، حمل حملة الحقائب موضوعا كتب عليه الشاب: «ينشر»، وذيله الشاب بتوقيعه، ومن رئيس التحرير، حول موضوع آخر للنشر، وكان أمر النشر موقعا، وقرأت وصديقى الكاتب الموضوعين، ورفضنا نشرهما لضعفهما الواضح، فنشرهما يعنى بداية انهيار المجلة، ويعنى التنازل، والتنازل يجر تنازلا، وكأن الغاية هى مجرد استقطابى وأصحابى، وضمنا إلى الزمرة.

وكان فراقا لم أحزن عليه، دام عشر سنوات فما أذكر.

وفد أدبى:

دعانى الضابط الشاب بعد سنين، لأكون عضوا فى وفد من الوفود الأدبية،

لعاصمة أوروبية، وقبلت الدعوة، قابلته بمكتبه، كان بشوشا كعادته، وكأن شيئا لم يحدث بيننا، قبل عشر سنين مضت، وكأن كلمة واحدة لم تنقل إليه يومها، وزودنى بالأوراق الرسمية اللازمة لتأشيرة الخروج آنذاك، وقبل أن أغادر مكتبه، أرانى. من سلة المهملات، ورقة بها أسماء أكثر من عشرين كاتبا، كانت الورقة ممزقة نصفين، وقال لى:

ـ أتعرف صديقك فلان «الأحمر»؟

قلت له ضاحكا:

ـ نعم أعرفه، وأشك أنه حقا «أحمر».

قال الشاب:

ـ كان هنا قبل قليل، وقدم لى هذه الورقة، قائلا إن بها أسماء الكتاب الحمر، وطلب أن أقدمها لأجهزة الأمن، لم ألق عليها حتى نظرة، ومزقتها كما ترى، وألقيت بها فى هذه «السلة».

ثم قال لى:

ـ ستفهم حقيقة هؤلاء الناس يوما ما.

لم أكذبه، ولم أشك فى صحة ما حدث، ولم أسأل عمن كتب الورقة، ولم أقل له «للضابط الشاب»: لم تحتفظ بها إذن، فى... سلة المهملات؟! لكن الموقف أحدث فى قلبى وجعا.

كان بين أعضاء الوفد، وكنا خمسة، واحد فقط من حملة الحقائب، يحمل أسما أدبيا، كأسماء النجوم، غير اسمه الحقيقى، ويقال إنه غير اسمه، بعد تورطه فى فضيحة مالية، من عمله، فتقرب للضابط الشاب بالكتابة عن أبيه، فألحقه بعمل، مع حملة الحقائب.

أثناء الرحلة بين مدن ذلك البلد الأوربى، ولم يكن أحد من أعضاء الوفد، فيما نعرف بعضنا البعض يعرف لغة أهل البلد، كان الحوار الأدبى وغير الأدبى، يتم بواسطة مترجم، وحدث أن مسئولا بهذا البلد كان يتكلم بلغة بلده مع المترجم، نحوا من خمس دقائق.

ولاحظ، ولاحظنا معه، الأذن المرهفة لحامل الحقائب، والابتسامة الصفراء لما يسمعه من المسئول، فوجم المسئول، وقطع حواره مع المترجم، أدركنا أن رفيقنا «حامل الحقائب» يعرف لغة البلد، وأنه من بيننا يسمع ولا يتكلم، ويرقب، ولايعلق.

وهمس لى المترجم فيما بعد، بأن صاحبنا يعرف الألمانية، درسها قبل ذلك ثمانى سنوات بمصر، ولم يكن قد مر سوى يوم على ماحدث. وتأكدت مع الصحاب أن صاحب الأذن سينقل كل شىء إلى الضابط الشاب، وأن أحدا لن يكون مطالبا بتقرير عن الرحلة، إثر العودة، وأن للبلد للأوربى وسائله للمعرفة، من الأرشيف، وأن علينا أن نحترس، فى الغربة، وفى الوطن.

اللقاء الاخير:

ضاق صدرى بعملى كمدرس، شحذت ذهنى، وكتبت طلبا طالبا للضابط الشاب، ووسطت صديقا، كان يعمل ساعدا أيمن له، فى أحد أجهزته، وذهبت لمقابلته، فى أهم مكتب لديه بين مكاتبه، قدمت له طلبى، وطلبت موافقته لنقلى، وكنت أعلم أن فى وسعه ذلك بجرة قلم، فوضع الطلب جانبا، ونظر إلى، وقال بوجه ببشوش:

ـ كيف، وأنت لست معنا.

قلت له:

ـ أعرف فقط، أننى كاتب، وأن من حقى أن أحصل على عمل يتناسب مع عملى ككاتب، والعمل ليس غايتى، الكاتب فى هو ما أحرص عليه.

فمال نحوى، وقال ضاحكا، ولأول مرة يكون صريحا:

ـ أكتب أولا فى مجلة «كذا».

وكان يرأس تحرير هذه المجلة أحد حملة الحقائب، قلت له: ـ لا أقبل ذلك، ليس موقفا من المجلة ولا من الدولة، ولا من الثورة، ولا منك، وإلا لما جئت إليك، هذه المجلة تتسهل فى النشر لمن ليسوا كتابا، ونشرى معهم، فى مجلة واحدة، سيسىء إلى، أنا يشرفنى النشر مع الكتاب الذين أحترم أقلامهم، وأحترم فيهم كونهم أصحاب رسالة.

أخذ يغرينى بأن يدفع أضعاف ما يأخذه أى أحد من الكتبة، وأن ينقلنى ويرقينى إلى المنصب الذى اختاره.

اتخذت قرارى بينى وبين نفسى فى تلك اللحظة، أن أبقى مدرسا إلى النهاية، فهأنذا أستدرج لأصبح واحدا من حملة الحقائب، ويجفونى قلمى، وغادرت مكتبه الفاخر، قائلا له: آسف.

وسط الطريق:

حدثنى فيما بعد صديق شاعر، ذكر أنه قابل الضابط الشاب فى حفل بسفارة، فى عيد قومى لبلادها، أخذه جانبا وقال له ضاحكا:

ـ إلى متى ستظل تسير أنت، وأصدقاؤك: فلان وفلان، فى وسط الطريق؟ وفسر لى صديقى الشاعر مادار بينهما، ثمة كتاب يمشون على الطوار الأيسر، ويهتمون ببعضهم البعض، وكتاب يمشون على الطوار الأيمن، ويهتمون ببعضهم البعض، وآخرون، مثلنا، يمشون فى وسط الطريق، لا يهتم بهم أحد من أهل الطوار الأيمن، ولا من أهل الطوار الأيسر.

وضحكت وصديقى الشاعر، فصاحب القلم لا انتماؤه هو وقلمه مع ما يعتقد أنه الصواب والحق، والفن الجديد هو بالضرورة مع التقدم، والكاتب الحق هو من يقدر أبدا على قول: لا، فى أى وقت، والانتماء ـ أى انتماء ـ يحرمه من هذه القدرة، الحرية، والانتماءات تنسى فى التاريخ، إلا أن تكون شائنة، ولا يبقى سوى الفن الجيد.

ذو الاقنعة السبعة:

رجل دولة كان، أجل، وأضعف من دوره، حرصه الدائم، على تسخير ما تحت يده من أجهزة، لخدمة نفسه ككاتب، وإرادته دائما أن يضع كل المثقفين، فى سلة واحدة، يقدمها للدولة أبواقا وإعلاما، مثلما يفعل هو، وبشرط واحد أن يسبحوا بحمده، ويمجدوا ثمرات قلمه طوعا أو كرها.

فى كل صباح، فى الثامنة تماما، يغادر عربته، ويصعد إلى مكتبه بأحد نواديه، ويظل ساعتين يكتب دون تردد للحظة «رأيت مسوداته على مكتبه» دون شطب لكلمة واحدة، فى العاشرة ينزع قناع الكاتب، ويرتدى قناعا آخر، ويظل هكذا كل ساعتين يعبر به سائقه الطرق والكبارى من مكتب أو إلى مكتب، والأقنعة تتغير.

كانت كتبه تتوالى فى السوق، بأغلفة ملونة، وصور نسوية، بعضها مجرد خطوط على أرضية ذهبية، وتتحول أفلاما، ولم يكن يظهر فيها خطأ لغوى واحد، وقد رأيت بنفسى كثرة أخطائه النحوية والإملائية فى مسوداته، وقيل لى يوما، إن أحد أخواله أستاذ لغة، بكلية جامعية، وإنه يراجع له ما كتبه، قبل أن يدفع به إلى دار النشر.

ومع موقفه الواضح مع التقدم فى إطار الثورة وشعاراتها ومقولاتها، وضد التقدم خارج الثورة بين المثقفين، فقد دهشت لنيله جائزة دولية، لا أعرف أنها يمكن أن تعطى لمثله.

ومع إلحاحه الدائم على النقاد كى يكتبوا عنه، ولو بالشتيمة! فلم يطق صبرا حين تعرض ناقد للكتابة عنه بحرية وجرأة، فتوعده بالويل والثبور، وعظائم الأمور، حتى وهو فى عمل بعيد عن التبعية له.

وتحدث الناس عن خوف الناقد وذهابه إليه مسترضيا ومعتذرا أكثر من مرة، وقبوله، أكثر من مرة، العمل معه، فى مجلاته، متنازلا عن ذات نفسه، قابلا أن تغلق المجلات على يديه واحدة بعد الأخرى، ففى ظل الضغوط والقيود، والرغبة فى وضع الكل فى سلة واحدة، والجيد منها مع الردىء، وفرار الجيد من الردىء، لا يمكن أن تستمر مجلة فى الصدور، أو ينجح معها تحرير.

ومن عهد، إلى عهد، لم ينس الضابط الشاب قط، أنه رجل الدولة فى الثقافة، حتى عندما ضرب عهد بعهد، كان مع الثورة فى تقدميتها فى عهد، ثم كان معها فى تراجعاتها فى عهد آخر، سوطا فى يد سيد الثورة، وكانت النتيجة المحتومة أن يذهب ضحية أقنعته السبعة، وتنقله كالبهلوان، من حبل إلى حبل، فوق ارتفاعات شاهقة.

مازلت أذكر له موقفا غريبا، فبرغم كونه رجل دولة وثورة فى الثقافة، رأيته فى مقر أهم أجهزته، واقفا على السلم بالساحة ينتظر، وكنت ذاهبا لزيارة صديق، وجاءت سيارة فارهة تحمل فلانا «باشا سابقا» وأسرع الشاب، يفتح له باب السيارة قائلا بانحناء:

- تفضل يا باشا.

قوس قزح

دعابة ثقيلة:

عرفت صاحبنا «قوس قزح» أول مرة، وأنا أغادر مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين، سألنى، ولم أكن أعرفه معرفة تذكر، سوى بالاسم، كما لا أعرف عنه سوى أنه كاتب، ولم أكن حتى تلك اللحظة، قد قرأت له شيئا، كل ما كنت أعرفه عنه أنه أحد المتواجدين فى حياتنا الثقافية، والإعلامية، وكان شخصه، آنئذ مرتبطا فى ذهنى أبدا بربطة عنق لا تفارقه فى صيف أو شتاء، وبدلة يختلف دائما لون «جاكتتها» عن «سروالها».

قال:

- أين كنت؟

قلت بدهشة لنوع السؤال، ووقته:

- كنت فى هذا المبنى.

قال ببساطة مستفزة:

- مع من هناك؟

أجبته ببساطة عمن كنت معهم، أمام أستوديو ١٢، فى ركن الجلسة الدافئ المخصص لزوار النجوم من المذيعين، وكانت من بينهم فيما ذكرت مذيعة نجمة اسمها من جهة «اللقب» هو نفس اسم لقبه، فضحك وقال بهدوء شديد:

- أتعرف من هذه؟

قلت:

- لا.

فقال ببساطة بالغة، كمن يتنفس بيسر:

- إنها زوجتى.

وظننت لغفلتى، أو لطيبتى، أن زوجته قريبة له، أن أنها تحمل أسم زوجها، على الطريقة الفرنسية بعد اسمها، وفيما بعد فى اليوم الثانى، أو العاشر، سألت صديقا لى، وزميلا لها يعمل مذيعا معها، عن «فلانة»:هل هى زوجة «فلان»؟

فضحك، وقال:

- من قال لك ذلك؟
فقلت له:
- هو.
فقال لى:
- كيف، وهى زوجة زميلنا «فلان»... المذيع معنا.
ووجمت، ففلان هذا أعرفه، كما أعرفها، وفكرت أن صاحبنا «قوس قزح» كان يهزل، أو ربما كان يعطى نفسه حجما ونفوذا ما، فى عينى لسر لا أعلمه، ولم أعلمه قط حتى الآن.

استعارة:

ذهبت لزيارة أستاذ جامعى، ناقد، أو بالأحرى مؤرخ نقد، وواحد من قلة قليلة فى بلادنا، تحسن دراستها للأدب المقارن، كان الأستاذ صديقا بقدر ماتكون الصداقة بين الأستاذ وتلميذه، قيل لى إنه معتكف، وقيل لى إنه مريض، وكنا فى فصل الشتاء، سألنى عن «قوس قزح»، وأنا أعوده:
- أتعرفه؟
قلت:
- أجل.
وأردفت فى دهشة، وتخوف، لا أدرى لها سببا:
- هل وصل إليك؟
توقعت فى اللحظة نفسها، أن يكون قد ألحق به أذى ما، لا أدرى لم؟
قال لى الأستاذ الصديق:
- أجل، لم أكن أعرفه من قبل، حتى تلفن لى، وطلب مقابلتى، فحددت له موعدا، وجاء.
وكان سؤالى قد رابه، فقال لى:
- أليس هو معيدا بقسم اللغة الفرنسية، بكلية الآداب؟
ضحكت، وقلت:
- هل قال لك ذلك؟
فشحب وجهه قليلا، وقال، كأنه شعر بأنه وقع فى فخ.
- لكنه قدم لى بطاقة، عليها اسمه، وتحت اسمه: معيد بقسم اللغة الفرنسية، بكلية.... وجامعة..
قلت مقاطعا:
- لا صلة له يا أستاذنا بأى قسم، ولا بأى كلية، ولا بأى جامعة... حتى الآن.
وجم الأستاذ الجامعى الصديق وتمتم:
- قال لى إنه يعد رسالتيه الماجستير والدكتوراه، عن الآدب المقارن، وطلب عونى، وقال إنه سيستشيرنى كلما واجه مشكلة فى رسالة، فهو لا يثق بأساتذة

القسم، ولا بالمشرف عليه، بقدر ثقته بشخصى وعلمى، تصور.

قلت بتخوف:

- هل أعطيته كتبا؟

قال على الفور:

- صفوة ما عندى من الكتب، حتى الكشاكيل التى كنت أدون فيها ملاحظاتى وتعليقاتى، وأنا بباريس أثناء الحرب العالمية الثانية، لا أستطيع أن أغادرها... طوال ست سنوات، أعطيتها له.

قلت:

- كم مضى على أخذه للكتب والكشاكيل؟

فقال، وهو يجهد للتذكر:

- عامان أو أكثر.

قلت بيأس من أية قدرة على معاونته فى استرداد كتبه ودفاتره:

- لن يعيدها إليك، استعوض الله فيها.

ولا أعرف حتى الآن إن كان قد أعادها إليه، أو طلبها الصديق الأستاذ منه، لكننى أكاد أجزم أن كلا الاثنين لم يحاول شيئا نحو الآخر، وربما لم ير أحدهما وجه صاحبه.

فيما بعد عرفت أن هذه الاستعارة، غير المردودة، كانت فى حينها، فصاحبنا «قوس قزح» يحسن الاستفادة من الكتب، والملاحظات، والتعليقات، فيما يكتبه من كتب، ومقالات، بالقص، واللصق، والمونتاج، وحسن الصوغ لأفكار الغير، بطريقة يحسن إخفاءها، عن أى معرفة لنسبتها ومصدرها.

ومرض صديقنا الأستاذ الجامعى، بذات الكبد، مرضا طويلا، وودع الدنيا، وما بقى عنده من كتب، بل دفاتر، ورسائل جامعية للطلاب الذين كان يشرف عليهم، بيعت من بعده، بأرخص الأثمان، على الأرصفة مع باعة الصحف، وأسوار الكتب الشعبية، ومكتبات الكتب القديمة، فحدثت نفسى: هل كان صاحبنا «قوس قزح» على صواب، حين أخذ ما أخذه من كتب؟!

زيارة:

زارنى صديقنا الكاتب «المغترب الأبدى»، وقال لى: إن صاحبنا «قوس قزح» مريض، وأجريت له عملية جراحية، لا أذكر، إن كانت زائدة دودية، أو بواسير، وإنه ذاهب لزيارته، وجاء ليصحبنى معه إلى بيته.

دخلنا غرفة مكتبه، وطلب منا الانتظار، فصاحبنا «قوس قزح» بالحمام، فأدركت أنه الآن بخير، وفى فترة الانتظار التى طالت، جىء لنا بالشاى، ولما كانت الكتب ليست أسرارا خاصة، وكانت الأوراق المكتوبة من الأسرار الخاصة، إلى أن تنشر، أو يطلعك كاتبها عليها، قبل نشرها، فقد تجافيت عن أوراقه على المكتب، ورحت أقلب فى الكتب الموضوعة على مكتبه، وكانت كلها كتبا نقدية،

ضخمة الحجم، وصدرت خارج القاهرة، وبعضها كان مترجما هذه الترجمات المتعجلة، غير الأمينة، التى تصدر فى العاصمة «الترانزيت».

وكانت بين صفحات الكتب، بين بعض الفصول، أو صفحات بالفصول، قصاصات أوراق مستطيلة، ولفتت نظرى خطوط طولية، مقوسة على فقرات بعينها قد تستغرق صفحات، وقد كتب صاحبنا «قوس قزح» بجانبها بالقلم الرصاص أيضا «تنفع فى فصل كذا، بكتاب كذا» وهكذا كانت كل الكتب، بجوانبها كلها خطوط، فى عديد من الكتب والصفحات.

أطلعت صديقنا الكاتب المغترب الأبدى، عليها، وقلت، فيبدو أننى ولدت مسحوبا من لسانى:

- أرأيت؟ صاحبنا يكتب بطريقة القص، واللصق، وأشك أنه يسطو، ويحسن الصياغة، وفن الإخفاء.

فلم يعلق صديقنا الكاتب، المغترب الأبدى، بشىء، فكرت أن كليهما ينتمى إلى الآخر، ذلك الانتماء الذى يوقع فى الانحياز والتصعب الذى يحسن كلاهما إخفاءه.

وجاء صاحبنا «قوس قزح» مستحما، ضاحكا، متورد الوجه كعادته، وقلت له ضاحكا، بعد السؤال عن الصحة:

- كنا ننم عليك.

وأريته ما رأيت، وأعدت عليه ما قلته، فضحك، ولم أشعر أن ضحكه مراعاة لكرم الضيافة، وقال:

- ياسيدى، «بمعنى: لا شىء يهم، أو لا تأخذ فى بالك، أو..»

بوتيك:

فى سنوات الهجرة الكبرى لأصحاب الأقلام بأقلامهم، أو بأقلامهم وأبدانهم معا، إلى الأقطار الشقيقة، والأجنبية، مع أصحاب الحرف والمهن من الزراع والصناع، هاجر صاحبنا «قوس قزح» بقلمه وشخصه إلى عاصمة عربية، من هذه العواصم «الترانزيت» و«البوتيك» الكبير لكل شىء: الفكرة والمادة معا، الذى تصب فيه كل الروافد.

وبين حين وآخر، كنا نقرأ له، مقالاته وكتبا، كانت شجاعتها تثير العجب، والخوف، ولو أنها صدرت له وهو فى القاهرة كان صداها يمكن أن يكون عندئذ أكبر، حتى لدى السلطة التى كانت تسير آنذاك فى شجب عهد مضى، بين المثقفين والسياسيين وغيرهم، لكن الوافد من كتب صاحبنا «قوس قزح» ومقالاته الصحفية كان قليلا ومحدودا، لا يثير ردود فعل داخلية تذكر، وللدهشة فوجئنا بصاحبنا «قوس قزح» يعلن عن إصدار مجلة فكرية و«نارية»، ويبلغنا أنه كتب لهذا، أو لذاك، يطلب منه التعاون معه بالمقالات فى تحرير المجلة، وأنه سيدفع أجرا جزيلا، وزاد فى دهشتنا أننان لا نعرف أية دار نشر ستصدر عنها هذه

المجلة الفكرية «النارية»، أو من سيمولها، فصاحبنا «قوس قزح» فيما نعرفه، يعيش بالكاد من قلمه، وربما بسبب ذلك كانت هجرته بشخصه وقلمه معا.

وصدر من المجلة الفكرية «النارية» عددان، رفيعا التحرير، والطباعة، والمادة، والمستوى، وعلى غير انتظار توقف صدور المجلة الناجحة، ولسبب لا نعلمه، وجاءتنا الأخبار بأن صاحبنا «قوس قزح»، ارتحل إلى المدينة النور، وقيل لنا «والعهدة على الرواة من مروجى الإشاعات»: إن صاحبنا «قوس قزح»، قد أخذ عشرين ألفا «كذا» من عاصمة عربية، زاعما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مجلتها، وأخذ عشرين ألفا «كذا» أخرى، من عاصمة عربية ثانية، زاعما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مجلتها، وخلال ذلك أصدر العددين بما تيسر من تكلفة، وحمل بقية المبلغين معه، وارتحل إلى عاصمة النور، والأمل!!

منازع كاتب:

كم سنة مرت، وصار صاحبنا «قوس قزح»، مشرفا على صفحات أدبية، أحسن حقا الإشراف عليها وتحريرها، تحرير متابعة للواقع الأدبى، والفنى، وبأقلام رفيعة المستوى، لكن صاحبنا «قوس قزح» سقط من عينى فجأة، إذ كتب مقالا، من هذه المقالات التى ترصد حصاد الواقع الثقافى لعام مضى، فلم يتوقف إلا عند عطاء الكبار «دون غيرهم من الموهوبين»، وعند عطاء اثنين ينتميان، وينتمى إليهما.

وجاء المقال مثيرا للامتعاض، والشعور بعدم الحياد، والأمانة، ولم أغفر له ذلك فى نفسى قط، بالنسبة إلى نفسى، وإلى غيرى، من جيلى، ومن الأجيال الصاعدة، ولم يشفع له عندى تحيته النقدية لأول مجموعة قصصية صدرت لى، وإطراؤه لحوارها واستثمارها للأسطورة، وعدى واحدا من بضعة كتاب يعدون على أصابع اليدين، وباخت فى داخلى تحيته، وأيقنت أنه يسير فى طريق آخر، تحدوه المجاملة والتقرب، أو يدفعه الانحياز الانتمائى إليهما.

فى تلك الأثناء، راح صاحبنا «قوس قزح» يصدر كتبا عن كبار الكتاب، متخطيا مسئوليته الأولى عن جيله، والأجيال التالية، ومهتديا بالحكمة القائلة «من ليس معه يؤخذ منه، ومن معه يعطى ويزاد»، كان حريصا، مثل كثيرين من كتاب جيله المشتغلين بالنقد، على دعم أواصره للعمل الوظيفى، وللتواجد المهنى، بنجوم ورواد، حتى بعد موت أحدهم، من أعمدة الأدب وعمدها.

انتهز قوس قزح فرصة موت كاتب كبير ونشر حديثا، أو محاورة مطولة، معه، قال إنها تمت معه قبل موته، فى مرضه الأخير، وكنا نعرف، إنه معزول فى مرضه هذا، عن كافة الخلق، إلا من أهله، وأنه، على ضيق ذهنه، يعانى من تتابع القول، والجهد المبذول للقول.

وثارت الأوساط الثقافية ولم تقعد.

وانكفأت على قراءة الحديث المحاورة، على أرى جديدا فيه، يقوله الكاتب الكبير الراحل، وخرجت بانطباع واحد، لا راد له فى نفسى، بغض النظر عن كل ماقاله أو كتبه غيرى آنذاك، أن هذا الحديث المحاورة «مفبرك» من ألفه إلى يائه، فالمقولات، على لسان الكاتب الكبير، فى الحديث المحاورة، هى نفسها التى قرأتها له فى كتبه من قبل، فقط، الاختيار موفق، والصياغة ماهرة وقديرة وماكرة، لم أجد الشجاعة، آنئذ أو ربما الدافع، لأقول رأيى، فى حديث محاورة، اختلقه، فيما أعتقد كاتب مهاجر بالقلم والبدن، ينتمى إلى بلدى، وانتمى إليه، وينتمى إلى انتماء الوطن.

زوبعة... فى فنجان:

هبت على القاهرة، عاصفة أخرى، من عواصف صاحبنا «قوس قزح»، البشوش الوجه، الواسع العينين، الذى لم أره ثائرا قط، ولا غاضبا مرة.

تناقل النمامون والمغتابون، من رواة الإشاعات «والعهدة على الرواة» خبر انقضاض صاحبنا «قوس قزح»، على مطار عاصمة عربية، فألقى القبض عليه «والعهدة على الرواة» لأنه سبق أن وجّع هذه العاصمة، فى مال أخذه لمجلته الفكرية «النارية»، «والعهدة على الرواة»، فطلب مقابلة سياسى كبير، «والعهدة على الرواة» لأنه جاء على عجل لمقابلته «والعهدة على الرواة»، فأذن له بالمقابلة إثر مكالمة تليفونية، «والعهدة على الرواة»، وجلس صاحبنا (قوس قزح) إلى السياسى الكبير «والعهدة على الرواة»، وفاجأه بأنه قرأ نظريته عن الكون والإنسان والحياة «والعهدة على الرواة»، وآمن بكل ما فيها «والعهدة على الرواة»، ففاجأه السياسى الكبير بأن طلب منه أن يعلن ذلك على الملأ كافة «والعهدة على الرواة»، واتصل السياسى الكبير بتليفزيون بلاده، وحجز له ساعة على الشاشة الصغيرة يقول فيها رأيه الذى آمن به فى نظريته الكونية هذه «والعهدة على الرواة».

ولم يجد صاحبنا «قوس قزح» مفرا من الذهاب إلى التليفزيون، والتحدث فيه ساعة عن نظرية السياسى الجديد البكر «والعهدة على الرواة»، ويعلن صاحبنا «قوس قزح» فيما يعلن عن تغييره لانتمائه «والعهدة على الرواة»، ويعود إلى السياسى الكبير فيعطيه «والرقم مبالغ فيه فيما أرى» ربع مليون دينار مرة واحدة «والعهدة على الرواة»، لكى «يبشر» بانتمائه الجديد فى بلاد الخواجات، بهذه الفلوسات «والعهدة على الرواة»، وتعس كل الرواة!!

ويعود صاحبنا «قوس قزح» إلى القاهرة، وأسأله عن كل ما قاله الرواة فى غيبته، وحقدا، فيضحك، ويقول فقط:

- وأنت... هل تصدق؟

ولكم أود إلى الآن، أن أعرف: هل أصدق فأصدق؟ أم هل أكذب فأصدق أيضا؟!

والحق أقول لكم إننى حيال صاحبنا «قوس قزح» أخشى أن أظهر إعجابى به، فيسخر منى الرواة، أو ضيقى به، فأفقده، وهو ما سوف يحدث إثر قرائتكم عن هذا الوجه.

كلما تذكرته، تذكرت ما أعرفه عن ألوان «قوس قزح» فى واد ضيق كالأخدود، بين قمتى جبل، من قمم جبال السلط بالأردن، فى يوم شتوى، ضاحى الشمس، لبخره ندى، ألوانه تثير الانبهار والخوف، والإعجاب والرعدة، وتسرى جميعا فى منابات الشعر.

شائعة المائة ألف:

حين اجتمعت جيوش الأرض المأجورة، من دول أجنبية مرتزقة، أغنى دول الأرض، وأفقرها، فى «حفر الباطن»، وحين كانت جيوش المستبد الأعظم من الفلاحين المأمورين، والعمال الضائعين، والطلاب الخائفين، والموظفين المذعورين، تحتل أرض الكويت، مساقة إلى الذبح الأعظم، حينذاك، تسابق الكتاب المرتزقة، حتى ممن كانوا بين المرتزقة من أجهزة المستبد الأعظم، دفاعا عن الكويت فقد وقع المستبد الأعظم، فى الفخ الذى نسجوه له، واختار أن يصدق اللعبة، ويقع فيها باختياره، وفق حساباته الداخلية والخارجية الخاصة.

وبين المتسابقين، كان صاحبنا «قوس قزح»، فقد أشيع، «والعهدة على الرواة» أنه سارع بالذهاب إلى مسئول الإعلام الكويتى، وقال له بثقة مطلقة، إنه لديه عن المستبد الأعظم وثائق تبدد وهم المتوهمين عن فروسيته الأعظم، وبطولته القومية، ووهم زعامته لفقراء العرب، أفراد ودولا، واستبشر المسئول الإعلامى خيرا، فهو وبلاده بحاجة إلى كل صوت عربى، أو أجنبى، يدافع عن وطنه المسروق، فى أى إعلام، وبأى وسيلة إعلامية كانت، وقال المسئول الإعلامى لـ«قوس قزح»:

- صحيفتنا موجودة تحت أمرك، ونحن ندفع فورا.

فقال قوس قزح:

- ما أملكه لا يملكه أحد، ولا يعرف مثله أحد، وبصدق أنا بحاجة إلى بيت آخر سوى بيتى فى هذه المدينة، فقد ضاق علىّ على وثائقى وأرشيفى الخاص.

عندئذ ابتسم المسئول الإعلامى ابتسامة جريحة ولابد، وقال:

- كم تريد؟

قال قوس قزح لفوره:

- مائة ألف دينار، لا تنقص.

وتضاحك ، ولابد، وقال:

- إلا إذا زدتموها، كرما.

فقال المسئول الإعلامى:

- لك ذلك، طلب يسير، لصديق عزيز، لوطن جريح.

وحرر له شيكا بمائة ألف دينار، وانطلق قوس قزح يكتب فى صحيفة الوطن السليب، ولم يزد ما كتبه عن المستبد الأعظم، عما يعرفه الناس، وعما كان يكتب آنذاك، وعما كان منشورا فى الكتب التى صدرت بالرافدين، من أسرار المستبد الأعظم وخفاياه.

وانطلقت الشائعة كاذبة كانت أو صادقة، فالعهدة دائما على الرواة، حين صار لقوس قزح، البيت بدلا من البيت، فى حى راق.

تغيير الماركه:

إثر معركة أم المعارك الدولية، تغير الكثير من أوراق الإعلام، فى وطن المضحكات العربى الكبير، وتغير معها مواقع الكتاب المرتزقة، ومجلات المرتزقة المعانة، وكانت هناك مجلة تعانى من المستبد الأعظم، يكتب بها قوس قزح، وعرضت نفسها للبيع، إثر السقوط المدوى للمستبد الأعظم، وافتقاره بالحصار الاقتصادى. وتوسط قوس قزح، فجاء بالمشترى من دولة أخرى نقيضة، وقبض الوسيط الثمن، والمركز الطيب فى تلك المجلة، مع تغير المواقع، والبقية تأتى، فمصائب قوم عند قوم فوائد، وبعض الأفراد، كبعض الدول، قوس من أقواس قزح، أو كما يقولون فى وطنى: على كل لون «يا باتستا» فى نطق، أو «باتصتا» فى نطق آخر.

والبقية تأتى فى حياة قوس قزح المريرة، فلابد دائما، فى الجو، من قوس قزح، وبين الناس، من قوس قزح، وإلا متنا هما وحزنا.

(١) رفعت قيمة الجائزة إلى خمسين ألف جنيه. وقد زادت الأسعار عن مائة وخمسين مرة عن عام إنشاء الجائزة. ومن فضلك أقسم مبلغ خمسين ألفا على مائة وخمسين، أو أخبر بمبلغ خمسة آلاف جنيه فى مائة وخمسين فهى القيمة الحقيقية الآن المادية لمبلغ خمسة آلاف جنيه وليس أكثر.

عجل جسد له خوار

الغبى:

جمعتنا أيام المحنة، إثر حرب الأيام السود الحزينة، أيام يونيو عام ١٩٦٧، فى بيت صديق كويتى، كنا من الأسى والإحباط فى دوار داخلى عميق، نتحاور وكأننا نهذى، ونضحك وكأننا نبكى، ونجرع المادى ولا نرتوى، ونأكل وكأننا نأكل آخر زادنا، ولم يعد لنا من هم سوى النم فى أيام اللقاء الأسبوعية، وكأننا حين شعرنا بالعجز والقهر رحنا نأكل أنفسنا، ونأكل لحوم مواطنينا الأحياء والموتى، كنا ذوى مشارب مختلفة الطباع والمنازع، بيننا كان شاعر كبير راحل، وشاعر يمنى يجوب البلاد، ويلقى العباد، وشاعر نجم صاعد، دافىء القلب والنظرة والصوت، هو رابطة العقد، وشاعر نديم يحكى فى المجالس ذكريات السنين، ويروى أشعار الشعراء، بؤساء، وظرفاء، لا يقبل النشر فى مجلة أو ديوان.

جاءت سيرة مخفى الذكر «العجل الجسد ذو الخوار»، فقال الشاعر الكبير الراحل:

- هذا الغبى، كيف صار ذا حول وطول فى مصر المضحكات المبكيات؟

سألته:

- الغبى، إنه أصدق وصف، أتعرفه؟

قال الشاعر الكبير الراحل:

- نعم... كنا نجتمع فى بيت أبيه، كان أبوه يقيم صالونا أدبيا أسبوعيا لنا، وكنا صفوة من شباب الشعراء والناثرين، غايتنا شرب العدس بالمرق، وقول الشعر بلا حياء أو ملق، والمنادمة والمسامرة إلى أن يؤذن ديك الصباح، وكان هذا الغبى، مثل عجل ذهبى، يجلس عند الباب مفتوح الفم، زائغ النظرة، ينظر ويسمع، وإذ يتكلم يتهته، والقول يتزاحم فى سقف فمه، كأنه يلوك طعاما لا يمضغ، ولا يبلع، ولا يلفظ، وكان أبوه، الكبير المقام، يشعر بالحزن، إذ يراه، وإذ يسمعه، ويرثى لنفسه فى سره، لأنه سيكون ذكره «العطر» فى الدنيا بعده، وقلت لأبيه يوما فى لحظة بوح وصدق: هذا لأنكم أسرة تتزوج من بعضها البعض، ولم تباعدوا فى الزواج، كما أمر سيد الخلق، وكما يقول علماء الوراثة، وما أظنك إلا مزوجه من قريبة له، فيكون الخلف أسوأ من السلف، وتصبح جدا لمعتوه، مثلما

أنت أب لغبى. ولولا أننا كنا فى فراق عند الباب، لحدث ما لا أحسد عليه، وطردت شدة طردة، من قصر الأب الكبير المقام.

دعوة على طعام:

روى لى صديق قصصى شاب، كان على صلة بالعجل الجسد ذى الخوار، وكان صديقى الطيب، وهذه آفته بين آفات زماننا، مبهورا بغناه الباهظ، وصورة الفيلا التى يصيف بها على ضفاف بحيرة فى الجبال، بعيدا وراء البحار، مبهورا بطوله وعرضه، ووجهه الدموى، وثقته المتعالية التى لا تحد بنفسه، روى لى أنه دعاه يوما إلى طعام فى بيته، إيثارا له، وإعجابا بقلمه، ولأنه فيما يبدو ابن ناس، لاشك أنهم كانوا من المماليك.

وذهب الصديق القصصى الشاب فى الموعد المحدد، فراعه مدخل البيت الموروث، واستقبله على الباب نوبى أنيق وسيم، وأدخله إلى غرفة عتيقة الأثاث والرياش، مزدانة بلوحات موروثة لمناظر طبيعية، بينها لوحة هذه الفيلا التى يملكها على ضفاف بحيرة.

وجاء العجل الجسد ذو الخوار، يترنح فى روبه الذهبى، الفضى، المفصل خصيصا على قده وحجمه، وصافحه بأطراف أصابعه، وجلس على مبعدة، وأخذا يتحدثان، حتى جاء السفرجى، فتبعه القصصى الشاب إلى المائدة، وجلسا معا، يأكلان ما لذ وطاب من لحوم بيضاء وحمراء، وتفاح وأعناب، وفى مقدمتها كان العدس الشهير، المطهو بالمرق، وأحد عشر خادما نوبيا مصطفين على الجانبين، لخدمة اثنين، ولم يعتذر العجل الجسد ذو الخوار، عن عدم حضور زوجه، أو أحد من بنيه، لمشاركتهما الطعام، وفهم الصديق القصصى الشاب أنه فى النهاية، عنده، وعند أهل بيته من أبناء الناس الفلاحين.

إثر الطعام، تبعه الصديق الشاب، إلى غرفة التدخين، ولم يكن العجل الجسد ذو الخور من المدخنين، وأثناء رشف أقداح القهوة، التى أعدت من البن والمستكة، والحبهان والعنبر، قال العجل الجسد ذو الخوار:

- أنت تعرف يا ابن الناس ازدحام وقتى، وانشغالى بأمور الأهل والخدم والحياة العامة التى فرضت على، وضيق وقتى عن كتابة المزيد من القصص، وماأريده منك بالتحديد، هو أن تكون لى، كابن، بمثابة سكرتير، أحكى لك قصة، فلن أتعب فى الحصول على موضوعها، وعليك أن تصبها فى أسلوبك الجميل، ولست أريد عائدها، فى النشر بمجلة، أو صحيفة، فهو خالص لك، هى قصتى، وعليها اسمى، ولك عن تعبك الثمن، ولا تنس أنك ستكتسب خبرة بفضلى، وسوف أتيح لك الفرص لنشر قصصك أنت، وأقدمك إلى نجوم المجتمع، على أن يظل ما قلته لك الآن، وما سوف تعاونى فيه، سرا بيننا.

قا لى الصديق القصصى الشاب:

- اعتذرت لهذا العجل، عن أداء هذه المهمة، لضيق وقتى أنا الآخر، وحاجتى

إلى وقتى لكتابة قصصى أنا، خاصة أن رؤيتى لموضوعات القصص تختلف عما يريده هو لها من رؤية.

عندئذ صاح به العجل الجسد ذو الخوار:

ـ رؤية؟ أتتكلم عن رؤية؟ أنت إذن من هؤلاء «الحمر» المستترين؟

ونادى العجل الجسدد ذو الخوار، بأحد النوبيين، قائلا له:

ـ أره الطريق إلى الباب.

وظل جالسا، وخرج الصديق القصصى الشاب، وقال لى:

ـ حقا لم أشعر بحرج، ضحكت، وحدثت نفسى أن الأغبياء فى هذه الدنيا، هم أكثر الناس خبثا ولؤما، ولفا ودورانا، ورغبة فى التواجد فى هذه الدنيا، حتى يعرف غيرهم، وأن الأذكياء، ليسوا بحاجة إلى شىء، من هذا كله.

كان من عادة صديقى القصصى الشاب، أن يحول أبدا ما هو خاص، إلى ماهو عام، أن يفلسفه ويبرره، ويحوله إلى قضية تجريدية لا تغنى فتيلا فى الصراع مع أوباش الناس، وشعرت نحوه هو الآخر بالإشفاق، وأدركت أنه بات منذ ذلك اليوم، فى خوف من أن يلحقه أذى من العجل الجسد، ألم يقل له متواعدا: أنت من هؤلاء «الحمر» المستترين؟

مجد المصادفة:

حصل مخرج أحمق، بعد ليلة حافلة بالطعام، ولزوم الطعام، فى بيت العجل ذو الخوار على مظروف مغلق، به ورق أخضر هدية، وعلى عقد بإخراج قصة لمضيفه، ووعد بتدبير منتج لفيلمه الجديد، وكاتب صاعد يعد له السيناريو اللازم.

وحمل المخرج السيناريو، إلى مؤلف أغان، ليضع الأغانى الفولكلورية للفيلم، لكن مؤلف الأغانى، لم يعجبه السيناريو، وإن أعجبته القصة كموضوع، وأصر على أن يجرى قلمه فى مشاهد السيناريو، خاصة فى حواره، وقبل المخرج، والمنتج والعجل الجسد ذو الخوار، وأخرج الفيلم، برؤية جديدة هى رؤية مؤلف الأغانى، التى جسدتها الأغنيات الجماعية، وحوار الأبطال، فى غفلة من العجل الجسد ذى الخوار.

وجاء يوم العرض الخاص لمشاهدة الفيلم، وجلس مؤلف الأغانى الشاب بجانب العجل والجسد ذو الخوار، وأثناء العرض، والمشاهد تترى، كان العجل الجسد ذو الخوار يلكز بمرفقه مؤلف الأغانى بين لحظة وأخرى، قائلا فى هدير مكتوم:

ـ أنا قلت ذلك، أنا كتبت ذلك؟ كان ينبغى أن أعترض قبل الإنتاج عليك، ستودى بى فى داهية، وبنفسك، ستجرنى معك، أنا برىء من هذا الفيلم، هذه رؤية «حمراء» «مشبوهة»، ستوقعنى فى نقمة «العسكر».

لكن مفاجأة العرض الخاص، كانت حين دوى التصفيق إعجابا بالفيلم، حتى

من أعضاء الرقابة المشاهدين، ووقف العجل الجسد ذو الخوار حائرا كالتائه، يتلقى تحايا وثناء المهنتين بفيلمه العظيم، ومشى بينهم إلى خارج صالة العرض الخاص، كانت حين دوى التصفيق إعجابا بالفيلم، حتى من أعضاء الرقابة المشاهدين، ووقف العجل الجسد ذو الخوار حائرا كالتائه، يتلقى تحايا وثناء المهنئين بفيلمه العظيم، ومشى بينهم إلى خارج صالة العرض يترنح خوفا ونشوة، يحدث نفسه: ماذا سوف يفعلون بى، هؤلاء «العكسر»؟ وماذا يغنينى إعجاب الناس لو غضبوا علىّ؟ وتمنى أن تعترض الرقابة على الفيلم، فلا يصل إلى قاعات العرض على الجماهير، ويتوقف الفيلم، وينجو هو والمنتج والمخرج، وليذهب مؤلف الأغانى «الأحمر» إلى الجحيم.

وتحققت أمنية العجل الجسد ذو الخوار، اعترضت الرقابة على الفيلم، ولزم هو الصمت، وعارض المخرج والمنتج القرار، ولزم هو الصمت، أكد لنفسه أن الفيلم، بعد المشاهدة الساسية، لن يجاز، وهنأ نفسه لأنه سيصبح قضية عامة، فهو أمام الناس قد أدان الاستبداد، والعسكر، وسينسب إليه ذلك الفضل، لا إلى مؤلف الأغانى، ولا إلى السيناريست، ولا إلى المخرج، فالقصة قصته، والسلطة الغاشمة وقفت ضدها.

لكن ماحدث، كان عجيبا ومدهشا، شهد قائد العسكر مع أعوانه الفيلم وبهره وراقته الأغانى، وأعجبه الحوار، وقال لمن حوله فى ثقة وإخلاص:

- اعرض الفيلم، لو كنا كما يقول الفيلم، فنحن أولاد كلب، ونستحق التشهير بنا.

وعرض الفيلم، ونجح الفيلم، ونسى الناس المخرج، ومؤلف الأغانى، وصار الفيلم فيلم العجل الجسد ذو الخوار، ومشى يختال بنفسه بين الناس، ولم يخجل ويذكر بالخير، قائد العسكر، بعد موته، فراح يتغنى ويكتب فى الصحف والمجلات، ويتشدق فى المجالس، بأنه وقف ضد الاستبداد فى العهد الغابر، وأن شجاعته لم يقم بمثلها كاتب، فى وجه، الاستبداد، ولم يكف عن القول، إلا حين قال له كاتب مسرح قديم:

- كفى نحن نعرف من كتب سيناريو الفيلم وأغانيه، لقد ارتكب جريمة حين «جعل من الفسيخ شربات»، لقد قرأت قصتك، وشاهدت الفيلم، وليس لك من قصة الفيلم سوى اسمك، وبليتك الكبرى يا صاحبى حين يكتب أحد يوما الحقيقة، ولسوف تعيش بقية عمرك فى «خوف» من هذا اليوم.

معى سيف المعز وذهبه:

اقترب يوم الانتخابات، لنصف أعضاء مجلس إدارة الجمعية، التى يرأسها العجل الجسد ذو الخوار، وكانت القرعة الانتخابية، قد اسقطت فى مجلس عضوية نصف الأعضاء بين عامين اثنين، وبقى النصف الآخر ليتم «بالحظ» عامين آخرين.. ومن «سوء حظ» العجل الجسد، أن اسمه كان بين من أسقطت

القرعة عضويتهم، فرشح نفسه للعضوية، من جديد، لكى يعود رئيسا للجمعية مرة أخرى.

وجمع العجل الجسد ذو الخوار أركان حربه الأربعة، وهم حرسه الخاص، وجوقته الشخصية بين الناس، فى عموم بر مصر، وحملة حقائبه السمسمونايت: السوداء، والبنية، والرمادية، والذين لا يسمح لأحدهم بأى كرافته بها نقطة حمراء، كان بينهم حارسه الأثير لديه، والذى أغناه بالمال، وبالوظيفة، وبالسحب على المكشوف من رأس مال الجمعية، وصيره كاتبا خاصا لقصصه هو، وأنعم عليه بحق أن يكتب قصصا ينسبها لنفسه، ويرجح أنه كان من قبل حارسا فى «شادر» لمخزن أخشاب، قال له حارس الشادر السابق:

ـ هذه أول مرة يا باشا، نجرى فيها انتخابات، بعد رحيل «يونس بك» عنا، وتركه لنا هذه التركة الثقيلة.

فشخط فيه العجل الجسد، وقال:

ـ نفعل مثلما كان يفعل يرحمه الله، لقد دبرت لهذا اليوم من قبل، ألم نضم أعضاء جددا، ليس بينهم «أحمر» واحد، أو به شبهة «حمرة»، إلى جمعيتنا قبل عام؟

قال حارس الشادر السابق:

ـ بلى.

قال العجل الجسد ذو الخوار:

ـ ألست بحاجة إلى نظارة جديدة مثلا؟

لم يفهم حارس الشادر السابق، وقال:

ـ نظارتى سليمة والحمد لله.

فقال له العجل الجسد ذو الخوار:

ـ ياغبى، فلنقل إنك بحاجة إلى نظارة، لزوم العمل بالجمعية، وزملاؤك هؤلاء أحدهم بحاجة إلى سيارة لزوم العمل أيضا، والثانى إلى مكتب فى بيته لنفس الغرض، والرابع إلى أى شىء يخطر بباله، يتزوج مثلا، زواجا ثانيا، تأخذون المال، وتجلبون به الأعضاء الجدد بالسيارات، وتنزلونهم فى فندق، وتطمعونهم، وتسددون لهم اشتراكاتهم فى الدفاتر بتاريخ سابق، وأمام كل هذه النعم والمكرمات، يصوتون معنا، ومن حسن حظنا أن خصومنا الذين تسللوا إلى العضوية العمومية بالجمعية، قليلو العدد حتى الآن، وأكثرهم لا يحضرون يوم الانتخابات للإدلاء بأصواتهم، والذين رشحوا أنفسهم راسبين فى الانتخابات لا محالة، أفهمت أنت وهم؟

قال حارس الشادر السابق:

ـ وهذا التشويش الذى سيحدثونه يوم الانتخابات.

فقال العجل الجسد ذو الخوار:

ـ هؤلاء المشوشون «ذو الكلمات المسمومة»، دعهم لى، فأنا كفيل بهم، حتى لو

كانوا جيشا عرموما، سيفى «الأبيض» فى وجه كلماتهم «الحمراء»، ومال الجمعية تحت يدى وبيدى وحدها، ومعى سيف المعز وذهبه.

دعوة... لمحاضرة:

حدثنى صديق ناقد، كان يرأس مركزا من مراكزنا الثقافية، فى عاصمة أوربية، أنه دعا مهندسا مصريا شهيرا، ليحاضر المستشرقين والأجانب عن العمارة الشرقية، وخضع «وكان هذا هو خطؤه حسب قوله» لرغبة ديبلوماسى فى دعوة العجل الجسد ذو الخوار، ليشارك المهندس المصرى، وقبل العجل الجسد ذلك الحل على مضض.

وكان من المقرر أن تكون محاضرة المدعو بلغة أجنبية حية، يفهم عنها الحاضرون ما يقوله المدعو، لكن العجل الجسد أصر على أن تكون محاضرته بالعربية، فطلب من الصديق أن يغير إصراره هذا، لأنه لن يفهم عنه محاضرته أحد سواه، وسوى المهندس المصرى، وليست هذه هى الغاية من الدعوة، فقال العجل الجسد بتعال للصديق الناقد:

- أنت تعرف هذه اللغة الأجنبية: سأتكلم أنا بالعربية، وتقوم أنت لى بالترجمة الفورية.

فغضب الصديق الناقد، ورفض قائلا:

- إنك تتجاوز حدودك معى، ولن أتجاوز حدود عملى كرئيس لهذا المركز الثقافى، فتصرف كما تحب، اطلب من قريبك الدبلوماسى فى هذه العاصمة الأجنبية أن يحل لك مشكلتك.

واتصل العجل الجسد بقريبه الدبلوماسى، وطلب منه بجرأة أن «يأمر» الصديق الناقد، رئيس المركز الثقافى بالترجمة لما يقوله، فقال له قريبه:

- ليس ذلك من سلطتى معه، ولا من حقى، وليس معى أحد يقوم لك بهذه المهمة.

وبرطم العجل الجسد ذو الخوار غاضبا، لأن أحدا لا يريد أن يفهم مكانته ككاتب كبير، واضطر إلى إلقاء محاضرته بالعربية لغير مستمع.

ودعا المهندس المصرى، الصديق الناقد، والعجل الجسد، وزوجته، وابنته لدعوة على غداء احتفالا بالمناسبة، وبفوزه بجائزة كبيرة من بين عدد كبير من المهندسين الأجانب.

وعلى المائدة أثير، بين ما أثير من حديث، حوار حول «اتفاقية كامب ديفيد» وآثارها على الوضع الثقافى والحياة الثقافية المصرية والعربية فى الخارج، وذكر الناقد المصرى رأيه المتحفظ كعالم، قال:

- أنا رجل عالم، وصلتى بالسياسة صلة علمية، وتقييمى لهذه الاتفاقية أنها تمت فى وقت غير مناسب مصريا وعربيا، وأنها لم تكن اتفاقية سلام عادل، وشامل، يضم كافة الأطراف المتنازعة، ولذلك فقد سببت حرجا شديدا

للمسئولين عن الثقافة العربية فى الخارج، من العلماء المصريين، والعاملين فى المركز الثقافية، فالعرب هنا، فى هذه العاصمة مثلا، يتحرجون من القدوم إلى المراكز، ومقابلة المسئولين به، بسبب موقف دولهم من اتفاقية كامب ديفيد، وتمثيلنا نحن لمصر التى كانت أحد طرفيها، وحين يتجرأ أحدهم، لا يأتى لمقابلتى إلا سرا، وليلا، حتى لا يراه أحد من أهل بلده، ولا يؤخذ عليه قدومه إلى مركزنا العربى، المصرى... وفى اعتقادى أن هذه الاتفاقية أضرت بمصر، وسببت لها ولنا حرجا شديدا مع العرب.

عندئذ ثار العجل الجسد ذو الخوار، هب واقفا غاضبا، وقال بهياج:

- إذن فأنت من هؤلاء «الحمر» الذين تسللوا إلى مواقع الثقافة، حتى فى الخارج.

والتفت إلى ثورته الهائجة الحاضرون بالمطعم من الأجانب، وأخذوا يتابعون المشهد فى دهشة، ويسمعون كلاما غاضبا عنيفا لا يفهمونه، فقال الصديق الناقد للعجل الجسد بهدوء بالغ:

- اجلس، واحترم المكان ومن فيه، حدثتك كعالم فى رأيى، أجلس وتناقش وأدر حوارا معى، بدلا من هذا التعصب، وتلك الثورة، ولقد قلت رأيى هذا لرئيس بلدنا أنور السادات، ولم يغضب غضبك هذا، وكان اعتذاره أنه لا يجد حلا آخر، عاجلا.

ووقفت زوجة العجل الجسد، وأجلسته وهى غاضبة، وحزينة، قائلة:

- أجلس يا غبى.

فجلس الغبى مطيعا، وأخذت تعتذر للصديق الناقد، وللمهندس المصرى عن سلوك زوجها العجل الجسد، وكان وجهه منتفخا «وأحمر»، ولم يرو لى الصديق الناقد بقية ما حدث.

أرض روم:

إلى «أرض روم» ينتسب أجداد العجل الجسد ذى الخوار، ومنها جلبت امرأة فى القرن الميلادى التاسع عشر، وحملت إلى مصر، كانت جميلة ملونة العينين، فأهديت إلى قصر الخديوى، وصارت بين وصيفات الخدمة فى القصر، وحملت لقب أسرتها فى «أرض الروم»، وصارت به تعرف، وزوجوها من أعرابى، ليهنأ بلونها الأشقر، وعينيها الزرقاوين الصفراوين، فيكف عن قطع الطريق فى الصحراء، ومن قبل فتح العثمانيون ديار قومها «فى جمهورية جورجيا وتركيا الآن»، فى القرن الميلادى السادى عشر وصار رجال من أهلها قوادا فى الجيش العثمانى:أحدهم قتله أهل الشام إثر نصره عليهم لقسوته، وثانيهم قتله السلطان بتهمة الخيانة العظمى للدولة، وثالثهم اختفى ذكره وذكر أسرته من بعده فى التاريخ الجيورجى والعثمانى معا، وبقى العجل الجسد ذو الخوار، يتغنى بمجد الإقطاع، والعثمانيين، ويلعن الجيورجيين وأسلاف الجيورجيين، فى بلاد القفقاس، ويندب زمانا يحياه، ويزاحمه فيه أبناء الفلاحين.

التمرجى

فى حياتنا المصرية الثقافية كتبة تعلموا تعليما متوسطا، بعضهم موهوب، وصار كاتبا عصاميا قديرا ثقف نفسه بنفسه، وأكثرهم غير موهوب، ووقف به تعليمه المبتور، وانعدام موهبته، دون أعتاب الثقافة، والقدرة على الكتابة، ومع ذلك صاروا كتبة، يحسبون بين الكتاب، ولكثرتهم، وإلحاحهم، وتعاونهم السرى، صاروا خدناء، وقهروا مبدأ الطبيعة والاجتماع الأقوى: البقاء للأصلح، وصاروا بالإعلام، والزن، وابتذال النفس، وضعف الكرامة، مشهورين بين قراء متوسطى الحال، مثلهم، داخل الوطن وخارجه، طوال ربع قرن من الزمان.

والتمرجى... واحد منهم.

..

لص قصص:

تجنبت زمنا، حتى فرق الدهر بيننا، أن أكون واحدا من حملة الحقائب ليوسف السباعى، واحدا من هؤلاء الكتبة الأقزام، الذين يحيطون به، ويمتدحونه، ويناقضونه، ويهاجمون المثقفين الذين يعارضونه فى الندوات، بالصياح والتصفيق، لكى يعملوا بالمكافأة معه، بعشرة جنيهات، أو بعشرين جنيها، فى واحد أو أكثر من هذه الأندية ومصالح الثقافة التى يرأسها.

وحين ولى يوسف السباعى مؤسسة دار الهلال، سارع بإصدار مجلة «الزهور» الأدبية، كملحق لمجلة الهلال، لينشر فيه الأدباء الشبان، فى ذلك الزمان: أشعارا، وقصصا، ونقدا أيضا، مما لا يرقى مستواه للنشر بمجلة «الهلال».

وربما، من باب الفضول، ولمعرفة ما يجرى من حولى فى الحياة الثقافية، اشتريت عددا من «الزهور»، وحرصت، حين انفردت بنفسى، أن أحتمل قراءته من بدايته إلى نهايته.

واستوقفتنى قصة لشاب لا يزال ناشئا فى الساحة الأدبية، لم أكن أعرفه بعد، فوجئت بجرأة ذلك الشاب، وبجهل المسئولين عن تحرير «الزهور»، بالأدب العالمى، كانت تجربة قصته، وأحداثها، وشخوصها، مسروقة ومحتذاة، عن قصة «تشيكوف» الرائعة «الأسى»، والمترجمة إلى العربية مرارا، وكانت قصة

«تشيكوف» تحكى عن مزارع روسى فقير، يسحب زوجته المريضة على زحافة فى الثلج، من القرية إلى المدينة، كى يعالجها الطبيب وكان يحمل معه صندوقا من الخشب نقشه بيده نقشا بديعا، هدية للطبيب المعالج.

قلت لنفسى:

«لص قصص» عديم الحيلة، فقير الموهبة، ضحل التجربة واللغة، يطمح إلى أن يكون شيئا.

ونسيت ذلك الأمر، إلى أن التقيت بلص القصص، قدمه إلى صاحب، فقلت للص القصص على الفور:

- يا ابنى... من تشيكوف؟ ومن واحدة من أشهر قصصه فى العالم، وأروعها، وتحول قصته الرائعة إلى مسخ؟ كيف؟

ابتسم «لص القصص» كلص، وقال لى مراوغا بتبجح، دون أن يظهر أى ذعر:

- توارد خواطر، أنا لم أقرأ قصة تشيكوف هذه.

تأملته لحظة، بدا لى مثل «تمورجى»، فقد الحس، والكرامة، وصار خلية تسعى، صندوقا من اللحم الأسمر الأصفر، له رأس بلا عنق، ووجه مليث، مغروس بين كتفين بلا عظام، وفم منضغط كأنه بلا أسنان، وعينان متنمرتان كعيون العرس، تبديان استعدادا لأى عمل، وأى خدمة، وأى تواجد، شعاره: اخطف واجر.

وحين حدثت صاحبى بخاطرى عن شبه «لص القصص» بالتمرجى، الذى يأكل خفية طعام المرضى، ضحك، وقال لى:

- هو فعلا كان تمورجيا، يسمح البلاط، حين كان مجندا بالجيش، وقبل ذلك كان تمورجيا بمستشفى عام، وحين خرج من الجيش، كان قد تخرج من مدرسة للمعلمين بالمدارس الابتدائية، وصار معلما، وربما صار كاتبا، وفد إلى القاهرة، وتسلل إلى «يوسف السباعى» فكان واحدا من الكتبة، حملة الحقائب.

أيقنت، عندئذ، أن مثله سوف ينتشر كحشائش المزارع، ويغير على وجهه الأقنعة.

ثنائى الشر:

كنا جالسين على مقهى ريش، كنا ثلاثة، وكان الوقت عصرا: عبدالحكيم قاسم، ويحيى الطاهر عبدالله، وأنا، ولم يكن «لص القصص» من زبائن المقهى يوما ولاصديقا لأحد منا، لكننى فوجئت به ذلك العصر، يقبل نحونا مسرعا، ينتقل بين المناضد، على رصيف ريش، ويضع وهو فى طريقه إلينا نصف ورقة على كل منضدة، خالية كانت المنضدة، أو يجلس إليها شخص أو اثنان، لا يعرفهم «لص القصص»، وحين وصل إلينا، وضع أمامنا ثلاثة أنصاف ورقة، وهو يقول لنا، وكأنه واحد منا:

- فضيحة، خيانة لكل المثقفين، وللوطن.

قلت له:

ـ اجلس، ودعنا نقرأ، ونفهم.

فقال بعجلة:

ـ ليس الآن، ورائى مهمة قصوى، توزيع هذه الورقة الخطيرة على المثقفين.

وانصرف عنا مسرعا، حاملا فى يده رزمة الأوراق المصورة.

قرأت الورقة التى وضعها أمامى، كان بها خبر مطبوع فى صحيفة عربية نقلا عن صحيفة إسرائيلية، وكان الخبر فعلا خيانة وفضيحة، فقد جلس آخر كتاب عصر المماليك الثائرين، مع ناقد إسرائيلى، فى مؤتمر أدبى، فى عاصمة أوروبية، وتعشيا معا منفردين، وتعاقد معه الناقد الإسرائيلى على نشر مجموعة قصصية له فى إسرائيل، ووجدتنى أقول لنفسى:

«عجيب، كيف وهو يظهر لنا فيما يكتبه هنا وهناك: فى مصر، وفى العراق، والجزائر، وسوريا، والسعودية، والكويت، والإمارات، وجها قوميا. يلعب على الحبال كلها، نعم، لكنه لم يكن قد وصل إلى هذا الحد، مع اسرائيل؟ كيف؟».

وقلت لصاحبى:

ـ سوف أواجه آخر كتاب عصر المماليك الثائرين، عندما يعود من سفره.

وبلعت ريقى، فقد خطر لى أن «لص القصص» صديق حميم لآخر كتاب عصر المماليك، وصديق ملازم له إلى درجة مريبة، وليس أحدهما بأسوأ من صاحبه ولا أفضل، لكنهما صديقان، فكيف يطعن صديق صديقه فى ظهره وفى غيابه، ويمشى متسللا، يوزع خبرا ضده؟ صحيح أن «لص القصص» هو التابع «قفة» لكن... فكرت أن صداقتهما ربما تكون قد انقطعت، وربما أن «قفة» غار من سيده لسفره وحده دونه، وتعاقده لطبع مجموعته فى اسرائيل، ولأن أحدا منهما لا ولاء له حقيقى إلا لنفسه، فمن السهل عليه أن يطعن خدينه فى ظهره، وفى غيابه، وسألت نفسى: ترى كيف سيعود الخدين إلى خدينه، بعد أن كشف «قفة» سره؟ ولمعرفتى بقسوة آخر كتاب عصر المماليك، وروحه المنتقمة، قررت أن عودتهما إلى الصداقة أمر مستحيل، فثمة كرامة قد جرحت، وعرض قد هتك علنا وعلى الملأ، ولسوف تكون هذه العودة أكثر استحالة، حين تتم المواجهة بينى وبين آخر كتاب عصر المماليك.

لكننى فوجئت برغم المواجهة، بأن الاثنين لا يزالان صاحبين حميمين، وخدنين متلازمين، يتلفن أحدهما لصاحبه كل يوم، بل كل ساعة، وينقل له الأخبار عن الآخرين، ويتفق كلاهما على خطط التسلل والأذى، والارتزاق، والنجومية، وينشر هذا أخبار ذاك وصوره، فى صحف ومجلات مؤسسته الصحفية، من باب الإعلام والدعاية، و«بص شوف فلان بيعمل إيه»، وكأن ما بينهما أكبر من الخلاف، أو كأن هذا التجريح والفضح من «لص القصص» لآخر كتاب عصر المماليك كان هدفا متفقا عليه بينهما، ربما أيضا من باب الدعاية، والسعى إلى أن يكون نجما بالإعلام، والزن على الآذان، بالخبر والصورة، بين

أسبوع وآخر، حتى لو كان هذا الإعلام، وذلك الزن، إعلانا عن فضيحة، لكى يبق الاسم فى السوق، وتدوم الشهرة.

عسكرى مراسلة:

أواخر السبعينيات، كنت فى زيارة للصديق «فاضل الشاهر» بمكتبه بسفارة العراق ، بشارع مظهر بالزمالك، كان «فاضل» ملحقا صحفيا بالسفارة، ولأنه كان شخصية ممتازة، ومحبا للثقافة والمثقفين، وعاشقا لمصر، وأهل مصر، وقومى الفكر، فقد صار صديقا لكل المثقفين تقريبا. واعتدت أن أزوره بالسفارة، وفى بيته، كلما دعانى، واعتاد أن يزورنى فى بيتى، كلما دعوته.

وضحى يوم كنا جالسين: أنا و«فاضل» نتحدث عن انفراد بمكتبه بالسفارة، ودق جرس التليفون، ورفع فاضل السماعة، وأنصت لحظة، ثم قال لمحدثه باستعلامات السفارة:

- دعوه يأتى إلى.

ووضع فاضل سماعة التليفون، وقال لى:

- شخص لحوح، وثقيل الظل، لكننى سأصرفه بسرعة.

وتوقف الحديث بيننا، ورحنا نرشف الشاى.

طرق الباب، وسمع القادم من يقول له:

- ادخل.

ودخل القادم اللحوح، الثقيل الظل، وفوجئت بالقادم، هو بعينه «قفة»، «لص القصص»، «صندوق اللحم المليث».

مد يده إلى مصافحا، ولم أرد أن أخجله، على قرفى منه، أمام عراقى، فأعطيته أطراف أصابعى، قائلا:

- أهلا.

ولم يدعه «فاضل» إلى الجلوس معنا، وتركه واقفا، ونهض، وعاد بمجلة من فوق مكتبه، وطوح بها نحو وجه «لص القصص» قائلا:

- مجلة الجندى، خذها، واكتب لها صفحتين أخبار.

وقعت المجلة على الأرض، وقد كادت ترتطم بوجهه، فانحنى «لص القصص» بلهفة، وأخذ المجلة بلهفة، واعتدل واقفا، قائلا بامتنان:

- شكرا، بعد يومين، ستكون عندك أخبار الصفحتين.

وقال له فاضل، وهو يجلس، ليصرفه:

- اذهب.

وانصرف «لص القصص»، وشعرت بالغضب من فاضل لأجله.

غضبت لأنه مصرى مثلى، حتى لون كان «لص قصص»، وقلت لفاضل، بعد أن ذهب «لص القصص»:

- لماذا تعامله هكذا؟

فقال لى فاضل بتأفف:

- وماذا أفعل له، وهو يبتذل نفسه؟ هل أعامله باحترام؟

ولم أظهر فهما لما قاله، وساد بيننا حرج الموقف، فقد كنت لا أزال مغتاظا، فعاد فاضل يقول لى:

- ماذا أفعل يا صاحبى؟ كل يوم يذهب بسيارته إلى بيتى: ويدق الجرس، ويسأل زوجتى عما تريده من السوق، فتعطيه السلة والنقود، ويذهب بالسلة فعلا إلى السوق، ويشترى لها ماطلبته، ويعود إليها بما اشتراه، يوميا يفعل ذلك، حتى ولو قالت له يوما، إنها لاتريد شيئا، فلديها لحم وخضر وفاكهة تكفينا أسبوعا، ففى اليوم التالى يعود إليها، ويسألها: هل تريدين شيئا من عند البقال، يوميا يفعل ذلك، ولا يخجل، ولايحترم نفسه، وكأنه بلا عمل آخر يذهب إليه، مع أننى أعلم أننه يعمل بمؤسسة صحفية، ويمكتب من مكاتب الصحف العربية، أين يجد وقتا لهذا كله؟

فقلت لفاضل:

- اعذرنى، انهره.

فقال لى فاضل:

- فعلت.. ونهرته مرارا، طلبت منه أن يتوقف، لكنه لم يتوقف، وألح ليخدم، قائلا لى إنه يحبنى، وإنه يريد مساعدتى، وإنه يحب أن يخدم صاحبه.

وزفر فاضل، وتنهد، كمن وقع فى مأزق، وقال:

- والأفظع من ذلك، لأنه يصر على راحتى، ويحب الخدمة، يذهب كل يوم إلى مدرسة الأولاد، وينتظر دق الجرس الأخير بالمدرسة، ويعود بهم بسيارته إلى البيت.

وسكت فاضل لحظة، وقال، والدهشة لم تفارقنى بعد:

- قل لى بربك، ماذا أفعل؟

ضحكت عندئذ، فقال لى:

- هل قلت مايضحك؟

فقلت له:

- العفو. لا. إننى أضحك فقط، لأنه صارت لديه سيارة.

فعاد يقول لى بتوسل:

- كيف أوقفه؟

فقلت له:

- لا تعطه مجلة ليكتب بها، أوقف تعاملك معه، وسوف يتوقف، وكأنه لم يعرفك قط.

فقال لى فاضل:

- أعرف ذلك، لكن، كما ترى، أنا ممثل لبلدى فى سفارة، وبحاجة إلى مثله لأخبار وإعلانات عن بلدى، ولبلدى، ولا ينبغى لى أن أحوله إلى عدو.

فى تلك اللحظة دق جرس التليفون، ورفع فاضل السماعة، وأنصت، ثم قال:

- حاضر.. حاضر.. سأتصرف. مع السلامة.
ووضع فاضل السماعة، ثم رفعها، وضرب رقما داخليا، وقال بعد لحظة:
- سيادة السفير «كان السفير هو سمير نجم»، «فلان» رئيس تحرير صحيفة «....» اتصل بى الآن، وقال لى إنه لم يعد لديه ويسكى، وإنه يريد زجاجتين، إلى أن يدبر أمره..
وأنصت «فاضل» لحظة، ثم قال:
- حاضر.. حاضر.. سأفعل.
ووضع السماعة، ثم عاد يرفعها، وضرب رقما داخليا، وقال:
- أرسلوا إلى بيت «فلان» صندوقين من الويسكى الفاخر، الآن، هذا أمر السفير، أنا فاضل الشاهر.
ووضع فاضل السماعة، واستدار بوجهه لى، ولم أستطع أن أحجز نفسى، فقلت لفاضل:
- فلان هذا ضد كل ما هو قومى، هذا ابتزاز.
فتضاحك قائلا:
- نحن دولة، ولا نريد أن يهاجمنا أحد، وهو فى منصب إعلامى خطير.
وقلت لفاضل:
- فهمت، كان الله فى عونك على عملك هذا.
فقال لى فاضل:
- لا تكن مثاليا، فى السياسة: الغاية تبرر الوسيلة، وكما تقولون: اللى تغلب به العب به.
وغيرنا مجرى الحديث، وانصرفت، ذهبت إلى مقهى ريش، وجلست وحيدا إلى أن جاء صديق، أول صديق، وكنت بحاجة إلى البوح والفضفضة، فحكيت له مواقف «لص القصص» مع فاضل الشاهر، فضحك وقال لى:
- هو فعلا يجب أن يخدم، اعتاد ذلك، فقد كان عسكرى مراسلة لضابط كبير، كانت مهمته فى الخدمة، هى بيت هذا الضابط، فلم يتدرب على سلاح، ولم يقم بتدريب، ويبدو أن داء الخدمة يلازمه، وسيظل يلازمه، حتى لو توقف فاضل وغيره عن جلب منفعة له، وتحقيق مصلحة لأجله وملء محفظته، بنقود.

هرم الشموع

(١)

- سليمان.. سليمان. اركب بسرعة.

تلفت حولى. استجبت لفورى حين رأيت وجهه، وركبت معه. كنت مع، شوق قديم عمره سبع سنوات ،أو أقل قليل للتعرف إليه وسماع صوته، والحديث معه. وهاهو ذا "صلاح عبد الصبور" بوجهه وكيانه. وهأنذا معه على غير موعد ،مع حبه كإنسان مثلما أحببته كشاعر، فى ديوانه الأول:"الناس فى بلادى"، المفعم بالشجاعة، والرقة، وتمرد الحزين. ومثلما أحببته كناثر فى كلماته القصار بمجلة "الثقافة" التى أصدرتها الجمعية الأدبية عددا من الشهور.

قال لى صلاح فجأة، إثر جلوسى بجانبه:

- قرأت قصتك يا سليمان. راقتنى تجربة الحب المراهقة البديعة بها، ولغتك الرقيقة، وألفاظك المرهفة، وجملك القصيرة.

اجتاحتنى عاصفة من الانفعالات: أهذا أنا عنده، ومن أول قصة تنشر لى؟ أيقرأ أيضا قصصا وعهدى بالشعراء لا يقرؤون قصصا، وبالقصاصين لا يقرؤون شعرا؟

قلت لصلاح:

- أنا سعيد برأيك. لكن هذه هى قصتى الأولى التى نشرت لى؟ وهى تجربة من تجارب المراهقة عشتها؟ ولم أنج منها إلا منذ شهور. وقد كتب لى "سهيل إدريس" (صاحب مجلة الآداب البيروتية) يقول لى إنه نشرها من قبيل التشجيع، وإن تجربتها ولغتها رومانسية متشائمة، وأنه يرجو لى الخروج بنفسى وقصصى من هذه البؤرة، وإنه رأى فيها وعدا بقصاص، ولذلك نشرها.

وضحك صلاح وقال لى: لا تنصت لأحد. كن فقط صوت نفسك وتطورك، ونموك بشرك وخيرك وإلا تقاذفتك آراء الناس، والكتاب من بينهم خاصة.

درس أول وعيته من صلاح طوال حياتى. ولم أقل له إننى كتبت قبل هذه القصة عشر قصص، بعثت بها واحدة إثر واحدة إلى "رسالة" الزيات، ولم ينشر منها قصة واحدة، ولم أقل لصلاح إننى رأيته من قبل مرات خاطفة هنا ،وهناك فى القاهرة، ولم أقدم نفسى إليه فى أى مرة، ولم أحدثه عن حبى لشعره. قلت له فقط:

- ديوانك "الناس فى بلادى" ثورة جمعت فى قصائد بين القالبين: العمودى والحر. وما راعنى من شعرك، هو التجارب، والروح، والصدق النفاذ.

ابتسم صلاح وقال لى:

- الأديب الحق لا يستطيع سوى أن يكون ابن عصره، نموا جديدا لنبتة جديدة، تضاف إلى سلسلة من الأدباء المبدعين السابقين.

ولم ألحظ إلا بعد نزولى من سيارته أن سيارته نصف عمر من طراز "فولكس واجن"، وقديمة جدا. وتذكرت بحزن أنه لا يزال هو الشاعر الكبير يعمل مدرسا بمدرسة الدواوين الثانوية بشارع نوبار مع "على أحمد باكثير". وتمنيت له لأنه شاعر أن ينجو بحياته من التدريس، لينجو معه شعره المقبل. وكنت لا أزال طالبا بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وأعمل فى الوقت نفسه محررا بمجلة "الراديو المصرى" مع وجاء النقاش وصلاح جاهين.

(٢)

جاء إلى القاهرة صديقنا "سهيل إدريس"لم يأت هذه المرة زائرا، ولا مستكتبا كتاب القاهرة لمجلة الآداب، تلفن لى من بيت عديله العزيز "فتحى نوفل" قائلا لى:

أنا بالقاهرة وأريد أن نلتقى لأمر مهم.

قلت له:

- أين

وتواعدنا على اللقاء بمقهى ريش، كان الوقت ظهرا، ورطبا، وشديد الحر. وقال لى حين جلس معى:

- مجلة الآداب مصادرة بالقاهرة، وممنوعة من الدخول، ولها على تلك الحال عدة شهور.

كنت أعرف ذلك، فلم نعثر عليها نحن أصدقاء الآداب عند أى بائع بوسط البلد طوال عدة شهور ،فأيقنا أنها مصادرة، وصبرنا، وصابرنا وانتظرنا إلى أن سارع سهيل إدريس بالقدوم إلى القاهرة، ليعرف السبب، ويحاول إزالته، ولم تكن الآداب توزع بالقاهرة، سوى نسخ محدودة يتراوح عددها بين ثلاثمائة نسخة وخمسمائة نسخة، وقلت لسهيل:

- وماذا تنوى أن تفعل؟

فقال لى:

ـ أريد أن أقابل الرئيس جمال عبد الناصر، فقد بلغنى أنه هو الذى أمر بعدم دخولها إلى مصر ولا أعرف لذلك سببا.

فقلت لسهيل وقد فكرت قليلا:

أظننى أعرف السبب السبب هو فيما أظن قصيدة صلاح عبد الصبور:"ذو الأنف المقوس والندوب".

وتضاحكت وقلت:
ولا أعرف فى وجه عبد الناصر أية ندوب.
فقال لى سهيل:
- المهم. أتعرف لى طريقا لألتقى بعبد الناصر؟
فقلت له:
- أنا كويتب صغير يا عم سهيل.

ولا أعرف كيف سعى سهيل، حتى قابل عبد الناصر، والتقى به فى بيته وفى غرفته المتواضعة. ولربما ذهب سهيل إلى رئاسة الجمهورية، وطلب المقابلة، أو اتصل بصديق كبير المقام من الكتاب المقربين إلى عبد الناصر مثل:هيكل ،أو أحمد بهاء الدين، أو إحسان عبد القدوس.

وحين التقيت بسهيل بعد أيام، وكان على عجل من أمره فى طريقه إلى المطار حكى لى عن مقابلته لعبد الناصر. قال لى:

أدخلت إلى غرفته الخاصة. كانت بها أجهزة استماع لكل إذاعات العالم، وعلى كوميدينو بجانب سريره، كان صف بأكمله من مجلة الآداب. رحب بى ناصر ،وعاتبى، وقدم لى من بين الأعداد العدد الذى نشرت به قصيدة صلاح: "ذو الأنف المقوس والندوب" وقال لى:
- أنا تنشر عنى ذلك فقلت له:
- سيادة الرئيس أنت تعرف الشعراء، ولم أفهم أن الشاعر يقصدك أنت ولا أظن أنه يقصدك أنت.

فابتسم عبد الناصر، ولم يقل شيئا. ولكن عينيه كانتا تقولان: أنت تعرف وأنا أعرف. ووعد برفع الحظر عن دخول "الآداب" إلى مصر.

وتوقعت بعد سفر سهيل أن يتعرض الشاعر صلاح لأذى ما، لكن ذلك لم يحدث قط. فقد ظللت أرى صلاح بين الحين، والآخر فى مقر الجمعية الأدبية المصرية بشارع قولة بغابدين. ولم أجرؤ فى أى مرة أن أخبر صلاح بما قاله لى سهيل خشية أن أحدث له انزعاجا ما، لكننى على يقين أن سهيل قد أخبره بطريقة ما، ثم نسيت الأمر كله، وقد اطمأن قلبى على سلامة صلاح وأمن صلاح.

(٣)

فى فترة ما انتقلت الجمعية الأدبية المصرية من مكانها فى شارع قوله، إلى مكان آخر، صرنا نلتقى فيه. وأذكر أن هذا المكان كان فى مقر استوديو محمد الطوخى بشارع التوفيقية (أحمد عرابى الآن) بالقاهرة. كنت أذهب للقاء الأصدقاء من أعضاء الجمعية الأدبية المصرية: فاروق خورشيد، وعز الدين إسماعيل، وعبد الرحمن فهمى، وكانوا أكثر أعضاء الجمعية مواظبة على اللقاء فى الصيف خاصة، والجلوس على المقاعد فوق سطح الطابق الأول الفسيح أمام استوديو الطوخى.

كانوا يلتقون كل ليلة تقريبا ،ويجلسون يلعبون الطاولة، والشطرنج باهتمام بالغ. ولاحظت أن الندوة التى كانت تعقدها الجمعية من قبل كل ثلاثاء قد توقفت مع انتقال الجمعية الأدبية المصرية من شارع قوله، ولم يعد ثمة نقاش أو محاضرة يشترك فيها ضيوف الندوة. ولاحظت أن صديقنا صلاح كان لا يأتى إلا نادرا، ونادرا ما كان يشارك الصحبة فى اللعب بالنرد ونقل قطع الشطرنج. كان يجلس فحسب يتفرج على اللعب حينا، ويشرد عنه حينا آخر مائلا بمقعده الخيزران قليلا إلى الوراء. وعلمت أن هناك عدم رضا عن ندوات الجمعية من الدولة. ولربما تعرضت الجمعية لضوائق مالية لا أعلمها. وكانت الصعلكة بالقاهرة ليلا، وليل القاهرة ساحر تشدنى إليها بعيدا عن الجمعيات، ورتابة ندواتها مؤثرا عليها مقاهى الأدب، ولقاءات الخميس فى بيت غالب هلسا. ولربما كان هذا البعد لأننى من جيل تال لجيل هذه الجمعى، ولشعورى بأننى لن أكون واحدا بين أعضاء أصدقاء جمعت بينهم من قبل سنوات الطلب بالجامعة، وسنوات السعى لتحقيق الذوات الأدبية، ولا فرصة لعضو زائد بين هؤلاء الأصدقاء الحميمين ،حتى ولو كان عضوا من أعضاء هذه الجمعية العاملين. لكننى كنت أحب جماعتهم. وأحب التحامهم ببعضهم البعض كأصدقاء، ولا أحد منهم إلا وهو نجم على طريقته فى عالم الأدب. وكان ألمع هذه النجوم بينهم آنذاك: الشاعر المجدد صلاح عبد الصبور، والناقد الموهوب شكرى عياد. وكان فاروق خورشيد هو قلب هذه الجمعية النابض، وروحها المتوثب، ولسانها الناطق. وبدونه كان عقد هؤلاء الأصدقاء، والجمعية نفسها فيما أظن سينفرط.

وبدا لى صلاح وسط هذه المجموعة، وخارج هذه المجموعة وحيدا، ومتوحدا، وغريبا يحيا وحده ،ويعيش وحده، وإن التقى بالناس أصدقاء، وغير أصدقاء، إلى أن فوجئت يوما بأن صلاح لم يعد مدرسا، وأنه صار صحفيا وكاتبا بدار روز اليوسف، مثله مثل الناقد محمود أمين العالم ،ولحق بهما فى هذه الدار الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى. ولم أعرف: هل أحزن لترك صلاح التدريس، وأفرح لعمله بالصحافة، إلى أن عرفت أن صديقنا محمود العالم يعطى مكافأة قدرها خمسة وعشرون جنيها، فقدرت لصلاح مثلها وانتاب قلبى القلق على الأمن المعيشى لصلاح. عندئذ فقط شعرت بالحزن لأجله فقد ضحى مجبرا كان أو مختارا، وصلاح لم يتعود أن يشكو، وإن شكا، فلصديقه فاروق خورشيد وحده وأنا أجد حرجا دائما فى السؤال عن خصوصيات أحد ،ففى هذا السؤال نوع من التطفل لا أقبله، لنفسى، وصلاح صديق لى بشعره فقط، فلم تسمح الأيام لأحدنا بمزيد من الاقتراب من الآخر.

(٤)

جاء عام أغلقت فيه سهير القلماوى، وبأمر من مايسترو الحياة الثقافية، وبجرة قلم إحدى عشرة مجلة ثقافية كانت تصدر فى مصر عن الدولة بحجة

الخسائر، وتجاهل القرار أن المجلات خدمة ثقافية مدعومة، وأن واجب الدولة التى تصدرها تحت راية الاشتراكية، هو تحمل الخسائر المادية لأنها تعوض فى بناء العقل المصرى، وبعائد فكرى وحضارى أهم من كل تلك الأموال، شأنها شأن المدارس والجامعات. هذه فى قطاع الثقافة وتلك فى قطاع التعليم.

وتعثر تنفيذ القرار مع مجلة الكاتب التى كان يرأس تحريرها أحمد عباس صالح، وكانت مجلة فكرية سياسية فى معظم صفحاتها، ويحميها، ويكتب فيها :كمال رفعت، وله فى الدولة شأن. ومع ذلك لم تكن أمام الكاتب فرصة للصدور. وقد تلكأت الدولة فى إصدارها تمويلا وطباعة. وسارع المثقفون وفى طليعتهم: عبد العزيز الأهوانى، وعبد المحسن طه بدر بإخراج الكاتب من هذا المأزق. وغامر الأهوانى فدفع لمطبعة هيئة الكتاب تكاليف أول عدد يصدر بدون دعم من الدولة أربعة آلاف جنيه. وكان رئيس التحرير آنئذ فى مدينة لندن.

وأذكر أن صديقنا عبد المحسن قد راح يتلفن لى، ولسواى من الكتاب طالبا مواد للنشر بالكاتب ،غير مدفوعة الأجر تعاونا مع مجلة الكاتب فى محنتها. ولا أدرى: لماذا كان هذا الاهتمام الخاص بالكاتب ،دون سواها من المجلات التى أوقف إصدارها بجرة قلم؟

وأعطيت عبد المحسن قصة نشرها بالكاتب. وكان المناخ الثقافى كله يحاول أن يجعل من مجلة الكاتب قلعته الأخيرة. وفيما بعد عادت الدولة ربما نتيجة لهذا الموقف الموحد الغاضب، تنفق على إصدار مجلة الكاتب، وقد دام إصدارها على ما أذكر أربع سنوات تقريبا، إلى أن شاء يوسف السباعى وكان قد صار وزيرا للثقافة، أن يمارس سلطانه وسلطاته، فأصدر قرارا غير به هيئة تحرير الكاتب، وأسند رئاسة التحرير إلى صلاح عيد الصبور، وكان صلاح آنئذ على ما أذكر مديرا للنشر بهيئة الكتاب، وعين معه عبد العزيز صادق سكرتيرا للتحرير.

ولأن المناخ الثقافى آنئذ كان مناهضا ومعاديا لحكم السادات ولسياسة الانفتاح فى كل القطاعات إلا فى قطاعى الثقافة والإعلام، فقد أخذ أكثر المثقفين موقفا حادا من صلاح عبد الصبور، ومجلة الكاتب فى عهدها الجديد، وعدوا صلاح متعاونا مع السلطة. وأعجب لنفسى كيف أزعجنى قبول صلاح لذلك الدور. وأذكر أن أحاديث المثقفين كانت شديدة القسوة على صلاح، وملأت هذه الأحاديث أذنى وكأن أحمد عباس صالح كان خيرا من صلاح ،وصلاح عندى خير منه بما لا يقاس، أو كأن كمال رفعت كان أفضل من يوسف السباعى، ويوسف عندى خير من كمال رفعت بما لا يقاس. ولكن ويل للمثقفين من المثقفين وللمنسيين منهم بصفة خاصة، فقد امتلأت أذناى بأحاديث المثقفين على المقاهى، وهى تدين وتشجب وتدين فيما تدين به صديقنا صلاح. ووقعت فى الفخ على غير اختيار. فخ نسجته الضغوط العامة بصورة تكتم الأنفاس. ولحبى لصلاح الشاعر والإنسان أخذت لنفسى جانب السلب فى موقفى من صلاح، وموقفى من الكاتب ،ومن المثقفين جميعا. ولكم ألوم نفسى إلى اليوم لاختيار موقف الهروب من التعاون مع صلاح.

جاء إلى في بيتي صديقي عبد الغفار مكاوي، وراح يتحدث إلى ويحاورني طوال ثلاث ساعات، كي أتعاون مع صلاح، بالكتابة لمجلة الكاتب ولكنني أصررت على موقفي من مقاطعة الكاتب، مع احتفاظي بودي الشخصي لصلاح، فقد قبل مهمة التعاون مع يوسف السباعي، وذلك اختياره وهو حر فيه. ونسيت أن المجلة هي في النهاية مجلة ثقافية، وأنني مغترب بقلمي في مجلة الآداب البيروتية، وأن صلاح الشاعر المبدع يمكنه أن يصنع بالكاتب شيئا يذكر للإبداع، الذي لم يكن يجد له مساحة تذكر في كل المجلات الثقافية التي تنشر في مصر. ونسيت أن مواقف المثقفين في كثير من الأحيان، هي مواقف شخصية شللية في حقيقتها، وأكثرها كان يتقرر حول مناضد مقهى ريش بزعامة عمدة الأدب إبراهيم منصور، وليست مواقف ثقافية ترعى دائما المصلحة العامة للثقافة، والمثقفين، ويتوزعها الحب لهذا ،والكره لذاك، وتسيطر عليها هنا وهناك مواقف السياسة بين اليسار واليمين. كان موجعا لي أن يغادر صديقي عبد الغفار مكاوي بيتي فاشلا في مهمته، وأن أكون أحد المساهمين في وحدة صلاح، ومعاناة صلاح.

ورحت أرقب تحرير صلاح للمجلة، وأراها حريصة على فتح صفحاتها للإبداع، وقد اعتزلتها أقلام كثير من المثقفين عدا الشاعرين: أمل دنقل ونجيب سرور على سبيل المثال. وأتابع جرأة نجيب سرور، وهو يهجو بمطولة شعرية ساخرة مثقفي ريش، و"حكماء ريش". ولقد حاول الاثنان معا إثنائي عن موقفي دون جدوى. وكان طبيعيا أمام هذه المقاطعة أن تتعثر مجلة الكاتب في أداء مهمتها، وأن يهبط مستوى تحريرها لقلة عدد كتابها المجيدين، وأن يقل عدد قرائها، وأكثرهم من الكتاب والحالمين بأن يكونوا كتابا. وزادت خسائر الكاتب ولم يعد لها دور فتوقفت عن الصدور.

ومرتان لجأت فيهما لصلاح كمدير للنشر ،ثم كرئيس لمجلس إدارة هيئة الكتاب، لأنشر كتابين لي. وفي المرتين استقبلني صلاح استقبالا حسنا، وكأن لم يحدث مني شيء أساء إليه. ووافق على نشر الكتابين، وبأعلى أجر في التعاقد يعطى لكاتب. كان كبير القلب ،وكان كبر قلبه هذا أقسى على من أي موقف آخر منه، أو عتاب.

ثم كانت الصدمة التي هزت كل الحياة الثقافية في الوداع المفاجئ لصلاح وفضحت القسوة التي يتمتع بها المثقفون، قسوة تعذيب الذات ،وتعذيب الآخرين، وهم في هذه القسوة على حظ كبير. ولأنني لم أكن من شهود ساعات الوداع ، وسط ضحك عابث، وحوارات جارحة في ساعات العشاء الأخير فإنني أترك هذه الساعات لشهودها الأحياء بعد وداع أمل دنقل للدنيا، أتركها لجابر عصفور، وأحمد حجازي، وبهجت عثمان وكانوا جميعا أصدقاء، وتطاير من أحدهم كلمات جارحة بلا حساب، ودون قصد، كلمات قليلة، يمكن أن تقتل بذاتها إنسانا شاعرا، وحساسا وشديد الاعتزاز بنفسه، أودع بثه وحزنه يوما في كلمات قصار: "الناس في بلادي جارحون كالصقور".

(٥)

كم صاحب وجه مثل صلاح ،وصوت مثل صلاح، يظل شاخصا وماثلا فى نفوسنا بعد سنين وسنين من الوداع الأبدى.

وأى شعر لشاعر سيظل باقيا معنا، بقاء شعر صلاح نحفظ منه البعض، ونعاود قراءة البعض، وكأننا نقرأه، ونتلوه لأول مرة، ونتلقى مع قراءته دهشة الفن الأولى تصل من القلب عبر الإيقاع لا تبالى بالعقل، ومقولات العقل مثل شعر صلاح؟

(٦)

آل أمر الجمعية الأدبية المصرية فى حياة صلاح، وبعد صلاح، إلى شقة داخلية بعمارة بباب اللوق، فى بيت فاروق خورشيد، هو مكتبه الخاص، وهو فى الوقت نفسه مكان اللقاء الأسبوعى كل ثلاثاء لأعضاء الجمعية الأدبية المصرية، بعد أن أصيب نشاطه بالضمور، وأيضا لأصدقاء الأصدقاء، وما أكثرهم فى حياة فاروق خورشيد.

واعتدت كعضو منتسب سابق، أن أتردد أحيانا ليالى الثلاثاء على بيت اللقاء، لأعضاء وأصدقاء يجتازون سن الكهولة والشيخوخة على مهل حينا، ويصخب الشباب الذى ولى حينا، وبسأم العمر، وضجره حينا، وذكريات مضت تروح، وتجىء بين الألسن والعيون والشفاه.

واعتدت أن أرى فى أى ليلة ذهبت شمعة موقدة، أو شمعة توقد من شموع متعددة الألوان، وتغرس فوق هرم مخروطى من شموع ذائبة متعددة الألوان تحكى ألوان الطيف القزحية. وقد صار ذوب الشموع أضلاعا رقيقة، كدموع تجمدت، أو كثلوج فى كهف منسى، في قمة جبل تتدلى من سقف الكهف. الشمعة تلو الشمعة تخرج من درج، والشمعة تلو الشمعة تغرسها يد فاروق، بحنو وحب فى هرم الشموع، ويتركها تضىء وتتراقص وتذوب، ونور المصباح المدلى من السقف ساطع فى غرفة عالية المقاعد، وليس بين الجالسين بها إلا علم من أعلام الحياة الثقافية ونجوم الأدب والفن.

فى البدء لم أفهم ظننت أن ما يفعله فاروق مجرد هواية، أو تعبير عن تسرب العمر، وليالى العمر من حياتنا. سألت فاروق ضاحكا عن سر هذا الهرم، فتندت عيناه بالدموع وهو يبتسم وقال

كل ثلاثاء كان صلاح يأتى هنا، وهو الذى غاب عن الحياة من بيننا ،وهذه الشمعة رمز لحضوره معنا ،وإحياء أسبوعى لذكراه.

ودمعة إثر دمعة يتنامى هرم الشموع ،ويرتفع ويتزايد.

(٧)

حين صار صلاح عبد الصبور يوما رئيسا لمجلس إدارة هيئة الكتاب، يسعى إليه المثقفون، والكتاب، وأساتذة الجامعات، فيلقاهم باسما، ويحدثهم برفق الشاعر،

وضحك الشاعر ،وبراءة الشاعر، ولا يرد صاحب عمل أدبى، أو علمى جيد فيما يعلمه عن تاريخه، ومستواه خائبا. ويحيل ما دون ذلك من أعمال إلى لجان القراءة لأعمال الشباب، وغير الشباب، طاويا صفحة المقاطعة الرعناء معه أيام مجلة الكاتب. فالموج السياسى الناقم كان أعلى من كل الرءوس، حتى رأسه هو.

وصار صلاح مسئولا، مع كل ما هو مسئول عنه، فى منصبه الثقافى والإدارى والمالى عن معارض الكتاب فى القاهرة وغير القاهرةفى مدن مصر وفى خارج مصر بأسرها.

وكان عليه أن يواجه تبعات أول معرض، على أرض المعارض بالجزيرة، حيث توجد منشآت الأوبرا الآن. وكانت اتفاقية كامب ديفيد قد وقعت وضغوط إسرائيل تتواصل، وتشتد على الدولة، وأجهزتها باسم التطبيع، ليكون لها جناح بمعرض الكتاب. وكان الضغط الثقافى على أشده لئلا يكون لإسرائيل هذا الجناح. وكانت هناك ضغوط أعلى مستوى من صلاح تتواصل على صلاح لكى يكون للإسرائيليين هذا الجناح. وكان على صلاح فى نظرنا أن يستقيل احتجاجا استقالة فردية، لن تؤثر فى مجرى الأحداث فى شىء، وقطع الغيار الثقافية ،وغير الثقافية موجودة عند الدولة بالقنطار حتى لو لم يكن واحد منها فى قامة صلاح ،واسم صلاح. كان عليه أن يستقيل، أو أن يستسلم، وينتظر ويرقب ما سوف تأتى به رياح الأحداث فى أيام ،تزيد على العشرة فى معرض الكتاب.

فى هذا المعرض، تعب الإسرائيليون لجذب الزائرين لجناحهم الهزيل، والموسوم كبثر مسمومة. وتعب الأمن فى حراسة موظفى المعرض الإسرائيليين، وجناحهم الإسرائيلى. لكن شبابا جامعيا اخترق حصار الأمن وأنزل العلم الإسرائيلى وأحرقه ،وألقى القبض على شباب من شباب الجامعة. وكان الصدام بين الأمن والشباب، صداما انتهى بحبس الشباب فى قاعة تحيط بهم وجوه رجال الأمن، جامدة كالأقنعة لا تسفر عن تعاطف مع الشباب، وكلمات ناهرة غاضبة، لا توحى برغبة حقيقية فى إيذاء هؤلاء الشباب، والغضب يفيض بالشباب الحبيس ربما رهن تحقيق، أو اعتقال.

ودخل صلاح إلى محبس الشباب بالمعرض، قاعة خالية من قاعات العرض، كأنها كانت معدة لهذا الغرض. ونظر صلاح مبتسما ومطمئنا للشباب الغاضب، كأنه يعبر لهم عن امتنان ما. وتحدث صلاح فى جانب من القاعة الخالية مع الضابط المسئول، ثم أخذ الشباب معه إلى مكتبه بالمعرض. وجلب لهم أكوابا من الليمون، ولم يقل لهم شيئا فيما حدثنى به أحد هؤلاء الشباب، وراح ينظر من النافذة، وبدا صلاح فى وقفته يرتعد ارتعادات خفيفة. ورآه الشباب الغاضب يرفع يدا إلى وجهه بحركة من يمسح دموعا. ثم استدار نحوهم باسما قائلا لهم:

- انصرفوا بسلام. وحافظوا على أنفسكم.

ما ودعنا من كان شاعرا، شاخص الحضور أبدا. ولسوف يظل للأحياء الذين عرفوه طيفا، لا يفارق، ودفقا لا يتوقف.

مالك الحزين

ثلاثة صاروا نجوما فى مصر، بين شباب المثقفين فى أواخر الخمسينيات. ثلاث أسماء واعدة ،قدمها إلى صديقنا الراحل وحيد النقاش، مشفوعة بقصيدة لهذا أو أقصوصة لذاك. ثلاثة تعرفت على عطائهم بفضل وحيد قبل أن ألقاهم: صلاح عيد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى، وبهاء طاهر.

يطير إلى وحيد قادما من بيته، حى بين السرايات، زائرا لى فى بيتى، حاملا إلى قصيدة جديدة لصلاح، أو قصيدة باكورة لحجازى، أو أقصوصة واعدة لبهاء طاهر. يقرأ وحيد ما يقدمه إلى بصوت مفتون معجب، ومحب ومرتعش. وكان صلاح وعدا تحقق فى ديوان "الناس فى بلادى" يواصل مسيرته ليبلغ قمته، ويحقق مشروعه الشعرى. وكان حجازى قادما لتوه من الريف، يغزو القاهرة بشعره فارسا بلا لثام. وكان بهاء لا يزال وعدا، غيمة بيضاء، ستتلوها غيمات تبشر بخير كثير.

(١)

أول أقصوصة لبهاء قرأها لى وحيد، وقرأتها من بعده مسحورا، كانت أقصوصة لحظة حزينة، فى قلب حزين ترنو عيناه إلى غيمة بيضاء، تتجمع حولها غيوم بيضاء لتصنع معا سحابة بيضاء. كانت فى عشرين سطرا لا تزيد كلماتها عن المائتين. وكانت جملها القصيرة شعرا منثورا، وكلماتها بسيطة، وصافية، ومألوفة من هذه الكلمات الملقاة على قارعة الطريق، وصورها منشورات صغيرة من الماس تتحول سحرا، تصبح كلها مسحورة فى يد كاتبها حين تنتظم مع أخواتها، تحمل فى اللحظة نفسها فكرا وتبوح بمشاعر، كقصيدة، ثرية العطاء بدرها المنثور.

حدثنى وحيد عن بهاء، ولم أكن قد رأيته بعد مفتونا بثقافته، وشخصه، وعزلته مع الكتب، وإيثاره حياة الليل على حياة النهار، يضع البايب فى فمه، ويلتهم الصفحات بعينه حديثه لى عن بهاء، بدا لى حديث مريد مفتون بناسك، عائد لتوه من لقاء معه، فى صومعته.

تكررت الأقاصيص التى يحملها، وحيد إلى قائلا لى إنها لبهاء .ولكن لقرب لغة هذه الأقاصيص، بدررها، وصورها، وإيقاعها ظننتها فى نفسى لوحيد، ولم أسأل نفسى قط: كيف ستكون لوحيد، وكيف سيستمر فى هذه اللعبة، فلسوف نلتقى يوما: بهاء وأنا، أو بهاء ووحيد وأنا، ويكون السؤال والجواب.

وما يبقى فى ذاكرتى اليوم، هو أننى لم أقل لبهاء قط عن رأيى فى أقاصيصه هذه على الأقل، لأقطع الشك باليقين طوال ثلاثة عقود. ومنذ عام قط أو أكثر قليلا، حدثت بهاء عن أقاصيصه الأولى التى لم ينشرها مطلقا، فشرد عنى لحظة بعينين واسعتين، وقد غامت العينان للذكرى، وقال لى:

– لا أعرف أين ذهبت هذه الأقاصيص، فتشت عنها مرارا، ولم أعثر لها على أثر.

عندئذ فقط قطعت الشك باليقين، لكن ما يدهشنى إلى اليوم هو شعورى يوما بقرب لغتى القص، فى بدايات بهاء وبدايات وحيد، ولعل ذلك القرب يرجع إلى الأساليب الفرنسية التى كانت تنتشر فى مصر، ولبنان عبر الترجمات الفرنسية إلى العربية، من كتب الفكر الوجودى، وكتب القصص الفرنسية والوجودية منها خاصة.

(٢)

لا أذكر بالتحديد، أين التقيت ببهاء طاهر لأول مرة. لكن اللقاء الأول ببهاء، اللقاء الأوضح فى ذاكرتى ، كان فى وسط البلد فى كافتيريا بها مشرب، مدخلها دهليز بيت قديم، آخره جزء شتوى مشمس غير مسقوف، على جانبيه أرائك شرقية واطئة، كان بهاء كما وصفه لى وحيد :الوجه الصعيدى الأسمر، والعينان الواسعتان فى براءة، واندهاش لا تخفيان ما وراءهما من قلق وتوتر وحزن.

بدا بهاء لى وحيدا ومنعزلا، بل بدا لى متكبرا، ومتعاليا، ربما ليخفى ضعفا ووحدة مقيمين، ولم يتحدث معى بهاء حديث مثقف يستعرض ثقافته، فقد راح يتحدث، وكأننا نعرف بعضنا بعضا، من زمان عن المكان، والناس ،ويلقى بالنكات، ويطلق ضحكات قصيرة سرعان ما تتوقف فجأة، كما انطلقت فجأة، مثلما يتوقف حديثه، فجأة قبل أن يضحك الآخر أو الآخرين، وكأنه يلوم نفسه لضحكه، ويحاسبها لخروجه عن وحدته وصمته. وبدا لى أنه من ذلك الطراز، الذى ينظر فى داخله، ويرى العالم من حوله، كما صار فى داخله.

أعرف أنه، فى ذلك الحين، وذلك تقديرى الخاص ،كان يؤثر العزلة يلتقى بالناس، ولا يلتقى بهم يصادق الناس ،ولا يصادقهم يجلس مع الناس، ولا

يجلس معهم، ولربما آثر بها لهذا السبب، وتلك النزعة، وذلك المزاج الخاص أن يترك مسكنه مع أهله بالجيزة، ويستأجر غرفة فى بنسيون بوسط البلد، وينتقل منها إلى غرفة أخرى فى بنسيون آخر، ربما مللا وتغييرا وتجديدا للمكان، وربما سئما وهربا من اقترب سكان المكان منه وألفته لهم، وربما لفراغه من اكتشاف شخصيتهم، وتاريخهم، وحكاياتهم حتى صاروا شخوصا مألوفة، وأقوالا معادة مثل مفارقته لغرفته على سطح بيته بالجيزة ،لقربه بها من سكان البيت الأهل والجيران طلبا لمزيد من التعارف، والمعارف، والمعرفة، والاكتشاف للعوالم الصغيرة، خاصة عوالم السحن والنفوس.

حتى ذلك الحين، لم أكن بعد قد عرفت بهاء الحاضر الغائب، معرفة الصديق للصديق. ولم يجهد بهاء نفسه فى أن يفتح لنا حياته، بحديث صديق إلى صديق. كان فقط يتحدث عن الناس، والكتب التى لفتت نظره. وكنت ألتقى به مصادفة وحده أحيانا فى وسط البلد، وأحيانا مع آخرين بمقهى ريش، وأحيانا ببيت غالب هلسا حيث كانت شلتنا تجتمع مساء كل خميس. ودائما لم يكن بهاء يطيل اللقاء أو البقاء، فسرعان ما يعتذر بحجة ما لعمل، أو لغير عمل، لينفرد بنفسه، ورأسه، واكتشافاته الخاصة المجهولة للناس فى أماكن شتى، لا أظن أن أحدا يعلمها سوى بهاء.

وكان بهاء قد صار موظفا بإذاعة صوت العرب، وكنت أعمل بالصحافة فى مجلة"البوليس"، وكنت أنشر قصصى الأولى القليلة بمجلات: الآداب والشهر، والبوليس، وكان إدوار الخراط قد نشر مجموعته الأولى"حيطان عالية"(١٩٥٩). وكنت أعجب لبهاء: لماذا لا يكتب قصصا، ولماذا يؤثر أن يكون ذلك المثقف الوحيد المنعزل القدير المتجول الصامت المراقب الزائر المهاجر نراه مصادفة، أو حين يريد هو، وكنت وسواى نعرف قدره ومقدرته، وننتظر عطاءه البهائى.

(٣)

على غير توقع، أقرأنى بهاء، فى النصف الأول من الستينيات مسرحية من فصل واحد بعنوان:"كان". راقت لى المسرحية، بل أعجبتنى، فسارعت بإرسالها من ورائه إلى مجلة الآداب، ونشرت الآداب هذه المسرحية فى الشهر التالى ، وحملت له العدد، فبهت للحظة ثم ضحك قائلا:

- لم أفكر فى نشرها.

وقذفت عبارته فى نفسى شعورا بأنه، ربما كان يخاف أن ينشر ،ولا يثق بما يكتب، ويتخوف من رأى الآخر، لكنه بدا سعيدا بهذا النشر. وأثار عجبى أن بهاء محب للمسرح، ولقد راح ينشر مقالات عن مسرحيات شاهدها فى مجلة"الكاتب"، ولم يفكر فى قدرته الأولى كمبدع أن يكتب قصصا ومسرحيات، بدلا من كتابته المبكرة عن إبداعات الآخرين المسرحية، وهى تتجسد على خشبة المسرح.

وزاد عجبى أكثر حين التقينا مصادفة وكنت قد نشرت مجموعتى الأولى:"عطشان يا صبايا"(١٩٦١) وقال لى:

- لماذا لا تكتب للمسرح؟ طريقتك فى الحوار صالحة تماما للكتابة للمسرح.

آنئذ كان الكاتب المجيد لنص مسرحى جيد يصبح نجما، وبنص مسرحى واحد وكانت سنوات الستينيات سنوات المسرح حقا، والباليه، والفنون الشعبية. وإثر افتراقنا عاودت التفكير فى سؤاله، لماذا يريد منى بهاء أن أكتب للمسرح، ولماذا لا يكتب هو للمسرح، وقد كتب عن المسرح كتابة خبير به عارف له، ومسرحيته"كان" مسرحية محكمة ومن فصل واحد، والمسرحية ذات الفصل الواحد مثل القصة القصيرة، أصعب، وأشق ترويضا، وأعقد سيطرة عليها من المسرحية ذات الفصول المتعددة أو اللوحات المتوالية والمتقاطعة؟

وقبل أن أنسى الأمر تذكرت أنه، ربما كان السبب الذى لم يقله بهاء، هو أننى كتبت سهرتين طويلتين لإذاعة صوت العرب عام ١٩٦٠ فيما أذكر، وأخرجهما لى بهاء طاهر، المخرج الإذاعى القدير أيضا ، والذى لم أعرف قدرة تشبهه فى الإخراج الإذاعى ، سوى قدرة المخرج الإذاعى نور الذين مصطفى. فعلى يدى بهاء تعلمت فن كتابة الدراما المسموعة، وصرت كاتبا إذاعيا للدراما،وكانت السهرة الدرامية الأولى هى تجربة تعليمه إياى.

كانت السهرة الأولى إعدادا لقصة "الرغيف" للكاتب اللبنانى توفيق يوسف عواد، ولقد استغرق وقت إذاعتها ثلاث ساعات بإذاعة صوت العرب، واستغرق إعدادها منى نحوا من شهرين، أعدت فيهما كتابتها بفضل بهاء، ثلاث مرات أعطانى فيها بهاء دروسا، من حيث لا أدرى، ومن حيث لا يدرى، فى فن كتابة الدراما المسموعة، ومهارات هذا الفن: مهارات كتابة المسامع، والتنقل بينها، والدخول فى الموضوع فى كل مسمع، ومهارات الجمل الدرامية القصيرة البسيطة الألفاظ، المحملة بالإيقاع، ومهارات التركيز فى التعبير، ومعالجة التجربة بأداء متصاعد، ومع شخصيات تنمو، وفى صراعات تتشابك، وتلتقى وتفترق، وتتميز عن بعضها البعض لغة، وسلوكا، ومستوى ثقافيا ككائنات متفردة نمطية كانت أو غير نمطية، ومهارات فى التحرر من الأكلشيهات والعبارات التقريرية التى تشرح أو تعلق، تاركا إعادة الخلق للمستمع، بالتذكر والتخيل والتفكير. وقد نجحت سهرة "الرغيف" مع أنها أذيعت فى منتصف الليل، وأذيعت فى عام واحد عشر مرات، مع أنها كانت باللغة العربية الفصحى المبسطة، ومع أنها كانت من قصص التاريخ، وإن كان هذا التاريخ قريبا عن وطأة الحرب على الناس فى لبنان، إبان ذلك الصراع مع الأتراك فى الحرب العالمية الأولى. وبفضل هذه الدروس الهادئة من بهاء، والصبر على من بهاء، جاء إعدادى

لسهرة"سالى"للقاص السورى عبد السلام العجيلى أيسر جهدا وأقل معاناة.

وظهر أثر هذا التوجيه العملى البهائى، فى قصصى التى كتبتها بعد هاتين السهرتين فى لغة الحوار خاصة، وروح الدراما خاصة، وصرت بعد هاتين السهرتين من كتاب الدراما بالإذاعة منذ عام ١٩٦٠ ،وربما لا يعرف بهاء إلى اليوم أنه أنقذنى بذلك الصنيع ماديا، فقد كنت بلا عمل تقريبا وصرت أكمل نفقات معيشتى وأسرتى من دخلى المتقطع من الإذاعة، وأواصل بهذا التأمين الصغير كتابتى لقصصى القصيرة،,وحمانى ذلك الدخل الإضافى من الوقوع فى شراك الدروس الخصوصية، وساعاتها الضائعة وأموالها الحرام.

أية منة يحملها كاتب لكاتب أكثر من هذه المنة

(٤)

مصادفة أيضا، التقيت ببهاء طاهر مرتين فى مدينة الإسكندرية، وكنت أعمل بها مدرسا. كان اللقاء الأول على الكورنيش، وكان بهاء يخرج من مشرب فى طريقه إلى مشرب آخر، كعادته فى القاهرة، لا يجمع مشروبين فى مشرب واحد، ولا أظنه يبقى فى بيته فى غرفة واحدة، أو فى شرفة واحدة، إذا كان به شرفتان. وكان اللقاء الثانى مع الصديق الشاعر الإذاعى النجم"فاروق شوشة" على عشوة جمبرى فى بيتى، ثم فى مشرب شعبى بشارع البورصة أظنه كان كافتيريا جورج.

كانت بالمشرب فتاة جميلة، بلا روح تغنى للشاربين بصوت مزعج، يخرج من سقف الحلق أغانى لأم كلثوم. وثمة عازف بدا لى من تصفيف شعره بطبقة من الصابون، أنه يعمل بالنهار حلاقا، وفى الليل عازفا على العود مصاحبا للمغنية آنا ومغنيا وحده آنا آخر. وحين ينتهى دورها فى الغناء يعزف لنفسه، ويغنى دائما كلما غنى دوره الوحيد: "الأصل قال للفلوس يانا فى البلد يا انتى" .

ويدخل المشرب رجل صعيدى، بدا لنا تاجرا يلبس جلبابا، وقد لف حول رأسه كوفية تدفئ أذنيه. كان يتبعه تابع يرتدى جلبابا فوقه بالطو قصير. وجلس التاجر إلى منضدة وحده، وقد كف المغنى الحلاق لدخوله عن عزفه وغنائه. ولاحظنا ثلاثتنا أن ذلك التاجر يركز نظره علينا. ولربما فكرنا فى مغادرة المكان، والرحيل عنه بسرعة. لكن ذلك التاجر فاجأنا بمغادرته لمنضدته، وسحبه لكرسيه، وجلوسه معنا مستأذنا فى الجلوس فى اللحظة نفسها. وراح يتوجه بحديثه لبهاء، ولبهاء وحده: أهلا يا بلدياتى. منين يا بلدياتى. اسم الكريم. أنعم وأكرم. أنا حبيتك. انت وقعت فى قلبى. دخلت قلبى ساعة ما شفتك. وبدا بهاء كمن وقع فى مصيدة، لا فكاك له منها، ولا قدرة لنا على تخليصه. والتفت ذلك الرجل التاجر، وأمر بالمشروبات على حسابه لكل الموجودين إكراما لبلدياته.

ونظر إلى تابعه ففهم عنه فى الحال وسحب صينية كبيرة فضية لامعة، ونظيفة وناعمة، وأخذ يخرج من جيبى البالطو الذى يرتديه ثمرات من الجوافة بيضاء نضرة، ويضعها على الصينية. وحين انتهى من غسلها، ووضعها أمام التاجر، فأخرج لتوه مطواة قرن غزال من جيب جلبابه، وراح ينصف الجوافة ثمرة بعد ثمرة، وهو ينظر إلى بهاء لا يرفع عينيه عنه. وأخذ التابع يطوف بأنصاف الجوافة على الموجودين، ثم وضع ما بقى منها أمام التاجر، بل أمام بهاء خاصة. وكنت وفاروق ننظر إلى بهاء ضاحكين، وقال ذلك الرجل لبهاء ولنا:

- الإسكندرية كلها تحت أمركم من رأس التين إلى المعمورة. الليلة أنتم ضيوفى.

وقدم نفسه كأكبر تاجر فاكهة بالمدينة. وبدا بهاء مرتعبا من الرجل، ومن الدعوة، وهو الذى لا يطيق وطأة من حوله على أنفاسه، إلا لأوقات قصيرة. ورحت وفاروق ننظر إلى بهاء فى شماتة مداعبة. كيف سيتخلص بهاء من هذا المأزق، فالدعوة أساسا لشخصه، ونحن معه مجرد تابعين. وراح بهاء يعتذر للرجل، ويعتذر، ويعتذر لأنه متعب، ولأنه مصدع ولأنه لم ينم منذ يوم، ولأنه قادم من القاهرة لتوه، ولأنه وفى النهاية قدم له الرجل الصعيدى بطاقة أنيقة بها اسمه وعنوانه وتليفونه، وطلب آمرا منه أن يتصل به غدا فى أى وقت، وسيرسل له سيارته بسائقها، والتفت إلينا قائلا لبهاء:

- وهما معك إذا شاءا.

وحذره من إخلاف الموعد أو عدم الاتصال به.

فى تلك الليلة عجلنا بالانصراف ببهاء، لأنه حقا بحاجة إلى الراحة. وفى الطريق رحنا نضحك. قلت لبهاء فجأة:

- أهلا يا بلدياتى.

فانفجر بهاء قائلا فى انزعاج:

- الصبح أنا راجع للقاهرة.

فانفجرنا أنا وفاروق نضحك وقلت لبهاء مداعبا:

- المشكلة فيك أنت.كل من يعرفك يحبك.

فقال بهاء بانفعال حائر محاصر:

- مش عايز حب. يبعدوا عنى.

ولعل بهاء لا يعرف إلى اليوم أن الذنب فى هذا الحب، هو فى هاتين العينين الواسعتين المفتوحتين فى اندهاش لما يراه: الأشياء، والحركة، والناس، والأصوات. وذلك قدره.

(٥)

عام ١٩٧٢ نشر بهاء مجموعته الأولى: "الخطوبة" فى سلسلة كتاب "الجديد" فاستقبلتها الحياة الثقافية فى مصر بحفاوة. كانت نفسا جديدا فى القص، بعد يوسف إدريس، وإدوار الخراط، فثمة علامات كبرى دائما

على طريق الإبداع، قصا وشعرا ومسرحة، لا تخطئها الأرواح ولا العقول.

وكان بهاء قد صار نائب مدير البرنامج الثانى (البرنامج الثقافى الآن)، بعد انتقال مديره سعد لبيب إلى التليفزيون. وأعطى بهاء حياته كلها للهواء لعدة سنين. وقبل بهاء، كانت تذاع لى فى البرنامج الثانى قصص قصيرة، منذ إنشائه، وأكثرها نشر بمجموعتى "عطشان يا صبايا"، وكانت تقرؤها سميرة الكيلانى غالبا، وفاروق شوشة أحيانا. وقد توقفت عن تقديم قصص لهذا البرنامج، منذ أن تولى رئاسته "فؤاد كامل"، وخاصة حين صار بهاء طاهر نائبا له.

كان بهاء فى الحياة الثقافية كاتبا، وكنت فيها كاتبا، وخشيت وقدرت أنه يخشى مثلى أقاويل المثقفين حين يتشدقون على المقاهى: "طبعا يا عم الاثنان صديقان"، والطامة كانت ستكون أكبر لو أننا كنا قريبين:"طبعا يا عم اللى له ضهر". وهى ظاهرة من أمراض حياتنا الثقافية التى تنتج من قلة المنابر، وكثرة مدعى التأليف الذين لا يغربلهم، ولا يوقفهم أحد عند حد. ولذلك آثرت أن أنزل درجة فى التأليف الإذاعى، لأكتب لبرامج"سامية صادق":صباح الخير وحول الأسرة البيضاء وفنجان شاى. ولم أكن ولا بهاء مسئولين عن هذا الحرج، وذلك الموقف.

مرة واحدة، فيما أذكر يسمح فيها بهاء لنفسه أن يعدنى على الملأ كاتبا كبيرا، ويدعونى إلى أن أكون ضيفا فى برنامج"مع الأدباء". كنت أسمع حلقات هذا البرنامج التى كان يقدمه بهاء طاهر بعد توقف"فاروق شوشة"، عن تقديم هذا البرنامج مع ضيوف من الكتاب الكبار حقا فى مصر والعالم العربى. وكنت أحد القلائل الذين يدعوهم بهاء طاهر من كتاب الجيل الثانى، ووقعت فى حرج شديد ليس لأننى سأكون ضيف هذا البرنامج، وإنما لأننى أخشى أن يكون محاورى بهاء طاهر بأسئلته النفاذة، والمحرجة وتوليداته لأسئلة مفاجئة من إجابات الضيف قد تعريه ثقافيا، وتكشف تناقضاته فى إجاباته. كان بهاء ولا يزال كاتبا يخشى ثقافيا وعقليا وقدرة إذاعية على المحاورة بذهن مرتب، وصاف، وتفكير منظم تقدمت حيثياته أو تأخرت. ولذلك طلبت من بهاء، وألححت فى الطلب أن يكتب لى الأسئلة التى سيوجهها إلى ككاتب. وأخذ بهاء يضحك، ويهون على الأمر. وحين رأى مدى حرجى، وإصرارى كتب لى بسرعة فيما أذكر ثلاثة عشر سؤالا.

ورحت أحضر فى ذهنى طوال يوم أو أكثر، إجابات هذه الأسئلة حريصا على عدم الوقوع فى التناقض، أو أن أتيح لبهاء فرصة تعرية ثقافتى، ربما من حيث لا يريد بهاء، ولا يقدر فلدى بهاء موهبة المحقق المدقق. ولم أكتب هذه الإجابات بالطبع فبهاء لن يقرأ فى محاورتنا أسئلة وأنا لن أقرأ أجوبة. ففى العمل الإذاعى المنفذ يثقل ظل القراءة فى المحاورة، ويخف ظل المتحاورين حين يتحدثون بلهجة التحادث الثقافية متفقين حينا، ومتأنين حينا منفعلين، حينا، ومترددين حينا لاجئين إلى قول: ربما وعسى ولعل ويمكن وأعتقد وأظن وأحسب.

وحين جلسنا إلى منضدة مستديرة واطئة، وأمام كل منا ميكرفونه الخاص للتسجيل، وبلا توقف، ودون انقطاع، فمن المفروض أنه إذاعى خبير، وأننى كاتب حاضر الذهن، بدأ بهاء بتوجيه السؤال الأول وربما الثانى أيضا، وأجبت عن السؤال أو السؤالين شاعرا أننى فى امتحان. وفجأة وعلى غير توقع منى لمعت عينا بهاء، وفاجأنى بسؤال غير متوقع فى صميم ملاحظاته، هو كقارئ، ومثقف، وناقد، ومن ملاحظات سواه من النقاد خاصة الشفاهية والكتابية.

ووجدتنى أرتفع فجأة فى عناد، وتحد لمستوى المفاجأة. هو يسأل وأنا أجيب، ويقاطع، وأنا أقاطع، وأبرر، وأسوق وجهة نظرى خاصة، عندما أثار ظاهرة العنف فى قصصى.

وانتهى وقت البرنامج وكان نصف ساعة على ما أذكر مرت بيننا، كأنها خمس دقائق. وإذا بى أكتشف، أن بهاء قد نجح فى أن يجعلنا ندين يتحاوران يقفان على أرض واحدة، وإن اختلفت الرؤى والآراء. وإذ ختم بهاء برنامجه بالعبارات التقليدية كنت أنظر إليه بذهول، ورضا لما فعله معى. وأغلق بهاء الميكروفون أمامه، وأمامي، وانفجر ضاحكا قائلا لى:

أنا نطقت شكرى عياد الخجول الذى لا ينطق. أسئلة إيه يا سليمان يا صاحبى.

ومع ذلك كنت حزينا، لأن بهاء، لم ينشر بعد سوى قصص مجموعته "الجطوبية"، وكنت أدينه فى نفسى، ولا أخفى إدانتى له عنه بلطف ورقة بين شهر، وآخر، فقد كنت على يقين من قدرته كقاص كبير مبدع.

لكن بهاء لم يغره النشر مثلى، ولم يزعجه تركه لنموه كقاص للتجارب القصصية الأولى. وعذره عندى فيما أعتقد أنه كان يؤثر أن يبدأ كاتبا كبيرا ولا يعرفه الناس إلا ككاتب كبير، ويؤثر أن يكون كاتبا هاويا لا محترفا، لا يكتب قصة إلا إذا سيطرت عليه، تجربة تشغل روحه، وتملأ عليه حياته، ويعرف رأسها من ذنبها ورؤيتها ولغتها ومعالجتها. وكان هذا الموقف سببا آخر لتوقف بهاء عن كتابة القص، يضاف إلى موقفه كإذاعى مخلص للثقافة المسموعة، ودورها الكبير المرسل على نطاق واسع لقطاع عريض من محبى الثقافة، وأوسع بكثير من جمهور المجلة والكتاب والصحيفة. وفى سنوات البرنامج الثانى نسى بهاء نفسه ليكون للآخرين من الكتاب والمستمعين.

(٦)

وتعرض بهاء لمحنة قصمت ظهر كثير من المثقفين، إلا ظهره هو، ذلك المثقف المنعزل المراقب الحكيم، حتى وهو منغمس فى العمل، ومخلص له طوال يومه. وكانت المحنة هى نقله من البرنامج الثانى ، ليكون مراقبا أو مديرا لمراقبة أو إدارة لا وجود لها تقريبا هى مراقبة الدراما، وتأكد لى

مرارا أنه لا وجود لهذه المراقبة، فكلما ذهبت إلى بهاء زائرا لا أجد له مكتبا ولا أرى له موظفين يتبعونه، ولا غرفة لهذه المراقبة، ولا لافتة على بابها. ويقال لى دائما من إحداهن: بهاء كان هنا، ومشى أو قد يعود، أو لا يعود. وأدركت أنه مغضوب عليه فعلا، وغضبا يحرمه من العمل، وإن لم يحرمه من مرتبه الشهرى.

كان يوسف السباعى قد صار ذا نفوذ أكبر، كرجل دولة مسئول عن الثقافة فى مصر. وكان نفوذه قد امتد فى العهد الساداتى إلى كوادر الإذاعة العليا، ورئاسات أجهزتها من المراقبين والمديرين فضلا عمن دونهم. وكان بهاء مغضوبا عليه من يوسف السباعى حتى فى العهد الناصرى خاصة بعد، أن صار فيما يقال عضوا بالتنظيم الطليعى بعد نكسة عام ١٩٦٧، لأنه كان هو وفؤاد كامل مدير البرنامج الثانى متهما عند يوسف السباعى، ومعه حملة حقائبه الواشين ببهاء إليه وبفؤاد كامل معه، وأكثرهم من فئة الكتبة، لأن بهاء ومعه فؤاد كامل كانا حريصين على أن يظل البرنامج الثانى فى مستواه السابق، بل أعلى من هذا المستوى يعتمد على المثقف المثقف، والكاتب الكاتب، والعالم العالم، والفنان الفنان أى على الصفوة أو النخبة المثقفة القديرة. وكانت أبواب الثقافة والإعلام قد فتحت فى العهد الساداتى، لهؤلاء الكتبة مثلما فتحت للعمالة غير الفنية فى المصانع والشركات والمؤسسات بأجهزة الدولة ووزاراتها. ومن هنا كانت الضربة لبهاء طاهر خاصة، فسرعان ما استسلم فؤاد كامل يرحمه الله لرجل الدولة ومحاسيبه. وبدأت مسيرة انحدار البرنامج الثانى.

وأخذ بهاء الموقف على وجعه منه بتفكير عقلانى، هو الذى كان حريصا مثلى، ومثل آخرين على السير فى منتصف الطريق ،لا ينحاز إلى يمين، ولا إلى يسار وإنما ينحاز إلى الموقف الثقافى المفترض أن يكون إلى الأجود والمجددين وهو موقف أكبر من المتغيرات السياسية العامة والمتغيرات الثقافية خاصة، وهو موقف استراتيجى عانى بهاء آثاره نحوا من عشر سنوات، وهو موقف يجسد إحدى نقاط صراع المثقف مع السلطة.

وراح بهاء فى سنوات الغضب هذه، يستأنف رحلته مع القص، ومع الترجمة، وكتابة مقالات نقدية. فكتب روايته "شرق النخيل" و"قالت ضحى". بل راح يحقق أمنية قديمة بعزم هادئ متواصل، فقد استأنف استكماله لدراسة اللغتين الإنجليزية والفرنسية، والترجمة الفورية منهما إلى اللغة العربية، ومنها إليهما ليكون مترجما فوريا، وليغادر مصر ليعمل بهذه الكفاءة الجديدة العالية إلى سنوات منفاه الاختيارية بمنظمة من منظمات الأمم المتحدة فى سويسرا. وظل بهاء بها سنوات عديدة منذ عام ١٩٨١ إلى أن عاد إلى مصر محالا على المعاش.

كانت غربة بهاء غربة مثمرة، وكان منفاه منفى لا يلقاه، وباختياره إلا صابر حكيم. ففى هذا المنفى كتب بهاء عددا من رواياته وقصصه القصيرة. كتب رائعته القصيرة"فى حديقة غير عادية" وكتب رائعته الروائية القصيرة الأمثولة: "بالأمس حلمت بك" وروايته القصيرة الساحرة :"أنا الملك جئت" وكتب رائعته

الاجتماعية "خالتى صفية والدير". وحين عاد بهاء طاهر إلينا فى مصر كان قد كسب لنفسه، ولنا فى غيبته الممتدة اسمه، ومجده ونشر أعماله الكاملة فى مصر دون سواها.

ولقد كانت أوضاع الحياة الثقافية فى مصر تؤرقه، وهو فى المنفى. كان كلما عاد إلى مصر يرى ترديا فى الحياة الثقافية والعلاقات بين المثقفين خاصة فتنا، وحروبا كلامية أهلية على أرصفة المقاهى وعلى صفحات الصحافة الأدبية، ويأخذه لذلك غضب عارم لا أعهده فيه فيأتى إلى فى الأتيليه قائلا:

تركتك هنا فى مصر، وغبت، وأعود لأجد المثقفين يتشاجرون على مقهى البستان، وأنت جالس هنا لا تبالى.

وأحاول أن أشرح له أن سلم القيم قد تغير، وأن المثقفين يتصارعون على لقم العيش القليلة فرصها فى هذا البلد، وأن المثقفين شأنهم شأن سائر الناس من شرائح المجتمع، وأن كل كويتب صار الآن يعتقد أنه مضطهد ويرى أن على أجيالنا أن تموت لتخلى لهم الساحة من المزاحمة، ولا يريدون أن يدركوا أن الكتابة الجيدة تفرض نفسها، وأن الكتابة مهما ارتقت فى مصرنا لا تدر عائدا يذكر ينفق على أحد. ولا يقتنع بهاء ففى رأسه تعشش فى رأيى تصورات المثل والقيم التى خلبت ألبابنا فى سنوات مضت، وينصرف عنى غاضبا غير مقتنع.

وأخذ المغترب العائد إثر عودته منهجا لنفسه مناقضا تماما لكل غضباته السابقة، أن يكون فى الحياة الثقافية، ولا يكون فيها، وفى الشارع الثقافى ولا يكون فيه وفى المؤسسات الثقافية، ولا يكون فيها. يقترب من مقاهى الأدب ومن المثقفين، بقدر ويبتعد عنها، وعنهم بسرعة، ربما حتى لا يقع فى أخطار عنق الزجاجة التى حذر ارنست همينجواى منها الكاتبين، وأولها فقد الحرية واضطراب الرؤية الخاصة بكل كاتب، وربما لأنه لا يريد أن يفقد قدرته على المراقبة، والتفكير العقلانى ، والحدس الروحى ، ونعم العزلة التى بدأ بها حياته، والتى اعتادها فى منفاه الاختيارى بسويسرا فى غابات الحياة الثقافية والفنية، وربما لأنه قد سئم كل شىء من حوله. وصار فيما أراه لا تشغله سوى أمور قليلة أن يكتب فى صومعته، وأن يتابع صدى ما يكتبه، وينشره شفاها أو كتابة بحرص منظم، فلا أحد يقوم فى بلادنا بهذه المتابعة سوى الكاتب بنفسه لنفسه. وهو دور ثقيل يورث المرارة.

(٧)

لا أدرى، لماذا أتذكر طوال ربع قرن كلما تذكرت بهاء طاهر أو خطر لى على بال، وما أكثر ما يخطر لى هذا الدعاء الحزين لنبى رسول: "يا إلهى. أورثتنى المعرفة كثرة الحزن،" وهذا العنوان الجميل لرواية إبراهيم أصلان "مالك الحزين". فبهاء عندى من الحزانى العارفين. وعودوا إلى قراءة قصصه إذا اتسع صدركم لتمتلئوا حزنا ومعرفة عظيمين.

المغترب الأبدى

(١)

قدمه إلى صديقى الأردنى الزعيم الأوحد (هكذا كنا نلقبه ونسميه). قال لى:

- هذا الولد أردنى جيد. نال شهادة "الماتريك" ،وجاء إلى مصر ليلتحق بالجامعة الأمريكية، ولأن شهادته لا تقبل فى جامعة مصرية، دون معادلة، لها فسوف يلتحق طالبا بالجامعة الأمريكية.

وضحك الزعيم الأوحد، وأضاف:

وانتبه جيدا، فهذا الولد مثقف جدا، ويعرف اللغة الإنجليزية مثل بنيها، ويريد أن يكون كاتبا.

قلت للمغترب الأبدى (هكذا سيكون لقبه واسمه أيضا بيننا) ضاحكا ومداعبا:

فى مصر ما دمت تعرف القراءة والكتابة، فلا شىء يمنعك من أن تكون كاتبا.

ضحكنا ثلاثتنا، وظللنا واقفين بشارع المنصور قرب ميدان الأزهار، نتحدث ونزداد تعارفا.

كان المغترب الأبدى كث الشعر متموجه، يجمعه كعرف الديك أعلى جبهته. وكان نظيفا متأنقا: القميص أبيض ناصع، وياقة القميص عريضة منشاة. والكرافت معقودة بعناية عقدة كبيرة. والجاكت مغلق الأزرار. وكسرة البنطلون مثل حد السيف. ووشى لى وجهه بسلالته اليونانية. وتوقفت عيناى عند حذاءيه السوداوين اللامعين. وهمس فى نفسى خاطر ساذج: كيف يكون مثله يوما كاتبا لمجرد أنه يريد ذلك؟

فارقنا الزعيم الأوحد، ومضى عنا باحثا فى المدينة عن حسناء، يحادثها وتحادثه، فصحبة الرجال عنده ثقيلة الظل، وقد شبع منها فى بلده سنوات عمره. وجلست مع المغترب الأبدى على مقهى العجمى، راجين ألا يفد علينا أحد من أدباء المقهى، يفسد علينا جلستنا. وقال لى المغترب الأبدى أنه قرأ لى قصتين فى مجلة الآداب، ولم أكن قد نشرت بعد سواهما. وراقنى أنه قرأ لى وانفتح له قلبى. ثم قال لى:

- شممت فى القصتين روائح مصرية صميمة.

شكرته، فقال لى:

ـ فى إحدى قصتيك رومانسية فاقعة خارجة لتوها من لغة المنفلوطى، وفى الأخرى يسارية مراهقة عن البسطاء الشرفاء.

نظرت إليه بارتياع فقد تكشف لى فجأة صدق ما قاله. ابتسمت وقلت له:

ـ لا أزال كاتبا مبتدئا، ولم أكتب أو أنشر بعد سوى هاتين القصتين، ولا أزال أبحث لنفسى عن لغة خاصة بى، ورؤية خاصة.

ورحت أتحدث مع المغترب الأبدى عن كتاب العالم الذين ترجموا إلى العربية، وقرأنا لهم قصصا قصيرة وروايات طويلة. وكلما مضى بنا الحديث ازددت دهشة من ثقافة هذا الأردنى الشاب، واتخذت قرارا أن تزداد معرفتى به، فلعلنا نصبح يوما صديقين. وسألنى المغترب الأبدى:

- أتقرأ بالإنجليزية؟

ضحكت. أدركت أن صديقنا الزعيم الأوحد لم يقدم أحدنا للآخر جيدا. فقلت له على عجل:

أولا نحن عرب. وثانيا: أنا كاتب عربى مبتدئ، ولا أعرف غير لغتى. وثالثا أنا متخرج لتوى من الأزهر، ولذلك لا أعرف من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية حرفا لا قارئا ولا كاتبا.

كانت فى نبرتى حدة ما، وجم لها المغترب الأبدى ، وأطرق قليلا كاتما شعوره فيما أقدر بتفوقه، وبدا لى أكثر اعتزازا بنفسه مما ظننت. جرحنى ذلك فقلت له ساخرا:

- هل ستكون كاتبا بالإنجليزية؟

بهت لسؤالى المضحك ولم يقل شيئا. قدرت أننى قد جعلته يضيق بى فتضاحكت، وسألته متوددا:

هل ستجرب كتابة القصة، أنت فى رأيى الآن بعد ما سمعته منك عن قصتى مؤهل لأن تكون ناقدا ممتازا.

صمت المغترب الأبدى ، ثم قال:

لا أدرى. عشت ولدى ما أحكيه.

تعالمت على المغترب الأبدى، وكلما تذكرت ما قلته، له سخرت من نفسى. قلت:

ـ كلما طال عمرك، وعشت تجارب شتى خاصة فى قاع المستضعفين، فى القرى والمدن، كلما صرت كاتبا أفضل.

فاجأنى كمن أسأمه ما أقوله من معاد القول بالنظر إلى ساعته، ونهض قائلا:

ـ لدى موعد مع واحدة. سنلتقى قطعا مرة أخرى.

ومددت يدى لمصافحته لكنه لم يتوقف ليرى يدى، وتركنى ومضى مبتعدا. قلت لنفسى: "بدوى". تذكرت فى اللحظة نفسها أن الغربيين يفترقون أيضا دون مصافحة، فقلت لنفسى ساخطا: "هم أيضا بدو".

عدت للجلوس. وأهمنى ما حدث فى هذا اللقاء. وتخايل لى وجه المغترب الأبدى ، بغمازتين إحداهما بأرنبة أنفه القليلة الفطس، والأخرى فى وسط ذقنه. فكرت أن الغمازة فى الذقن طابع حسن، لكنها فى الأنف أمر يلفت النظر. ووعيت أن له حضورا ووجها معبرا بطبيعته، وعينان لا تقولان كل شيء مثلما لا تبوح صحراء ولا جبل بأسرارهما الخفية. وثار فضولى وأيقنت أننا سنكون صاحبين.

(٢)

طوال أربع سنوات ظللت أراه فى وسط القاهرة، بمقهى من مقاهى الأدب، أصافحه ويصافحنى، وكلانا ينظر إلى صاحبه شزرا وبحذر، إلى أن تخرج من الجامعة الأمريكية بعد أربع سنوات. وظننت أنه سيرحل عائدا إلى الأردن، ليتولى بها منصبا ينتظره. ولقيته بعد شهور بمقهى ريش فبادرته بقولى:

ظننت أنك غادرت القاهرة دون أن نودعك. متى ستسافر لنقيم لك حفلا صغيرا

فقال لى: قررت البقاء فى القاهرة. لو عدت سأواجه حكما بالإعدام.

وراح يحكى لى قصة نضال يسارية، واغتراب من الأردن إلى لبنان والعراق وسوريا، إلى أن تمكن من القدوم إلى القاهرة. وحكى لى أن أخاه ينفق عليه، ويرسل إليه بمال شهرى أتم به دراسته، وقد نفد هذا المال مع تخرجه من الجامعة الأمريكية. وعليه أن يحصل على عمل فى القاهرة لكى يبرر به طلب الإقامات المؤقتة بالقاهرة. وقال لى إنه أحب مصر وشعب مصر البالغ الطيبة.

شهور قليلة مضت، ووجد المغترب الأبدى عملا بوكالة أنباء أجنبية كمترجم للأخبار اليومية بها. وراح يواصل اكتشافه لأحياء القاهرة الراقية والعشوائية، كما لم يكتشفها أحد من بنيها وبناتها، ويخوض بها مغامرات صغيرة لشاب أعزب، ويقيم العلاقات مع المثقفين المصريين والعرب الوافدين، كما لم يقمها أحد.كانت تشده إلى القاهرة، فيما أظن سير الأدباء والفنانين النازحين من بلاد الشام فى سوريا ولبنان إلى القاهرة والإسكندرية، منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ولم تكن لديه مشروعات أخرى مثلهم لإصدار مجلة أو صحيفة أو إقامة مسرح. كان فقط يريد أن يحيا فى مدينة يراها مثل باريس عاصمة وثقافة، ويرى نفسه مثل كتاب جيل الضياع، فيما بين الحربين العالميتين من الأدباء والفنانين المهاجرين إلى باريس، من مدن الدنيا وقاراتها. لم يكن يريد سوى أن يتجول ويحيا ويصادق ويحب ويكتب قصصا، من ذكرياته الأولى حينا، ومن تجاربه فى القاهرة حينا آخر.

(٣)

وصار المغترب الأبدى فى القاهرة نجم الأوساط الثقافية الأدبية، فى بضع سنين. كانت هناك فى القاهرة شلل أجيال أدبية فى المؤسسات الصحفية،

وبعض الجمعيات الأدبية النشطة القليلة، لكن المغترب الأبدى نجح دون تخطيط ما، فى اجتذاب صفوة من جيل أدبى جديد إلى شقته الصغيرة، يلقاهم ويلقونه مساء كل خميس.

ولقد وضع المغترب الأبدى تقاليد غير مكتوبة لهذه اللقاءات. أحيانا يقرأ أحدنا قصة، أو قصيدة ،وأحيانا نتناقش مناقشات حرة حول مقال، أو كتاب، وأحيانا نخوض فى أحاديث نمائم لا تنتهى، فى السياسة والفن، وعجائب هذه الدنيا الصغيرة، وأحيانا نغادر شقة المغترب الأبدى لنطارد بعضنا بعضا فى قوارب بالنيل، فى ظلام الليل الدامس. وكان نقدنا لبعضنا فيما نقرؤه من إبداعنا مرا وقاسيا. ومن الغريب أن هذا النقد الجارح أحيانا، والصريح إلى حد القتل بالكلمات قد أفادنا جميعا. كنا نغضب من بعضنا البعض، لكننا سرعان ما نتجاوز هذا الغضب، ويعود الشارد منا ليلتقى بالصحب فى شقة المغترب الأبدى.

سنوات قليلة العدد دامت فيها النواة الأولى، لشلتنا نشرنا فيها مجموعاتنا الأولى: بهاء طاهر، وأبو المعاطى أبو النجا، وأنا. وفاجأنا المغترب الأبدى بمجموعته القصصية القصيرة بتجاربها الأردنية المدهشة.

وآن لعقد هذه الشلة أن ينفرط بالزواج، وبالملل من التكرار للقاء، وسأم المغترب الأبدى من أفراد شلة، راح كل عضو بها يتحقق على طريقته، أو ييأس من التحقق الأدبى. فأخذ المغترب الأبدى يجتذب إلى شقته ربة جديدة من الأدباء، والمناضلين السياسيين أيضا فى طليعتهم: محمد البساطى ويحيى الطاهر عبد الله. وصارت لقاءاتنا العامة المتكررة، وبالمصادفة فى مقاهى الأدب بوسط البلد.

(٤)

صارت للمغترب الأبدى رغبات محرقة فى معرفة أسرار الناس بالقاهرة. صار يزور أصحابه ومعارفه فى بيوتهم ،ويوثق العلاقات مع زوجاتهم أو صاحباتهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم أيضا، وراح ينقل الأسرار كلما أنس لأحد من بيت إلى بيت وبدا لى سعيدا، وهو يحكى ذات ليلة عن فلان الذى انفصل لتوه، وفى حضوره عن زوجته. وكان فى زيارة مفاجئة، لهما مؤكدا بذلك رأيه هو الأعزب فى المؤسسة الزوجية. وعن الصديق الذى واجه صديقه، وبحضور زوجته وأمام جماعة من الأصدقاء كانوا يحتفلون بخروجه من المعتقل بأنها خانته معه حين جاءت إلى بيته، وباتت عنده شاكية من اعتقال الأمن لرجلها.

كان فيما أرى يمر بوحدة قاسية فى القاهرة، ويبحث فى الوقت نفسه عن خبرات جديدة لقصصه، خبرات مصرية تجعله مصريا، وتدخله فى نسيج الحياة والناس من حوله، كى يعرفهم على كف يده مثلما عرف الناس فى الأردن، التى كتب منها رائعة قصصية قصيرة طويلة وأقصوصة أمثولة.

وجرته هذه الوحدة إلى خوض تجارب حب جسدى صغيرة وعابرة، بعضها

كان من اختراعات خياله وأحلام يقظته. وذهبت إليه ذات مرة ليلا، فى الموعد الذى حدده لى فى العاشرة مساء يوم خميس. فتح لى الباب.كانت شقته مظلمة تماما، لا يصل إليها سوى ضوء الطريق الخلفى للعمارة يأتى من نافذة الغرفة المقابلة. وضع المغترب الأبدى إصبعه على فمه مشيرا لى بالتزام الصمت. ظننت أن إحداهن عنده، وتبعته مغلقا باب الشقة خلفى إلى الغرفة المقابلة المفتوحة النافذة.

تحت النافذة كانت كنبة بلدية. وجلست مع المغترب الأبدى أنظر حيث ينظر. فى المقابل كانت نافذة مواربة المصراعين بالطابق الثانى فى العمارة المواجهة. وكان ثمة سرير وراءه لصق جدار. وعلى السرير كانت امرأة قد اكتهلت، وفتاة صغيرة كانتا عاريتين تماما، وهما فى حالة عناق عصبى يوحى بالمساحقة. قرفت من شذوذ المشهد، وانتقلت إلى كنبة أخرى. وظل المغترب الأبدى ينظر بانفعال، وأنا لا أرفع عينى عن وجهه. أرى انفعالاته الشبقة. وحين انتهى المشهد الذى يراه، وانطفأ الضوء الضعيف فى الغرفة المقابلة، نهض المغترب الأبدى، وأغلق نافذة غرفته وقال لى:

❖ المرأة التى رأيتها أرمل وارثة وعقيم. تبنت طفلة من الملجأ ورعتها، وأدخلتها مدرسة لغات قريبة فى هذه المنطقة. كبرت الطفلة وشبت وهى تنام على سرير أمها بالتبنى، وقرب بين جسديهما كما يقول العرب طول السهاد، وعرض الوساد، وحرارة الأنفاس.

قلت للمغترب الأبدى:

ـ يا صبرك. متى جمعت هذه المعلومات عنهما

قال لى بضيق:

ـ إذا لم تراقب، وتجمع المعلومات، وتنظر من ثقب باب كما يقول سومرست موم عن فنه، ونظرته فى الفن لن تكتب فنا صادقا وجيدا.

ثم قال لى:

فكرت فى اقتحام تلك الفتاة فقط لأعرف ما تفكر فيه عن علاقتها بهذه المرأة. ترصدتها من النافذة حتى عرفت موعد ظهورها اليومى على باب العمارة التى تسكن بها. وذات صباح اقتربت منها، وهى واقفة أمام العمارة تنتظر سيارة مدرستها، لكنها لم تلتفت إلى، وأدارت وجهها عنى فى احتقار. صحت به مقاطعا:

ـ تقتلها لو قلت لها إنك تعرف سرها مع أمها بالتبنى.

فقال لى بغيظ:

ـ لا تجردنى من إنسانيتى.

تضاحكت وقلت له:

– أتريد منها حبا أم تريد أن تكتب عن تجربتها مع المساحقة.

فقال المغترب الأبدى:

ـ لم تعد هذه البنت صالحة لحب رجل أى رجل حتى لو تزوجت. ثم من يجرؤ

أن يكتب عن السحاق والمساحقات، بعد ما كتبه عنه دستيوفسكى فى روايته: "نيتوتشكا" قل إنه مجرد فضول.

(٥)

عثر المغترب الأبدى على حبيبة ورفيقة. ظلت سره الخاص الذى يخفيه، ربما خوفا من أن تطير من يده. ظل يخفيها عن كل الأصحاب. وإذا طب عليه صديق فى بيته جاء للزيارة سارع بمغادرة بيته معه، وكما هو بثياب البيت، وفى قدميه شبشب إلى أى مقهى بالميدان، ويتحفه بشاى على حسابه، ويتحدث معه حديث من لا يريد أن يواصل الحديث، فقد ترك عقله وراءه فى البيت. ويبادر إثر انتهاء ضيفه من شرب شايه بالاستئذان، فهو بحاجة إلى النوم الآن. وينهض واقفا تاركا ضيفه على رصيف المقهى ربما فى عز الحر، وربما فى عز البرد.

وعلى غير موعد، تعرفت على الفتاة التى يخفيه المغترب الأبدى فى معرض للكتاب بأرض الجزيرة. كانت تجلس فوق الطاولة التى يقف وراءها موظفو الأمانات، وتؤرجح ساقيها بمرح طفولى، وهى تلوح بأصابعها صائحة:

- هيه. هيه.أخذت منه عشرين جنيها. عشرون جنيها. ورقة واحدة كاملة.

سألت واحدا من المتحلقين حولها من المتوددين إليها بمشاركتها الضحك، وأظنه كان عمدة الأدب فى القاهرة:

- عمن تتكلم؟من تكون؟ فقال لى: هذه هى "ملكة". ألم تر ملكة من قبل صاحبة المغترب الأبدى.

كانت سمراء، فاتنة السمرة نحيلة العود، شديدة الجاذبية واسعة العينين. كانت ترتدى ثوبا بسيطا أزرق به رسوم دقيقة لورقة شجرة متكررة. قال لى عمدة الأدب:

- ألم ترها من قبل؟

هززت له رأسى نفيا، وعيناى معلقتان بوجهها. قلت لعمدة الأدب:

- الوحيدة التى أخفاها المغترب الأبدى عنا.

ولم أبذل جهدا يذكر فى التعرف إليها، لكنها كانت لبساطتها المذهلة بعيدة عن كل أحد، بقدر ما هى قريبة فى اللحظة نفسها.

فى ذلك المساء نفسه قابلت المغترب الأبدى على رصيف مقهى ريش. قلت له إثر جلوسى بمقابله:

- قابلت من تخفيها فى معرض الكتاب.

نظر المغترب الأبدى إلى، ولم يقل شيئا. قلت له بحماس:

- جميلة جدا. وطيبة جدا. لو كنت مكانك لتزوجتها فورا لكننى متزوج. وهى صاحبتك، ومن طبعى ألا أعتدى على حقوق صاحب لى.

فقال لى:

- عرفتها عند مدخل سينما مترو. تصور أنها متخرجة من كلية الآداب. وللأسف لا تحب العمل أى عمل. جربت التدريس، وهربت منه، والعمل فى وزارة

الثقافة، وهربت منه. وعاشت على حريتها. تقيم معى الآن فى البيت. وأخاف أن أعرفها على أى أحد. لأنها تلقائية. تفعل أى شىء فى أى وقت. وأنا أعرف أنها لو تزوجت ستكون زوجة مدهشة. لكن الزواج ليس لى. أنا مغترب أبدى. أحب أن أتفرج على العالم والناس.

والتفت إلى مواصلا كلامه:

- أنا اليوم فى القاهرة، وأحلم فى كل يوم بالهرب من القاهرة. لقد رأيتها بما يكفى لكاتب مثلى. وعرفت ناسها كما أعرف كف يدى. أحلم بالسفر إلى نيجيريا، وكندا، وأوغندا، ومعرفة أرض جديدة وناس مختلفين.

فى لقاء آخر مع المغترب الأبدى، سألته عن أحوال ملكة، فقال لى:

- حققت هى الحلم الذى كنت أريد أنا تحقيقه. وتركتنى. كانت معى فى كافتيريا فندق هيلتون. رآها دبلوماسى إفريقى. وابتسم لها، ومن الغريب أننى لم أغر عليها. كنت قد بدأت أفكر فى الزواج منها فقد دخلت فى نخاعى. ويبدو أننى كنت أنتظر هذه الفرصة لأهرب منها ومن نفسى. دعوت ذلك الدبلوماسى الإفريقى إلى مائدتنا فقبل الدعوة. ونظرت ملكة إلى متمرة لكننى تجاهلت نظرتها. وبدأت هى فى التعرف إلى هذا الدبلوماسى. قال لنا إنه من أسرة ميسورة جدا فى بلاده. ورأيت فى عينيها الترحيب به، وفى عينيه الحب لها. استأذنت منهما لدقيقتين. وتركتهما وحدهما. وعدت إلى بيتى فى الحال. رحت أدور حول نفسى، أنتظر عودتها إلى أن غلبنى النوم من كثرة ما شربت. فى الصباح لم أجدها فى البيت. وفى المساء جاءنى تليفون من ذلك الإفريقى يدعونى إلى حضور زفافهما، غدا بالهيلتون، ويبلغنى تحيات ملكة. فى الليلة نفسها اعتذرت لمدير الوكالة التى أعمل بها، وسافرت إلى الإسكندرية. وإثر عودتى أخبرنى موظفو الاستعلامات بالهيلتون أن فرحهما كان هائلا، وأنها سافرت معه إلى بلاده، وهى فى فستان الزفاف.

والتفت إلى المغترب الأبدى، وقال لى بسخرية:

- أنا أعرف أنك ستكتب ذلك عنى يوما ما.

امتلأ قلبى حزنا على غربة ملكة، وغيظا من المغترب الأبدى. وقلت له رأيى، فقال لى بقسوة على نفسه:

ستظل عبيطا. لقد نجت ملكة ونجا أهلها معها. كانت تجهد لتساعد أهلها. كنت أعطيها حتى الشاى والسكر والأرز فتحمله إلى أهلها. لا أدرى كيف أتمت تعليمها، وهى فى وسط هذا الفقر كله. كانت ستضيع معى لو بقيت معى. كنت سأدمرها. أتفهم

(٦)

فى ناد عربى بوسط القاهرة، أقيمت ندوة استمرت أربعة أيام، إثر توقيع اتفاقية كامب ديفيد. كانت ندوة صاخبة المحاضرات، ترامت أخبارها على مقاهى المثقفين الأثيرة، وقيل لى إن المغترب الأبدى يقوم فيها بدور المقرر، وإنه

قد استفز السلطات. أدركت عندئذ أن المغترب الأبدى لم يبق له خط رجعة كى تستمر إقامته فى مصر عاما بعد عام، وأنه قد عزم على الرحيل عن مصر، ليواصل اغترابه الأبدى فى مكان آخر، وأنه شاء أن يكون خروجه من مصر التى أحبها وأحبته، بزفة مدوية تتيح له الترحيب به فى بلد عربى آخر، وأنه قد سئم الإقامة فى بلد واحد. ومع إدراكى لاختياره، ولأن قرار إبعاده عن مصر قد صار أمرا مفروغا منه، وأن المسألة معه مسألة وقت إثر انتهاء هذه الندوة، فقد ذهبت إلى ندوة صباح اليوم الرابع والأخير لأحذره من التمادى فيما هو فيه. فلو أخرج من مصر، فلن يسمح له بأن يعود إليها مرة أخرى، وربما كان ذهابى إلى هذه الندوة الأخيرة، كى أودعه فلن يقدر لى أن أراه مرة أخرى، إلا إذا سافرت خارج مصر. كنت أحبه.

رأيته فى القاعة البيضاء الفسيحة، جالسا مع آخرين إلى المنصة ،أنيقا فى قميصه الأبيض متوهج الوجه لا تبدو عليه ذرة قلق. كانت المقاعد بالقاعة مشغولة كلها بالجالسين، فوقفت بين المصورين بشتى الكاميرات والمسجلين بالكاسيتات أسمع ما يقرؤه على الحاضرين من التوصيات والقرارات. ولاحت لى فرصة التقت فيها عيناى بعينيه ، فأشرت إليه بطول ذراعى، أنبهه إلى وجودى ، وإلى أننى أريد أن أراه بعد الندوة.

والناس يتفرقون فى طريقهم إلى باب الخروج، وضجة تعليقاتهم عالية أقبل نحوى مسرعا، وصافحنى قائلا لى:

ـ كانت ندوة هائلة.

ثم قال لى بعجلة:

ـ أعرف ما جئت لتقوله لى. أعرف أننى سأرحل عن القاهرة. وربما لن أرى أحدا من الأصدقاء. أبلغهم تحياتى. قد نتمكن من اللقاء قبل الرحيل.

قلت له وأنا أصافحه وأعانقه:

ـ إذا رحلوك فاكتب لى بعنوانك حيث تكون.

وما توقعته، وما سعى هو المغترب الأبدى إليه حدث بتمامه. فقد طبوا عليه فى بيته ليلا، وأعطوه مهلة أربعا وعشرين ساعة، ليعد نفسه لمغادرة مصر إلى أى بلد يختارها، فقد أنهيت إقامته بمصر. وفى هذه الأربعة والعشرين ساعة أخلى المغترب الأبدى طرفه من عمله بوكالة الأنباء الأجنبية، وأعد حقيبته، وترك شقته لابن عم له يدرس بالقاهرة.

وجاءت الأخبار على المقهى بأن المغترب الأبدى قد وصل فعلا إلى العراق، واستقبل بها كبطل سياسى. ووجدت نفسى أقول لمن معى:

ـ بعد شهور قليلة سينسى المغترب الأبدى هناك، ويفرض عليه الصمت التام فى العراق، ولن يطيق الاستمرار فى الصمت، وسيغادر العراق مرة أخرى إلى سوريا، أو لبنان.

وما توقعته كان. فقد جاءت إلى رسالة منه مكتوبة بالحبر بخط أنيق به

انحناءات أنثوية على ورق شغاف. فى رسالته راح يحدثنى عن أيامه فى العراق، وحياته فى سوريا، وعن دار النشر التى يعمل بها قارئا، والمجلة التى سيصدرها من هذه الدار. ويطلب منى قصة لنشرها بهذه المجلة، ووعدنى من باب السخرية والفكاهة، بأن يرسل إلى أجرها برميلا من البترول. ولم يعبر بكلمة عن حنينه إلى القاهرة، ولا لمن كان له بها من الأصدقاء، فقلت لنفسى: "هذا كاتب لا وطن له ولا أظن أنه حمل فى قلبه صداقة لأحد". وتمنيت أن أعرف من ماضيه سببا واحدا يفسر لى كونه، بلا صداقة لأحد، ولا ارتباط له بمكان حتى بمسقط رأسه، الذى لا يريد بعد هذه السنين زيارته مجرد زيارة، يصافح فيها الناس، ويعانق رفاق الصبا. ورحت أعجب بينى وبين نفسى: كيف صار المغترب الأبدى برغم هذه الوحدة مع النفس كاتبا ملتزما، والناس عنده لا مكان لأحدهم فى قلبه

بعثت إليه بالقصة التى طلبها، والتى لم تنشر قط فيما أظن. ورجوته فى رسالتى أن يزور وطنه، ويرى أهله وبنى وطنه حتى لا تحطمه فى النهاية ملازمته الدائمة للاغتراب. لكن المغترب الأبدى لم يرد على رسالتى بكلمة. لم تعد الكتابة تكفيه، ولا التجارب التى عاشها فى الأردن، ثم فى القاهرة تغنيه. كانت تقوده روح جيفارا وهيمنجواى للمغامرة، وقد جاوز الأربعين من العمر فى قضايا قومية لم يكن من قبل يؤمن بها، بل إنه كان يسخر منها، ولا يرى خلاصا للإنسان إلا بأن يصبح العالم عالما واحدا ،المال فيه والعمل متاحان للجميع. كان أمميا والإنسان عنده جنس لا أفراد.

(٧)

صارحت بخواطرى صديقا عن محنة المغترب الأبدى مع نفسه، فضحك ساخرا منى، وقال لى:

- أنت الذى فى محنة. فقد اختار لنفسه أن يكون متفرجا، غير منتم لشىء ما حتى للنضال. إنه يتفرج. شاقته لعبة التفرج، والنظر من ثقب الباب. لقد تشبع المغترب الأبدى بأمشاج من حياة الكتاب، والمغامرين حتى بكاتبه الأثير أيضا لديه: هنرى ميللر، وكأن بوسعه أن يكون كل الكتاب والمغامرين والمتفردين من أبناء الحضارة الغربية فى وقت واحد، ولا يرضيه أن يكون نفسه هو. أنظر أين هو الآن إنه يحيا هناك مع قيادات السلطة الفلسطينية فى طرابلس. وأحسبه سعيدا لأنه يتفرج جيدا عن قرب، ويحصل على تجارب جديدة، ويخوض نضال شعب لم يكن يوما واحدا من أبنائه، وسعيدا لأنه يحيا ما سوف يكتبه عن هذه التجربة. اسمعنى جيدا. سأبرهن لك على ما أريد توصيله إليك عن المغترب الأبدى. فلقد خرب بيتى لمجرد أنه جعلنى، وأهلى فئران تجارب يدرس فيها العواطف البشرية، فحسب، وهو أمر لم يقدم عليه أى من علماء النفس العظام: فرويد ويونج وأدلر وبافلوف.

وراح حكيم يحكى لى كيف تسلل إلى بيته باسم صداقته له وتظرفه مع زوجته ومع أولاده الصغار مرة بعد مرة وشهرا بعد شهر وهو لا ينتبه إلى سعيه الحثيث الخفى بل إنه كان سعيدا لأن بيته مفتوح له هو الصديق المغترب والذى يحيا فى القاهرة بلا أهل ويخشى العودة إلى وطنه وأهله لأن حكما بالإعدام مسلطا على رقبته ينتظره هناك إلى أن رأى نظرات شبقة فى عينيه لزوجته وسمع بأذنيه منه إثارته لغرور امرأته بقوله لها إنها تستحق أن تفتح بيتها ليكون صالونا أدبيا يلتقى فيه الأدباء والفنانون. وقال لى حكيم:

عندئذ نهرته. وتجرأت عليه فطلبت منه أن يعود إلى بيته واستحييت أن أطلب منه عدم العودة إلى بيتى مرة أخرى. وليتنى فعلت ذلك فى هذا اليوم حتى لا أضطر إلى فعل ما هو أقسى وأشد عليه وعلى وعلى زوجتى وأولادى. فقد عاد إلينا بعد أيام زائرا وخرجت لآتى من الفرن بخبز وعندما عدت وفتحت باب البيت لم يشعر بى ورأيته وأنا أفتح الباب وأنا أغلقه وهو يملس على شعر امرأتى وهى مطرقة برأسها على المكتب وكأنها شكت من صداع. وحين أحس بى تراجع وجلس على مقعده وقال لى ببساطة: لقد عدت بسرعة وطلب منى مسكنا لزوجتى لأنها تشكو من صداع.

وقال لى حكيم إنه ابتسم له بمرارة وبلع انفعالاته كلها ضد المغترب الأبدى وصبر على ضيافته له تلك الليلة إلى أن تناول العشاء معه ثم قال له وهو ينصرف عائدا إلى بيته إنه سيمشى معه قليلا فى هواء الليل. وفى الطريق صارح المغترب الأبدى. قال له:

يا صاحبى لا تأت إلى بيتى بعد اليوم. لا أريد أن تفسد على حياتى من حيث لا تدرى.

وأخبرنى حكيم أنه فى تلك اللحظة عاش موقفا قاسيا مع نفسه ومع المغترب الأبدى وأنه حين عاد إلى بيته وجد زوجته تبكى على سريرها فى صمت ولم تتوقف عن البكاء حين اقترب منها فأدرك أنها حدست ما سوف يقوله للمغترب الأبدى حين خرج معه. ولم تتوقف عن البكاء فنهرها وقال لها بعنف إنه إذا رآه فى البيت مرة أخرى فسوف يقتله ويقتلها. وقلت لصديقى حكيم:

يا أهبل. فى تلك اللحظة بدأت الطريق لفقد زوجتك.

فقال لى:

- بل كنت قد فقدتها بالفعل منذ أن دخل المغترب الأبدى بيتى.

وصارحت حكيما، بما أعرفه عن أكذوبة الحكم بالإعدام، التى أشاعها المغترب الأبدى عن نفسه طوال سنوات إقامته بالقاهرة. فقد حدث أننى سألت صديقا أردنيا مسئولا، يعمل بمنصب كبير كان يزور القاهرة فى صحبة، وفد سياسى، فى العام، الذى ودع فيه عبد الناصر الحياة، عن محنة المغترب الأبدى المحكوم عليه فى وطنه بالإعدام، لأنه كان يوما يساريا فضحك هذا الصديق طويلا وضرب كفا على كف، وقال لى:

- لم يحدث ذلك قط. أنا أعرف أهله من البدو. كل ما واجهه هو السجن فترة، وإثرها غادر الأردن باختياره، ولم يعد حتى اليوم.

وقال لى الصديق المسئول:

- أنا مستعد الآن أن أصحبه معى ليزور الأردن، ويبقى بها إذا شاء ،ويعمل بها فى منصب مرموق مثله، مثل أخيه فى الأردن خاصة، وأنه الآن كاتب مرموق فى الوطن العربى. ويعود إلى القاهرة إذا شاء فى أى وقت، ومعه جواز سفر دبلوماسى لأى مكان فى العالم.

بل إنه قال لى:

إننى مستعد لأصحبه وأنت معه لمقابلة الملك، وسوف تسمع الترحيب به فى وطنه بأذنيك ومن الملك نفسه.

(٨)

نجا المغترب الأبدى، مع المحاصرين فى طرابلس من محنة الحصار، وذهب مع الذاهبين إلى اليمن عبر قناة السويس. ولعله رنا إلى شاطئى القناة، وحزن للحظة ما لأنه لا يستطيع أن يعود إلى القاهرة. ثم جاءت الأخبار عندما عاد إلى سوريا، بأنه قد تزوج، وأنه قد أصدر رواية طويلة أتيح لى أن أستعيرها من أحد محبيه فى القاهرة، وقرأتها بشوق من يرى وجهه الوسيم أمامه.

كانت رواية مريرة، أحسست معها أنها آخر عمل سوف يكتبه المغترب الأبدى، فقد وضع فيها ذوب نفسه وحصاد خبرته القصصية كلها. وتأكد لى ذلك الشعور، وأنا أقرأ انتحار بطل الرواية بسيانيد البوتاسيوم.

وحاولت طوال ليلة كاملة، أن أبعد عن ذهنى فكره أن المغترب الأبدى قد كتب بيده النهاية التى اختارها لنفسه، والتى لم يكتب مثلها همينجواى. ولخوفى من فكرتى، كتمتها فى نفسى ، حتى جاءت الأخبار من الشام وحملتها الصحف، ووكالات الأنباء العربية، بأن المغترب الأبدى قد توفى إثر أزمة قلبية أصيب بها، وحمل سريعا إلى المستشفى، لكنه لفظ أنفاسه فى الطريق.

وبتنا، نحن أصدقاءه، فى القاهرة حزانى عليه. ووقعت فى يدى صحيفة شامية، بها حديث أجرى معه كان آخر أحاديثه. وراعتنى صورته وقد صار فيها سمينا بصورة مزعجة، ومحزنة، كأن جسده قد أصيب بورم شامل، توارت معه عيناه وسط جفون منتفخة ومثقلة. وفكرت أنه عاش أيامه الأخيرة، يسعى باختياره إلى نهايته تماما مثل بطل آخر رواياته. وحين التقيت بصديق كنت ألقبه دائما لحدته مع الناس، وعدم عذره للناس بالديان. قال لى الديان، إنه قد جاءته رسالة من صديق بالشام، يخبره فيها أن المغترب الأبدى قد انتحر بسيانيد البوتاسيوم.

النـزهى

(١)

عصر كل يوم قبيل الغروب ،كنا نراه مقبلا يمشى ملكا، فارع الطول مشدود القوام، يبدو أبدا وكأنه غير قابل للانثناء. يرتدى دائما فى شهور الخريف والشتاء والربيع بدلة من الشاركسكين سمنية اللون، وفى الصيف بدلة من الحرير الخفيف شاهقة البياض، وفى عروتها دائما زهرة فل أو زنبق لم نرها مرة ذابلة. كانت على الدوام متفتحة فواحة الأريج. وكنا نبتسم له وننظر نحوه حين ينبهنا أحد الجالسين إلى قدومه. كان منظره الأرستقراطى المهيب مفرحا لنا، بشعره البنى الأصفر اللامع المموج ،وحذائه الأبيض المؤطر بإفريز بنى مصفر كلون شعره. وكان دائما خالى اليدين لا يحمل مثلنا نحن تراحيل العمل الذهنى، كتبا ولا صحفا ولا علبة سجائر. وكنا نسميه : النزهى .

كان يجلس معنا، ولا أقول بيننا، فلم يكن واحدا منا. كان محبا لنا، وكنا نحب أن نراه بين حين وآخر لنطمئن إلى أنه هو النزهى، حى يرزق. وفى كل مرة يجلس فيها معنا كان يأتى إليه ماسح الأحذية بصندوقه، فيمد النزهى له إحدى قدميه ويضعها فوق صندوقه، ولم نره مرة يخلع حذاءيه ويعطيهما لماسح الأحذية ليمسحهما له بعيدا عن مجلسنا، وأحاديثنا. وكنا نتندر فيما بيننا حين يرحل النزهى عن جوربيه اللذين لا يسران عينا، هو الأرستقراطى النزهى، فلم يكن مظهره الممتع المهيب يخدع أحد من شلل تراحيل العمل الذهنى فى مقاهى ومنتديات المدينة، التى تتجمع فيها آناء الليل والنهار، شلل الكتاب والكتبة والصحفيين والممثلين. كان الكل يعرف أنه مثل كثيرين منا يسكن فى بير السلم، أو فى بدروم بيت قديم، أو غرفة فى خرابة، أو فوق تل.كان مثل كثيرين منا يعيش على النوتة فى المقهى والبار، ويقترض من صاحب له فى المجلس رزقه الله "بعشرة قاف" فى الإذاعة، شلنا أو بريزة أو ريالا فى السر، وعلى استحياء، ويدس يمناه فى جيبه، ويخرجها مضمومة الأصابع على فراغ، ثم يفرغ فراغها بسرعة، وفى خفية فى يد ماسح الأحذية، والكل يلمح ابتسامة باهتة تعلو شفتى ماسح الأحذية، فلقد فهم أن صاحب اليد يقول له: إلى ميسرة .

وبرغم مظهر النزهى وتظاهره الدائم الذى يثير الغيظ، ومعرفتنا المقطوع بها

بفقره البين، فلم يحدث أن أحدا فى مجلسنا اليومى بمقهى ايزافيتش، قد احتك بالنـزهى أو سخر منه إذا مال عليه النـزهى، وطلب منه شلنا إلى حين ميسرة. فقد كان النـزهى مهادنا بطبعه لا يكشف عن ورم من أورام المبدعين، ولا يستفز أحدا بكلمة موجعة، ولا يناطح رأيا برأى. كان فقط يرهف أذنيه الكبيرتين، وينصت باهتمام لكل أحد منا، ويومئ بأصابعه مستحثا المتحدث ليواصل حديثه أيا كانت قيمة ما يقوله، ويهز رأسه موافقا، على ما يقوله إذا لقى ما يقال لديه قبولا، ويلزم الصمت تماما إذا لم يرق له ما يقال حتى لقد ظن بعضنا أن النـزهى تبع وإمعة، وظن بعضنا الآخر أن النـزهى على مظهره المهيب، خاوى الوفاض من الثقافة والكلام.

(٢)

طوال بضعة سنين رحت أرقب النـزهى على غير ترصد أو اهتمام. أتأمله من قرب ومن بعد، كلما رأيته سائرا فى شارع من الشوارع الكبيرة بالقاهرة، أو فى مقهى من مقاهى وسط البلد أو الجيزة. أراه فى الصيف وقد صارت بدلته من الحرير الأبيض الشفاف، وتحول اللونْ البنى المصفر فى حذائه إلى لون أسود لميع، لكننى لم أعرف قط: أين يسكن؟ من أين يعيش، ولا كيف يقضى ما يبقى أمامه من الساعات الأخرى فى الليل والنهار؟

وانتبهت لاهتمامى المتقطع به، وبخاصة كلما رأيتهِ فى مقهى ريش أو مقاهى: عبد الله أو العجمى أو بارادای أو أنديانا. وقررت أن أخرجه من رأسى فلقد بات فضولى لمعرفة المزيد عنه مزعجا لى، وقلت لنفسى : "لماذا هو دون غيره من المثيرين للفضول، وهم أكثر من الهم على القلب" وأفلحت زمنا فى إخراجه من رأسى ، إلى أن ذهبت من باب الفضول أيضا إلى جمعية الشبان المسيحيين، ورأيته. رأيت النـزهى جالسا لا فى مقاعد الجمهور، وإنما على منصة القاعة مع اثنين قيل لى ممن حولى إنهما شاعران، وتركز اهتمامى فيه وحده، ورحت أنتظر لحظة سماعه.

نهض قبله شاعر رث المظهر. بدا لى لأول وهلة معجبا بنفسه، بدا لى أيضا مهرجا، وصدق ظنى حين افتتح قصيدته بقوله :

وتقول : أو هو هو أو ها ها أو هى هى.

ودوى التصفيق فى القاعة، وتوالت صيحات بل صرخات الطالبين للإعادة، ونظرت للنـزهى، رأيته صامتا وخاطبته فى ذات نفسى: "ضعت ياصاحبى". كان مطرقا يمسك جانبى جبينه بأصابع يديه. أدركت أنه قد أدرك أنه قد ضاع بعد هذا الشاعر المهرج، الذى نجح فى أن يشد إليه جمهور القاعة بالإيقاع لا بالشعر. وجدتنى متعاطفا معه ومشفقا عليه .

وحين توقف التصفيق بالقاعة نهض شاعر الميمنة، وراح يلقى قصيدة يقلد بها شعر بيرم التونسى الساخر بكلمات فصيحة من بحر الرجز. صفق له بعض من فى القاعة، وخرست أيدى الآخرين. وحين وقف النـزهى شاعر الميسرة أخذ

أكثر من بالقاعة يغادرها وكأنه يعرف الشعر والشاعر وحدثت نفسى أن الجمهور ربما كان ذوقه فاسدا، يرجح ذلك عندى إعجابه بالشاعرين السابقين. ظللت جالسا، والقاعة تصفصف من حولى. وسارع النزهى بإلقاء قصيدته وسط ضجيج المغادرين للقاعة، ولم يفلح المظهر المهيب للنزهى ولا عيناه الزرقاوان فى شد انتباه أحد وإبقائه جالسا .

خلت القاعة، وبقيت وحدى حزينا لا أعرف سببا لحزنى، وأطرقت ناظرا إلى الأرض بين المقاعد منتظرا أن تخلو القاعة من صوت الأقدام. وانتبهت على يد توضع على كتفى، فالتفت إلى أعلى. رأيته واقفا بجانبى ينظر إلى مبتسما بعينيه الزرقاوين

(٣)

وقفنا معا أنا والنزهى، على الرصيف أمام باب الجمعية. ظننت أنه سيصافحنى ونفترق. رجوت ألا يسألنى عن قصيدته، ولا عن قصيدتى رفيقيه فى هذه الندوة. وفوجئت به يعفينى من هذا الحرج حين قال لى :

- اسمح لى أن أدعوك الليلة لنسهر معا .

كانت هذه الكلمات السبع أول كلام مفيد أسمعه منه، منذ أن رأيت وجهه أول مرة فى مدينة القاهرة. قلت له سعيدا بدعوته :

هيا بنا. أنا تحت أمرك .

عجبت حقا لأمره، ولمظهر النعمة يظهر عليه فى هذه الليلة، ويتسق به حاله مع مظهره، فقد أشار بيد رجل أبهة إلى تاكسى. ركبنا التاكسى معا، وقال النزهى لسائق التاكسى بعظمة :

- كازينو قصر النيل .

فى الطريق، عاودنى الرجاء ألا يسألنى عن رأيى فى شعره، ولا فى أى شعر. وأدهشنى حين جلسنا على شاطئ النهر كرمه فى هذه الليلة فقد طلب لنا عشاء فاخرا وزجاجات مثلجة، واعتذر عن التدخين، ولم ينطق بحرف واحد طوال طعامنا. كان يأكل بأناقة. ونهم، وأنا أرقبه، ويرشف بأناقة وتلذذ، وأنا أرقبه وكان ينظر إلى بلطف مبتسما دون أن يسألنى عن شىء، وينشغل عنى طوال أكلنا بالنظر إلى النهر، وتموج أضواء المصابيح على صفحة مياهه الجارية من يميننا إلى شمالنا، وكان يجذب بين حين وآخر شهيقا عميقا من أنفه، كأنما يجتذب إلى داخله ما تبقى من بخر مياه النهر فى يوم صيفى رطب حار، كأنما يحقق حلما طال انتظاره له وبين آونة وأخرى كان يميل بأنفه إلى زهرة الفل فى عروة سترته، ويشمها بعمق مغمضا عينيه فى رضا وخشوع. وتلفت أخيرا حواليه حتى وقعت عيناه على الجرسون، فأشار له وقال:

- موسيقى خفيفة من فضلك .

والتفت نحوى مبتسما . قال :

- السهرة الجميلة تحلو مع النغم الرقيق والرائحة الزكية.

وانحنى مرة أخرى على فلة عروته، وشمها بعمق. وحين رفع رأسه كان لا يزال مغمضا عينيه، تركز نظرى آنئذ على أنفه. أنف رومانى واسع الفتحتين معقوف الأرنبة. أنف شامخ أشم فى وجه مغمور فى الرجولة والرقة من ورائهما، روح تعشق النغم والرائحة الطيبة، وجسد يحب الطعام، ويستمتع به ويطيل مضغه. قلت لنفسى: "حياة هذا الرجل فى أنفه وبطنه".

(٤)

رفعت الأطباق فارغة، وبقى الشراب. مددت يدى إليه بسيجارة، وقلت له:

- بعد الأكل يطيب التدخين .

فقال لى :

- اعذرنى . أعتز بأنفى . لا أريد أن أفسد حاسة الشم عندى. أنا أعيش مع الطبيعة بغريزتى .

ثم قال لى :

- أعرف أنك تتساءل بينك وبين نفسك عن حالى الليلة. لقد نجحت أخيرا أن أصلح حالى إلى حين، ولا أريد أن أفسد ما أنا فيه بالشعر، ولا بالحديث عن الشعر والشعراء. غامرت عندئذ بالقول، وأنا أخشى العاقبة :

ولا حتى عن شعرك وقصيدتك الليلة.

ضحك من قلبه. لأول مرة أسمعه يضحك. وقال: أعرف منذ زمن أننى شاعر متوسط يعيش مع رفقة مماثلة من الشعراء المحدودى الموهبة، من بينهم من رأيتهم الليلة وسمعتهم.وقد فقدنا جميعا خط الرجعة. كبرنا كلنا فى السن يا صاحبى، وصرنا جميعا سمار ليل ولا طريق آخر لنا، وعلينا أن نجد طريقة نعيش بها، وفى حدود ما نملكه كسمار ليل مع من يملكون المال ويشكون من الفراغ. آه. كم هو ثقيل عبء الحياة على محدودى الموهبة. اشرب.

ورفع كوبه إلى فمه ورفعت كوبى. أوشكت أن أسأله : هل اكتشف الآخرون ما اكتشفته لكننى انتبهت لخطورة ذلك، سيبدو له الأمر كأننى أقول فيه، وفى صحبه رأيى. قلت له مجاملا ومتجاوزا هول ما قاله لى :

ا سمح لى . أنت تبالغ .

قال لى كأنه لم يسمع منى شيئا :

أتعرف لماذا آتى إلى مجالسكم، وأجلس معكم صامتا، أحاول أن أخمن من منكم سيقدر له أن يكون مبدعا حقيقيا، ومن منكم سيكون من سمار الليل، وليس لى الحق فى أن أكشف لأحد نبوءاتى فقد أخطئ التقدير .

شلت مصارحاته لسانى. كان فى عزمى أن أسأله عن نفسه كإنسان له أهل وتاريخ، لكن كيف يمكن أن أفعل ذلك الآن معه، وقلبه مثقل بكل هذا الشعور بالفشل. كدت أن أسأله عن: كيف يحيا الآن ومن أين، لكن كيف يكون لى الحق فى مثل هذا السؤال الآن وقلبه مملوء بأحزان الاكتشاف المر، عاد إلى بعينيه المحدقتين فى أضواء النهر، وقال لى :

ـ منذ سنين اكتشفت كم يساوى شعرى فى سوق الشعر . حمانى ذلك من الشعور بالورم والاضطهاد. ومن البحث عن شماعات كأن أقول : آه. لولا سوء الحظ. لولا انحطاط الذوق العام. لولا ضعف العلاقات. لولا أن هذا البلد من عبدة الأصنام. لو أن فى هذا البلد نقاد. لولا . لولا .. لكنت وكنت .

غاظنى الآن كل ما قاله. أحسست أنه يصادر على حقى فى التجربة، نجحت فيها أو فشلت. تسللت إليه من باب آخر لأوقف هذا الندب للنفس قلت مواسيا له، ومحاذرا أن أجرحه :

❖ أتعرف أن المبدع فى بلادنا لا يستطيع أن يعيش من أدبه أو فنه حتى الموت. يظل يواصل حياته حتى النهاية، وكأنه أبدا فى نقطة الصفر، ويسعى فى كل السبل بين الوظائف والإذاعة والصحف، كى يحافظ على حياته أولا، وينفق على فنه ثانيا تحقق فى إبداعه أو لم يتحقق .

تهدج صوته بضحك مكتوم وقال لى :

– ولو. ستكون له على الأقل منطقة مقدسة يلوذ بها، ويحتمى من الشعور بالفشل، ويضع بها إصبعه فى عين أى أحد.

ساد بيننا الصمت، ورحنا ننظر إلى النهر. وانتبهت على صوت النزهى يقول لى:

ـ إذا سمحت لى.

التفت إليه. كان فى يده كتاب من القطع المتوسط أبيض الغلاف إلا من عنوانه، واسمه هو بأعلى الصفحة لا يزيد حجمه عن خمسة ملازم. قال لى:

ـ هذا الكتاب هدية منى. اقرأه إذا شئت. ليس شعرا فهو كتاب فى النقد وآخر ما كتبت. طبعته على حسابى. ناشر صغير صديق طبع منه ألف نسخة فقط على أن أوزعها أنا له. يعز على نفسى أن أوزع كتابا لى. أوزعه هدايا مثل بقية كتبى السابقة الأربعين، وأدفع له كل ما أقدر على دفعه، كلما رزقت ببعض المال. خذه. اقرأه إذا شئت أو ارمه من الشباك. وأظن أن هذا الكتاب سيكون آخر كتاب لى. ستجد فى آخره قائمة بكتبى الأربعين الأخرى.

انصرفنا معا خارج الكازينو. تصافحنا وتعانقنا. ركب تاكسيا، وآثرت السير على قدمى عابرا كوبرى قصر النيل.

(٥)

لم أر النزهى منذ تلك الليلة. اختفى من المدينة كلها. لم يظهر فى مقهى أو ناد. ولم نر له مثيلا يمشى مشدودا كالوتر، شامخا كأنه يملك الدنيا بأسرها، حتى وهو يقترض شلنا، أو يدس لاشىء فى يد ماسح أحذية، وفى عروة سترته زهرة فل أو زنبقة، يحيا كشاعر لم تنجب مثله، أم إلى أن جاءت إلينا أخبار يحملها رواة إثر رواة. ولسوف أسمح لنفسى بتخيل كل ما حدث مرتكزا على ما رواه الرواة، وأكدته فيما بعد أحداث الختام.

سافر النزهى مغادرا القاهرة ومصر كلها. كانت الثورة لا تزال فى سنيها

الأولى لكنها فى هذه السنين كانت قد شبعت حتى التخمة، من تجنيد كهول تراحيل العمل الذهنى، الذين سارعوا بالتخلى عن أحلامهم بطرق شتى، خاصة بالعدالة، أو الذين أدركوا مبكرا اتجاهات الريح فركبوها على عجل، حتى الموهوبين منهم كفوا عن الإبداع، وآثروا السلامة والراحة والفرار من دوائر عمال التراحيل المشؤومة، ورضوا بأن يكونوا أبواقا وكلاب حراسة، ولم يكن النزهى الذى اكتهل بدوره صالحا لأن يكون واحدا من هؤلاء. كان فيما أعتقد يفتقد المرونة، مثل بعض أعضاء جمعية أدبية كان ينتمى إليها. وقدرت أنه غادر مصر مبكرا ليجد قوت يومه فى بلد آخر .

صحبه صديقاه المتشاعران معهما فى هجرتهما. كانوا قد تعرفوا فى القاهرة بثرى عربى، لديه المال والموائد الممدودة، ويعانى من الفراغ، ويبحث عمن يسليه فى ساعات الليل الصحراوية الموحشة التى لا يقدر الشراب والنساء على ملئها دائما. كان يبحث عن سمار الليل من بين تراحيل العمل الذهنى التراثيين، رواة الحكايات والنوادر القديم منها والحديث، الحقيقى منها والمخترع ورواة الشعر خاصة الذين يحفظون قديمه، وينفرون من حديثه، وينكرونه فمثل هؤلاء الرواة تزدهر بهم المجالس فى قصور الصحراء، فى ظلام الليل فى كل الفصول، ويزهو بهم المضيف بين الأمراء الكبار، ويصير بهم من رعاة الأدب والفن العريق والأصيل.

(٦)

شاع بين أمراء الصحراء، ذكر الضيوف الشعراء السمار. وراحت قصور الأمراء فى مدن الصحراء تطلبهم من سيدهم وراعيهم وكافلهم فى البلاد. وفى كل ليلة من الليالى الساهرة، كانت الأسمطة تمد، والمشروبات بلا حصر ولا عد. كان الرجال الأمراء يتحلقون حول النزهى وصاحبيه. ومن ورائهم حلقات الأعيان والتجار وسدنة القصر، ويروح الكل يهز رأسه معجبا بما يسمع من الشعر فهمه أو لم يفهمه، ويضحك من قلبه حينا، ويبتسم حينا لما يقص على السادة الكرام من نوادر وأخبار وحكايات. ووراء بواكى أحواش القصور المكشوف صيفا، والمغطاة شتاء كانت نساء القصور من الأميرات والعاملات فى خدمتهن من كل جنس ولون، يسمعن ويتابعن باهتمام، من وراء ستر حريرية شفافة، محاذرات أن يعلو لهن صوت .

(٧)

ذات ليلة كان النزهى عائدا إلى الفيلا القريبة، التى يقيم فيها مع صاحبيه، حين اعترضت طريقه سيارة ركاب لا يكون مثلها إلا لأمير. كانت السيارة مغطاة النوافذ بستائر لبنية اللون من وراء زجاج خاص، لا يسمح لأحد خارج السيارة أن يرى من بداخلها. قال له سائق السيارة:

اركب من فضلك.

للتو انفتح باب خلفى بالسيارة، ورأى النزهى يد أنثى تنسحب إلى الداخل. قدر

النـزهى إلى أين سيقـاد، فـانحنى بطوله الفـارع، ودخل السيـارة وأغلق وراءه بابهـا. فعمت أنفه رائحة الفل التى يعشقها، وكانت فى عروة سترته فلة. سمع صوتا أنثويا:

ـ مرحبا.

التفت الـزهى نحو صـاحبة الصـوت. كانت غاطسة فى عباءة سوداء من حرير مضلع، وقد اختفى وجهها، إلا من عينيها وراء قناع شفيف حالك السواد.

قال لها النـزهى:

ـ خيرا؟

همست دون أن تلتفت نحوه:

ـ كل خير. لا تخف. أمك دعت لك.

همس لنفسه:"يرحمها الله". ولزم الصمت.

كـانت رائحة الفل تمـلأ فراغ السيـارة. وحـاجـز الزجاج وراء ظهـر السـائق بلون الدخـان، يرى عبـره ظهـر السـائق بوضـوح. وقـدر النـزهـى أنه ليس بـوسـع السـائق رؤيتهما فـى المرآة أمامه أو سماعهما. وسمع صوت السائق يقول عبـر الزجاج:

ـ وصلنا.

ورأى النـزهى يد الملثمة تضغط على زر مثبت بصندوق فى جوف ظهر مقعد السيارة الأمامى، وتقول للسائق:

عندما نصل إلى القصر أنزلنى عند باب الحريم، واصحب شاعرنا إلى الباب الأمامى.

وضغطت الملثمة على الزر مرة أخرى. ثم قالت للنـزهـى دون أن تلتفت نحوه:

ـ هكذا نسمعه ولا يسمعنا.

عند باب القـصـر، توقفت السـيـارة ونزلت الملثمـة دون أن يرى لهـا وجـهـا وهـى تقول له:

ـ سنلتقى بعد ساعة.

وتحركت به السيـارة مرة أخرى، ودارت حول منعطف بعـد منعطف، ثم توقفت أمـام باب القـصـر، كمـا قـالت وفتـح السـائق البـاب المجاور له ونـزل من السـيـارة، وأسرع السائق إلى البـاب المجاور للنـزهـى، وفتحه قائلا له:

ـ تفضل يا سيدى. وصلنا.

وغـادر النـزهـى السيارة، وحين رفـع رأسـه رأى رجـلا ملثمـا بعبـاءته وعقـاله، واقفا فى ضوء فانوسين أعلى باب القصر الضخم. وقال له الرجل الملثم:

ـ مرحبا. اتبعنى.

شـعـر النـزهى لأول مـرة بالاحترام، وبأنه شـاعر، وشـخص له قيمـة و أهمية، وهو يعبـر بـاب القصـر، ويسيـر فى ممرات مطعمـة بين حشـائش الحديقـة وأشـجـارهـا، المزدانة بمصـابيح صـغيـرة مـختلفـة الألوان. ثم صـعـد بضـع درجات وراء الرجل الملثم، وسارا مـعا فى ردهة انفتح بها بـاب داخلى على غير توقع، وظهـر فى فتحته ملثم آخر، وفى الحال انصرف الملثم الأول، فيما كان الملثم الثانى يقول له:

ـ تفضل يا سيدى.

وتبعه النـزهى. واجتاز به الملثم طرقة بعد طرقة، وبابا إثر باب، حتى وجد النـزهى نفسه فى غرفة استقبال شرقية، مفعمة بروائح الفل والياسمين وفى نواحيها كانت مقاعد وأرائك مذهبة، مطعمة، بزخارف خضراء.ورأى فوقها طنافس مبثوثة.وقال له الملثم:

- تفضل يا سيدى. اجلس حيث شئت. خذ راحتك واسترخ، فسوف تطول بك سهرة الليلة.

شعر النـزهى عندئذ بالأمن، واختار مقعدا فى ركن آمن، كأنه رحم الغرفة الفسيحة العالية الجدران. وكانت أمامه على المناضد سرافيس بها فواكه الصيف. وفى الأركان كانت على مناضد أخرى أقل حجما زهريات تحمل باقات الفل والياسمين، وعلى الجدران كانت لوحات صحراوية بديعة بها نخيل وإبل وخيل، ولوحات أخرى بها مناظر طبيعية لبحيرات وجداول ساحرة على شطآنها المتقاربة شجيرات مزهرة. وحين التفت النـزهى كان الملثم قد ذهب. ووجد النـزهى نفسه وحيدا وحرا، فمدد ساقيه أمامه واسترخى تماما. وحدث نفسه:"إذا صدق حدسى فسوف تكون سهرة الليلة بين أميرات القصر". وابتسم النـزهى سعيدا. ومد يده إلى تفاحة وبسكين. واعتدل فى جلسته لتقشيرها. وكانت الستائر اللبنية اللون والوردية الشفيفة تهفهف فى فتحات النوافذ المفتوحة يعبرها هواء الحديقة النقى.

لم يكد النـزهى ينتهى من أكل تفاحته، حتى رأى ملثما ثالثا ممشوق العود يدخل عليه الغرفة، وفى يده دلة القهوة الهيل وفنجال فى مظروفه، ويصب له سائل القهوة المهيلة بالحبهان ويقدمه له. وظل واقفا ينتظر أمره.وأفرغ النـزهى فنجاله فى فمه، ومد يده بالفنجال إلى الملثم، فملأه له إلى منتصفه، فدلقه النـزهى فى فمه وهزه فى يده علامة على أنه قد أخذ كفايته. عندئذ فقط انسحب الملثم من الغرفة دون أن يقول كلمة.

مرة أخرى وجد النـزهى نفسه وحيدا. وفكر أنه مراقب من مكان ما ـربما من ثقب فى باب، وربما من ركن بالسقف، فقد جاء الملثم فور انتهائه من أكل التفاحة. وقرر النـزهى ألا يدير رأسه حواليه باحثا عن ذلك الثقب الخفى، حتى لا يثير ريبة المراقب، ويبدو شاعرا على سجيته مأمون الجانب مع أميرات القصر المجتمعات لأجله.

(٨)

رأى النـزهى الباب الذى دخل منه يفتح، والملثمة التى جاءت معه بالسيارة قد ظهرت فى فتحة الباب، وتشير إليه: اتبعنى. فيسير وراءها بلا خطو تعبر به الباب من ردهة إلى ردهة، حتى وصلت به إلى ساحة صيفية نصف مسقوفة بها أشجار تحمل أنوارا، وعليها طيور تشقشق، وتحتها نافورة تفور بأنوار ملونة فى أشكال شتى.وفى جانب من الحديقة كانت أميرات الصحراء جالسات ينتظرنه.

وتختفى الملثمة كشبح، وهو يسير نحو مجلس الأميرات فى خميلة وريفة. كن

جالسات حول مجمرة، فى عز الصيف، يلهب النسيم جمرها. من المجمرة يفوح منها بخور الصندل والزعفران، ومنهن يفوح أريج الفل والياسمين. وفى الواجهة تحت الخميلة تجلس أميرة الأميرات على أريكة من الأغصان والزهور، وعلى رأسها تاج من الماس. أومأت إليه بإصبع وقالت: اجلس يا شاعر. وتضاحكت الأميرات مرحبات. ويجلس هو فى وسط حلقتهن أمام أميرة الأميرات، وقالت له أميرة الأميرات: أسمعنا يا شاعر. فقال لها: شعرى أم شعر غيرى يا مولاتى، فقالت له: نبدأ بشعر غيرك. أنشدنا شعر ابن أبى ربيعة. كانت فائقة الجمال كملاك نورانى، أو كعروس بحر تداعب الخيال. وأنشدهن أشعارا لعمر بن أبى ربيعة ولمجنون ليلى، وهن يتأوهن ويجففن دموعهن فرحات. وحكى لهن حكايات قيس بن ذريح، وكثير عزة، والمرقش الأكبر. وقالت أميرة من الأميرات: الآن نقدم له عطايانا. فقالت أميرة الأميرات: لا ليس الآن حتى نسمع منه شعره فى كل واحدة منا، ولأكن أنا مسك الختام. فراح يرتجل الشعر فى التغزل بهن واحدة بعد واحدة من اليمين إلى اليسار، وهن يتصايحن معجبات وغيارى، حتى وصل إلى أميرة الأميرات، فقال فيها متبتلا ما لم يقله عاشق فى محبوبة، ولا شاعر فى ملهمة. عندئذ أشارت أميرة الأميرات وهى تقول راضية ومزهوة: الآن. ورأى ملثمة السيارة تضع أمامه حقيبة مفتوحة وفارغة، وراحت الأميرات واحدة بعد واحدة ينزعن أقراطهن من آذانهن، وعقودهن من أعناقهن، وأساورهن من الذهب، والماس من معاصمهن، ويضعنها فى الحقيبة المفتوحة. عندئذ أشارت أميرة الأميرات، فتقدمت ملثمة السيارة، وراحت ترص فوق المجوهرات رزما عشرة من الدولارات رزمة بعد رزمة كل ورقة بها ألف دولار. وأغلقت له ملثمة السيارة الحقيبة وتراجعت. وقالت له أميرة الأميرات: الآن انهض يا شاعر وعد إلى عالم الإنس، فراح ينحنى للأميرات، وهو جاس على ركبتيه أميرة بعد أميرة شاكرا لهن فضلهن وكرمهن حتى وصل إلى أميرة الأميرات، فزحف نحوها على ركبتيه، وقد طفرت من عينيه دموع الامتنان، وانحنى يلثم طرف عباءتها الوردية، فوضعت كفها على رأسه وقالت: بوركت يا شاعر.

(٩)

سمع النزهى صوت الملثمة يقول له على غفلة منه:

- اتبعنى.

نظر يمنة ويسرة. كان لا يزال فى غرفة الاستقبال، وكانت الغرفة خالية.

التفت خلفه. رأى الملثمة واقفة فى فراغ مصراع باب مفتوح لم يره قبل تنتظر. مسح النزهى دموعه، ونهض واقفا، وتبعها عابرا الباب وراءها حالما بمجلس الأميرات. سار وراءها فى ردهة طويلة حتى وصلت إلى باب موارب. قالت له دون أن تلفت نحوه:

- ادفع الباب وادخل. ولا تنظر وراءك.

وضحكت ضحكة خافتة، وهى تهمس:

ـ ليلة سعدك.

وانعطفت الملثمة فى آخر الردهة. ظل لحظة مترددا ثم دفع الباب الموارب برفق.

كانت الغرفة مظلمة، وانغلق الباب وراءه فى الحال. وجم خائفا للحظة وهو يرتعد. فى اللحظة التالية شعت أركان الغرفة بأضواء أباجورات وردية، ورأى سريرا واسعا أبيض، وزهور الفل والياسمين فى فازات بالأركان، ووقعت عيناه عليها واقفة فى ثوب وردى شفيف، وفوق رأسها تاج من زهور الياسمين البيضاء. كانت واقفة بجانب تسريحتها تبتسم له مطمئنة من وراء بيشة من الشيفون الوردى. بدت له فارعة الطول سمينة لا يخفى طولها سمنتها. كانت مطوية العكانين. وحدث النزهى نفسه أنها أميرة الأميرات. تحركت متهادية نحو السرير وتمددت، وقالت له:

ـ تعال. اجلس بجانبى على السرير. لا تخف.

تقدم خجلا نحو أريكة بجانب السرير، وجلس غاضا البصر، فضحكت وأسندت رأسها إلى كفها، وقد غرست كوعها فى الوسادة، وراحت ترنو إليه فى صمت ثم قالت له:

ـ لك وجه جميل وأنف أشم. لم يفارقنى وجهك ولا شكلك منذ رأيتك واقفا مهيبا تنشد الأمراء شعرك فى قصر أخى أمير الأمراء.

ثم قالت له ضاحكة:

ـ من أى عالم جئت؟ وأين كنت؟

ثم جلست مرحة فرحة وقالت:

قلت لنفسى حين رأيتك: أنت قدرى وأنا قدرك.

فقال لها النزهى وقد طفرت عيناه بالسعادة:

من أنت يا مولاتى، وأين كنت فقالت له ضاحكة: سنعرف الليلة معا: من أنت، ومن أنا، ولن تندم. ادخرت لك وحدك أشواق عمر. وقد أذن لى أخى أمير الأمراء أن تكون لى وأكون لك.

– أتقبل أن تكون أميرى وأكون أميرتك؟

وكشفت له آنئذ عن وجهها. كل جزء فى هذا الوجه، رآه النزهى جميلا ولكن كل الأجزاء لم تكن منسجمة معا. بل متنافرة. حسبه أنها تريده هو هى أميرة الأميرات. قدر أنها عانس قاربت الأربعين من العمر، وأنها لا تزال بكرا لم يمسسها من قبل أنس ولا جان، فلم يتقدم لها أمير من الأمراء طالبا يدها حتى جاء هو. قالت له وهى تجلس على سريرها فرحة به وغير متعجلة لشىء تاركة أنفه قريبا من فتحة القميص فى صدرها:

ـ إذا اجتزت اختباراتى الليلة سيكون أحدنا للآخر إلى نهاية العمر.

قال لها:

ـ لكن يا مولاتى: هل يسمح الأمراء الآخرون لمثلى أنا الشاعر المتجول أن ··

فقالت له: انصت إلى. لقد أذن لنا بالقران اثنان: أخى، وكبير القبيلة الهرم الحكيم الذى لا راد لقوله بشرط واحد.

همس وهو ينظر إليها بقلق:

ـ ما الشرط؟

فقالت له:

ـ أن يكون زواجنا بعيدا عن هذه البلاد وأهلها.

ووضعت كفها على شعره المموج بحنو، وراحت تمرر أصابعها عليه وقالت:

البلد الذى تختاره أنت ولو كان آخر بلد فى الدنيا سنعيش فيه معا ولا تحمل هما للمال ما بقى لنا من العمر.

ثم قالت له وهى تتمدد واثقة من نفسها على سريرها:

ـ تحرر من ثيابك وتعال وحدثنى عن نفسك وأحدثك عن نفسى.

(١٠)

قرب الفجر قالت له راضية:

ـ الآن أمنت لى وأمنت لك. فخبرنى، ودعنا لا نضيع أوقاتنا: أين تحب أن نعيش ويكون بيتنا؟

أدرك أنه قد اجتاز كل الاختبارات. عرفت بؤسه ووحدته وجوعه، وعرف تعاستها ويأسها وجوعها. وباح الجسد للجسد. قال لها حالما، وهو ينظر إلى السقف:

طوال عمرى، وأنا أحلم منذ عرفت الشعر، بالحياة كشاعر فى فيلا، على بحيرة جنيف بها حديقة مكسوة بشجيرات الفل والياسمين.

قالت له وهى تقف وتضحك، باسطة ساعديها على اتساعهما، وكان يرتدى ثيابه:

ـ شبيك لبيك. سيكون لك كل ما طلبت، وما لم تطلب، وحتى ذلك الحين سنلتقى هنا، ولا تحك لصاحبيك شيئا عن سر لنا.

(١١)

فى الليلة الأخيرة، صحبت الملثمة النزهى إليه هى أميرة الأميرات. وعند الفجر أعطته أميرة الأميرات مفتاحا، وبطاقة بها عنوان الفيلا على بحيرة جنيف وجواز سفر دولى، وحقيبة ملأى بالمال، وقالت له:

ـ ستصحبك صاحبتنا بالسيارة إلى المطار. ستدخل من صالة كبار الزوار، حتى لا يتعرف عليك أحد. ستترك وراءك كل ما كان لك مع صاحبيك لهما ولا تفكر فيه ولا تنظر وراءك .

تعانقا. وعبر الباب الذى دخل منه إلى غرفتها أول مرة. ووجد السيارة بانتظاره، وجلس بجانب الملثمة.

(١٢)

عند باب المطار فى محطة الوصول، كانت سيارة أخرى تنتظره. وصحبه السائق من طريق المطار إلى بحيرة جنيف. وتوقف به على شاطئ البحيرة، أمام فيلا بيضاء تتألق فى ضياء الشمس.

كان باب الفيلا مفتوحا، ودخلت السيارة به فى ممر بحديقة على جانبيه كانت شجيرات الفل والياسمين تامة الإزهار، تضوع روائحها. وتوقفت السيارة به أمام درج الشرفة. وأسرع السائق يفتح له الباب، وهو ينحنى قائلا له بالعربية:

- حمدا لله على سلامتك.

وكان حارسا الفيلا قد لحق بالسيارة، وفتح صندوقها الخلفى الكبير.

وراحا ينزلان ما به من حقائب. وصعد النزهى سعيدا لأول مرة درج الشرفة. كانت شرفة فسيحة ذات أعمدة. وأمام الباب توقف النزهى وأخرج من جيبه مفتاح الفيلا فى ميداليته الذهبية، وأدخله فى ثقب الباب.

فى لحظة، والمفتاح يدور فى الثقب بنعومة دورة إثر دورة تراءت له مياه البحيرة، وسقط بين قدميه كل حرمانه، ودارت يده بالمفتاح دورة ثالثة. وحين دفع الباب أضيئت الفيلا كلها مرة واحدة بأضواء باهرة. وشعر بالفرحة تنفضه نفضا. ورأى صورته وصورتها على الجدار المواجه متجاورتين، ودارت به الدنيا والأرض والسموات العلى وسقط بكل طوله نصفه داخل الفيلا، ونصفه فى الشرفة، وميدالية المفتاح الذهبى، لا تزال تتأرجح فى الباب المفتوح.

الفأر

(١)

حين رأيته أول مرة بمقهى ريش تذكرت كتاب: الفراسة، لجورجى زيدان، فوجهه وجه فأر من تلك الوجوه الحيوانية، وجوه: الأسد، والحمار، والحصان، والنمر، والقط، والكلب التى زين بها رسام الفراسة، بخطوطه الكاريكاتورية كتاب جورجى زيدان، وأسقطت فيها ملامح وجوه الحيوانات على وجوه البشر. فقد زعم جورجى زيدان أن وجوه البشر تشبه وجوه الحيوانات، وأن لكل وجه بشرى الصفات نفسها التى للحيوان الذى يشبهه. ولقد شغلتنى هذه المشابهة عددا من السنين، فصرت أقرأ صفات من أراهم لأول مرة فى وجوههم، حين أعثر لهم على حيوان شبيه، فأقترب منهم متوددا، أو أبتعد عنهم نافرا وفقا لموقفى الشخصى من صفاتهم الحيوانية. ثم نسيت هذه العادة فيما نسيت من عادات إلى أن رأيت وجه الفأر، فتذكرت به طباع الفأر.

والفأر كما نعرف حيوان قارض متسلل يخاف القطط، ويسعى فى الليل وينام فى النهار، ويعيش فى الشقوق والجحور، ويوصل بينها بأنفاق ليهرب فيها عند المطاردة. والفأر رمز الموت فى قصص الأدباء وسبب الطاعون فى تاريخ الأمراض، وصديق الحروب، وجثث القتلى، وسفن البحارة، ولا تنجو منه قرية، ولا مدينة، ولا مزارع أو غابات أو صحارى، أو سهول أو جبال. ويحكى كتاب المغامرات للأطفال حكايات كاذبة عن مهارات الفأر وذكائه وخفة ظله فى مواجهة القطط التى تطارده، وسيدات البيوت اللاتى يكرهنه، ويحمين بيوتهن منه بصوامع الحبوب والعلب المغلقة والصناديق المقفلة، لكنه ينجح دائما في إزعاجهن، يقرض كل شىء ، بمهارة هندسية فى شكل دوائر، وأنصاف دوائر، وأرباع دوائر للوصول إلى كل خبىء مخفى، وأحيانا لمجرد التخريب، وبرد ما يطوله من أسنانه التى تنمو باستمرار.

قدمه لى وعرفني به صديقى الشاعر الأسد العجوز وقال لى ساخر منه سخرية المداعبة:

- إنه واحد من الكتبة. كان كاتبا للعرضحالات أمام المحاكم، ثم عرف طريقه قادما من الأقاليم إلى القاهرة، ثم إلى الإذاعة والسينما. لكنه كاتب حرفى، لا إبداع فيما يكتبه ولا روح.

انزعج صاحبنا الفأر مما يسمعه من الأسد العجوز، وبرطم بكلام غير مفهوم راح يتردد فى شدقيه. لكن صديقنا الأسد العجوز نظر إليه، وكان له بالفعل وجه أسد عجوز، فصمت الفأر فى الحال. وعندئذ ضحك الأسد العجوز، وقال له بمودة:

ـ إننى أداعبك. ألا تعرف المداعبة اضحك معنا، وقل ما شئت.

ولم يضحك الفأر. كان غير قادر على الضحك مهموما طوال جلستنا معه، بأمور أو هموم لا نعرفها. وملت على أذن الأسد العجوز، وقلت له هامسا:

ـ انظر إلى وجهه ألا ترى فيه وجه فأر؟

تأمل الأسد العجوز وجه الفأر مليا، وراح يدير رأسه حول وجهه من أمام، ومن يمنة، ومن يسرة، ثم التفت إلى صائحا:

ـ تمام.

وانفجر ضاحكا ضحكا طويلا عريضا، حتى خلت أنه لن يتوقف عن الضحك. وشعر الفأر بحرج بالغ، وصاح فى الأسد العجوز غاضبا:

لماذا تضحك ماذا قال لك؟

فسحب الأسد العجوز ضحكه. أوقفه فجأة. وقال للفأر بكل جد ووقار: لقد قال لى إن وجهك مثل وجه الفأر.

برطم الفأر قائلا، وهو ينهض واقفا حاملا حقيبته فى يده:

أنا مثل الفأر، وأنت فقال له الأسد العجوز بهدوء: اسأله هو. هو الذى قال.

فقلت لصاحبى الأسد العجوز، لأهون الأمر على من ستفرض الأيام على صحبته:

وأنت وجهك مثل وجه أسد عجوز.

عندئذ فقط ضحك الفأر، وجلس مدخلا قوائم ظهر كرسيه تحت إبطيه وقال لى:

وأنت كيف ترى وجهك فى المرآة، وراق لى السؤال، فقلت له هو الفأر: وجهى وجه قط.

فقال الأسد العجوز فى الحال للفأر:

ـ والقط العدو الأبدى للفأر.. فكن منه على حذر.

فقال الفأر بغضب:

ـ منه هو؟ومن يكون؟

(٢)

دائما كنت أراه، عند الظهر، أو العصر، أو فى الضوء الساطع فى الليل، على رصيف مقهى ريش المكشوف. يأتى حاملا حقيبة جلدية لها قفلان ومقبض جلدى، متضخمة بالأوراق ثقيلة جدا، يكاد ثقلها يبلغ نصف وزنه، ولم نره يفتحها قط أمامنا، أو يخرج منها ورقة، أو كتابا كأنه مرسال بما فيها من فلان إلى فلان.

يأتى بقامته القصيرة نحيلا، مثل عود الحطب، ناتئ عظام الكتفين. فى وجهه الأسمر الفأرى، صفرة شاحبة كمرضى الأنيميا. يأتى ويجلس وحيدا غالبا إلى أن يهل على المقهى الأسد العجوز والضبع، فيجلس معهما حيث جلسا. يعب أكواب البيرة عبا من زجاجة واحدة إذا كان وحيدا، ومن زجاجات مجالسيه إذا جلس معهما، ويروح يفتى فى السياسة، وفى الأدب والضبع يعارضه فى كل ما يقول، والأسد العجوز يسخر منه فى كل رأى إلى أن يمضى عنهما مكتئبا مبتعدا بحقيبته عن المقهى كله. ولا يلبث أن يعود للجلوس معهما كلما وفدا إلى ريش، فإذا لم يعثر عليهما راح يبحث عنهما فى كافتيريات: مدام روز واستيلا وروى حاملا لهما أخبار الوسط الفنى التى يزعم أنه بها عليم.

(٢)

فرض الفأر نفسه على، كلما رآنى أجلس وحيدا بمقهى ريش، وفرضت نفسى عليه، كلما رأيته يجلس وحيدا. سألته مرة:

- ماذا تفعل بالتحديد؟ أقصد ماذا تكتب؟ ومن أين تعيش؟

فقال لى: أكتب سيناريوهات للسينما يأخذها منى المخرج فلان ويعطينى خمسمائة جنيه فى السيناريو الواحد، ويضع اسمه هو على السيناريو، ويخرجه بنفسه أو يخرجه له غيره. أحيانا يمر العام، وأبيع سيناريو واحدا، وأحيانا أبيع اثنين، أو ثلاثة إذا أسعدنى الحظ.

وراح يفضفض لى، بما لا يبوح به فأر لقط. لكنه أفلح ببوحه، فى أن يضع فى عنقى جرس صداقة ما تتمنى له الخير. قال لى: إنه يطرق أبواب الإذاعة، والمسرح، والصحف ليستكمل عيشه ورزقه. وقال لى: إن حقيبته هذه التى يحملها، ولا تفارقه ملأى بمسرحيات، وبرامج، وسيناريوهات، لكنه لايعرف بعد كيف يسوقها. وقال لى: إن لوثة الأدب قد أصابته، فحمل أباه على أن يبيع له فدانا جاء بثمنه أربعمائة جنيه إلى القاهرة، وطارت من بين يديه جزءا، فجزءا وشهرا بعد شهر، وإنه برغم كل ظروفه الصعبة يرسل إلى أبيه بضعة جنيهات كل شهر، ويعده بأن يجعل له فدانه الذى باعه من أجله عشرة أفدنة، فلم يبق عنده سوى فدان واحد، يعيش منه هو وأمه وإخوته. وقال لى: إنه لا يستطيع أن يزور أهله بالقرية لأن يد أبيه لو طالته سيخلع عنه بدلته، ويدفع بالفأس فى يديه، ويفرض عليه أن يكون واحدا من عمال التراحيل ليساعده فى إعالة إخوته.

بوحه فى ذلك اليوم محا من نفسى صورة الفأر، وشعرت بالقرب منه فدعوته فى تلك الليلة إلى طعام وشراب. وحين جاء الأسد العجوز ورأى ما بيننا من أنس جلس، وقال لى:

- كل ما قاله لك أكاذيب. هو فعلا مثلما قلت فأر قارض.

ثرت فى وجه صديقى الأسد العجوز قائلا:

- لا تكن قاسيا ودع الخلق للخالق.

فنظر إلى الأسد العجوز وقال:
- لأجل خاطرك أيها القط. ها هى رأسه.
ومال الأسد العجوز على رأس الفأر وقبلها، ثم التفت إلى قائلا وهو يجلس:
الآن اطلب لى مثل ما طلبت له.

(٤)

نجح الفأر فى التسلل إلى الإذاعة، وصار له برنامج يقدم باسمه كل أسبوع. وعندئذ فارق الفأر عنفه وصار يرفع رأسه بثقة، ويسوى بينها وبين كل الرءوس من حوله، بل إنه صار يكايد صاحبيه الأثيرين: الأسد العجوز والضبع، بأن اسمه صار أشهر من اسميهما معا. فالإذاعة يسمعها الشعب كله، ولقد أثبت لأبيه، وأهل قريته أنه صار علما من أعلام مصر، وصار بشهرته قريبا جدا من أن يزين اسمه أفيشات الأفلام التى يكتبها. وحين جهر بذلك مرة أمام الأسد العجوز، سكت الأسد العجوز برهة، ثم انبرى يرتجل قصيدة يهجوه بها هو وصاحبه الضبع، ضحك لها كل الجالسين بمقهى ريش، وكتبوها وحفظوها، وصاروا يتندرون بها فى مقاهى القاهرة ويتناقلونها عن بعضهم البعض. وانفثأ بهذه القصيدة ذلك الورم الطاعونى، والمبالغ فيه الذى أصاب صاحبنا الفأر.

(٥)

على غير توقع هجر الفأر مجالسنا. صرنا نراه أحيانا. وكثيرا ما رأيته يجلس وحيدا ببار فندق الكوزموبوليتان يعب أقداح البيرة، وقد استبدل حقيبته الجلدية الضخمة، بحقيبة سامسونايت بنية اللون. كانت حقيبة ضخمة أيضا لتتسع لعبقريته. وحين أحب أن أؤانسه يلوذ بالصمت، وينطق أحيانا، بإجابات عن أسئلتى، لا تقول شيئا له معنى. أتركه عندئذ لأجلس مع غيره حائرا فى أمره.
سألت صديقى الأسدالعجوز عن تبدل حال الفأر، فقال لى:
- العقبى عندك. صار مستشارا لشركة إنتاج تليفزيونى لبلد عربي، وله مكتب بمقر الشركة فى عاصمة أوربية، ويسافر كثيرا أحيانا إلى البلد العربى، وأحيانا إلى العاصمة الأوربية.
وأضاف صديقنا الضبع:
والأنكى من ذلك، أنه صارت له سيارة ولزوجته سيارة، وصار كل ليلة يعب الويسكى عبا، ويأكل الكباب أكلا فى ناد ليلى.
انغرست فى قلبى الرغبة فى أن أرى ذلك بعينى. الفأر وهو يعب الويسكى عبا، وهو يأكل الكباب أكلا فى كل ليلة. وقال لنا صديقنا الأسد العجوز ساخرا:
ذلك ما يقوله الفأر لنا، وما يشيعه عن نفسه، وعن سر ثرائه المفاجئ. والله وحده يعلم السر وراء هذا الثراء. كيف يسافر إلى بلد أوربى، وهو لا يعرف لغة
وتنهد الأسد العجوز، ثم قال:

- بذلت كل جهد وحيلة معه، لأعرف ما يخفيه. لكننى فشلت حتى صار يهرب من الجلوس معى. استدرجته. استفززته واستثرت غضبه. وهو يقسم لى دائما أن ذلك كله من منصبه، وعمله بشركة الإنتاج التليفزيونية العربية.

وهز صديقنا الضبع رأسه، وقال بكل ثقة:

- لكننى سأعرف. سأعرف حتما. سأبحث عن هذه الشركة، وربما لا يكون لها وجود.

والتفت إلى الأسد العجوز، وقال:

- أنت قط كما قلت لى عن نفسك يوما، والقط أدرى بأساليب الفأر. هل تقدر، وأنت قط أن تعرف لنا ماذا يخفى الفأر خاصة، وأنه يأمن إليك أكثر منا؟

(٦)

فى ليلة ما، ذهبت إلى هذا النادى فى الواحدة ليلا مع صديق يتردد على هذا النادى، وقال لى الصديق، إن الفأر يبدأ سهرته مع ممثلين ،وممثلات، ومخرجين، ومخرجات إثر انتهائهم من البروفات، واتفاقات العمل، وصفقات الإنتاج.

رأيته جالسا كعمدة بين الأعيان إلى منضدة مستديرة واطئة، فى مقعد وثير مكسو بقطيفة بنية حال لونها، وحوله حاشيته الليلية. وعلى المنضدة زجاجتان مليئتان بالويسكى، لم ينزع غطاؤهما بعد، ورائحة الكباب الذى يشوى تفوح من مطبخ النادى المجاور للردهة، والكل ينتظر قرب شى الكباب لتبدأ رحلة الجلوس مع الويسكى.

هش لى الفأر حين رآنى، ودعانى وصديقى إلى الجلوس معه. وسألنى بمعلمة عما فعله الزمان بصاحبينا: الأسد العجوز والضبع فلم، أقل له شيئا له قيمة. وقلت له إننى قد جئت إلى هذا النادى، مصادفة مع صاحبى ورأيته. فقال لى:

مرحبا بك فى كل ليلة بشرط واحد.

فضحكت، وقلت له:

- ألا آتى معى بصاحبينا إياهما.

فهز رأسه، وقال:

- تفعل خيرا.

فقلت له هامسا:

- ماذا ستفعل إذا جاءا وحدهما إليك ، فقال لى: لن يأتى أحدهما إلى. أنا أعرف بهما منك. لقد تعودا أن أذهب أنا إليهما، ولا يأتى أحدهما إلى.

(٧)

وانقضت السهرة الكئيبة فى الرابعة صباحا، وقد شرب الفأر كثيرا ولم يأكل من الكباب الشهى سوى قطعة واحدة. وأصر الفأر على توصيلى بسيارته فبيتى فى طريق بيته. ومع أننى خفت على نفسى من عواقب الركوب مع سائق سكران

فقد ركبت السيارة معه، وأدهشنى أنه يسوق بمهارة وهو سكران، ويتحدث بصورة أفضل، وهو سكران، وبدا لى أن الثراء قد منحه عقلا، وأفقده ما كان به من حمق. وقال لى فجأة، وأنا أغادر سيارته أمام العمارة التى بها شقتى:

ألا زلت فى رأيك فأرا؟

فضحكت، وقلت له:

يا شيخ. ألا تزال تذكر؟

على مقهى ريش، سألنى، الأسد العجوز العليم بكل شىء يجرى فى المدينة. قال لى بجد:

- أعرفت السر وراء الفأر؟ قلت له: لا. ليس بعد.

فقال لى:

- كنت معه ليلة أمس بالنادى الليلى.

دهشت لأنه عرف أننى سهرت مع الفأر. وأردف الأسد العجوز قائلا:

وشربت ويسكى معه، وأكلت كبابا. وأعتقد أنه أوصلك بسيارته الفيات إلى بيتك.

فقلت له فى عجب:

- حدث ذلك.

ثم تضاحكت قائلا:

- لا يخفى عليك شيئا وكأن القاهرة تأتى إليك وحدها بأخبارها.

وأضفت:

- على أى حال صار الفأر المتواضع فى سلم الأغنياء أكثر مما تتصور.

فقال لى:

- وطبعا لم يسأل عنا.

قلت له ضاحكا:

- بل سأل. والعجيب أنه ينتظر أن تذهبا أنتما: أنت والضبع إليه بالنادى، وتلتحقا بمعيته وكشافته. فقد قضى هو عمره تابعا يسعى إليكما.

تجهم وجه الأسد العجوز، وقال بقرف:

- بمعيته، هو الإمعة فقيرا كان أو غنيا.

صمت، ولم أقل شيئا. فقال الأسد العجوز:

- . . . أمه.

ضحكت وقلت:

- وأبوه أيضا.

وانشغل الأسد العجوز عنى بشرب البيرة، وحل كلمات الصحف المتقاطعة صحيفة بعد صحيفة ومجلة بعد مجلة كعادته عصر كل يوم وحين انتهى منها كلها وكان فى حلها ماهرا بعد ساعة واحدة أعطاها لجرسون المقهى والتفت إلى قائلا:

- حدسى يقول إنه يشتغل قوادا أو أمرا كهذا.

(٨)

عصر يوم آخر. دخلت بار فندق الكوزموبوليتان لأجلس وحيدا، وأشغل نفسى بأحلام اليقظة، لعلى أعثر بالنبش فى ذاكرتى على تجربة جديدة لقصة، فلم يكن الوقت قد حان بعد لجلسة الأصحاب بمقهى ريش قرب الغروب.

لم أكد أعبر باب البار حتى رأيت الفأر جالسا وحده، واضعا ساقا على ساق، شارعا رأسه إلى الخلف، كرجل أعمال فى ساعة استرخاء. كان شاردا، وكانت أمامه على المنضدة السوداء الواطئة زجاجة بيرة، وقدح بيرة لا يزال به نصفه، وقد ذهبت رغوته، وحقيبته السامسونايت واقفة على مؤخرتها فوق المنضدة بجانب الجدار المزخرف البنى اللون، لكنها كانت حقيبة سوداء فى هذه المرة. قال لى حين رآنى:

تعال. أنت ابن حلال. كنت أفكر فيك قبل أن تدخل من الباب. اجلس معى. فأنا أدعوك إلى زجاجة بيرة.

جلست. كانت هذه أول مرة، باستثناء ما حدث فى ليلة أول أمس يدعونى فيها الفأر. فرفع إصبعه لعم إبراهيم البارمان، وأشار إلى المنضدة، وجاء البارمان لى بزجاجة بيرة مثلجة، وبطبق صغير به سلطة خضراء، وآخر به فول سودانى مملح، ووضع ما يحمل أمامى على المنضدة.

وأنا أشرب أول كوب، قال لى الفأر، وقد انحنى نحوى وأنزل ساقا عن ساق:

- كيف أحوالك المالية؟ قلت له ضاحكا: كما تعرف من يدى إلى فمى، وأفواه من أعول.

فقال لى:

- بوسعك أن تغير حالك مثلى إذا فتحت مخك.

تضاحكت، وقلت له مستدرجا، وعلى وجهى فيما أظن أمارات عدم الفهم لشىء:

- ياه. ما أكثر ما فتحت مخى، ولا فائدة.

فقال لى:

- ليس بطريقتك. فتح مخك معى بطريقتى.

قلت ضاحكا ومخفيا مشاعر الفضول التى اجتاحتنى:

- كيف خبرنى.

قال لى ممهدا الطريق فى قلبى إلى ما سوف يبوح به لى:

- أنا لا أنسى معروف أحد، وأنت قدمت لى معروفا فى موقف محرج.

فقلت له بدهشة:

- أن متى، فقال لى: هو معروف صغير نعم. ولكن ما فعلته معى له دلالته فى قلبى، ويكشف عن إنسانيتك البالغة، وقلبك الطيب، وكرم نفسك ومروءتك.

قلت له:

- ياه. كل ذلك لمعروف صغير. أولا ما هو هذا المعروف فأنا لا أذكر شيئا عما تشير إليه؟

فقال لى:

ـ أتذكر عندما دخلت ريش، ورأيت الجارسونات يتشاجرون معى ويحيطون بى.

فقلت له: لا أذكر. زدنى معرفة.

فقال لى:

ـ كنت قد شربت زجاجة بيرة وبقى من ثمنها خمسون قرشا الخمسون قرشا كانت معى لكننى ، كنت بحاجة إليها للمواصلات، ولأشترى بضع سجائر بلمونت.

تذكرت عندئذ ما حدث. قلت له:

ـ ألا تزال تفكر فيما حدث، هذا أمر نسيته. صدقنى. وكان يمكن أن أتعرض أنا له. وتفعل معى ما فعلته أنا معك.

فقال لى:

ـ وكان يمكن أن يؤجل الجرسون المحاسب دفعى، للخمسين قرشا إلى حين، ولكنه لم يفعل معى، كما يفعل دائما مع الأسد العجوز، مثلا أو معك، لكنه انتهز الفرصة للتشاجر معى. أتعرف لماذا؟

ضحكت وقلت له:

ـ بصراحة أنت لم تكرمه مرة هو، أو أى جرسون آخر معه بأى بقشيش.

فهز رأسه موافقا وقال:

ـ ما راعنى أنك نهرت الجرسونات بقوة، كأننى أخوك، أو ابنك، ودفعت له جنيها بأكمله، وزدت فطلبت لى زجاجة بيرة، وطبقا من الأسكالوب وأقرضتنى خمسة جنيهات. لو كان الأسد العجوز فى موقفك لما فعل مثلك. بل إنه كان سينتهزها فرصة لمداعبة قاسية.

ضحكت وقلت له، وقد انفتح له قلبى مرة أخرى كما أراد هو:

ـ وتريد أن ترد لى المعروف. لقد رددته فعلا ليلة أمس، ثم رددته الآن بزجاجة البيرة هذه وصرنا خالصين.

فقال لى:

ـ لم أفكر فى رد المعروف، وأنا الآن أريد أن أقدم لك خدمة العمر.

ضحكت وقلت له متظاهرا بالفرح:

ـ وأصبح ميسور الحال.

فقال لى:

ـ بل غنيا إذا وافقت، وبأيسر جهد.

قلت له:

ـ بعرقى وعملى، فقال لى: بعرقك وعملك وحدك، وبأيسر جهد، فأنت قاص وموهوب، وكاتب دراما من الطراز الأول.

نظرت إليه لحظة فى حيرة، ودهشة، وفضول، فقال لى، وهو يرفع قدحه إلى قدحى:

ـ نشرب نخب الغنى أولا.

(٩)

قال لى بجدية بعد برهة من التفكير، كان يزن فيها ما سيقوله من كلمات، ويبحث عن مدخل مناسب مباشر أو غير مباشر:

ـ كل المطلوب منك أن تكتب تمثيلية تليفزيونية، لمدة نصف ساعة فقط، يعنى تكتبها فى بضع ساعات من الليل، ونذهب بها معا فى الليلة التالية، مكتوبة بالآلة الكاتبة إلى شركة إنتاج تليفزيونى خاصة لها مقر بجاردن سيتى.

قلت له:

ـ أتتعامل أنت معها ؟

فقال لى: نعم، وسوف تنال عن كل نص تكتبه ومدته نصف ساعة، فقط عشرة آلاف جنيه عشرة باكوات.

وابتسم وقال:

ـ وأنت وجهدك وعرقك كما تقول تكتب ثلاثين نصا بثلاثمائة ألف جنيه، تكتب خمسين نصا بخمسمائة ألف جنيه أى خمسمائة استك.

روعنى وشدنى ما يقوله، فالمال أيضا يقدم لنا غذاء الروح: الكتاب والفيلم الجيد، والمصيف الجميل والشتاء الدافئ، وهناءة العيش، والعلاج عند المرض و.

كان صامتا يرنو إلى ينتظر منى سؤالا محتوما قلت له:

ـ وموضوعات هذه التمثيليات.

فقال لى: أولا ليس هناك عقد بينك وبين شركة الإنتاج، ثانيا لا صلة لك بالبروفات، ثالثا لن يكتب فى التيترت اسمك فلا تيترات بهذه التمثيليات. رابعا ستحصل على ثمن كل تمثيلية فور قراءتها والموافقة عليها، وأنت جالس تشرب فنجانا من القهوة أو قدحا من الويسكى، خامسا: عليك أن تنسى كل الوجوه التى سوف تراها بمكتب الشركة وتكتم السر.

حدست الموضوع العام لهذه التمثيليات التليفزيونية ونوعيتها، ولم أسمح لوجهى أن يظهر عليه أمامه أى تعبير أو انفعال بفرح أو قرف. وقال لى:

ـ وأخيرا عليك أن تجعل هذا الأمر كله سرا بيننا، إذا وافقت وكان سعدك، وإذا لم توافق وكان سوء بختك، ولا يعلم به أحد سواك. ولا تبح به لأحد وبخاصة لصاحبينا: الأسد العجوز والضبع، فالسر إذا خرج من شفتيك لهما أو لأحد منهما، شاع فى المدينة بأسرها.

كنت أنظر إليه لا أزال وهو يقول:

ـ أتعدنى.

قلت له بإخلاص: أعدك ما دمت أنت حيا.

فقال لى دون أن ينتبه لقولى له: ما دمت أنت حيا .

يقينا أنك عرفت موضوع التمثيليات.

فقلت له:

ـ ذلك واضح لى، وضوح أكواب هذه البيرة أمامنا. أفلام جنسية فيما أقدر وأظن.

فقال لى:

لا تقل لى: إنك ستفكر. قل الآن: نعم أو: لا.

فقلت له فى الحال بحياد تام دون انفعال:

لا. وسرك فى بير.

وقلت فى سرى: أيها الفأر.

كنت قد رأيت مثل هذه الأفلام فى دعوة لمشاهدة فيلم عربى، فى بيت عربى، حين كنت أعمل فى بلد عربى. وكان بيتا لضابط عربى يجثم فوق تل شاهق، وتترامى أمامه الصحراء والواحات. قال لى الفأر:

ـ خسارة. اسمح لى فى موقفك تخلف. ففى الغرب فى فرنسا مثلا تنتشر هذه الأفلام، ويقضى معها العجائز والعنينون ساعات من المتعة الجميلة والفرح. وفى إنجلترا هناك له مسرح حى لمسرحيات الجنس العارى، والحياة تحتاج قصصك، وإلى هذه الأفلام أيضا حاجتها إلى قصص العنف، والمغامرات، والخيال العلمى.

تركته دون أن يتم كلامه قائلا:

ـ لا. وأنا عند وعدى.

وغادرت فندق الكوزموبوليتان إلى مقهى ريش.

(١٠)

داخت الحياة الثقافية بأسرها، لمعرفة سر الغنى المتواضع للفأر، ونسى صاحباى: الأسد العجوز، والضبع، أمر الفأر مع الأيام. وظل الفأر يسهر كل ليلة وحيدا حتى فى وجود كل من حوله، يدخن بشراهة علبة الكنت ويشرب بشراهة أقداح البلاك ليبل، وحوله حاشيته من وطاويط الليل عمى البصر، والذين يعرفون بقرون استشعارهم وحدها الطريق إلى موائد الليل، فى كل بؤر المدينة.

وعلى غير انتظار اختفى صاحبنا الفأر من النادى الليلى، ومن كل البؤر الأخرى. اختفى شهورا ثلاثة، ولا أعتقد أن أحدا قد افتقد غيابه، أو سأل عنه بالتليفون حتى من وطاويط الليل. لكننا عرفنا بموته، لا أذكر كيف حين ودع الدنيا أعجف العود كما قيل لنا، وقد ذوى كحطبة وجف على سرير أعجف. وقيل لنا إنه عزف عن الطعام، والشراب، وراح ينتظر الموت.

غولان

غول أول:

أراه دائما شتاء وصيفا، يلبس بالطو رمادى اللون، يبدو لمن يراه من بعد أسود اللون. أراه دائما هضيم الوجه مصفره، وكأنه يعانى من أنيميا مزمنة. كان نحيلا متوترا أبدا يتلفت يمنة ويسرة، كأن هناك من يراقبه ويطارده. وكنت أعجب لحاله فهو مندوب الإعلانات بالمجلة، وأقدر ما يحصل عليه كمندوب إعلانات متجول، وما يحصل عليه من أجر كموظف ومندوب إعلانات فى الوقت نفسه فى صحيفة كبرى.

لم يكن له مكتب بين مكاتبنا فى المجلة. كنا نراه فقط فى أحيان نادرة يأتى إلى المجلة مسرعا، ويطرق باب المكتب الزجاجى ، ويفتح أحد مصاريعه الأربعة، ويدخل على الغول، ويتغيب عنده كثيرا أو قليلا، ثم يخرج مغادرا المكتب لفوره.

لم يكن يعينى أمره، إلى أن وصل إلى أذنى فعل ارتكبه، كمندوب للإعلانات. فقد جاء إلينا بإعلانات من تجار عاصمة مديرية نائية. ونشرت هذه الإعلانات على صفحات المجلة فى عدد واحد. ووجه العجب فى هذا الفعل أنه سمح لنفسه أن يرتدى بدلة ضابط بثلاثة نجوم، ويذهب بها إلى مدير هذه المديرية النائية، ويلتقى به شخصيا، ثم يلتقى بحكمدار المديرية كمندوب للمجلة، ويعود حاملا معه عشرة إعلانات مدفوعة الأجر. عندئذ حرصت على التقاطه. استوقفته ظهر يوم وهو خارج من مكتب الغول، قلت له:

حمادة. اسمح لى. عندك وقت نتغدى فيه معا، لو أحببت. . الآن؟

ابتسم، وقال فى الحال:

ـ هيا بنا. أنا ميت من الجوع.

جلسنا على شاطئ النيل فى كازينو ظليل. حين أتممنا غداءنا، وشربنا بيرتنا، قلت له ضاحكا:

ـ أنت جرىء جدا. بدلة ضابط وبثلاثة نجوم، كيف فعلت ذلك، بل كيف فكرت فيه؟

فقال لى معترفا وآمنا لى:

ـ هو الذى فكر. وهو الذى أمر. وهو الذى جاء لى بالبدلة. وأنا نفذت ما أمرنى به.

فقلت له ضاحكا، وأنا أعرف سلفا من فكر له ومن أمره:

ـ من؟

فقال لى: الغول.

ضحكت من قلبى.

قلت له:

ـ الغول أتقصد. .

ثم أردفت: اسم على مسمى. لكن. . ألم تخش أن يطلب منك مسئول هناك بطاقتك كضابط، أو يسألك عن أحد الضباط فى القاهرة، فتقع فى المحظور أو يسأل عنك تليفونيا، وأنت هناك

فقال لى:

ـ لحسن حظى لم يطلب منى أحد شيئا، ولم يشك فى أحد. ظللت هناك خمسة أيام ميتا من الرعب. فلو أن أحدا هناك اكتشف حقيقتى لضعت. ولنجا هو. فحتى لو اعترفت عمن فكر لى، وحرضنى، وأمرنى، فسوف ينكر هو، وينجو هو وأقع أنا.

اندهشت مما قال، وقلت:

- ما الذى يجبرك على ذلك. يقول لك أى أحد: ارم نفسك فى النار فترمى نفسك فى النار، جننت من أجل بضعة جنيهات تنالها من الإعلانات، ترمى نفسك فى النار؟

فقال لى ساخرا بمرارة وحزن:

- ونصيبى نصيبى نصيب بخس. خمسة فى المائة، وليس ثلاثين فى المائة. الفرق يأخذه هو. أتسلمه أنا من الحسابات، وأعطيه له فى الحال قبل أن يدخل جيبى.

ساد بيننا الصمت، إلى أن قال:

- هو دبر كل شىء، حتى لا أعصى له أمرا. واستحلفك بالله وبكل عزيز عندك لا ترو لأحد ما أقوله لك.

قلت له باهتمام:

- أعدك وأقسم.

فقال لى:

- استدرجنى من الصحيفة التى أعمل بها ليزيد دخلى. كان يعطينى فى البداية ثلاثين في المائة. ثم خفضها فجأة إلى خمسة. وسخرنى. وصار يملى على أوامره إلى أن. .

وسكت وظللت أنظر إليه إلى أن قال لى:

أظهر لي يوما أنه يستأمننى وصدقته. كان يبدو لى رجلا كبارة قسيما ونبيلا، فصدقته، وأظهر لى الثقة والود، إلى درجة أننا كنا نتبادل النكات معا فصدقته.

سكت ورحت أسمع. وضع الغول تحت يد حمادة دفتر شيكات المجلة، وموقعا كله منه على بياض، ليتصرف به حمادة فى الأمور العاجلة دون مراجعة للغول، لكى يحصل بالرشوة على أى إعلان من أى جهة حسب تقديره، لمن تحت يدهم أمر الإعلان فى شركة حكومية أو بالقطاع الخاص. وقال حمادة:

- كان يعرف ظروفى، ويعرف أننى سأستغل شيكات هذا الدفتر بصورة شخصية، عندما أضطر إلى ذلك. يعرف أننى متزوج من أربعة، ولدى منهن دستة من العيال. لن تصدق أنن تزوجتهن جميعا بدافع الشفقة عليهن، لأحميه من الضياع. الضياع الذي أعرفه، وأحاول أن أحمى نفسى منه. وكنت أسمح لنفسى بالوقوع فى هذا الخطأ آمنا إليه، ومطمئنا إلى حسن فهمه، عندما لا أستطيع تبرير تجاوزاتى لمحاسب المجلة.

هزنى الحزن حتى الضحك، وقلت لحمادة:

- ووقعت يا صاحبى فى الخطأ.

فقال لى:

- وبدلا من المرة عشر مرات، وأنا أشعر بالأمن، وأنا أقول لنفسى: سأودع البنك ما أخذته عندما. . يفيض منى مال حتى فاجأنى ذات يوم.

وسكت حمادة برهة، ثم قال لى وهو ينظر إلى النهر كأنه يرى على صفحته المتموجة بالضوء المشهد كله:

قال لى: اجلس فجلست. وفتح أمامى ملفا، وقال لى: هذا هو ملفك، وبه كل جرائمك المالية يوما، بيوم وأرقام الشيكات التى صرفتها. فقلت له: سأرد ما أخذت. فقال لى برقة: أنا لا أطلب منك ردا. أنا أعرف ظروفك. لكن. . لو فكرت يوما أن تتمرد على، فهذا الدفتر موجود، حتى لو رددت كل ما أخذت. فقلت له وقد رأيته يفتح لى فرجة: أنا لم أتمرد عليك قط. أنا أحبك، ولن أخرج قط عن طوعك. فقال لى: لن أسحب منك دفتر الشيكات لكن لا تتجاوز الحد يعنى.. مبالغ صغيرة. فهمت. اذهب الآن. وخرجت من عنده مطوقا وممتنا، وأنا أرجع نحو الباب بظهرى حتى وصلت إلى الباب وفتحته بيدى من وراء ظهرى غير مصدق بالنجاة.

غادرنا الكازينو النهرى. وكلما رأيته فى المجلة أشاح بوجهه عنى، وكأنه لم يعترف لي بشىء قط، وكأننا لم نأكل معا عيشا وملحا حتى جاء الخبر بعد شهور.

انتحر حمادة. ووجم الغول لانتحاره ليس حزنا عليه، فقد أنزل به حمادة كارثة قبل أن يرحل. لقد سحب حمادة وبتوقيع الغول، وبآخر شيك فى الدفتر كل رصيد المجلة فى البنك، ووزعه على زوجاته بالعدل والقسطاس. وصار على الغول أن يقاضى ميتا.

غول ثان:

قال لى وهو يقدم إلى ورقة:

- خذ. اختر لك من هذه الأسماء، أى عدد تريده، وتقدر على تنفيذه من المسلسلات الدرامية والبرامج الخاصة.

نظرت إلى الورقة. كانت المشروعات التى بها هى مشروعاتى، وكنت أسمع قوله لى:

- نفسي أعرف. لماذا يوافق الإخوة العرب على مشروعاتك أنت، اثنان وعشرون مشروعا من بين سبعة وعشرين مشروعا من مشروعاتك الإذاعية ولا يوافقون على مشروعات سواك إلا أقل القليل؟

وهو يقول أيضا:

- ورشح لى من ينفذ من الكتاب الآخرين المشروعات الأخرى، التى لا تريد أنت تنفيذها.

رفعت رأسي عن الورقة في يدى، وقلت له متمرا ومبتسما، وبزهو لا أخفيه:

- أنا أفهم عقلياتهم وطريقة تفكيرهم، وأقدر ما تحتاجه الإذاعات العربية، وما لديهم من نقص فى المعدين، وأعرف أحداث التراث الدرامية التى لا يعرفها غيرى من الكتاب الذين يتعامل مكتبك معهم.

كان جالسا إلى مكتبه. مكتب ضخم يملأ هو وحده فراغه الخالى بمقعده

الوثير المرتفع الظهر، والذى يمكن أن يرجع إلى الخلف بالضغط على زر فيه، ويجعل قدميه أعلى من رأسه، فى أى لحظة يريدها. وكان مقعده فوق منصة خشبية، فيبدو فى جلسته وراء المكتب أعلى من كل من يجلس معه في هذه الغرفة، وكأنهم مرءوسون له فحسب، وعليهم أن يعرفوا حدودهم معه فى الكلام، والتعامل بل يفرض عليهم أسلوب مخاطبته، بقولهم له دائما: يا أستاذ حتى لو كانوا أكبر منه سنا، وأعلى مقاما فى البلد ومنزلة. وكنت أحدث نفسى دائما كلما خرجت من عنده، أنه يعرف لعبة الإدارة، ويعرف بمجرد جلوسه إلى هذا المقعد وراء هذا المكتب كيف يضع مسافة بينه وبين الجالسين معه، فلا يتجاوز أحدهم معه حدا وضعه لنفسه. وكانت الأوراق من الملفات والكتب مكدسة على جوانب المكتب أماما ويمنة، ويسرة، وفى كل الفراغ بينها، وتحت ساعديه عدة مكتبه من أحدث طراز: الأجلسير، والوراقة، والأقلام المتعددة الألوان فى علبة مفتوحة من المعدن ونظارتين براقتي الزجاج، والذراعين الذهبيين يراوح وضعهما على أرنبة أنفه الضخم إذا تصفح أوراقا، أو نظر إلى محدثه، وأرهف سمعه له متوثبا للرد، والمناقشة. وكان على من يجلس أمام مكتبه أن يشب برأسه فوق الأوراق ليرى وجهه، والجزء العلوى منه، وهو يتحدث معه.

قال لى، وهو يمد يده إلى بقلم جاف من فوق أكوام الكتب والمجلات على المكتب:

- هيه. خذ، وأشر على ما اخترته من المشروعات ،واكتب لى أسماء من ترشحهم للمشروعات الأخرى.

نهضت قليلا وأخذت منه القلم، ورحت أفكر فيما يطلبه منى، وبالى مشغول بأمر آخر فى الوقت نفسه. وظل هو ينتظر، ومعه كانت تنتظر زوجته النجمة مرمر، وراحا الاثنان ينظران إلى معا لأول مرة. راقبتها وهى تختلس النظر إلي، وإليه ولا تنظر فى الوقت نفسه إلى أى منا. كانت جليلة القامة مهيبة الطلعة براقة، العينين على ضخامة عظام وجهها وأعضائها. كانت جالسة في الزكن مسترخية شاردة على مقعد جلدى وثير. ورحت أرقبه بطرف ساه، وأنا أتأمل في الورقة بغير اهتمام. بدا لى وكأن هناك مؤامرة على، فهذه أكبر صفقة لمكتبهما المشترك، ولى، ولم يحدث أن رأيتها من قبل معه في هذا المكتب. وهمنى الأمر الشاغل الذى أفكر فيه، ورحت أدور بعينى في غرفة مكتب الغول البنية اللون المبطنة الجدران بالخشب، إلا من ستائرها البيضاء التى تهتز مع النسمات وراء النافذة المفتوحة على يسار النجمة مرمر، وفى كعوب هذه الأمتار من الكتب المجلدة بعناية وفخامة، على رفوف المفتوحة بدواليب كتب تملأ كل فراغات الجدران بالغرفة، والتى تحمل جميعها اسمه بحروف مذهبة. قال لى يستعجلنى، وقد نفد صبره:

- هيه. اخترت.

قلت له والورقة لا تزال فى يدى، وقد وجدت المنفذ إلى ما أريد قوله له بل

لهما: هناك مسألة معلقة بيننا بخصوص هذا الشغل، لم أتحدث فيها من قبل معك، فقد كنت أترك الأمر من قبل لحكمتك.

توجس الغول عندئذ شرا، ولعله حدس ما سوف أقوله له، فرجع بظهره إلى ظهر مقعده، وراح يهتز متمرا يمنة ويسرة، وقد غاضت الابتسامة الرئاسية، والحفاوة بى، من وجهه وعينيه، وحلت محلها نظرة رئاسية أخرى وقال لى:

ـ ما هى؟

نظرت إلى زوجته النجمة. كان قد شدها فجأة ما صار إليه الحديث بين، وبين الغول فراحت تنظر بقلق إلى وإليه. قلت مشرئبا برأسى إليه ومهونا الأمر عليه:

ـ هو أمر واحد، وعادل بينى وبين مكتبكما. واسمح لى فهو ليس بينى وبينك شخصى ولا بينى، وبين الفنانة مرمر. فهو أمر يخص الشغل، وفى الشغل لا يوجد أى اعتبار آخر سوى اعتبارات الشغل، للطرفين الأول والثانى طبعا.

قال لى:

ـ ادخل فى الموضوع. ما هو.

قلت: مسألة الأجر عن كل حلقة أكتبها.

استفزه ما قلت. وبدا لى فى اللحظة نفسها أنه توقعه. وقال لى وهو يعتدل فى جلسته:

ـ أى أجر نحن نعطيك أجرك فى الدقيقة فى إذاعة مصر. ونستقطع منه ما تستقطعه إذاعة مصر من أجرك.

ابتسمت لأهدئ حدته، وقلت له:

ـ اسمح لى. لقد دفعت الإذاعات العربية التى بيع مكتبكما لها أجر ما نكتبه نحن، وأنا أريد الأجر الذى تدفعه هذه الإذاعات للمؤلفين، الذين يتعاملون معها ودون استقطاعات. أنت تعطينى مثلا خمسة جنيهات فقط عن كل حلقة من حلقات المسلسل. والإذاعات العربية تدفع خمسين دينارا أو ما يساويها فى الحلقة الواحدة. هل هذا عدل، وأنت تبيع سبع نسخ من كل مسلسل، وأنا لا أريد سوى حقى فى نسخة واحدة. أليس هذا تنازلا منى لصالح هذا المكتب؟

ضحك مناورا وقال:

ـ أولا. أنت تتعامل معنا هنا فى مصر، وليس معهم هناك فى بلادهم. وثانيا.

قاطعته قائلا:

قبل كل شىء، لأريحك وأريح نفسى. بوسعى التعامل معهم مباشرة وباسمى وسمعتى، ككاتب إذاعى قديم معروف عندهم.

ولمحت زوجته النجمة، وقد صارت جالسة على طرف مقعدها، فحسب وقد بدا في عينيها تنمر السعادة، وهى تنظر إليه فقد وجدت أخيرا من يتصدى للغول، ويقول له وهى شريكته فى الربح والخسارة: لا. عندئذ قال لى الغول:

ـ وجئت الآن تحاسبنى. لم تقل لى ذلك من البداية، ونحن نكرمك، ولا نخضعك لنظام الدور بالإذاعة المصرية. ماذا لو لم تعمل معى؟

فقلت له وأنا أمسك بورقته وأهزها فى يدى:

ـ الأعمال نفسها فى هذه الورقة، وغيرها عندى أرسلها إليهم، وأتعامل معهم مباشرة، ولديهم الآن مخرجون وممثلون.

وجم الغول ونزل عليه سهم الله، وتراجع بظهره إلى ظهر مكتبه، وراح يتراقص بمقعده يمنة ويسرة، ثم قال بحزن شديد وسخرية مرة:

ـ كبرناك وجعلناك كاتبا كبيرا، وجئت الآن تتنمر علينا، وتعض اليد التى امتدت إليك.

شرختنى إهانته، فقلت له فى الحال مسقطا كل المسافة التى يضعها بينى وبينه:

ـ أنت. اسمع. عندما كنت أنا كاتبا، كنت أنت تلبس شورتا، وتركب عجلة، وتوزع بها الصحف على البيوت والمحلات.

فقال لى، وهو يرفع حاجبيه:

ـ وماذا أيضا لديك ضدى؟

قلت له غاضبا: احسبها. أنا لا أنظر إلى الوراء يا حضرة. لن أحاسبك على ما كسبته من ورائى. ١٢ مسلسلا فى ١٥٠ جنيها فقط فلا تمن على.

ونهضت واقفا قائلا:

ـ لن أتعامل معك قط، ولا بمال الدنيا كلها.

توقعت أن ينهض واقفا، ويغادر مكتبه الضخم الفخم بجثمانه الضخم الفخم، ويضربنى علقة كعادته مع من يتجرأ عليه. قررت عندئذ أنه لو حاول ذلك معى فسوق، أضربه ضربة قاضية تحت أذنه اليسرى. لكنه لم يفعل. ظل جالسا محبطا، وقدرت أنه يحسب فى رأسه بهدوء: ما خسره.

وشئت أن ألقى فى وجهه بقنبلة ترجه رجا، قبل أن أغادر مكتبه فقلت وأنا عند الباب:

ـ يرحم الله حمادة. وهذه الشقة ملك الحراسة، وهو حق آخر إدارة كنت لها رئيسا، لكنك أخذتها باسمك الشخصى.

ونزلت الدرج أعدو إلى عرض الطريق.

لوليتا

(١)

أعرفه كاتبا مسرحيا، يستثمر فى مسرحياته قصصا ومواقف درامية من حكايات التراث، يسقط عليها رؤى عصرنا وقضاياه، يرمز بها للمشاهدين والقارئين إلى ما لا يستطيع البوح به مباشرة من وقائع الحاضر، خوفا من قلم الرقيب وعقاب العسس. أعشق فى مسرحه حواره الدرامي الغنى بالشاعرية والإيقاع والتركيز وتكثيف الصور، يحمل نبض الحياة وفكرها معا. ولحبى له منحته لقب: المارد.

ولم يخطر لى على بال (أنا الذى أحبه من بعد قارئا، ومشاهدا، وأراه أحيانا من قرب ،كالبعد فى ندوة أدبية أو عبر الطريق بمقهى أو على رصيف) أنه سيأتى يوما إلى، وفى مكتبى بالمجلة، ويجلس معى فى مطبخ التحرير مصطحبا معه مفاجأة من مفاجآت العمر.

طرق الباب الزجاجى المضبب. رفعت رأسى عن الورق على مكتبى ناظرا إلى باب الغرفة. رأيت مزلاج الباب النحاسى يدور، والباب يدفع ويظهر حبى المارد بوجهه الودود، وعوده الفارع ،ولونه الأسمر، وأنفه الروماني، وعينيه الحزينتين. نهضت له واقفا خارجا من مكتبى فى ذات اللحظة. دخل حبى تتبعه هى. صافحتهما. أغضيت النظر حين رأيت وجهها، وعودها، ونحرها. بدت لى مثل لوليتا التى لم أرها قط. جلسنا أمام مكتبى. قدمها لى باسما، وقال لى:

- هى زوجتى الآن وتحب العمل فى الصحافة، وستعمل معك.

قلت له مروعا راضيا وخائفا:

هنا؟ فى مطبخ التحرير

ضحك المارد. لضحكته هدهدة منغمة. قال لى: ليس فى المطبخ بالتحديد. ستأتى إليك بتحقيقات وحوارات صحفية، تكلفها بها المجلة. اتفقت مع الغول رئيس التحرير على تعيينها بالمجلة. وطلبت منه أن يكون مكتبها معك بهذه الغرفة دون غيرها.

وصمت المارد لحظة وتنهد. وقال لى أمامها، وهو ينظر إلى وجهها باسما:

- لا آمن عليها أحدا سواك.

نظرت إلى، وهى مطرقة، ثم نظرت إليه محرجة. قلت له مطمئنا:
فى عينى ياصاحبى.
ابتسم المارد ومد يده إليها، ففتحت حقيبتها البيضاء، وأخرجت منها أوراقا من ورق الصحافة المصفر الصغير. أخذها منها وأعطاها لى قائلا:
ـ تجمع زوجتي معلومات موضوعاتها جيدا، لكنها لم تتدرب على الكتابة الصحفية بعد. يحتاج ما تكتبه إلى مطبخ التحرير. الرتوش والعناوين وإعادة الصياغة، وأنت بذلك خبير.
فتحت الأوراق التى قدمها لى. كانت مقدمة التحقيق بخط المارد، ولغته مقدمة جميلة. وكانت رتوش قلمه عبر صفحات الموضوع بين السطور واضحة وظاهرة بخطه. قلت للمارد:
ـ لا بأس.
فقال لى:
ـ سأساعدها من جهة. وأنت من جهة.
فقلت له:
ـ لا تتعب نفسك. هذا هو عملى. .
نهض واقفا. وقفت بوقوفه وعانقنى، وقبلنى، وربت على كتفى. والتفت إليها . كانت لا تزال جالسة. وقال لها:
ـ نلتقى فى البيت.
والتفت إلى قائلا:
ـ إلى لقاء.
سرت معه إلى باب المجلة فالأسانسير، وعدت إليها. أشرت إلى مكتب شاغر من المكتبين الآخرين، وقلت لها:
ـ هذا هو مكتبك. بدرجه الرئيسى مفتاح. تعالى وقتما تشائين، فلا حضور لمحرر، ولا انصراف إلا لرئيس التحرير، ومن يعملون معه بالمطبخ.
عندئذ ضحكت لوليتا ضحكة خافتة منغمة، يقطر الشهد من شفتها السفلى، وكأن عليها قطرة ندى. لا تقل هذه الشفة فتنة عن وجهها. وجلست إلى مكتبها مسبلة النظر. ورحت أقرأ موضوعها وأردد فى نفسى: لا بأس. لا بأس. لا تنقصه سوى العناوين الرئيسية ،والفرعية، والصور، وكلام الصور. وكنت أسترق النظر إلى وجهها الجميل، ونحرها الساحر حتى أحسست أننى أرتكب جرما فى حق صديقى. قلت لها:
ـ موضوعك تنقصه الصور.
ففتحت لوليتا حقيبتها، وأخرجت بضع صور ناولتها لى، وكان مكتوبا وراء ظهرها كلام الصور. كان مكتبها متعامدا مع مكتبى. لمست يدها يدى فسرت للمستها رعشة فى ساعدى. زفرت بخوف من نفسى، وقلت للمارد فى نفسى: يا مسكين. كيف ستحيا مع هذه الفتنة ولم جئت بها إلى هنا، والغول رئيس التحرير

دبور، والثعلب زميلى فى المطبخ دبور ومحرر الأخبار المتجول زئر النساء دبور، ولهم فى الدبرنة حيل لا يعرفها الشيطان نفسه .

فاجأتنى ملتفتة إلى وكنت أنظر إليها قائلة، وكأنها تقرأ مخاوفى:

- لا تخف على. أنا أحب من تحبه. بل أعشقه.

ابتسمت لها. ولم أقل شيئا. فقالت لى:

- ثق بى كما تثق بصاحبك.

لم أقل لها شيئا. لم يكن ما يشغلنى هى. من يشغلنى الآن خوفا على حبى، وعليها هم: الغول، والثعلب، وزئر النساء، والباقون من المحررين والمحررات يأتون ويذهبون، ومثلى متعففون. يعجبون نعم، ويشتهون نعم لكنهم مثلى يكتمون ولا يمدون يدا. قالت لى:

- عندك أسئلة لى.

قلت لها: لا.

- وفى نفسى كان ألف سؤال وسؤال، أكتمها الآن تاركا أجوبتها للأيام، فسوف تحكى لى كل ما قد أسأل عنه.

(٢)

جاء الثعلب. دخل من الباب المفتوح، ونظر إليها، وظهرت الدهشة على وجهه، ونظر إلى فضحكت، وقلت له:

- السيدة زوجة صاحبنا صاحب مسرحية توبة .

فمد يده إليها مصافحا، وأبقى يده فى يدها لحظة، وهو يقول لها:

- زوجك رجل محظوظ.

ضحكت عندئذ ضحكتها المنغمة، وقالت:

- أنا المحظوظة به.

ونهضت خارجة من مكتبها حاملة برشاقة حقيبتها البيضاء على ساعدها، وقالت:

- أراكما غدا.

وغادرت مكتبها، وغرفة المطبخ، وكان زميلى الثعلب يتابعها بعينيه يتأملها.

قلت له وقد انصرفت لوليتا من باب المجلة المفتوح:

- اجلس، واسمعنى.

جلس الثعلب على مقعد أمام مكتبى، وقال لى ضاحكا:

- أعرف ما ستقوله. صاحبنا أوصاك بأمرها، وأنت تخاف عليها من أجله منى ومن الدبابير الآخرين معنا.

بهت وقلت له:

- كيف عرفت؟

فقال لى: أعرف مثله، وأقدر خوفه عليها. لكن من أين أتت ، وكيف عرف

مثلها ؟وكيف تزوجها وهى فتنة مسيحية؟

كانت لى دالة على الثعلب. قلت له:

ـ من أجل صاحبنا. دع كل هذه الأسئلة.

انفجر ضاحكا، وقال لى:

ـ ومن أجله سأعرف عنها كل شىء .

قلت له بحزم:

ـ كما تشاء. لكن دعها، وهى معنا فى حالها.

صدمته لهجتى. صمت. وذهب إلى مكتبه. كنت واثقا أنه سيحترم ما قلته له. وسينفذه بالحرف الواحد. وكان علينا أن نتفنن فى حمايتها من الدبورين الآخرين. قلت للثعلب:

ـ أفضل شىء أن نجعل تعاملها معنا نأخذ منها الموضوعات، ونطبخها، ونقدمها لرئيس التحرير.

فقال لى ضاحكا:

ـ تعاملها معك أنت. أنا لا شأن لى بها. ورأيى أن صاحبك قد وقع فى ورطة.

سألته:

ـ معنا ستنجو وينجو.

فقال لى:

ـ يا أهبل. إن نجت معك، إن نجت معى، فمن يضمن أن تنجو من غيرنا هنا أو فى أى مكان آخر حتى فى الطريق.

وسكت لحظة ثم قال:

ـ هذه مثل الزبدة تذيبها أى درجة حرارة، حتى حرارة هذه الغرفة البحرية الهادئة.

وانفجر ضاحكا.

(٣)

على غير موعد التقيت فى مقهى على بابا، بميدان التحرير بصديق أراه دائما مثل الفهد، يضرب دائما ضربته، ثم ينسل هاربا. قال لى حين جلس معى:

ـ بلغنى أن فلانة عملت معكم فى المجلة.

قلت له:

ـ نعم أتعرف.

فقال لى ضاحكا: أعرفها عز المعرفة. ومن لا يعرفها فى مدينة القاهرة، المجلة التي أعمل بها كل من بها يعرفها. عرفها صاحبنا الرومانسى حين عمل معنا محرر مطبخ. بهرته مثلما بهرتنا قبله. ليس منا من لم تذهب إلى بيته، وكم من ليلة باتتها عندى. وفى. .

قاطعته قائلا بغيظ:

ـ فليكن أحبت وتابت. وهو أحب وغفر. ما شأننا نحن.

فضحك الفهد، وقال ساخرا بفجاجة:

ـ وتعاهدا على الإخلاص فى الحياة، وفى الممات. أليس كذلك.

حدثت نفسي أنه لذلك السبب جاء بها المارد إلى مجلتنا. وقال لى الفهد: الدبابير في كل مكان بالوسط الثقافى والفنى. دبابير ودبورات أيضا غايتهم الأدب، والفن، والصيد. ورأيى أن صاحبنا الرومانسى قد جن. يصاحبها نعم. يتزوجها يكون مجنونا.

قلت له:

ـ من هى؟

فقال لى: كانت زوجة لشهيد كان طيارا، ولها ابن منه. نصف متخلف و. .

قاطعته قائلا بلوم:

ـ وهى أنثى. لكنها ضحت بمعاشها منه، وتزوجت هى الفقيرة منه هو الفقير مثلى ومثلك.

فنبر ساخرا. ولم يعجبه قولى، فدلق ما بقى من قهوته فى حلقه ونهض مغادرا المقهى قائلا:

ـ الأيام بيننا. أقصد بينهما. فلن تفارق صاحبنا شكوكه. أتعرف كاتبا واحدا لم يعرف الشك؟

(٤)

صرت وزميلى الثعلب نترقب حضورها إلى مطبخنا. وحين تأتى نروح، ونحن نعمل نتأمل حسنها. حضورها إلينا يجلب معها كل عطور الدنيا ،وسحر الهواء البحرى، الذي يهب من باب الشرفة. نتأمل وجهها البيضاوى المشرق. لون بشرتها الخمري عيناها الواسعتان تنظران إلينا فى براءة. يخيل إلينا أنها تتحدث إلينا وهي تسمعنا فى صمت. كل جسدها أبيض مثل الزبدة. نضر ولدن مثل ورق نبات غض فى صباح يوم لم تشرق فيه الشمس بعد. ثوبها الأبيض دائما كثوب عروس فى صباحها الأول. أصابعها خلقت لتعزف وشفتاها مفترتان أبدا عن ابتسامة تدعوان من يراهما إلى الحب. وشعرها مرسل كالمروحة على الكتفين والعنق. حواء الأولى التى عرفها آدم، وأكلت من تفاحة الشجرة المحرمة. وحين لا تأتى يوما إلى المجلة نقلق عليها، ونسألها كلما أهلت عن أخبارها. ونجحنا فى إبعادها عن الغول، وزئر النساء، أو هكذا ظننا. لكننى لم أنجح في إبعادها عن أن أحبها حبا عذريا صامتا.

ورأيناها يظهر عليها الحمل، وهى لا تغادر أبدا اللون الأبيض فى كل ثوب من ثياب خروجها، ولا حذاء من أحذيتها ،ولا حقيبة من حقائبها. وقلت يوما لزميلى الثعلب، وأنا ألمح إلى حملها:

ـ أرأيت إنها مثل فاضلة سارتر.

فقال لى ملغزا:
- ربنا يستر.
وضحك.

(٥)

غابت عنا لوليتا أسبوعا بأكمله. وعادت إلينا كعهدنا بها. جميلة. وآسرة السحر، وقد أفرغت ما في بطنها، واستردت رشاقتها وأناقتها. رحبنا بقدومها، وسارع الثعلب يقول لها ضاحكا:

- ولد مثله أو بنت مثلك، فضحكت ضحكة ضعيفة خافتة كالبسمة، وقالت: ستة.

ارتعنا. وزعق الثعلب قائلا:
- ستة لا. الرحمة.
فقالت، وهى تبتسم بحزن عميق:
- ولدوا موتى. صغار كفئران الشقوق.
وأشارت إليهم بطول سبابتها:
- هكذا. قدر الإصبع.
وجمنا. ظللنا صامتين وقد شردت عنا. ثم قالت كأنها ستبكى:
لم يكن يريد أولادا منى. كان يطلب منى دائما إسقاط ما فى بطنى.

خطر ببالى ما قاله لى صديقى الفهد: الأيام بيننا فلن تفارق صاحبنا الرومانسى الشكوك. قلت لنفسى: يريدها إذن عشقا بلا ثمرة. وقال لى الثعلب حين غادرت المجلة عائدة إلى بيتها وهو يتنهد:

اللهم قنا شر التجربة.

(٦)

عامان مرا. ولوليتا بيننا تأتى إلى المجلة يوما أو أياما، وتغيب يوما أو أياما، وهى آمنة معنا على الأقل، وهى دائما فى ثوبها الأبيض ،لا تملك إلا أن تبرق كجوهرة، لا تملك إلا أن تلفت الأنظار وتسرق القلوب فهكذا خلقت.

وجاء يوم انقطعت فيه عن المجلة، دون أن نعرف لانقطاعها سببا، أو تستقيل من عملها معنا، أو تودعنا قائلة: إلى اللقاء .

وفى جلسة من جلسات المثقفين للنميمة، على مقهى ريش تحدث الأصدقاء وقلوبهم شتى عن أن لوليتا قد انفصلت عن زوجها. قالوا عنهما: كان الأمر متوقعا منذ أول لحظة. وقالوا عنها: كانت تحبه. نعم. ولكنها أيضا تحب أن تفتن الرجال، وتحب الترف وتعشق المال. وصاحبنا من يده إلى فمه وفمها. وقالوا عنه: مجنون مفتون ورومانسى حالم. ولكن والحق يقال إنه عاش معها تجربة فيها الحلو، والمر، والثقة، والشك، وهمسات النجوى، وتفجرات القلق ،والحيرة ،والغضب، والرضا، وعدم الرضا فهى كالفصول الأربعة .

وبدأنا ننساها، وننسى أمر المارد معها، وأمرها معه. وسقطت منا فى جب النسيان مثلما تسقط الأحلام والوقائع معا فى جب الزمن. لكن مسرحيات صديقى، وحبى فقدت إلهامها. وروحه النابض بالهمس وبالعشق والأتواق التي لا تتحقق. صار فكر حياة لكاتب شيخ يحيا بلا قلب. وغرق فى الشراب ليوقظ أحزانه، أو ليقتلها. فالفارس العاشق القديم قد مات، حين فقد فرسه ورمحه وقوسه. وأصاب إبداعه جفاف الفكر وخمود العاطفة. يلوذ بصمت طويل كلما التقينا به مصادفة. يبتسم لنا وعيناه غائمتان عنا. يضحك لنا ضحكا من الحلق، ثم يسحب سريعا ضحكته. ثم تزوج من قطة لزجة خامدة الروح كثيرة الشكوى ، تجد فى شىء واحد يقدم لها الرضا. هكذا كانوا يقولون فى مجالس النميمة.

(٧)

على غير توقع سمعت صوتها، أدرت مفتاح الراديو، فسمعت صوتها يقدم برنامجا. صوت أنثوى ناعم، ومنغم تخال معه عبر الراديو أنك ترى وجهها ،وثدييها ،ونحرها، وسمانة الساقين، ولدونة الساعدين، والكفين. وحدثت نفسى أنها وجدت بعده عملا.

ومصادفة رأيتها بقاعة من قاعات الإذاعة. دخلتها لأزور سيدة صديقة وحبيبة، فقد أذاعت لى يوما ما عددا من القصص. حين رأتنى هذه الصديقة كانت أمامها استمارة من استمارات التعبئة والإحصاء تملأ بياناتها. صافحتنى وقالت لى:

قل لى يا سليمان. أأنا ذكر أو أنثى؟

ضحكت فى دهشة، وأنا أجلس أمام مكتبها، فعجلت بقولها مبررة: أمامى بيان يسألنى: أأنا ذكر أو أنثى؟

كان زوجها لا يزال سجينا سياسيا منذ عشرة أعوام ،وأدركت أن السؤال قد فجر فيها ما كان كامنا. لم أقل لها شيئا ،فلم تكن تطلب فى الحقيقة إجابة من أحد وكانت بجانبها زميلة لها جالسة تضحك من سؤالها الساخر. والتفت دائرا بعينى فى القاعة.

رأيت لوليتا جالسة إلى مكتب ،بركن فى القاعة عند مدخل الباب. بدت لى وحيدة تماما. تنظر نحوى باسمة. بدت لى فاتنة لا تزال كالعهد بها، صريحة العينين. لكنها لم تكن ترتدى ثوبا أبيض. كانت ثوبها ورديا، وحذاؤها ورديا، وحقيبتها على المكتب وردية أنيقة، ونحرها كالعهد به عار فى فتحة الفستان يكشف النقرة بين ثدييها. ابتسمت لها فرحا برؤيتها. وذهبت لتحيتها. صافحتها فرحبت بى، وطلبت منى أن أجلس معها ،فعندها ما تقوله لى. ترددت لحظة فى الجلوس، فقد جئت زائرا لغيرها. وحسم ترددى صوت صديقتى تنادينى بصوت آمر فيه رنة غضب:

- سليمان. تعال هنا.

استأذنت من لوليتا آسفا وعدت إلى صديقتى. ولم أكد أجلس أمامها حتى

قالت لى بصوت مسموع سمعته لوليتا بلا شك:
- كيف تعرف مثلها؟
وجمت لجرأتها، وصراحتها، وقسوتها، والتفت نحو لوليتا مشفقا عليها. رأيتها تنهض، وتحمل حقيبتها على ساعدها ،وتغادر مكتبها خارجة من القاعة كلها دون أن تلتفت نحوى. كان وجهها جامدا. قلت لصديقتى:
- كانت زوجة صديق ، وأنت تعرفينه، وتحترمينه، وكانت تعمل معى بالمجلة.
فقالت لى ساخرة:
- هو مجنون، وأنت مجنون مثله.
وطلبت لى قهوة، وظللت صامتا وهى ترمقنى على مهل. وجاءت القهوة، فرحت أرشفها شبه غاضب على مهل. سألتنى عما أكتبه الآن فرحت أحدثها عما أكتبه، وعقلى مشغول بمشهد مغادرة لوليتا لمكتبها، وللقاعة فى صمت.

(٨)

توقف البرنامج ،الذى تقدمه لوليتا فجأة ،كأنما قد أصيب بالسكتة. كنت أتابع سماع صوتها. أوحشنى الصوت. فسألت عنها لأزورها، فقيل لى إنها ذهبت إلى دولة عربية شقيقة. وتزوجت من مدرس معار، ليكون محرما لها حتى لا تحبس فى مسكن المغتربات، اللاتى لا محرم معهن. وقيل لى إن هذا المدرس كان لها عاشقا، وإنها كانت لا تكترث بحبه لها. وقيل لى إن هذا المدرس ظل أعزب، بسبب حبه لها طيلة زيجتين. يرقبها من بعد أسفل العمارة، التى تسكن فى شقة بها. وقيل لى أنه كان يتبعها كظلها كلما خرجت من بيتها، وكلما غادرت عملها عائدة إلى بيتها. وقيل لى إنها التفتت إليه يوما، حين أتيحت لها الفرصة للاغتراب عن مصر، واحتاجت إلى محرم، وقالت له:
وآخرتها تتزوجنى، فقال لها على الفور بدهشة غير مصدق: فى الحال.
وقيل لى إنها اشترطت عليه أن تكون، وهى زوجة له حرة فى بلد الغربة، لا شأن له بها إلا حين تحس بالحاجة إليه وتنام بجواره. فقال لها إنه موافق على شرطها. وقيل لى إنها قالت له إنها ستكون زوجته لمدة أربع سنوات فقط، ولذلك فهى تطلب أن تكون العصمة فى يدها، لتنفصل عنه إثر عودتهما إلى مصر، فقال لها إنه موافق على هذا الشرط أيضا، فحسبه من الزواج منها أن يكون بقربها يراها، ويسمعها، ويخدمها بعينيه حتى لو كان ذلك لأربعة أيام فقط.
ثم قيل لى بعد عامين إنها عادت إلى مصر، وانفصلت عن المدرس إثر طردها، وطرده من عملهما بالدولة العربية الشقيقة، فقد كانت فى العمل مصدر فتنة وإثارة للتنهدات من حولها، وإنها كانت فى الليل مثل طيور الليل، تدير قرص التليفون، وتضرب أرقاما ثم تذهب متعطرة، ومتنقبة تخفى فستانها الوردى بفستان أسود، وتسدل على وجهها إيشاربا أسود وتركب سيارة تنتظرها، وتذهب إلى بيت ناء فى الصحراء أو شاليه راقد على شاطئ البحر، وتقضى

ليلها، وتعود إلى زوجها فى غبش الفجر سكرى تضحك من نفسها على نفسها. وحين فاحت رائحتها، وتبادلها الأثرياء ليلة بعد ليلة طردت، وعادت إلى مصر وقد تضخم رصيدها فى البنك.

ولم أكذب ما يقال لى، ولم أصدقه أيضا، فكل شىء مع لوليتا وارد وممكن. الحب أو العهر أو الاثنان معا، فهكذا خلقت لوليتا. وكانت مجالس النميمة تناظرها حينا بكارمن ،وحينا بغادة الكاميليا، وحينا بالليدى تشارلى إلى أن استقر الأمر بين المثقفين فى مجالس النميمة، على أنها أقرب إلى أن تكون لوليتا دون أية غانية أخرى.

(٩)

وأغرانى صديقى أمير التمامين المغترب الأبدى ، أن نستجم معا مدة أسبوع بالإسكندرية ،فاستجبت لإغرائه، وكنا فى عز الصيف. استأجرنا شقة مفروشة، أو بالأحرى غرفة مفروشة فى شقة، تقيم بها صاحبتها العجوز. وقرب الغروب قال لى المغترب الأبدى:

- لوليتا هنا بالإسكندرية.

فصحت به فى دهشة:

- ولذلك جئت ساعيا وراءها.

فقال لى ،وهو يرتدى ثيابه: أنا ذاهب لأراها وأجلس معها، وأسمح لك أن تأتى معى إذا شئت.

ذهبنا معا، وصعدنا درجا فى ملهى مكشوف يقدم نمرا مسرحية وغنائية. وقرأت اسمها على الأفيش فى مدخل الملهى. ورأيتها أمامى جالسة وراء شباك التذاكر، تحصل نقودا، وتقطع تذاكر للمشاهدين. وقال لى المغترب الأبدى:

- استأجرت لوليتا هذا الملهى، ودخلت به عالم الفن.

سلمت عليها هى الجميلة الفاتنة، وضحكت لى من وراء شباك التذاكر، على حين استدار المغترب الأبدى إلى باب جانبى، وجلس بجانبها على مقعد بلا ظهر. ورأيتها ترفع من تحت رف الشباك قنينة نبيذ مستديرة بنية اللون، وتنزع سدادتها، وتفرغ جرعات منها فى حلقها ثم تناولها للمغترب الأبدى، فيفرغ جرعات فى حلقه، ثم أعادت القنينة تحت الرف. أحسست فجأة بمأساتها منذ تركها المارد. ولم أفكر حين قلت لها:

- ألا تزالين تحبينه ذهبت الفرحة من وجهها.

وقالت لى: نعم. لم أنسه لحظة. كان حبى الأول والأخير.

ورأيت عينيها تتغرغران بالدموع. وقال لى المغترب الأبدى:

- أهذا وقته ادخل وشاهد العرض.

لم يرق لى ما قاله المغترب الأبدى، ولا ما قلته فدخلت الملهى. كان ملهى خشبيا مكشوفا واسعا مثل أرض خربة، مكتظا بالمقاعد الخشبية القديمة وغاصا بالجمهور.

وعلى خشبة المسرح كان ممثلان يتشاجران. كانا زوجا وزوجة شهيرين بل نجمين, ولم يكن العرض قد بدأ بعد، فثمة بروفة كان ينتظر أن تجرى على عجل. وكان الجمهور يضحك بهيستيرية على النجمين، وقد انقسم إلى صيحتين: ربيها. ربيه. ورأيت الممثلة النجمة تتقيأ فجأة على خشبة المسرح: أع. أع. وصعد ابن لوليتا إلى خشبة المسرح، ليفض الشجار، ويشرف على تنظيف خشبة الملهى. كان طويلا عريضا مثل فتوة الصالات. وأقبل صديقى المغترب الأبدى، ليفض النزاع ويرضى الطرفين. وأسرعت بمغادرة الملهى إلى كورنيش البحر، تاركا ورائى لوليتا والمغترب الأبدى، وأحاول أن أفهم : كيف يمكن أن تجرى بروفة أمام الجمهور، أو يتشاجر نجمان بسوقية تفوق كل معقول؟

وقرب الفجر عاد المغترب الأبدى إلى غرفتنا. ورأيت وجهه، وقد أفرغ من كل حيوية، كانت به هو الأحمر الخدين. قال لى:

- لماذا ذهبت؟ كانت ليلة لا تنسى.

قلت له ساخرا :

- فى الملهى، وفى شقتها. أدرك ذلك. أرى ذلك على وجهك.

وأضفت:

- اسمع. سأعود غدا إلى القاهرة.

ولم يقل المغترب الأبدى شيئا. خلع ثيابه، وعلقها بالدولاب، ثم ذهب إلى الحمام، وسمعت صوت تقيئه.

(١٠)

الوقت كان عصر يوم شتوى، وقد خرجت لتوى قرب الغروب، من مشاهدة فيلم الوصايا العشر لسيسيل دى ميل. عبرت رصيف الشارع أمام سينما ريفولى ، وجانبا من الطريق. على الإفريز الضيق. فى وسط الشارع بين الرصيفين رأيتها. هى بعينها لوليتا. ترتدى بدلة صوفية بنية اللون، والفرو الأبيض الناعم يحيط بعنقها، وصدرها، وكميها، وخصرها، وقد أدخلت أطراف بنطلون بدلتها فى حذاء بوت بنى اللون، يؤطر الفرو الأبيض نهايته حول سمانة الساقين. بششت لرؤيتها ضاحكا، وكتمت شعورى بالفجاجة من منظرها. سلمت عليها، وبدأت أسألها عن أخبارها، فالتفتت بعنقها إلى الخلف قليلا وقالت لى:

هاهى أخبارى. هذا هو زوجى. تاجر خردة. مليونير يعنى.

نظرت إلى زوجها. كان رجلا أسمر ثلثى القامة يرتدى بدلة رمادية داكنة، ومن عنقه تتدلى كرافتة خضراء. وكان يحمل لها حقيبتها البنية اللون، وحقيبة زينتها البنية الصندوقية الشكل. سلمت عليه دون اكتراث. حدثت نفسى أن مشروعها الفنى قد أخفق، وأفلس، فآثرت أن تكون زوجة للمليونير وتريح عقلها من هم الفن، وفضول أهل الفن. وضحكت ثم قالت:

- الزواج أكثر راحة. أليس كذلك؟ ثم قالت دون أن تنتظر إجابة منى: - فيلم

ريفولى ممتع وجميل. أليس كذلك ؟
أومأت برأسى، قائلا: نعم. ممتع. وهو عن الهرم وبناته.
فالتفتت برأسها إلى تابعها الزوج قائلة:
ـ قل له. لا يحب سوى أفلام فريد شوقى، والمليجى، وهند رستم.
لم أقل لها شيئا، واستأذنت منها، منه، وابتعدت عنهما.

(١١)

بعد سنوات، رن جرس التليفون فى بيتى فى الساعة الواحدة ليلا. سمعت صوتها يقول لى:

ـ سليمان. تعال بسرعة. أرجوك.
قلت لها:
ـ الآن الساعة الواحدة صباحا، ونحن فى الشتاء.
فقالت لى:
ـ أرجوك. أريد أن أراك. ألا تريد أن ترانى خذ العنوان، وتعال.

دونت عنوانها. وارتديت ثيابى. وذهبت إليها فى عنوانها. فتح لى الباب ابنها حارسها وفتوتها. وأدخلنى إلى حيث أمه. ورأيت بعينى هاتين مشهدا لن انساه ما عشت.

كانت جالسة على طرف أريكة، وعلي منضدة واطئة فى الغرفة الفقيرة، الصفراء الجدران الضيقة المساحة، كانتِ زجاجتان من ويسكى بلاك ليبل مفتوحتين. وكان عندها ضيف عربى ، بغطرته، وعقاله، وثوبه الأبيض ينظر إلى حيث أنظر فى صمت. فتحت ساقيها كان الصديق الصدوق والود الحميم للمارد. وكانت ركبتها عارية، وهو تحت قدميها فى غاية من السكر يقبل ركبتها، ويتحسس بيده فخذها، وساقها، وهى تضحك دون انفعال له ولى. قالت لى متضاحكة:

ـ مالك بلمت

ومدت طرف كفها نحوى. فلمست أطراف أصابعى أطراف أصابعها مصافحا. قلت لها:

ـ خير.
فقالت لى:
ـ أحببت أن تجلس معنا. مع صديقك ومعى ، ومع ضيفنا العربى. اجلس واشرب.

جلست. ونظرت إليه جاثيا تحت قدميها، لا يعيرنى انتباها ما. وضحكت لوليتا ضحكة غانية قارحة مهوشة الشعر. كان زوجها الطيار قد ذهب، وزوجها المارد قد ذهب، وزوجها المليونير قد ذهب، وسحرها الأول يولى.

دلقت كأسين فى حلقى، وانصرف ضيفها العربى صامتا، لا يشعر بالرضا دون أن يحيى أحدا. وانصرفت بعده مشيرا بتحية من يدى ، تاركا صديقى، وصديق المارد معها. وكان ابنها لا يزال جالسا بالصالة، قرب المدخل ينتظر أوامرها.

(١٢)

بعد سنوات خطرت لوليتا على بالى. سألت عنها. قيل لى إنها مرضت بسرطان الدم، وماتت بائسة فى بيتها لا تجد طبيبا، ولا علاجا، ولا نقودا. وقيل لى إن ابنها لم يجد له من عمل سوى أن يكون فتوة فى ملهى.

التفاكشى

(١)

جلسنا حوله : أنا والمدرب وعازف الفلوت. كنا أصدقاء من شباب جيلنا فى مدينتنا الصغيرة. وكان هو على رأس حلقتنا يواصل إصلاح مدفع رشاش صغير فى يده. يجلوه بمبرد وخرقة وزيت، ويتحكم فى تثبيت إبرة الطلقات، بآلات دقيقة لم أر مثلها من قبل، إلا عند من يصلحون الساعات. وجه أشقر عالى الجبين عريضه، وذقن متوسط به طابع الحسن ، لعله من أمه المصرية وأذنان كبيرتان بدتا لى، كميكروفونين يتسمع بهما إلى أصوات الدنيا كلها فى بيته وخارج بيته، وعينان واسعتان زرقاوان كمياه البحر فى سواحل عميقة. أثارت نظرات عينيه فى نفسى، كلما نظر إلينا، وهو يعمل شعورا بالحيرة والغموض. بدت لى عيناه، وكأنهما تتحدثان إلينا، بلغة لا أعرفها. حين انتهى من عمله ربت على السلاح بحنو. كان اسمه: أنور. قال لنا :

- طراز هذا المدفع السريع الطلقات هو: تومى جن. وهو أهم سلاح رشاش حتى الآن، فى أيدى المقاتلين فى الدفاع، والهجوم، وإبادة العدو، وهو السلاح الذى سنستخدمه نحن الأربعة فى عمليتنا الكبرى .

نظرت إلى عازف الفلوت الذى جاء بى إلى هنا، فى هذا البيت مستفهما، فابتسم لى أنور، وقال لعازف الفلوت:

ألم تحدثه فى الأمر العظيم الذى سنقبل عليه، فقال له عازف الفلوت: لا. ليس تماما. قلت له فقط إن لديك مغامرة كبرى لنا، وإنك تركت لى مهمة اختيار أفرادها.

ابتسم أنور عندئذ، وأسند ظهره إلى الحائط ،وثني ركبتيه قرب صدره قليلا، وقال لنا :

- إذن فلنتعارف أولا وسأبدأ بنفسى .

وشرد لحظة، وقال وهو لا ينظر إلينا، وكأنه يحدث نفسه فى حوار مسموع :

- اسمى أنور التفاكشى . والتفاكشى يعنى أننى أصلح السلاح. ليس مهما اسم أبى. يكفى أن تعرفوا فقط أنه كان يونانيا ،ورحل إلى اليونان قبل الحرب

العالمية الثانية، ولكنه لم يعد إلينا قط. عاشت أمى بعد رحيله عامين ،واشتعلت الحرب ،"ويئست من عودته، فماتت المجنونة حزنا على غيابه. نعم . هى مجنونة. ليس لأنها ماتت، ولكن لأنها لم تفهم أن الحياة فى ذاتها تستحق أن تعاش. وأنها لا تتوقف على حياة أحد آخر أو موته. أغلقت أمى المطعم قبل وفاتها بأسابيع، واعتكفت حزينة إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة. كان مطعم أبى يبيع ساندويتشات الفول والطعمية، للموظفين، والعساكر، وضباط المركز القريب من هذا البيت. وكان أشهر وأنظف مطعم فى السنبلة الخضراء كلها. وكنت ولدا آبقا وصديقا للعساكر. هويت ما يحملونه من أسلحة، وعلمت نفسى بنفسى كيف أصلح أسلحتهم العاطلة من بنادق ومسدسات. ولم يهدأ غضب أبى على ، أو تسترح أمى من عبء الدفاع عنى، إلا حين نثرت بين أيديهما ذات ليلة ما كسبته من إصلاح السلاح للعساكر. وكان صيتى فى إصلاح السلاح قد ذاع لدى كل من يحمل سلاحا من الفلاحين، وأبناء الليل، وقطاع الطرق والعصابات المنتشرة فى مديريتنا، والمديريات من حولنا. صاروا يأتون إلى سرا وعلانية فى النهار والليل .

خرجت من صمتى ، وقلت للتفاكشى :

– حمل السلاح محرم على غير رجال الشرطة والجيش. كيف وبيتك قريب من مركز الشرطة؟

فقال ضاحكا دون صوت فرنات ضحكه تشيع فقط فى نبرات صوته:

ـ وما الفرق بين العساكر، واللصوص كلاهما يحمل سلاحا، والسلاح يخشى السلاح، إلا حين يفرض على الطرفين أن يلتقى السلاح بالسلاح.

تدخل المدرب، وقال لى:

ـ اسكت. لا تسأل ودعنا نسمع.

تنهد التفاكشى، وقال وقد سكتنا ثلاثتنا:

ـ أنا لحاجة الفريقين إلى آمن. ولا يعنينى أمر من يحارب من.

وعاد إلينا التفاكشى ناظرا بعينيه، إلى، وإلى المدرب، وقال:

هذا أنا. فمن أنتما؟

ورحنا نقدم أنفسنا إلى التفاكشى. بدأ المدرب يعرف التفاكشى، ويعرفنى بنفسه، كان يدرب طلاب الكلية الحربية على استخدام السلاح. جند قبل أعوام بالجيش ،فراق له الجيش، والسلاح، والضبط، والربط، والأمر، والنهى، وكره العودة إلى العمل مع أبيه فى السمكرة، وإصلاح بوابير الجاز. وأظهر إخلاصا وطاعة، فمنح شريطا ثم شريطين ،ثم ثلاثة، ثم أربعة أشرطة. وصار أمهر من يستخدم السلاح بين جنود دفعته. فراح يدرب رفاقه، وجنودا جددا على استخدام السلاح، وصيانة السلاح ،وإصابة الأهداف العالية، والمنخفضة، والثابتة، والمتحركة. وقدم له الضابط كتبا، وأغراه بمذاكرتها، ليتقدم إلى مسابقة تدريب الضباط فى الكلية الحربية على السلاح. ونجح فى المسابقة بتفوق، فتطوع بقية عمره كله فى الجيش.

وبدورى رحت أحدث التفاكشى، والمدرب عن نفسى ،أنا طالب الأزهر الذى

لا يحب علوم الأزهر، ويعشق روايات الجيب، وقراءة مجلدات طرزان، وروكامبول ،وباردليان، وفوستا فى مكتبة بحر مويس بالزقازيق.

ضحك التفاكشى مما قلته، وقال:

وأنت تحب المغامرة. لكننى أخشى من عبدة القول على عبدة الفعل، ومن الخياليين على الواقعيين. ولذلك سوف تخضع إذا قبلت عندما تحين اللحظة لتدريب قاس منى، ومن صديقنا المدرب. وقبل ذلك على صديقنا عازف الفلوت أن يقوم لك بعملية غسل مخ.

شعرت بالحزن والغضب معا، لكن أحدا لم يتوقف، عندما بدا على وجهى من انفعال. وران علينا الصمت إلى أن حدثنا التفاكشى عن الأمر العظيم، فقال:

ـ الهدف هو إبادة ألفى جندى إنجليزى، فى دقيقتين فقط، بأربع رشاشات فقط، فى معسكر التل الكبير.

هالنى ما أسمع وأعجبنى وروعنى. فصحت:

ـ عظيم سنضرب الإنجليز إذن فى مقتل.

ولم يعلق أحد منا بكلمة على ما قلته. فقط ساد بيننا الصمت، إلى أن خرج المدرب عن دائرة الصمت بقوله:

ـ ستكون إذن مذبحة كبرى لم يحدث مثلها، حتى فى صراع الدبابات مع الدبابات.

فقال عازف الفلوت للتفاكشى:

ـ كيف نسمع الخطة.

عندئذ قال التفاكشى ، وقد اقتربت رءوسنا:

ـ سنكمن ليلا فى مدرعة بساحة المعسكر، وننتظر فيها صامتين إلى شروق الشمس، سنرى ألفى جندى بالمعسكر ،وقد ارتدوا الشورتات والفانلات، وبدأوا فى ممارسة تمارين الرياضة السويدية. يستمرون فيها عادة ساعة. حين تسمعوننى أقول: الآن. سنفتح نحن الأربعة النار من مزاغل المدرعة على الجنود الألفين ،وطلقاتنا ستوجه إلى الرءوس والصدور. سيكون معنا سائق وطنى أثق به، يعمل بالمعسكر معى جالسا إلى عجلة القيادة، يتحرك بالمدرعة حول الجنود الألفين، ونفتك بهم فتكا سريعا. سيصاب كل من فى المعسكر بالذهول، وقبل أن يفيقوا سيقتحم بنا السائق بوابة المعسكر مفتوحة كانت أو مغلقة. وحين نبتعد ستكون سيارة ملاكى بانتظارنا نركبها ،ونغيرها فى الطريق عند مكان معين بسيارة أخرى.

عندئذ قال عازف الفلوت بإعجاب مسحور:

ـ ذلك سيقرب موعد الجلاء عن مصر.

وقال المدرب:

ـ نعم. لكن القيامة ستقوم بعد هذه العملية الحربية الكبرى. وقد يعيد الإنجليز الانتشار فى مصر كلها، ويتعرضون عندئذ لمقاومات أعنف فى قرى مصر ومدنها.

ظللت صامتا مروعا ،ومرتاعا ،وحالما بهذه المغامرة حتى سمعت التفاكشى يقول لى:

- ما رأيك أيها الشيخ الصغير، فقلت: ذلك يعنى أمرين أحدهما فى البداية، والآخر فى النهاية.

سكت لحظة، ثم قلت والتفاكشى يحدق فى:

ذلك يعنى أن عليك يا أخ أنور أن تلحقنا بالعمل فى المعسكر أولا، وفى عمل نكون به قريبين منك دائما.

فقال لى التفاكشى مبتسما:

- والأمر الآخر ،قلت: أين سنذهب بعد أن نغادر السيارة الأخرى. والبحث سيكون شديدا عنا وراءنا، يطاردنا، وأسماؤنا لديهم كعاملين متغيبين عن المعسكر وصورنا أيضا.

فقال التفاكشى:

- ذلك هو الأمر العظيم الآخر. هل نتفرق فرادى، ونختفى كل بطريقته أم نظل معا، ونختفى معا فى نجوع الصعيد، وكفوره مثلا علينا أن نقرر الآن.

فقال عازف الفلوت:

- سيان الأمر عندى. أنا خريج ملجأ يمارس عزف الفلوت للهواية، ولدى حرفة أمارسها، كصانع نسيج على الأنوال الخشبية.

وقال المدرب:

– وأنا لدى حرفة السمكرة، وفى سبيل هذه الغاية الوطنية الكبرى، لا أبالى بالهرب من الجيش.

وقال التفاكشى، وهو يمسك بالرشاش:

- وأنا لا أبالى بشىء خسرت حياتى أم كسبتها. ومعى حرفة أمارسها لعصابات الليل فى جبال الصعيد.

والتفت التفاكشى إلى، وقال ضاحكا:

- وأنت أيها الشيخ الصغير.

فقلت: لا أبالى. جدى كان فلاحا، وقد زرعت الأرض معه.

وقال المدرب للتفاكشى:

- ومتى سنبدأ؟

فقال التفاكشى وهو ينظر إلى: نحن الآن فى أواخر الصيف. وصديقنا سيذهب إلى دراسته فى معهده، وسوف نلتقى مرة أخرى مع نهاية الربيع، فسوف تكون عمليتنا فى عز الصيف فى العام القادم وأكون عندئذ قد فرغت من وضع كل اللمسات اللازمة للتنفيذ وبإحكام لا يسمح بأى خطأ.

وكان الفجر قد اقترب، فتعاهدنا على كتمان السر، وعلى عدم اللقاء إلا فى ليلة اليوم الأول من شهر يونيو فى بيت التفاكشى، وافترقنا من بيته واحد بعد الآخر. ربما لأننا كنا قد تآمرنا. وكان علينا أن نتصرف كمتآمرين.

(٢)

اقترب موعد الليلة الأولى، من اليوم الأول من شهر يونيو، وكنت قد عدت من معهدى الدينى بالزقازيق إلى السنبلة الخضراء . وأقمت مع أهلى لا أبالى برسوبى فى علم النحو، ولا بمذاكرتى له مرة أخرى، لأجتاز امتحانى الثانى فيه. وربما كان الرسوب لتركز روحى كلها فى عملية التل الكبير. وعدم عنايتى بدراستى لفوازير النحو، لأعرف إعراب كالزيدان وبالألف لا بالياء.

رحت أبحث عن صديقى الحزين عازف الفلوت . لم أجده فى بيته. أخذت أبحث عنه فى الخلاء القريب من المدينة. على ترعة البوهية حتى سمعت صوت الفلوت الأسيان، كصوت ناى عميق الشجى. اتجهت صوب مصدر الصوت إلى أن رأيت صاحبى جالسا وحيدا، فى الظلام على حجر على رأس أرض مجاورة لشاطئ ترعة البوهية. تنحنحت وأنا أقترب منه حتى لا أفزعه. فتوقف صوت الفلوت لحظة، وسمعت صوت صديقى، يقول لى:

- تعال يا سليمان.

اقتربت منه، وقد عاد إلى عزفه، وجلست بجانبه فوق حجر آخر إلى أن توقف عن عزفه لمقطوعته الأثيرة. وضع صديقى الفلوت فى حجره، وقال لى بيأس لم أعرف سببه بعد:

جئت تسألنى عن أنور وموعد لقائنا؟

قلت له: نعم.

فضحك بسخرية وقال:

- إنه الآن يبحث عن الحقيقة.

فقلت له بدهشة:

– ماذا

فقال لى بأسى:

- كما أقول لك. كان يحلم. وكنا نحلم نحن أيضا. كان يحلم، ولا يزال يحلم، وسيموت وهو يحلم، وسنموت كلنا، ونحن نحلم ولا شيء يطال.

وزفر بعمق وحمل الفلوت فى كفه، ونهض واقفا وهو يقول:

الحقيقة الوحيدة هى الله. قلت له ذلك، ولكنه لا يريد أن يفهم. لو فهم ما فهمته، لكان قادرا على تنفيذ كل حلم فى عالم آخر.

قلت له بحيرة:

- لا أفهم.

قال لى:

- غدا تعال إلى فى البيت، وسوف تفهم ما اكتشفته. فالكل باطل الأباطيل الكل باطل عدا وجهه.

سألت نفسى عندئذ: لماذا يتغير الناس بين يوم، وليلة وأنت يا سليمان بين عام وعام لا تتغير؟

وقلت لصديقى عازف الفلوت:

- أريد أن أرى أنور.

فضحك ضحكته الدائمة التى يصدرها دائما ساخرة من سقف حلقه وقال:

- ستجده جالسا فى عش طوال الليل والنهار، فى الحديقة أمام المركز، له على هذه الحال ستة أشهر، ولم يمس الإيمان قلبه.

(٢)

الشمس كانت ضحى. والنهار كان رطبا. ومستطيلات من الحشائش المصفرة تمتد أمام المركز. وناس يدخلون، وآخرون يخرجون. والجندى واقف فى وضع اعتدال أمام المركز. وقد ارتكز كعب بندقيته على الأرض بجانبه. وأمام المركز كانت حديقة المدينة الوحيدة، تتوسط الساحة بين محطة قطار الدلتا. والمركز يحوطها سور أخضر من الشجيرات، وبابها المتحرك ذو الألواح المتباعدة، مفتوحا على مصراعيه يعلو فضاءه العلوى قوس أخضر من الأغصان تتناثر فيه زهور بنفسجية اللون. وعبرت باب الحديقة.

كان البستانى يروى بخرطومه مساحة حشائش بالحديقة، وقد دس إصبعه فى فوهة الخرطوم، فراح الماء يندفع فىّ رشاش مخروطى من الرذاذ يتحرك يمنة ويسرة. جلت بعينى فى أرجاء الحديقة خمائل، وأحواض زهور شبه ذابلة من حر الضحى، والشمس لم تصر بعد فوق الرءوس. كان كل شىء بالحديقة يحجب كل شىء . سألت البستانى عن العش الذى به أنور. أشار لى بخرطومه إلى آخر الحديقة، فاتجهت نحو العش فى طرق ترابية مبتلة. رأيت العش.

عش صغير واطئ، أقيم من الأغصان الجافة. وأوراق مصفرة جافة تغطى سقفه. بداخله ظلمة واهنة الضوء، كضوء ما بعد الغروب. رأيته جالسا شاردا لا يرى أحدا. لم تقع عيناه على فقلت منبها هامسا:

أنور.

وقع نظره على. ابتسم ابتسامة واهنة وراء لحية كثة تغطى صفحتى وجهه، وذقنه، وعنقه، ووجنتيه، وفوديه حتى حواجبه صارت كثة فوق أهداب تساقطت وجفون مصفرة محمرة، وتحت عينيه نفاختان مسودتان. صدره عار كث الشعر وراء ثوبه فى فتحة صدره. ثوبه تهرأ، واسود بياضه لا يرى تحته أى نسج آخر. بدا لى مرعب النظر. وبان ترددى فى وقفتى. سمعت صوته يقول لى:

- لا تخف.

أحنيت رأسى ، ودخلت. وقال لى:

- اجلس.

جلست. ونظرت حولى. بجانبه كسرتان من خبز جاف تحجر فوق حجر قذر. قلة ماء مخضرة أسفل الحجر. نظر إلى مبتهجا. قال لى:

- دلك على عازف الفلوت

أومأت برأسى. سألته:

- ماذا حدث لم أنت هنا؟ وأنت ..

أشار إلى لأسكت. ساد الصمت بيننا وعاد إلى شروده برهة، ثم قال لى: أنا هنا أمارس النرفانا واليوجا إلى أن أصل.

كدت أن أساله عن هذه النرفانا، وتلك اليوجا لكننى، قلت له:

إلى ماذا تريد أن تصل؟

فقال لى: إلى صفاء الروح تجرد النفس لأصل.

عدت أقول له ملحا:

ـ إلى ماذا تصل يا أنور؟

فقال لى: إلى أسرار هذا الوجود، ووحدة الكون.

قلت له:

ـ وماذا بعد؟ فقال لى: سأقول لكل شىء كن فيكون.

استغفرت فى نفسى. حدثت نفسى أنه قد جن، وأنه يريد أن يكون إلها أن يكون هو الله نفسه.

قلت له:

ـ تعيد الخلق مرة أخرى.

فقال لى حالما:

ـ بالأسرار الإلهية وحدها سأجعل الأرض حدائق، وأملأ الدنيا عمائر، وأكسو الوجوه بالسعادة فلا يشقى أحد.

لم أستوعب ما هو فيه. قلت له بغباء:

ـ وعملك؟

فقال لى: كل عمل فى الدنيا يعمله البشر باطل إلى جانب ما أسعى إليه.

فقلت له:

ـ وإلى ذلك الحين. كيف ستعيش؟ وماذا ستأكل ؟

فقال لى شاردا: قطعة فى اليوم من كسرة خبز هى حسبى وجرعة ماء تكفى.

والتفت إلى كسرتى خبزه، وقلته، وقال لى، وهو ينظر فى عينى:

ـ إلى أن أصل.

ثم قال فجأة، وقد تجهم وجهه:

ـ انس كل ما كان. واذهب.

قلت له باحثا عن سر تحوله المجنون:

ـ والأمر العظيم الذى اتفقنا عليه.

فقال لى: الأمر العظيم ما أنا فيه.

وأضاف آمرا:

انس كل ما كان. واذهب. انهض وعش حياة السوائم، شأنك شأن غيرك إلى أن أغير الدنيا.

خفت من العاقبة لو ظللت جالسا. وقفت وغادرت باب العش. استدرت قائلا له بحنو:

ألا تريد شيئا آتى به إليك ؟

فقال لى: كل ما أريد عندى. اذهب.

لم أذهب بعد. قلت له:

- أتسمح لى بزيارتك بالتردد عليك؟

فقال لى: لا. اذهب. أنا فى حالى ألف شخص وشخص. اذهب.

انصرفت أسيان وآسفا. قلت للبستانى حين مررت به:

- خد بالك منه.

فقال لى:

- مسكين. الله وحده يرعاه، ويتغمره برحمته.

لم يطب لى أن أغادر الحديقة. جلست على مقعد خشبى ناظرا إلى عش أنور من بعيد، حتى توقفت الشمس بوهجها فوق رأسى، وتلاشت الظلال من حولى. شعرت بتوقف الزمن داخلى. نهضت وغادرت الحديقة. ودرت حولها حتى بلغت محطة السكة الحديد الحكومية الكبرى، وراء الحديقة ومحطة الدلتا. جلست تحت شجرة على رصيف المحطة المعبد. شجرة دقيقة الأغصان صغيرة الأوراق منمنمة الزهور. تبدو السماء وراءها عبر الأوراق، مثل لوحة رمادية طباشيرية، والوهج من حولى ساطع.

(٤)

عدت إلى الحديقة، بعد شهر مضى. لم أر العش ولم أجد أنور. خيل إلى أنه قد رجع إلى رشده البشرى، وعاد إلى بيته. رأيت البستانى جالسا يأكل خبزا، وجبنا، وأعواد جرجير أخضر، وبصلة حطمتها قبضته. قلت له:

- أين العش وأين أنور

فرفع عينيه إلى، وقال لى:

- أنور. تغمده الله برحمته.

جلست بجانبه مفاجئا، فقال لى:

- مد يدك. وكل معى.

لم أمدد يدى، وقلت له غير مصدق:

- مات؟

فقال لى: نعم.

قلت له:

- هنا فى العش؟

فقال لى: ذهب كعادته كل صباح قبل شروق الشمس ومشى كعادته شاردا بين قضبان القطار، وكفاه متعانقتان وراء ظهره. كان يسير مطرقا. فى هذه المرة لم يسمع صوت القطار القادم. فى هذه المرة أكله القطار. وجمعنا أشلاءه فى قفة. انهرت جالسا بجانب البستانى. أفكر فى أمر صديق ضاع.

عازف الفلوت

(١)

جذبني صوت عزف على آلة عجيبة. قريب هو الصوت من صوت الناى والكمان. صوت حزين لا يخرج من وتر. صوت آلة نفخ هو. سرت نحو مصدر الصوت فى حديقة مظلمة، يمتد ظلامها على شاطئ ترعة البوهية، حتى قاربت أطراف المدينة. رأيته جالسا فى الظلام مستندا بظهره إلى ساق، شجرة وحيدا يعزف على آلة كالعصا. همست مفتونا بالعزف: جميل. كف عن العزف، والتفت نحو صوتى. رأيت ابتسامته، والتماع بريق عينيه ،في ظلام الليل، كأنما منحه العزف نورا خفيا. قال لى بهدوء، وكأنه يعرفنى منذ زمن بعيد:

- اجلس.

وأنا أجلس بجانبه سألته:

- ما اسم هذه الآلة؟

فقال لى: فلوت. أحبه وأحب صوته. لنتعارف أولا.

قلت له:

- سليمان.

فقال لى:

- أنا سيد.

قلت له:

- لم أر هذه الآلة من قبل. من أين حصلت عليها؟ وكيف تعلمت العزف بها؟

فقال لى ببساطة بها رنة سخرية:

- من الملجأ.

وجمت للحظة. ولربما كان وجومى، سيطول لولا أنه، قال لى:

- منذ طفولتى بالملجأ، وأنا أعزف عى هذا الفلوت. جعل لى قيمة فى الملجأ كله.

سحقنى كونه نشأ يتيما. فقلت له:

- المهم أنك الآن صرت رجلا.

فضحك ضحكة ساخرة، كأنه يسفه ما قلت، وقال لى، وهو يقف:

ـ هيا بنا. سنلتقى مرة أخرى، فأنت كما أرى رجل طيب.
جذبنى صوته الحزين إليه. قلت له وقد وقفت لوقوفه:
ـ متى؟
فقال لى: إذا شئت هنا فى الليل، فى مثل هذا الوقت من الليل.
وصمت لحظة وقال دون أن يتحرك:
ـ وإذا شئت أن نتعارف أكثر، فتعال إلى بيتى فى أى وقت من النهار.
قلت له، ونحن نغادر الحديقة معا، إلى الشارع الفسيح الفاصل بين الحديقة والبيوت:
أفضل أن ألقاك فى بيتك فى أى وقت من النهار.
راح يصف لى الطريق إلى بيته، بالقرب من المدرسة الثانوية القريبة. حفظت منه اسم الشارع، ورقم البيت. وقال لى:
ـ قبل أن تزورنى. من أنت حتى يطمئن قلبى إليك؟
حدثته عمن أكون ونحن لا نزال واقفين قبيل افتراقنا.
فقال لى:
ـ سنكون صديقين. سأعلمك ما أعلم وتعلمنى ما تعلم. لدى مثلا مصحف شريف، وأحب أن تعلمنى كيف أقرأ القرآن الكريم قراءة مرتلة، ما دمت طالب أزهر. وجميل أننا فى الصيف، وشهور إجازة الصيف ممتدة أمامنا أقصد أمامك. وسأعلمك العزف على هذا الفلوت، إذا كانت لديك أذن موسيقية. سأعلمك أيضا ما تعلمته فى الملجأ: النسج على النول اليدوى، إذا لم تجد غنيا فى الحرفة اليدوية.
وافترقنا إلى موعد فى ظهيرة الغد.

(٢)

طرقت باب بيته، بمطرقة حديدية طرقات ثلاثة، طرقة إثر طرقة كما قال لى، وقلبى يخفق شوقا لأرى وجها لم يتح لى ظلام الليل رؤيته. فتحت لى الباب صبية. كانت فى ثياب البيت منكوشة الشعر. بدا لى شعرها ملتفا حول بعضه البعض، وملبدا صانعا حول وجهها، وأذنيها مروحة من الشعر. سألتها بخجل:
ـ سيد موجود. أنا سليمان.
قبل أن تجيب جاءنى صوته الحزين فرحا بى يقول لى:
ـ تعال يا سليمان.
أفسحت لى الصبية الطريق. وانعطفت بى فى صالة البيت الترابية، إلى غرفة فسيحة طينية الجدران على اليسار. دخلت الغرفة، وظلت الصبية واقفة على بابها تنظر إلى بفضول. كان سيد جالسا إلى نول خشبى، ولا يزال يواصل العمل به، والمكوك يروح ويجىء بين خيوط السدى وخيوط اللحم، وكفا سيد تصدان المكوك البيضاوى بقطعتين من الخشب فى كفيه يمنة ويسرة، وقدماه

على ذراعين تتبادلان الارتفاع والانخفاض، فوق ذراعين خشبيتين أسفل الخيوط. وفى آخر النول كانت بكرة وحيدة تتحرك، وترتخى مع حركة الخيط فى المكوك. قال لى سيد وهو لا يزال يعمل:

ـ اجلس يا سليمان. سأفرغ لك بعد قليل.

ثم قال لى مشيرا إلى أخته الصبية:

ـ هذه هى أختى صفية. حدثتها هى وأمى عنك.

وطلب من أخته أن تصنع لنا شايا صعيديا، وتكثر من السكر. وعاد سيد يعمل. ورحت أرقب حركت المكوك، واليدين، والقدمين وأسمع أصوات الحركة الكلية لحنا متسقا، وأنغاما رتيبة فى معزوفة الآلة الخشبية الضخمة، التى تملأ أكثر من نصف الغرفة.

طالت الفرجة. ورأيت مصحفا بجانبى على الكنبة البلدية، ففتحته على صفحة ما مستفتحا بأول آية. ولمحنى سيد فقال لى ضاحكا:

ـ ما الآية التى وقعت عليها عيناك؟ اقرأها لى.

وقرأت له الآية التى وقعت عليها عيناى قراءة مرتلة: ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. فقال لى عاتبا وهو لا يزال يعمل:

لم تقل: بسم الله الرحمن الرحيم . ولم تقل حين توقفت: صدق الله العظيم .

شعرت بخجل فقلت له:

لن أنسى ذلك مرة أخرى.

وجاءت أخته صفية بالشاى على صينية نحاسية، وضعتها على الكنبة بجانبى. وقال لها سيد وهى تخرج من الغرفة:

– قولى لأمك إن سليمان سيتغدى معنا.

هممت بالاعتذار عن الغداء لكن الوقت كان بعد الظهر، وسيد كان يرحب بى فى بيته فلم أقل شيئا. وظل سيد يعمل صامتا بجد. وشغلت نفسى بالنظر إلى حركة يديه وقدميه، وإلى ما حولى فى الغرفة. على يمينى تسريحة بنية هائلة حائلة اللون، أعلاها مرآة لامعة مصقولة، وأسفلها أدراج مغلقة فقدت مقابضها. وفوق الأدراج مشط وزجاجة كولونيا، وزجاجة صبغة يود صغيرة، ورباط من الشاش لا يزال بورقته. وعند آخر درج بالتسريحة، كان كتاب أصفر سميك تفسخ كعب جلدته لا يزال بورقته.

نهضت قليلا، وأخذت الكتاب فتحت تجليدته السميكة. وقعت عيناى على عنوان: شمس المعارف. كنت أعرف هذا الكتاب، فقد رأيته فى يد قارئ طالع مغربى كان يجوب دروب قريتى مرة فى كل عام وأنا طفل صغير. ابتسمت. ورحت أقلب الورق الأصفر وأنا أعجب فى نفسى كيف اجتمع هذا المصحف وكتاب شمس المعارف عند صاحبى سيد. وسمعت صوت سيد يقول لى:

ـ لا زلت على أول الطريق. والله يختار لى.

دهشت لأن سيد يتابعنى بعينيه، وهو يعمل على النول الخشبى. ودهشت لما قاله لى ولم أعرف آنئذ مقصده تماما. انشغلت برهة بتصفح الكتاب العجيب، إلى أن أحسست بسيد يوقف النول الخشبى، ويقول لى:

- الشاى برد.

ونهض سيد عن كرسى النول، وجلس على الطرف الآخر للأريكة وصارت صينية الشاى بيننا، وناولنى كوبى، وأخذ الكتاب من يدى ووضعه حيث كان على التسريحة. والتفت إلى قائلا:

- سترى اليوم عجبا فى هذه الغرفة، بعد أن ننتهى من شرب هذا الشاى.

أثناء شربنا الشاى، راح سيد يحدثنى عن نفسه: طلق أبوه أمه وهو طفل صغير. وكانت أمه حاملا فى أخته صفية. لم تستطع أمه أن تعوله، وترعاه، وهى تعمل فى بيوت الناس فى الوقت نفسه، فدفعت به إلى ملجأ الأيتام بالمدينة. وظلت تزوره مرة فى كل شهر، أو شهرين، أو ثلاثة شهور. لكنها ظلت تحتفظ بأخته ترعاها، وتربيها، وتجعلها تساعدها فى العمل فى بيوت الناس، ولم تدفع بها هى الأخرى إلى الملجأ. وبقيت من أجلها حرة بلا زوج. وتعلم هو سيد فى الملجأ أمرين: النسيج، والعزف على الفلوت. كان سيد يحدثنى عن حياته ببراءة من لا خبرة له بالناس، ولا بأفكار الناس ومواضعاتهم الاجتماعية عن بعضهم البعض، وكأننى صديق صدوق حميم وخليل يعرفه منذ الصغر. هزتنى ثقته بى، واعترافاته لى ، وصار شديد القرب إلى قلبى.

فرغنا من الشاى، فصفق سيد وجاءت أخته الصبية، فرفعت صينية الشاى من بيننا. : وقال سيد لها:

- جهزى البخور وموقد البخور.

وهى تغادر الغرفة قلت له بدهشة، وعيناى على كتاب: شمس المعارف:

- هل ستحضر الجن لى؟

فضحك، وقال لى بزهو: نعم وملك الجن نفسه: شمهورس. فالزم الصمت عند حضوره.

(٣)

أخذ سيد يضع على نار الموقد بخورا حاد الرائحة. وكانت الغرفة مغلقة النوافذ، ومظلمة، وكانت أخته الصبية جالسة على مقعد أمام التسريحة، تنظر إلى مرآتها منكوشة الشعر لا تزال. قال لى سيد:

سيظهر شمهورس لأختى وحدها فى المرآة. ستراه هى، ونحن لا نراه. ستسمعه هى، ونحن لا نسمعه. ولا تفزع حين ترى ما يصيب أختى من اضطراب وخوف، حين ترى ملك الجن، وتتحدث إليه.

هززت له رأسى متفهما. وبدوت شديد اللهفة لما سوف يحدث أمامى. وراح سيد يتمتم بتعويذة يحفظها عن ظهر قلب، من كتاب شمس المعارف، وهو يغذى نار البخور بمزيد من البخور. وحين وضع سيد بخور الصندل على النار، وفاحت

رائحته بدت لى أخت سيد، وهى ترتجف وترتعد مفتوحة العينين على اتساعهما تنظر فى المرآة. وهمست وهى ترتجف:

- حضر ملك الجن العظيم. إننى أراه وأسمعه. أنه يقول لك: لماذا جئت بى؟

فقال لها سيد: أخبريه أننى أسأله عن رأيه فى سليمان فسيكون لى صاحبا إذا أمرتنى.

فقالت له أخته على الفور، كأنها قد قالت له ما قاله: إنه يقول لك أمام عينى: ألهذا جئت بى؟ ما أسخفكم معشر الإنس. إنه يقول لك أيضا: صاحبك رجل طيب. وسيكون له شأن غير شأنك، فأنت ستسير فى طريق، وهو سيسير فى طريق. والله وحده يعلم ما الطريق. لكنكما ستظلان صاحبين إلى حين.

التفت إلى سيد آنئذ قائلا:

- أفهمت شيئا؟

قلت له: لا. كلام عام. اصرفه. ودع الغيب لله.

راح سيد يتلو تعويذة الصرف، حتى لا يدمر الجنى، كما قال سيد كل شىء. ولأننى كنت من يومى شكاك القلب، فقد رحت أفكر أننى فى جلسة نصب. أطرافها سيد، وأخت سيد وهذه المرآة فى غرفته. فأنا لم أر شيئا فى المرآة بعيني، ولم أسمع شيئا من المرآة بأذنى. وانتهى سيد من تعويذته، فقالت أخته له:

- الحمد لله. انصرف ملك الجن العظيم بسلام.

وبدأت أخت سيد تهدأ، وقد غمرها العرق مثلى، ومثل سيد هى فيما تظهره من حضور ملك الجن، والفزع من هيبة ملك الجن، ونحن نعانى من حر هواء حبيس، ونار موقدة، ونافذة مغلقة. وفتحت أخت سيد مصراعى النافذة وحملت موقد البخور وغادرت الغرفة. وقال لى سيد:

- سوف أقطع شوطا بعيدا مع الأيام، فى تحضير أمراء الجن ومعرفة ما كان، وما يكون، وما سيكون، ولن أسخر معرفتى إلا للخير.

ابتسمت وقلت لسيد ساخرا ومداعبا:

- أيمكنك أن تجعلنى أرى ملك الجن بعينى ، وأسمع ملك الجن بأذنى؟ فقال لى على الفور: لك لا. ولا لى أنا.

قلت له:

لم فقال لى: لا يرى أحد من الإنس أحدا من الجن ،إلا فتاة لم تدخل الدنيا بعد.

قلت له:

- أتقصد أنها لم تتزوج بعد؟

فقال لى:

- بل لم يصبها ما يصيب النساء حين يبلغن.

وتخلص سيد من لجاجتى. فقد زعق قائلا:

- جهزوا لنا الغداء.

وجاءت أخت سيد، وأم سيد بالغداء. وجلستا معنا وكان الغداء أرزا، وبامية مطهوة بلا لحم، وخبزا طريا، خرج لتوه من التسخين على صاجة فوق وابور الجاز. ولاحظت أن أخت سيد قد غسلت رأسها، ومشطت شعرها، ولفته بشبكة من خيوط زرقاء.

(٤)

ذلك اليوم غادرت بيت سيد، بعد أن دربته على قراءة آى القرآن على مهل، وبترتيل تجويد يعطى للحرف الساكن حركتين من إصبعى يده، وللحرف الممدود أربع حركات، وللهمزة الممدودة فى أول الكلام أو فى آخره ست حركات، وقطع النفس مع القراءة، فلا يتنفس إلا إذا توقف عن النطق معتمدا على ما اختزنه فى صدره من الهواء. وأريته علامات مواضع الوقف، والوصل، وجواز أحدهما فى الترتيل المجود للقرآن. وبدا لى سيد سعيدا بما يتعلمه منى. وكانت أكواب الشاى المزرود تأتى ملآى، وتذهب فارغة بين حين وحين. وكانت لحظة مغادرتى لبيت سيد عند الغروب لحظة فرار بالنسبة لى.

ولأننى رغم حبى لعزف سيد فى ظلام الليل ، لم أشعر بالرضا عن وجودى فى بيت به نول خشبى، وصبية منكوشة الشعر، وأم عجفها الزمن، وغارت عيناها، ومرآة مسحورة يختفى وراءها ملك الجن، وكل قبيل الجن، وصاحب ممزق بين العزف، وقراءة القرآن وتحضير ملك الجن.

وكلما شدنى الحنين لعزف سيد، وصوته الأسيان الحزين، حتى لأحار بين صوته، وصوت الناى، أذهب إليه فى ظلام الليل قرب منتصف الليل، حيث يجلس على حجر، ويعزف مسندا ظهره إلى ساق الشجرة، ثانيا ركبتيه إلى صدره، وعيناه تومضان فى ظلام الليل، وشفتاه متكورتان على ثقب جانبى بالفلوت والصوت، ينساب حنونا كصوت الناى والشبابة من الثقوب. وحين ينتهى من العزف حين يشبع من العزف، وبث هم القلب يلتفت إلى قائلا فى كل مرة:

فى الملجأ كنت أعزف على ناى خشبى فى الليل، وفى الحفلات التى يجمعون فيها التبرعات كى يطعموننا. وحين تخرجت من الملجأ، وقد بلغت من عمرى ست عشرة سنة أعطونى هدية هذا الفلوت المعدنى.

ونسير قليلا معا، ونتحدث قليلا معا ثم نفترق ،وهو يقول لى فى كل مرة:

- ألن تزورنى؟

فأقول له:

- إن شاء الله.

(٥)

انقطع صديقى سيد عن الذهاب إلى الحديقة ليلة بعد ليلة. أذهب إلى الحديقة، ولا أسمع صوت الفلوت يدعونى إليه من بعيد. وأصل إلى شجرته وحجره، فأجدهما وحيدين ولا شىء سوى الظلام، ولا صوت سوى نأمات الليل وهسيس الأوراق. وحدثت نفسى أنه مريض. ذهبت إلى بيته مرارا فى عز

الظهيرة، وفى ضحى الصباح، وعند الغروب. تقول لى أمه بحزن شديد:

ـ سيد سيد لم نعد نراه. هجر النول والبيت. هجرنا سيد. يحمل مصحفه قبيل الفجر، ولا يعود حتى ليأكل. يبيت خارج البيت أكثر الليالى. وإذا عاد يصرخ فينا كى نعود إلى الله.

فى المرة الأخيرة وجدت أمه وأخته محجبتين، وقد استسلمتا لسكينة عميقة لا تباليان بما هما فيه، ولا بما يأتى به الغد. قالت لى أم سيد بذات الحزن:

ـ سيد، سيد ستجده فى جامع من جوامع السنبلة الخضراء.

(٦)

منذ ذلك الحين تجاهلت صوت سيد، وعزف ناى سيد، ورعشة التردد فى صوت سيد، وصوت الناى إلى أن صادفت سيد يوما قرب الغروب، وقد انحسرت الشمس عند القنطرة ،عن طريق الترعة وأشجار الحديقة. رأيته يصعد درج سلم خارجى لمقر جمعية الإخوان المسلمين. ناديته فتوقف والتفت. لحقت به ،فقال لى لفوره بفرح شديد:

ـ تعال معى. ستلتقى بخير إخوة فى الله. يصلون، ويصومون، ويتهجدون فى ظلام الليل، ويتعاونون على الخير، ولا يعملون عملا إلا لوجه الله.

صعدت معه الدرج، ودخلت معه ردهة الجمعية. كل الوجوه من حولى تحمل لحى وشوارب محفوفة. الكل بين واقف وجالس شباب عفى ، تفوح روائح العرق والخصوبة من أيديهم وأعناقهم. بدوا لى، وكأنهم على سفر فى حال هجرة. سألت سيد:

ـ ما الخبر؟ فقال لى: نحن نستعد للجهاد الأصغر.

قلت له:

ـ فى القناة، فقال لى: بل إلى جهاد أعظم فى أرض فلسطين.

كنا فى شهر إبريل. ضحكت ساخرا، وقلت له هامسا خشية آذان أصحاب اللحى:

ـ الإنجليز هنا، والإنجليز هناك، واليهود أيضا نتحرر هنا من العملاء ثم نتحرر هناك.

فقال لى برثاء:

ـ لا تزال صغيرا، ولن تفهم شيئا.

وانصرف عنى إلى الوجوه واللحى ليبحث له عن دور بين المهاجرين للجهاد.

ونسيت مرة أخرى، أمر سيد، وعزفت عن الذهاب إلى بيته، أو حتى السؤال عنه بمقر جمعية الإخوان، إلى أن التقيت بأخته صفية مصادفة متسربلة هى الصغيرة العمر بالحجاب. قالت لى: إن سيد لم يذهب إلى فلسطين، تركوه وأخذوا غيره إلى حين.

(٧)

ذات نهار. والصيف فى عزه حرا وضوءا. كنت جالسا تحت شجرة ظليلة.

صغيرة الأوراق على رصيف محطة السكة الحديد، أقرأ فى كتاب علم النفس التكاملي. ولم أكد أقطع فى قراءتى سعيدا بما أعرف عدة صفحات، حتى رأيت الكتاب يخطف من يدى. نظرت فزعا إلى من فعلها، فرأيته واقفا أمامى جاد الوجه صارم الملامح، وقال لى وهو ينظر إلى غلاف الكتاب باستنكار بالغ:

ـ أتقرأ فى كتاب من كتب الكفر وتترك كتاب الله؟

وقبل أن أنطق بحرف، أو أقف لأجادله كان قد صفعنى بكفه بالقرب من أذنى، وطوح الكتاب بعنف، فسقط ممزقا بين قضبان القطار. وفوجئت به ينظر إلى باحتقار من أعلى إلى أسفل ، يذهب عنى مسرعا.

ونزلت بين القضبان. ورحت أحمل أشلاء الكتاب. كنت قد استعرته نظير قرشين لقراءته. والآن صار على أن أذفع ثمنه وسوف ألجأ إلى أبى وأمي ، لأروى لهما ما حدث حتى يدفعا لى ثمن الكتاب خمسون قرشا.

بلعت غضبي إلى قرب الغروب. ولم أطق أن أبيت غاضبا فذهبت إلى بيته. وسألت أمه عنه، فغابت لحظة وخرج إلى هو باسما ، وكأنني عدت إليه تائبا من الذنب، وازداد غيظى ، ورفعت كف يمناى، وصفعته ثم كف يسراى وصفعته. لم تكفنى الصفعتين. وقفت أنتظر رد فعله لأكون راضيا عنه. توقعت أن نتعارك. سأكون راضيا. توقعت أن يعتذر. سأكون راضيا. توقعت أن يطردنى من بيته. سأكون راضيا. لكن الدموع انبثقت من عينيه الجميلتين، وقال لى. هو من مزق كتابا، ومزق معه علما سعت البشرية كلها إليه:

ـ يهديك الله يا أخى.

(٨)

شدتنى إليها عناوين الصحف المثيرة. كانت حرب فلسطين قد استؤنفت مرة أخرى. انتهت الهدنة الأولى، وكان كل من الجانبين العربى والإسرائيلى، قد عزز مواقعه فيما ظننت خلال فترة هذه الهدنة. وكنت قد انتهيت من امتحانات سنتى الدراسية بالمعهد الدينى. وركبنى الشعور بالذنب أنا الذى أعفيت من التجنيد، لأننى أحفظ القرآن، ولأننى طالب بالأزهر. وزاد من شعورى بالذنب أن فى جيبى لا يزال جنيها ونصف. وقدرت أننى لو ركبت قطار الدلتا، وغادرت الزقازيق عائدا إلى السنبلاوين حيث الأهل فلن أتمكن نفسيا، ولا عائليا من الذهاب إلى فلسطين، وخوض مغامرة الحرب إلى نهايتها. ليس عازف الفلوت خيرا منى، ولا أكثر وفاء بواجب الحرب. كان عازف الفلوت قد سبقنى. استطاع أن يأخذ نفسه، ويركب قطارا إلى غزة، ويلقى بنفسه فى معسكر البريج دون أن ينتظر سماح الإخوان له بالسفر. قلت لنفسى: مثله فلتفعل. جلست على مقهى، وكتبت سطورا لأهلى وأنا أحدث نفسى أننى قد غفرت لسيد. اشتريت بريها كاكيا، وشورتا كاكيا، وقميصا كاكيا. هكذا ظننت ثياب الجندى الفدائى. ركبت أول قطار إلى الإسماعيلية، وعبرت القناة على ظهر معدية إلى القنطرة شرق، وقطارا ثانيا إلى غزة، ولم يكن معى تذكرة سفر، ولا تصريح عبور لسيناء، أو دخول إلى غزة. فى

الصباح التالى كنت فى معسكر البريج استمع ممن فى المعسكر، إلى مغامرات عازف الفلوت نحوا من أسبوع، ولا أراه. كان فى المواقع الأمامية التى تحاصر المستعمرات اليهودية، وأتلقى تدريبا شاقا يوميا على حرب العصابات، من شروق الشمس إلى غروبها.

ظهر يوم، التقيت مصادفة بعازف الفلوت فى خلاء المعسكر. تعانقنا كأن لم يكن بيننا شىء . كان وجهه يطفح بسعادة غامرة ورضا، لم أر مثله فى وجه أحد قط. وجد لنفسه الدور الأمثل لحياته. أن يكون مقاتلا حتى النهاية ولا شىء آخر سوى القتال، ربما لذات القتال، وربما دون أى هدف. فجأة أراد أن يرينى مهارته. مد يده إلى جانبه، وسحب مسدسا من حزامه العسكرى، وصوبه فى حركة خاطفة مثل الكاوبوى إلى سلك تليفون فوق رءوسنا، ممتد بين الأعمدة الخشبية، وأطلق طلقة واحدة انقصف معها السلك، وسقط طرفاه على الجانبين. بدا لى مزهوا بنفسه كما لم أره قط. ووجدتنى أسأل نفسى: « هل جئت إلى هذا المعسكر لأرى ما فعل الله بعازف الفلوت» ،ولم يلبث أن تركنى دون أن يطمئن لى على حال فى هذا المعسكر.

ورأيته مرة أخرى، بعد صلاة العصر. كان واقفا مع مدرب المستجدين من دفعتى يحدثه، ويشير نحوى ،ثم إلى ناحية من المعسكر، والآخر يهز له رأسه موافقا ومؤكدا. وانصرف عازف الفلوت. ركب عربة جيب قادها بنفسه دون أن يلوح لى بتحية ما. ولم أره بعد ذلك فى المعسكر كله. كان هناك دائما فى المواقع الأمامية، فى صحراء مترامية، تمزقها الهضاب والتلال وتصهرها حرارة الشمس نهارا ، وترجفها برودة الجو ليلا. وفوجئت إثر انصرافه بمدرب دفعتى من المستجدين ينفخ فى صفارته داعيا لنا إلى التجمع فأسرعنا إليه من كل ناحية ،واصطففنا أمامه صفا واحدا. كان عددنا لا يتجاوز العشرة عدا. وقادنا المدرب وراءه إلى حيث كان يشير عازف الفلوت، وتوقف بنا أمام منبسط من الأرض مغطى كله بنبات شوكى. أشواكه طويلة حادة الأطراف ،والجوانب كشفرات سكاكين مسنونة. وأصدر المدرب لنا أمره بالانبطاح أرضا، ووجوهنا نحو أرض الأشواك فنفذنا أمره فى الحال. وأمرنا بالزحف فى وسط الشوك تماما حتى نعبر حقل الشوك كله دون توقف فنفذنا أمره فى الحال. كان كل من معى يرتدى سروالا يغطى ساقيه، وقميصا بكمين طويلين يغطيان ساعديه عداى. كنت لا أزال بالشورت، وقميص النصف كم اللذين جئت بهما من الزقازيق.

امتثل الكل للأمر، وبدؤوا فى الزحف منتشرين فى حقل الشوك، وظللت واقفا مترددا أنظر إلى ساعدى المكشوفتين، وساقى العاريتين. وسمعت صوته آمرا وناهرا:

- نفذ الأمر يا أخي. فى الحال.

نفذت الأمر، وبدأت بالزحف، وقد اجتاحتنى روح من التحدى. سأعبر حقل الشوك مهما كلفنى الأمر. تتبادل ساقاى، وفخذاى العاريتان تقريبا الدفع لى فى زحفى إلى الأمام، ومرفقاى يتناوبان نقل صدرى خطوة بعد خطوة على

الأشواك. أدركت أننى أتحدى أمر عازف الفلوت للمدرب لا المدرب. وأدركت فى اللحظة نفسها أن سيد يستأنف فى ترويضى، ما عجز عنه يوم قذف بالكتاب من يدى بين قضبان القطار. كانت الأشواك تنغرس فى ثيابى ، وفى الأماكن العارية من ساعدى، وساقى، وفخذى، وتشرح اللحم، وتتضمخ بالدم. وكان قرار التحدى بداخلى يدفعنى إلى عدم المبالاة بهذا الجسد، ولا بالوخز، ولا بالجراح، حتى وجدتنى أول المجتازين لحقل الشوك. وأهب واقفا معلنا انتصارى الخاص، دون أى صوت قبل أن ينهض أى أحد.

عندئذ أقبل المدرب نحوى ورفع يدى قائلا:

- هكذا ينبغى أن يكون المقاتل.

وترك يدى تسقط بجانبى، ثم قال للكل:

- سنواجه فى زحفنا لاقتحام المستعمرات أراضى أقسى وأشد. والتدريب وحده هو الذى يعدنا لمواجهة كل ظرف.

والتفت إلى قائلا:

- اذهب إلى مخزن التموين بالمعسكر، وقيد اسمك، وخذ ما يعطونه لك من ثياب غير هذه التى عليك. ومر على الصيدلية لتضمد الجراح التى أصابتك.

وأشار لنا بالانصراف، فتفرقنا من حوله. وذهبت إلى المغسل العام بالمعسكر. كانت كل الصنابير العالية مفتوحة تتدفق منها المياه بلا انقطاع. نزعت ثيابى كلها، ودخلت عاريا تحت صنبور، كان كل رفاق سريتى معى تحت الصنابير عراة تماما، كما ولدتهم أمهاتهم مكشوفى العورات. لم يكن معنا ما نجفف أجسادنا به، فرحنا نتحدث متناثرين فى قاعة المغسل الفسيحة حتى جفت أجسادنا فى حر الصيف. ودق جرس العسكر يدعونا إلى العشاء، فارتدينا ملابسنا، وأسرعنا إلى قاعة الطعام.

(٩)

لأول مرة، منذ دخلت هذا المعسكر أكلف مع رفاق سريتى بعد تعب حقل الشوك ،وجراحه الموجعة بالحراسة فيما بقى، من ساعات الليل بين العاشرة مساء والسادسة صباحا. لم تتح لى الفرصة، لأنام لبضع ساعات، ولم تتح لى الفرصة لأذهب إلى مخزن المعسكر، لأبدل ما على من ثياب بثياب المعسكر. أعطيت بندقية طراز لى أنفيلد، وسرت فى طابور سريتى إلى مواقع الحراسة فى دائرة المعسكر بجوار الأسلاك الشائكة. وكلما وصل طابورنا إلى موقع خرج واحد منا ليبدل نوبة الحراسة.

أوقفت عند مكان قصى فى المعسكر بجانب السلك الشائك الملتف الدوائر. وابتعد الطابور. راعنى أن الموقف مكشوف لأى متسلل ،فلا برج به ولا تبة حراسة من أكياس الرمال. فقط كان ثمة حجر، يمكن أن أجلس عليه أو أختبئ خلفه عند أى هجوم.

كان القمر ساطعا، وقريبا من الأرض فى ليلة البدر، والصحراء تحته

متراميـة غـارقـة فى ضـوء غـامض تقطعـهـا تـلال ومـسـاحـات من الأعـشـاب الصـحـراوية، هنا وهناك. اكـتـشـفـت وأنا أحـدق النظر فـى نصف دائرة حـول المعسكر وراء الأسلاك، أننى أعانى من قصر النظر، وأنه ليس بوسعى أن أميز كلبا يتحـرك، ولا موضعه من كلاب الليل الهـائمة، وهى تنبح وتجرى وراء الأرانب البرية. وتراءى لى وجه سيد فى دائرة القمر البدرى وسمعت صوته يقول لمدرب سريتى:

خذهم بقسوة. كلفهم الليلة أيضا بالحراسة. لا تترك لهم فرصة لراحة .

رحت أنظر حـوالى، وأحـرك قـدمى، وأنفخ فى كفى، وأسيـر بضع خطوات هنا، وبضع خطوات هناك لأدفئ جسـمى فى برد الليل. وبدأ النوم يداعب عينى، والصمت يسـود المكان والمدى. عـدت أنظر إلى وجـه القـمـر. رأيت وجـه سـيـد يضحك على، وشفتاه منحسـرتان عن أنياب. رفعت بندقيتى، وصوبتها إلى وجه القمـر وأطلقت على سيد طلقـة. راعنى تجاوب صـداها من حولى. أدركت أننى قد أيقظت المعسكر كله بطلقتى. انتظرت حـركة من حـولى لحظة بعـد أخـرى، لكن شـيئا لـم يحـدث جلست علـى الحـجـر وقـد خـدر البـرد جـسـدى ورحت ألعن اليوم الذى، عرفت فيه سيد واللحظة التى استمعت فيها إلى عزفه.

وبدأت الانتقام من سيد فى خيالى. جعلته يسير مع قرد، وهو يعزف، والقرد يرقص من حـوله والناس يضـحكون ويرمـون له بقـروش الصـدقـة. جـعلتـه يطوف بالمقـاهى، ويـجلس علـى كـرسـى فى الركن، ويعـزف لمن بالمقـهى، ثـم يتـوقف عن العزف، وينتظر جود أهـل الجود. جـعلته يطوف بالقرى عـازفا والأطفال يتبعونه حتى يخرج بهم من القرية، وكان مشهد زحفى وسط الأشواك يتراءى لى.

ولابد أننى قـد رحت فى النوم وأنا جالس على الحـجر والبندقية مـرتكزة على كعبها بين فـخذى، وعقلى يواصل انتـقـامـه من سيد، فـقـد انتبـهت فـجـأة على البندقـيـة تسـحب من بين يدى. وظننت أنـه العدو قـد دخل المعسكر من قـبلى. نهضت واقفا مـرتاعا، ومفتوح العينين، وطنين عال يدوى فى أذنى. رأيت أمامى قائد العسكر، والبندقية فى يده، يقول لى بحنو:

ـ لا تفزع. اجلس ودعنا نتكلم، ونتعارف.

وراح يخبرنى أننى لو أطلقت طلقة أخرى لقـامت قائمة المعسكر كله. وسألنى عن أسباب طلقتى، فقلت له إننى كنت أسلى نفسى، لأبعد النوم عن عينى ، فقد عبـرت زاحفا حـقل الشوك بالمعسكر. وشـاعت فى صوته رنة الإشفاق، وهو يقول لى:

ـ بهذه الثياب القصيرة التى عليك

كدت أن أبكى كطفل، وأحكى له عن أفاعيل سيد، لكننى تماسكت، والتـزمت الصمت. سـألنى عن ثيابى لم لم أغيرها؟ فور وصـولى إلى المعسكر. اعتذرت له بعدم مـعـرفتى بأى شىء فـى المعسكر حتى هـذه اللحظة وبأن أحدا لـم يرشـدنى إلى أى شىء . فجأة سألنى ، وهو ينظر بعيدا:

- هل ترى هذه الشجرة؟

نظرت حيث نظر. لم أر شيئا محددا، فالأشياء كلها واحدة فى عينى فى منظر عام واحد.

قلت له:

- أين لا أرى أى شجرة؟

فقال لى باسما:

- لا عليك. حاول أن تبقى ساهرا حتى يأتى بديل لك فى الصباح، ولا تطلق أى طلقة إلا إذا رأيت عدوا.

ونهض واقفا. ورحت أغفو برغمى لحظة، وأستيقظ لحظة إلى أن أشرقت الشمس.

(١٠)

لم أستيقظ إلا بعد صلاة العصر. تركونى نائما فى عنبر خال عارى الجدران، نوافذه العشر، لا يسد فراغاتها إلا شبكات من الأسلاك الدقيقة الثقوب، تطل على الخلاء حول العنبر من كل ناحية. على أرضية العنبر الأسفلتية أربعون برميلا من الرصاص، فارغة يحمل كل برميلين، منها لوحا خشبيا عرضه متر، وطوله متران. هى أسرة العنبر لمن يأتى ولمن يذهب.

انتفضت جالسا فوق البطانية الوحيدة التى أنام عليها. كان الجو ساكنا. وقد غرقت فى العرق. بدأت أتذكر كل ما حدث فى أمسى. تراءى لى كله حلما ينسج بسرعة غامضة. وشعرت بحكات تأكل كل الأماكن المكشوفة من وجهى، ورحت أتحسس آثار الوخز والخدوش، وأنزع أطرافا من الأشواك التى تكسرت، واندفنت تحت بشرة الجلد هنا وهناك بأطراف أظافر طالت دون أدرى. دهشت لنفسى لأننى لست على عجل، ولأننى هجرت فى هذا العنبر الخرب لم أوقظ لصلاة ، لطعام، ولا لأى سبب. شعرت بأننى شىء زائد لا يذكره أحد فى هذا المعسكر. ولعنت سيد. وكان على أن أتذكر نفسى.

دخلت المطعم. كانت مناضده الخشبية بمقاعدها المتراقصة المعوجة خالية. بدت لى مهجورة منذ ألف عام. وفى واجهة المطعم كان فرن مهجور، لم توقد فيه نار منذ أن هجره الجنود الإنجليز، الذين كانوا بهذا المعسكر منذ أقل من عام مضى. ورحت أتأمل كاريكتيرا ساخرا تركه الإنجليز وراءهم على الجدار، للملك عبدالله على قتب جمل، وهو يبدو سعيدا، وجلوب باشا يمسك بخطام الجمل، وقد بدا الثلاثة فى حركة سير بالراكب السعيد، وقلت لنفسى « إن موعد الأكل لم يأت بعد» وأكدت لنفسى أننى لست جائعا.

ملت إلى المغسل العام. كانت صنابيره لا تزال تصب مياهها. لم يغلقها أحد. غسلت وجهى على عجل. وفعلت خيرا، فأغلقت الصنابير واحدا بعد واحد غير متسرع. ونسيت أن على أن أتوضأ وأصلى ما فاتنى من صلوات فى يومى. وبدأت اكتشف ما غاب عنى من أمور هذا المعسكر ومن فيه من الأغراب الذين

يروحون ويغدون،مختلفى السحن، والعقول يحمل كل منهم فى نفسه عالمه الخاص،وناره الخاصة المتصلة بريه وحده، ويعنى بنفسه فى النوم، والصحو، والصحة، والمرض. يدركون أنهم فى حرب، أو على مقربة من الحرب فى أى لحظة، وأنا الوحيد المجهول الذى نسيت نفسى.

بحثت عن الصيدلية حتى عثرت عليها فى خلاء المعسكر. غرفة خربة إلا من رفوف خشبية عليها أدوية إسعاف بها طبيب لا يرتدى بالطو الطبيب الأبيض، وصيدلى في زى عسكرى متواضع، كصاحبه معه. كانا مسترخيين على مقعدين والطبيب يتثاءب. نهض الصيدلى دون أن يسأل الطبيب، أو يقول له الطبيب شيئا، وراح يضمخ لى جراح الأمس بصبغة اليود الحارق، وينزع ما بقى من أطراف الأشواك فى جسدى. وقاس الطبيب درجة حرارتى وضغطى، وقال لى:

- عظيم لست بحاجة إلى تضميد. ستجف جراحك وحدها وتتقشر.

ثم قال لى:

- اذهب إلى الأخ صلاح فهو ينتظرك.

(١١)

قال لى الأخ صلاح حين رآنى:

- أخيرا صحوت. تركناك نائما. كنت محموما تهذى، وأعطاك الطبيب حقنة مسكنة. اجلس.

وناولنى الأخ صلاح مظروفا مفتوحا، وهو يقول لى:

- جاءت لك رسالة فتحناها وقرأت ما بها. واعذرنى. نحن فى حالة حرب، ونقرأ ما يرسل ، وما يأتى من رسائل الإخوة فى المعسكر. اقرأها.

كانت رسالة من أبى يخبرنى فيها أن أمى مريضة مرض الموت، وأنها تريد أن ترانى ، قبل أن تودع الدنيا، وأن على أن أحضر بسرعة، ثم أعود حسب مشيئتى. ولم يقل أبى شىء آخر فقط وقع باسمه.

هممت بأن أعلن للأخ صلاح رفضى، وقد تمثل لى وجه سيدا ضاحكا، وساخرا لكنه أوقفنى، وقال لى:

- اذهب إلى أهلك. وسعيك للجهاد مشكور، ولك أجره عند الله ، وكأنك قد جاهدت فعلا.

قلت له مرتاعا:

- سأبقى. هذه حيلة من أبى وأمى.

فقال لى:

- ربما. لكن اسمح لى. سأصارحك. لدى فراسة تخبرنى، أنك منذور لأمر آخر، لا يعلمه إلا الله وحده. لديك قصر نظر لا ترى معه الأشياء البعيدة. اكتشفت ذلك عندما كنت معك فى نوبة الحراسة أمس. كان ينبغى أن تكشف كشفا طبيا قبل أن تأتى إلينا، لكنك جئت دون أن يعلم الإخوة فى مصر بقدومك، وأقمت بالمعسكر دون أن يقيد لك اسم بالمعسكر. لا أدرى كيف حدث ذلك؟

ثم قال بحسم:

ـ ستعود إلى مصر الليلة، وفى آخر قطار.

لزمت الصمت. وأشار صلاح بيده إلى شخص ما، ثم انحنى نحوى قائلابود شديد:

ـ دعنا نتعارف أكثر. قد نلتقى يوما فى مصر إذا امتد بنا الأجل. ومع أننى كنت محبطا، فقد أخجلني وده ، وأراحتنى صراحته معى، ورحت أجيبه عن كل ما يسألني عنه، وأبوح له بما لم يسألنى عنه، فقد تذكرت أول ليلة لى فى هذا المعسكر. نمت ملتحفا فى برد الليل ببطانيتين. وشعرت بمن جاء وسحب عنى البطانيتين، وتركنى نائما فى برد الليل، ثم شعرت بمن يدخل العنبر ،ويمشى خفيفا متفقدا النيام ،حتي وصل إلى،ووجدنى بدون غطاء، فسعى فى العنبر، وأيقظ من أخذ عنى البطانيتين، وأخذ بطاطينه كلها من فوقه، وغطانى بها، وصحبه معه، وأوقفه حراسة إلى الصباح على باب العنبر عقابا له.

وحين وصل بوحى لصلاح إلى ذكر سيد وجم، وانعقد ما بين حاجبيه وهو يستمع إلى باهتمام. وهمس لى:

ـ فهمت الآن كل شىء .

ثم قال لى:

– لو نجا سيد من هذه الحرب سيبحث عن حرب، أى حرب ،وإذا لم يجدها سيحارب نفسه طلبا للموت. يظن كل موت شهادة.

وجاء من يحمل صينية طعام وضعها بيننا. ومد صلاح يده وهو يقول:

ـ باسم الله. مد يدك معى. لا ينبغى أن تسافر جائعا.

وحين آن لنا أن نفترق، ونتعانق كصديقين متواضعين مد يده بنقود، وضعها فى جيب قميصى، وهو يقول لى:

ـ ستكون بحاجة إليها فى طريق عودتك.

ثم قال لى ، وهو يناولنى تصريحا بالعودة من المعسكر:

ـ هذا أمان لك فى العودة حتى لا يظنك مفتشو القطار جاسوسا.

وتنهد ثم قال باسما:

ـ لا أعرف كيف نجوت منهم فى قدومك دون تصريح، ودون تذكرة سفر. خذ دائما بالأسباب، ثم توكل.

ووقف معى يصافحنى وأنا أركب عربة الجيب التى حملتنى إلى غزة. وقال لى:

ـ أكتب إلى هنا بأحوالك، وادع لنا. واسمع عنى. سيد مقاتل مخلص حتى الموت. لكن خذ نصيحتى ابتعد عنه ابتعد عنه. فلم يعد يعرف سوى القتل. وللأسف نحن الآن بحاجة إلى شجاعته المذهلة.

(١٢)

فى القطار الأخير إلى بلدتى نمت ملء جفنى، وأنا جالس فى مكانى أكثر مما نمت فى القطارين السابقين. كنت عائدا فى كل القطارات بنقود صلاح فى

الدرجة الأولى أشعر منذ غادرت غزة بالراحة، لأننى هربت من سيد وبالخزى، لأننى قصير النظر، ولأننى غفوت فى نوبة حراسة، ولأننى تصرفت كطفل خجول منذ وطئت قدماى أرض معسكر البريج، فلم أسال عن شىء أى شىء فى المعسكر، ولأننى غادرت الأهل بطريقة طفولية مكتفيا برسالة قصيرة مع ثيابى، وأشيائى، وحملها إليهم أحد الزملاء بالمعهد من أبناء السنبلة الخضراء، وكأنه يقول لهم: هذا هو كل ما بقى لكم منه .

وحين استيقظت كان ذهنى صافيا تماما، فرحت أنظر إلى أرض مصر المكسوة بالخضرة ،والأشجار وأعمدة التليفونات تجرى مع كل شىء إلى الوراء. وعلى غير توقع، وفى لحظة مفاجئة كالصاعقة اكتسحتنى حالة من الصرع. تقلص فكاي، وشدت كل أعصاب جسدى ، وتقبضت كفاى، كأن شيئا يهرسهما هرسا. ولم أفق إلا وركاب القطار، قد وضعوا بين أسنانى خشبة، وعصروا فى أنفى بصلة، ورحت أنظر حولى إلى وجوههم ،وقد ظهرت عليها مشاعر الراحة. وسمعت صوتا يقول لى: حمد الله على السلامة . وسمعت صوتا آخر يقول لى: وصلنا السنبلة الخضراء محطتك

(١٣)

رأيت سيد بعد عام واحد، فى السنبلة الخضراء، يسير كما الجمل على كورنيش ترعة البوهية مسرعا منحنيا مع كل خطوة إلى الأمام. لم آلف منه من قبل، هذه الطريقة الصحراوية فى السير كما الحداة. ناديته. أسرعت وراءه لكنه كان قد اختفى فى المنعطفات. حسبت أنه يهرب منى لأمر لا أعلمه. وعزت على نفسى، فلم ألحق به فى بيته. وتوهمت أنه سيعود إلى سيرته الأولى، ويجلس مع منتصف الليل على حجر فى الحديقة عازفا على الفلوت. لكنه لم يذهب إلى حجره بالحديقة فى أية ليلة. كانت حرب فلسطين قد انتهت بالهزيمة، وانسحاب جيوش العرب السبعة من أرض فلسطين إثر انسحاب جيش الملك عبد الله من ساحة القتال وانكشاف كل الجبهات. وكان صلاح قد استشهد فى حصار مستعمرة. ومع انسحاب الجيش المصرى حاصر المقاتلين فى معسكر البريج ،وأعطوا مهلة ثلاثة أيام فلقد وقع العرب معاهدة الهدنة الثانية والأخيرة. وأحرق المحاصرون أوراقهم، واستسلموا لأبناء الوطن، وإثر استسلامهم جرى اعتقالهم على عجل، فلقد تعودوا على القتل، والحرب، والأعمال الفدائية، وأصبحوا خطرا فى داخل الوطن لو تركوا مطلقى السراح، وكان سيد مع المعتقلين. عادوا كالأسرى مع الجيش المتسحب إلى سيناء، ولاحقهم جيش العدو إلى داخل سيناء، ربما ليحتلوا بضعة كيلومترات من أرض سيناء.

(١٤)

لم أكد أخرج من الترعة عاريا فى وقت الظهيرة، وأتجه مسرعا إلى ثيابى، حتى رأيت سيد جالسا بجانبها ينتظرنى، وأرضانى أنه سعى إلى لقائى. اعتذر

لى بأنه كان خجلا من العودة إلى البلد بدون أن يأتى بفلسطين معه. ضحكت لتعبيره، وقلت له:

ـ لست مسئولا وحدك. فالخيانات العربية تفرط فى كل الأوطان.

فقال لى بغضب:

ـ العدو هنا فى داخلنا، وليس فى مكان آخر. لا بد من تطهير البلد من عدو الداخل قبل الإنجليز، وقبل اليهود حتى لا تقاتل، والعدو الحقيقى وراءك.

تلفت حولى ، وقد تذكرت ما قاله لى صلاح عن عشق سيد للقتال والحرب. قلت لسيد:

حدثنى بأخبارك أنت.

أخبرنى سيد فيما أخبرنى به، أن قائد الجيش المصرى فؤاد صادق قد ذهب ليلا إلى معتقلى معسكر البريج من الإخوان، وهم فى مخيم مع الجيش بسيناء، وحدثهم عن أن الإسرائيليين، قد تبعوا الجيش المصرى برغم الهدنة، واحتلوا هضبة العوجة، واعتلوها بدبابة تشيرمان إنجليزية حديثة هائلة القذائف شديدة الفتك ،تفجر قذائفها دبابات الجيش المصرى الصغيرة، ومن يحتمون بها من الجنود فى محاولتهم للصعود، لاسترداد هضبة العوجة. وقال لهم إنه على يقين من أحدا لا يستطيع أن يسترد هذه الهضبة سوى الفدائيين وبالسلاح الأبيض فى ظلام الليل. وطلب منهم أن يعود من ينجو حيا من هذه المهمة ليعتقل مرة أخرى، ووعدهم بالسعى لإطلاق سراحهم إثر العودة إلى الوطن.

وأخبرنى سيد أنه كان أول المتطوعين، لاسترداد الهضبة مع ستين فدائيا. زحفوا مع منتصف الليل فى ظلام الليل، مبتعدين عن الهضبة تفاديا لكشافات العدو. وكلما مرت بهم هذه الكشافات، توقفوا عن الزحف حتى أتوا الهضبة من ورائها، واصطادوا الحراس بالسلاح الأبيض ،ثم انقضوا بالقنابل اليدوية على المتخندقين، والمحتمين بالتبات، ثم بالسلاح الأبيض. وتمكن سيد ،فيما قاله لى من أن يلقم فوهة الدبابة تشيرمان قنبلة يدوية ،فانفجرت من داخلها. وقال لى إن الجيش قد زحف عندئذ إلى الهضبة، وأكمل المهمة، واسترد الهضبة إثر انفجار الدبابة التشيرمان. وقال لى إنه قد حمل جريحا إلى مستشفى الجيش المتنقلة، فقد اخترقت بطنه رصاصة دمدم ، وغربلت فى دورانها، وسرعتها أحشاءه، واستقرت بجانب كليته فى مكان رخو ،فتركت فى مكانها إلى أن تتليف حولها العضلات، ويسهل استخراجها دون مضاعفات، ربما بعد بضع سنين.

طال تحديقى لعينى سيد. كانتا منطفئتى البريق، وكأن روحه قد سلبت منه ، فقد عاد إلى نوله الخشبى ساعيا على رزقه. ومن الغريب أنه لم يسألنى عن أيامى فى المعسكر، وأننى لم أعتب عليه فيما حدث لى بسببه فى حقل الشوك. كنت أحمل ذلك فى قلبى ، ولم أعد منذ ذلك النهار قادرا على السعى إليه. لكن أخباره كانت تأتى إلى من حيث لا أتوقع أينما كنت كأنما كنت موكلا بالكتابة عنه يوما. وحين هممنا بالنهوض، والعودة إلى السنبلة الخضراء قال لى:

ـ أتعرف لقد حفظت القرآن الكريم، ووعيت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى نومه، ويقظته، ومطعمه، ومشربه، ولباسه، وطريقته فى السير. وأرجو من الله أن أنال الشهادة، لكنها حتى الآن تهرب منى.

(١٥)

لحسن حظى، وحتى أخرج سيد من رأسى انتقلت مع الأهل إلى المنصورة، وفارقت السنبلة الخضراء فراق الجسد للمكان. لا أسعى لسيد، ولا أظن أنه يسعى إلى. لكن أخبار سيد كانت تلاحقنى. فلقد وجد سيد حربا يخوضها، وربما بحرية أكبر، من حريته فى حربه مع المستعمرات. لم تكن حربه هذه المرة مع عدو الداخل كما كان يقول لى. كانت مع العمل الفدائى الوطنى العام ضد معسكرات الإنجليز بين الشرقية، ومحافظة الإسماعيلية فى التل الكبير، والإسماعيلية، والقصاصين. كان العمل الفدائى عصابات شتى متعددة الانتماءات للوفد، وللشيوعيين، وللإخوان المسلمين، ولمغامرين أحرار، لا يعرف لهم أحد انتماء ولا ملة. لا أعرف من مغامرات سيد فى هذه الحرب سوى ما جرى له فى يوم لن ينساه سيد فى حياته هو يوم عربة الجيب. كان يوما كأيام حرب البسوس مدمرا لحياة سيد.

ركب سيد ذات ليلة عربة الجيب التى ينفذ بها عملياته الفدائية حاملا معه خمسة أطفال بينهم طفلتان. كانوا أبناء الأسرة التى تؤويه فى قرية من قرى القناة، لكى يذهب بهم إلى المكان الآمن فى بيت أمه بالسنبلة الخضراء بعيدا عن غارات الإنجليز فى بحثهم عن الفدائيين المزعجين. وآثرت أمهم أن تبقى مع زوجها صديق سيد، وشريكه فى مغامراته، وحاميه، وأخته العذراء.

فى الطريق راح سيد يغنى على شاطئ ترعة الإسماعيلية أغنيات تبهج قلبه، وتزرع فى أطفال صديقه مباهج الإيمان: اللهم لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا . ومثل: جئت نورت المدينة . بل هتافات: الله غايتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا . كان يضحك من قلبه، ويغنى ، ويستعين بالكورس معه حتى لا يغفو فى الطريق، وتحدث كارثة. كان آمنا من خطر كمائن الإنجليز فى الطريق فى حماية هؤلاء الأطفال، وليس معه سلاح ،وعربة الجيب لا تحمل أية ذخيرة.

لكن الخطر وقع فى لحظة خاطفة. التفت وهو يقود الجيب بمهارة مدربة، مداعبا أطفال صديقه. فى ذات اللحظة اعترض حجر عند منعطف العجلة الأمامية اليسرى لسيارته فانزلقت الجيب بكل سرعتها فى مياه الترعة على يمينه، وغاصت بهم فى القاع فى شهر الفيضان الأكبر.

كانت العربة مكشوفة، فطار الأطفال مع اندفاعها فى الترعة. وقذف سيد بنفسه تحت المياه ،وجهد ليطفو. وراح يبحث فى الترعة حوله عن أى طفل منهم ينجو ويتسمع لأية صيحة يصرخ بها أحدهم. لكن الصمت كان مروعا، والليل شديد الظلام تحت نجوم تومض فى سماء صافية فى الأعالى. أوشك أن يستسلم بدوره لتيار الماء. أدرك أنه سينتحر إن فعل، وهو قادر على النجاة، ولن

يكون شهيدا فسبح إلى الشاطئ، وجلس لحظة خاطفة، ثم راح يجرى مع تيار الماء مناديا الأطفال بأسمائهم آملا أن يرى طفلا فى الظلام، أو يسمع صوتا لطفل حى. لكن الماء كان أسود أمامه، والصمت أصم، لا يقطعه سوى خرير المياه على الجانبين.

وتعب سيد ويئس فجلس يبكى. ومن بعد بعيد خيل إليه أنه يسمع أذان الفجر فردد التكبيرات، وهو يبكى، ونهض ليصلى. كبر بالفعل للصلاة، لكنه حين بدأ يقرأ فاتحة الكتاب أجهش فى البكاء، ولم يستطع الاستمرار فخر جاثيا على ركبتيه زاعقا فى غبش الفجر: اللهم اغفر لى. اللهم ألهم آلهم الصبر إلى أن أشرقت الشمس. ومرت عربة، فركبها عائدا إلى أهل الأطفال الغرقى.

والعجيب أنه بعد أن استسلم الأبوان لقضاء الله النافذ، والذى لا راد له سوى الصبر. وتزوج سيد ربما إرضاء لصديقه، وتعويضا له فى مصيبته تزوج سيد من أخت صديقه العذراء ،فالحى أبقى من الميت. ولأن أم الأطفال لم تطق أن تراه أمام عينيها حيا يسعى. غادر سيد بيت صديقه مصطحبا معه زوجته، وتركها عند أمه، وعاد ليواصل حربه الخاصة ضد الإنجليز، ويلتقى بصديقه حين يخرجان معا لغارة، ويتركه إلى بيت آخر فى قرية أخرى.

(١٦)

جن سيد. لا بد لأنه قد جن منذ أن غرق الأطفال منه، فقد دخل المسجد الجامع الكبير بالسنبلة الخضراء، ليؤدى صلاة الجمعة، كعادته فى الصلوات الجامعة. وكان جمال عبد الناصر، قد نجح على التوالى فى الاستعانة بالإخوان المسلمين فى إسقاط كل الأحزاب السياسية ،وإلغاء الدستور، وحل البرلمان، ثم فى شق الإخوان المسلمين نصفين، وجعل التيار الأزهرى معه فى كفة، والتيار الدينى ضده فى كفة. ورد على محاولة التنظيم الإخوان السرى اغتياله باعتقال الإخوان المعارضين لثورته. وإثر انتهاء صلاة الجمعة، وقد هم الناس بالانصراف من المسجد سارع سيد بالوقوف عند المحراب، وإلقاء خطبة عصماء ضد الثورة عامة، واعتقال الإخوان أولياء الله خاصة، ولم يأت بذكر لاعتقال من عداهم.

كان يلقى خطبته النارية من قلبه، ولا يبالى بأخطائه، هو الحريص على أن يتحدث بلغة عربية فصيحة، لم يؤهل لها يوما. ثم أقسم بالله العظيم ثلاثا أنه لن ينحو منه، فلسوف يقتله حتى لو كان كما قال معلقا بثدى أمه.

عندئذ عم الفزع من فى المسجد، وجروا يتزاحمون، ويتخطفون أحذيتهم نحو باب المسجد الوحيد، والكبير حاملين أحذيتهم، ودسوا فيها أقدامهم، وهم فى عرض الطريق الفسيح، وكأنهم لم يروا شيئا، ولم يسمعوا شيئا ،بل لم يصلوا فى يومهم.

ومن الغريب العجيب أن سيدا بعد ما فعله عاد إلى بيته وجلس سعيدا شاعرا، بأنه قد أراح ضميره الخاص، وبأنه هو الطالب الأبدى للاستشهاد سينفذ ما أقسم عليه. لم يهرب ،ولم يختف كما هى عادة المتآمرين، والمتوعدين

بالويل، والثبـور، وعظائم الأمـور، ونام آمنا على عـزم الرحـيل إلى القـاهرة فى الصباح ربما لغير عودة. وعند الفجـر حوصـر بيت سيد الأحمق ، فهكذا صار لقبه بين النـاس من واجهة واحـدة، فلم يكن لبيتـه سـوى هذه الواجـهة. واقـتحم البيت. وأخذ سيد.

(١٧)

اختفى سيـد واختفى ذكره، واندثر طوال خمس وعشرين سنة فى بر مصـر. لم يقدم إلى محاكمة، ولم يكن اسمه بين المعتقلين الذين أفرج عنهم، ولا بين من اعتقلوا مـرة ثانية، ومعهم أضعـاف أضعـافهم من المعتقلين. ظل سجـينا فيما يقولون إلى أن تغير العهـد، كما تغير من قبل، وكمـا سيتغيـر من بعد. وحين غادر سجنا غيـر مـعلوم لم يره أحـد، حـتى لقـد ظننت أنه قـتل فى السـجن، أو بعـد خروجه من السجن.

لكن ظنى خاب، فقد أخبرنى صـديق عربى من الخليج حين ذكرت له اسمه، وأنا أحدثه عن أغرب من لقيت من البشر ضحك، وقال لى:

- سيد سيد حى يرزق عندنا. فتح الله عليه واهب المنن والفتوح. صار داعية إلى الله. يدعـو الناس فى الليل والنهـار إلى الهـجـرة إلى الله. لا يتـحـدث إلا بالقرآن وسنة الرسول. ينهال عليه المال والهدايا. يقـبل النـاس يده كلما رأوه، وهو يسحب يده التى قبلوها خطفا من أيديهم، قائلا: استغفر الله العظيم . صارت له لحـية بيـضـاء عظيـمـة، وارتـدى ثيـابا بيضـاء لا تـرى أبدا، إلا بيضـاء ناصعة البيـاض. يضع قدمـيه دائمـا فى خف اتقـاء للجاسات، ولا يدس قـدمـه، وهـى فى الخف، إلا فى بلغة مغربية. ولا يتحدث مـع أحد مطلقا فى السـياسـة. وإذا سئل فيـهـا اكتـفى بالقـول: ادعـوا لولاة الأمـر بالتوفيق، فالفتـنة نائمـة، ولعـن الله من أيقظها .

ضحكت عندئذ وقلت لصديقى:

- لو مات عندكم ستقيمون عليه ضريحا.

فقال لى:

- لا أضرحة عندنا لأحد.

الواعظ

حين رآنى صاح بى:

أين أنت؟

بحثت عنك، ولم أعرف لك طريقا. اجلس.

جلست أمام مكتبه. وجهه أبيض مستدير وودود. عمامته، وأنا خبير بلف العمامة جميلة على رأسه، وكاكولته أنيقة، كعهدى بها بلونها الرمادى الغامق.

قلت له:

خيرا سألنى: تخرجت .

قلت: نعم، والحمد لله من قسم الفلسفة الإسلامية بكلية اللغة العربية ونجحت.

قال لى:

هات أوراقك من الكلية. وتعال إلى غدا. اذهب وائت بها ولا تضع وقتا.

قلت له بفرح وكانت أبواب التعيينات فى الدولة مغلقة تقريبا:

هل ستعيينى بوزارة الأوقاف ؟

قال لى: نعم فور مجىء ورقك.

خيل إلى للحظة، أننى سأبدأ نفس بداية نجيب محفوظ. قلت له بشك خفيف:

. هنا فى ديوان الوزارة قال لى: لا. سأعينك فى مكان أهم. ستكون واعظا.

سرى الرعب فى جسدى، من فروة رأسى إلى إخمص قدمى، كما يقولون. عاجلنى بقوله مستاء لأننى أفكر:

. ماذا تنتظر؟ اذهب الآن إلى الكلية، وعد إلى بأوراقك غدا.

تذكرت الإعلان الذى قرأته بالصحف، عن طلب وزارة الأوقاف لوعاظ مساجد من خريجى كليات جامعة الأزهر، يتقنون حفظ القرآن الكريم ويفضل خريجو كليتى الشريعة وأصول الدين. قلت له مناورا:

. لكن اختبار الوعاظ قد تم قبل يومين.

فقال لى ناهرا:

. لا شأن لك بذلك. أنت استثناء من القاعدة.

قلت له مناورا مرة أخرى بطريقة مهذبة:

ـ لكننى يا سيدى نسيت القرآن كله، ولست خطيبا. وقد تعودت أن أكتب أحسن مما أتكلم.

عندئذ غادر مكتبه وجلس على المقعد المقابل لى، وانحنى نحوى ، وقال لى بثقة وود:

ـ أنت ذكى. وتستخدم عقلك. وسوف تتصرف وتتعود. أنا أثق بك.

قلت له عندئذ بشجاعة والخجل يملؤنى:

ـ لا. لا أريد أن أكون واعظا حتى لو كنت صالحا للوعظ حتى لو كنت قادرا على التصرف.

فقال لى بدهشة، وهو يضغط على فخذى بكفه مرارا:

ـ يا مجنون. ستكون واعظا بمسجد من مساجد الدرجة الأولى تتقطع لتناله رقاب قدامى الوعاظ.

كتمت ضحكة فى صدرى وقلت له مستفهما بأدب:

ـ وهل هناك مساجد درجة أولى، ومساجد درجة ثانية؟

فقال لى بحدة: نعم يا سيدى. هناك مساجد كبرى جامعة، ومساجد صغرى غير جامعة، ومساجد فى المدن الصغيرة، ومساجد فى المدن الكبيرة.

بلعت سخريته منى فى نبرات صوته الرفيعة الحادة ولزمت الصمت لحظة. بدوت حائرا، فقال لى بإغراء:

ستكون واعظا لمسجد السيدة زينب ،وهو قريب من بيتك، وأنت لا تزال كما قلت لى، من قبل تسكن مع أهلك بحى السيدة.

قلت له مرة أخرى بهدوء شديد:

– لا.

وراعيت مودته لى طوال أربع سنوات، ودوره الوظيفى ، والدينى فى الإشراف على مساجد مصر كلها، فقلت:

ـ ثوب الواعظ واسع على.

فاقترب منى بوجهه، وقال لى:

ستملأ هذا الثوب وسنكون فخورين بك.

– قلت له:

– لا.

فعاد يقول لى، وهو يضغط بأصابع كفه على ركبتى مؤكدا ما يقول:

ـ أرى الخير لك. ستأخذ فوق راتبك كل سنة من صندوق النذور عشرين ألف جنيه مصرى. قل إنك قبلت. ستخطب الجمعة فقط، وتصلى بالناس صلاتى المغرب، والعشاء فقط.

قلت له مشفقا عليه:

– لا. لا أريد أن أكون واعظا.

رجع عندئذ بظهره إلى ظهر مقعده، وكان عامل البوفيه قد جاء بقهوة وضعها أمامى. ولم تمتد إليها يدى. قال لى:

- اشرب قهوتك واهدأ.

وراح ينظر إلى بأسى. شعرت بأنه يقول لى فى سره: عجل، واذهب عنى. ورحت أرشف قهوتى بيد مضطربة. عاد يقول لى بحزن، كمن فقد شيئا كان ملك يده:

- لماذا لا أفهم سببا واحدا معقولا لرفضك؟ كل ما قلته لى هو تعبير عن الخوف من المنبر مررنا به نحن الواعظين جميعا. وسوف تجتازه بعد أول مرة. سأكون حاضرا أول خطبة لك، وأسلم عليك مهنئا. قل أى سبب آخر، فلن أقبل منك رفضك.

وضعت فنجانى على طبقه فوق الصينية فوق المنضدة، وقلت له:

أنا أحبك حقا. لكننى أريد أن أكون صادقا معك، ومع نفسى. أحترمك منذ أن قرأت لك كاتبا من كتبك، وأنا لا أزال طالبا بالمعهد الثانوى بالمنصورة. وأحببتك عندما جئت إلى القاهرة لأول مرة، وساعدتنى لأعمل مصححا بدار الكتاب العربى.

وغمرتنى المشاعر المضطربة التى تريد أن تبرر نفسها، فلزمت الصمت حائرا. فعاد يقول لى بهدوء:

- وماذا بعد لم تقل شيئا

قلت له:

- لعلك تذكر أننى كتبت مقالا بتوقيع محمد فياض بمجلة الرسالة الزياتية فى باب الكتب عن كتابك عقيدة المسلم

قال لى شاردا:::

- نعم أذكر ذلك. وهو مقال طيب

قلت له:

- سيدى. لقد قلت فى مقالى عن كتابك: إنك موهوب ككاتب، وإنك أديب حقا فى أعماقك، ولك رؤية نقدية للحياة الاجتماعية ثاقبة.

فقال لى:

- نعم. أذكر ذلك. وأعرف عن نفسى أننى أخدم الدين بلغة الأدب. لكن ما دخل هذا بما نحن فيه بما أسألك عنه؟

قلت له::

- يا سيدى. لقد اخترت أن أكون كاتب قصة. وأنا لا أتحدث من فراغ فقد نشرت لى الآداب البيروتية قصتين

فقال لى ساخرا:

- قصة قصتان ألف، أهذه مهنة هذه مهنة أهل الشقاء عن أهل الضلالة.

وصمت هو. وصمت أنا. وطال صمتنا. كان كلانا يشعر أنه يفقد صاحبه. وفكرت أننى لكى أحتفظ به صديقا، فلابد لى أن أكون مثله وأنه لا يريدنى صاحبا إلا بهذا الشرط. وعاد إلى مكتبه. وأطرقت برأسى محرجا سمعت صوتا بداخله يقول له: « إنك لا تهدى من أحببت». وقفت، ومددت يدى مسلما، فمد إلى أطراف أصابعه. وغادرت مكتبه أتعثر.

جلست على مقهى الحرية بميدان الأزهار. كان لا يزال ميدانا جميلا به حديقة بها أحواض للأزهار. اخترت مقعدا بجانب نافذة مفتوحة أبحث عبرها عن نسمة هواء. طلبت شيشة عجمى لأول مرة. وبينى ، وبين نفسى رحت أسخر من نفسى. فأنا مجنون يرفض طريقا مضمونا لحياة رغدة به تقبيل المصلين ليدى ، وهبات تزويج العرائس، وهدايا تجار الحى تسبقنى إلى البيت، وتبرعات المتبرعين لأوجه الخير. وهأنذا مجنون سيغامر بالسير فى طريق، لا يعرف أرضه، ولا جوانبه، طريق لا يخوضه إلا خبير به، ولا أعرف: هل سأكون فى نهايته صعلوكا، أو ملكا مثل: نجيب محفوظ، ويحيى حقى ويوسف إدريس.

قلت لنفسى: لن أضع على وجهى قناعا .سأكون نفسى حتى لو خسرت كل شىء . سأحاول، وأسقط، وأنهض، وأسقط، وأنهض، وقد أفوز بسعادة التحقق . ولى إذا خسرت شرف المحاولة.

البناء العظيم

(١)

على عربة يد لبائع كتب قديمة متجول رأيته لأول مرة فى حياتى يجوب شارع القنطرة بمدينة السنبلاوين رأيت كتابين، أحدهما بضع أوراق رخيصة عن كرامات القطب العارف ولى الله السيد البدوى، والآخر كان قصة بلا غلاف سوى غلاف داخلى متهرئ، يحمل عنوان: خان الخليلى، وتحته اسم: نجيب محفوظ.

السيد البدوى كنت أعرفه من نداءات المستجيرين: مدد يا سيد. الآخر التبس على الأمر معه. ظننته كاتب القصص البوليسية المراوغ: حافظ نجيب. وكنت فى ذلك الحين أسير قراءة الروايات البوليسية فى سلسلة روايات الجيب التى كان يصدرها بانتظام فى سنوات الأربعينيات السيد السند: عمر عبد العزيز أمين.

فى البيت عصرا، لم أكد أفرغ من عجائب الكرامات البدوية حتى سارعت بقراءة: خان الخليلى وفى يقينى أنها رواية جيب، للكاتب المصرى حافظ نجيب، وأن اسمه قد حدث فيه خطأ مطبعى. وكان حافظ نجيب يحاول أن يستحدث فى ذلك الحين روايات بوليسية مصرية صميمة، هو مؤلفها وبطلها، وهو أمر لم يجرؤ عليه كاتب قصص بوليسية آخر من الخواجات.

فوجئت مع القراءة للصفحات الأولى فى: خان الخليلى أننى قد أخذت نتيجة تسرعى وعدم تريثى مقلبا، ودفعت قرشين كاملين ثمنا لقصة غير بوليسية، لكن المكتوب كان قصا على أى حال وكان مشوقا، وفى حى خيالى بعاصمة الدنيا.

أدركت مع القراءة لأول مرة أن فى مصر قص آخر، مثل ذلك القص الآخر، الذى كان يتسلل إلى أعداد من روايات الجيب لكتاب خواجات، لا صلة لهم بالقص البوليسى مثل اشتاينبك وإميل زولا وفكتور هوجو، وقدرت أنه أى نجيب محفوظ يحاول بدوره أن يستحدث قصا أدبيا مصريا صميما، لا صلة له بالترجمة مثل: طانيوس عبده، ولا بالتعريب مثل المنفلوطى، مثلما يحاول حافظ نجيب مع القص البوليسى، ومثلما حاولت زينب فواز فى ثلاثيتها عن حياة

ممرضـة، وهى الأعمـال التى قدر لها أو لى أن أقـرأها فى مكتبـة بحـر مـويس بمدينة الزقازيق مع روايات بل مجلدات: بارديليان وفوستا وروكامبـول وطرزان. وكلها فيما أذكر من مجاهدات المترجم العتويل الطويل النفس: طانيوس عبده.

راقت لى رواية: خـان الخليلى، وبدأت أنظر إلى الناس من حـولى فى السنبلة الخضراء كما كنت أسميها كشخصيات لقصص أخرى يمكن أن يكتبها نجيب محفوظ لو قدر له أن يعرفها مثلى. وباتت حياتى، منذ ذلك الحين، مع من حولى قصصا تدور فى نفسى.

ولأننى أدركت مـدى جهلى وأن السنبلة الخضـراء لم تكن بها مكتبـة عـامـة، وربما لا تزال إلى اليوم، كمدينة صغيرة، ولا مكتبات خاصة تبيع كتبا مع أقلام الرصاص والكوبيا والأبنوس والكراريس، فقد صرت أترصد في شهور الصيف عودتى مع بدايات الأعوام الدراسية التاليـة إلى الزقازيق، لأبحث فى مكتبـة بحـر مـويس عن كـتب هـذا اللون الجـديد علـى، من القـصـص القـصـيـرة والروايات المصرية الصميمة عن ناس أعرفهم وأحيا بينهم.

لقد فتح لى نجيب محفوظ وليس حافظ نجيب بابا لم أنجح فى إغـلاقه قط، بعيدا عن مدهشات ومفاجآت الغرف المسحورة، الخارجة لتوها من عوالم ألف ليلة وليلة.

(٢)

أنشئ بمدينـة المنصورة، مدينة الملك الصالح نجم الدين أيوب، معـهـد دينى، ولأننى من أبناء محافظة المنصورة، المديرية سابقا، نقلت بأمر إدارى أزهـرى إلى هذا المعهـد. وظننت أننى قد حرمت من مكتبة عامة بهذا النقل، أقرأ فيها ما شئت من الكتب مجانا، ولوجه الله والمعرفة والعلم والأدب.

ورحت أبحث فى أرجـــاء الأحــيـــــاء بمدينـة نجم الدين، عن نجــــيب محفوظ،ورفاقه: المازنى، ويحيى حقى، والحكيم، وطه حسين، ومـحـمـد عـبـد الحليم عبد الله، والسحار، وطاهـر لاشين، وعيسى عبيد، ويوسف السبـاعى حتى عثرت عليهم ينتظروننى فى مكتبة عامة لم تر مثلها عين، ولم تسمع بمثلها أذن. مبنى جميل، نظيف، حسن الإضاءة، كما يقول عمنا الخواجة: همينجواى. فيلا بيضاء، شاهقة البياض بحى المختلط على النيل. كانت يوما فيلا لأميرة من الأسرة المالكة.

بهذه الفيلا كانت شرفة رحبة وقاعة واسعة للمطالعة، تفتح نوافذها كلها على النيل، يتدفق منها هواء نقى وضوء نهارى ساطع. هنا، أقصـد هناك، فى مكتبة الأحلام قرأت ما وصل إلى هذه المكتبة من قصص نجيب محفوظ: همس الجنون. زقاق المدق. بداية ونهاية. ثلاثيتـه التاريخيـة الفرعونية. هنا أقـصـد هناك تشاجرت مع قارئ الفلسفة المدمن صديقى الراحل: عبد الجليل حسن، لأنه قال لى: القصص من ألعاب الأطفـال. عليك بالفكر. لا تضيع وقـتك مع الحكائين. القول نفسه كتبه يوما المفكر والأستاذ الجامعى: عبد العزيز الأهوانى

فى مجلة الكاتب، كتبت ردا عليه فنجيب محفوظ مفكر، ودارس فلسفة، ويمارس كتابة لعب العيال، كما يقول هو كمفكر فى أحوال الوطن والعباد، وذكرته حين التقيت به فى بيت الصديق الراحل: عبد المحسن طه بدر، أنه هو نفسه، عاشق دون كيشوت لسرفانتس، وهو الآخر حكاء من الحكائين. وربما لو عاش صديقنا الراحل الأهوانى، لرأى مجد ذلك المفكر الحكاء.

فى مدينة نجم الدين أيوب، عشت ثلاث سنوات قارئا. وبسبب صديقى القاص الروائى: أبو المعاطى أبو النجا، رفيقى فى الطلب وبلدياتى أغريت بكتابة القصص. حاولت الحبو مرارا، على درب القص درب حكايات لعب العيال، ولم أعرف ما عاناه نجيب محفوظ، وما يعانيه هو وسواه من عشاق الحكايات العظام، ليضفر كل المعارف والعلاقات البشرية فى فن جميل إلا وأنا أحاول الحبو وأحاول ترويض كل اللغة إلى لغة قص حديث أتحرر بها من لغة الأخبار التراثية فى الأغانى، ومن لغة الحواشى والمتون فى كتب الأزهر المملوكية، وأن أرى العالم بعين الحكاء. عناء ما بعده ولا مثله عناء. وأى ثمرة ناضجة بعد هذا العناء ضربة حظ. لا تزيد.

(٣)

فى القاهرة، مدينة نجيب محفوظ الأثيرة، حياة وفنا لم أسع إلى لقاء نجيب محفوظ حياء، ربما هيبة ربما، استصغارا لشأنى ربما. كنت قانعا فقط بمتابعة ما تنشره له مكتبة مصر من مجاميع قصصية وروايات بينها كانت ثلاثيته الشهيرة.

قادتنى القاهرة، ومكتبات القاهرة، والمترجمات الغزيرة فى القاهرة وبيروت للأدب العالمى، التى تصب كلها فى القاهرة على الأرصفة، وفى مكتبات وسط البلد خاصة صادرة من مطابع القاهرة، ودمشق ، وبيروت إلى عوالم جديدة من المعرفة عامة، والقص خاصة حتى صارت شخصيات القصص الكبرى الخالدة أشهر عندى من شخصيات الواقع.

سلاسل مدهشة العوالم: كنوز القصص الإنسانى العالمى من بيروت، وسلاسل دار اليقظة للترجمة والنشر بدمشق ثلاثة وعشرون دارا للنشر فى بيروت وحدها، كانت تصب عطاءها فى القاهرة وعواصم الثقافة العربية كلها فى سنوات الخمسينيات، حتى لقد صرخ طه حسين مع أواخر الخمسينيات فى غيرة واضحة: لقد انتقلت عاصمة الثقافة العربية إلى بيروت.

وكان على أن أقرأ هذه المترجمات القصصية منها خاصة، وأن أفتح عقلى لأساتذة فن القص فى العالم الذين يقرؤهم نجيب محفوظ بلغتهم، وعلى أن أعوض هذا العجز، قبل أن أسمح لنفسى بلقاء نجيب محفوظ ويحيى حقى.

وكانت شتى اتجاهات القص من حولى مترجمة ومؤلفة تتنازعنى: الفن للفن. الفن للحياة. الرومانسية. الكلاسيكية. الأدب الملتزم. الوجودية. الواقعية الطبيعية. الواقعية النقدية. ما وراء الواقعية. الواقعية الاشتراكية. البرناسية. السريالية. وأكتشف فى النهاية، على جلال المتابعة طريقى الخاص، وأن الكتابة المبدعة

تنبع من رؤيتك أنت الخاصة، من محصلة ثقافتك ومعرفتك بعالمك، وخبرتك بالناس، وتجاربك فى الحياة، وأن الكتابة فى النهاية لا تقليد فيها، ولا تسمح بالتقليد، ونسخ الكربون، والمحاكاة للآخرين. فالكتابة مزاج خاص مع اللغة ووسائل القص، ولا مهرب معها من اتخاذ موقف من كل شيء، وحيال كل شخصية، ولكن بطريقة إنسانية، وغير مباشرة كى توهم بالصدق، وبالحياد العاطفى الذى لا مفر منه. ومع ذلك فكل شيء عرضة للتغير مع تغير التجربة، وتغير المواقف، والرؤى، واختياراتك أنت للتجارب، ومرحلتك أنت مع العمر، بل لحظة الكتابة نفسها، ومدى ما فيها من استعداد للتلقى الملهم.

ولم أشغل نفسى كثيرا بمسائل مثل: متى يكتب الكاتب، ولا كيف يكتب، فليست هناك وصفة جاهزة تحت الطلب ورهن التطبيق. كل إنسان كون وحده، وكل كاتب حالة فريدة، والويل لمن ينسى أن يكون نفسه.

الناس أمزجة لا نهاية لها. لذلك كنت أندهش أن المثقفين والصحفيين منهم خاصة، يعجبون لانتظام نجيب محفوظ اليومى مع الكتابة، من ساعة محددة إلى ساعة محددة، وينظرون إلى هذه العادة، وذلك الالتزام، كعجيبة من عجائب الدنيا السبع، وهم يعرفون سلفا أنهم لن يستطيعوا أن يتبعوا نظامه الخاص السنوى أو الشهرى أو اليومى.

كانت مثابرة نجيب فى العطاء، وفى النشر تبحث لها فى أنفسهم عن أسباب، غير سبب واحد ينسونه أو يعرفونه ويتجاهلونه أنه قد قرر أن يكون مشروعا لمفكر فنان، يحمى بانتظامه فكره وخبرته وفنه من التيه، ويقبل بكل ما قد يحمله حصاد عمله السنوى من إخفاقات أو نجاحات، واثقا مع تطور الخبرة من تزايد النجاحات، وتناقص الإخفاقات، من عمل إلى عمل.

(٤)

مضى على بالقاهرة سبع أو ثمانى سنوات، تخرجت فيها من الجامعة، واشتغلت بالصحافة فى المطبخ دائما، وأصدرت مجموعتى القصصية الأولى عام ١٩٦١ . طبعت منها ألف نسخة فقط على حسابى، ورفضت كل جهات التوزيع الصحفية أن تحمل من كتابى أقل من ألفى نسخة.

ولأننى كنت آنذاك أعمل مدرسا بعقد خاص بالسعودية، ولم يبق على موعد عودتى إليها فى شهر سبتمبر سوى يومين، فقد قررت أن أتخلص من هم هذه النسخ بأسرع ما أستطيع.

وضعت مائتى نسخة فى حقيبة وذهبت منشى بقميص وكرافت وبدلة شاركسكين سمنية اللون، فسوف أقابل رجل الرسميات الموظف نجيب محفوظ فى ندوته الأسبوعية الحافلة بكازينو أوبرا، وبها كل من هب ودب من شيوخ الكتاب وشبابهم. وبينهم من سبق أن التقيت بهم فى ندوات المقاهى الأدبية الصغيرة: إيزافيتش وريش والعجمى وفى ندوة يومية وحيدة كبيرة أخرى، ومتواضعة بمقهى عبد الله بميدان الجيزة.

كانت الندوة بآخر طابق بالكازينو، فى قاعة فسيحة بها شبابيك زجاجية كثيرة، وكانت الندوة التى لا موضوع لها دائما من ندوات اللقاء، مجرد اللقاء، والمقابلات بين أهل وسط ثقافى. وكان الكل محيطا بمناضد عارية من المفارش امتدت متجاورة بطول الصالة، وكانت تشغى بهمهات الأحاديث الشخصية وضجتها فى وسط الصالة مع نجيب محفوظ وغير نجيب محفوظ. وكان نجيب محفوظ متخففا من ثيابه الرسمية فى عمله الوظيفى: قميص مفتوح وجاكت بلا كرافت، ويضحك ضحكته الشهيرة من قلبه كابن بلد، ويطلق فى الماحية مدهشة القفشات القفشة تلو القفشة، وتنفجر الضحكات من حوله.

ران الصمت فجأة حين دخلت القاعة، فقد كنت غريبا حقا على معظم من بها، وكانت التوجسات فى مثل هذه اللقاءات من الأمن ورجال الأمن، هما شاغلا فى بلد يحيا ثورة لا يزال.

ألقيت بالسلام، وجلست جانبا مع صديقى الراحل فاروق منيب، أسأله عن أسماء الناس الذين لا أعرف أكثرهم لأكتب لهم الإهداءات. وأشار على فاروق بأسماء كبيرة محددة، فاكتفيت بها ورحت أسلم عليهم بسرعة وخجل وأعطيهم نسخهم: نجيب محفوظ، وعادل كامل، وتوفيق صالح، وعبد الحميد جودة السحار، وأخرجت الباقى من الحقيبة، ووضعته على المنضدة، ليأخذ أى أحد أية نسخة.

وجلست صامتا اسمع، ولا أسمع، ولم يقل لى أحد كلمة ما، وكانت الأيدى تمتد، وتسحب ربما من باب المجاملة، والأدب نسخة من كتابى الأول: "عطشان يا صبايا" بغلافه الأسود.

ثقل على صمتى وعزلتى فى جلسة حافلة، الكل فيها يعرف الكل عداى، فسحبت نفسى خارجا من الندوة، قبل أن أرى مشهدا قدرت أنه سيحدث لا محالة، مشهد عديد من نسخ عطشان يا صبايا ستترك على المنضدة إلى أن يأتى جرسون ما، ويجمعها، ويبيعها لكتبى من باعة الكتب على سور الأزبكية المجاور.

وحين عدت بعد تسعة شهور، فوجئت بأن هذه المجموعة قد كتب عنها فى الصحف وفى مجلة المجلة نحو من خمسة عشر مقالا وخبرا وعمودا، جمعها لى صديقى الراحل وحيد النقاش، وكان أولها لصديقى الشاعر الراحل: جيلى عبد الرحمن.

(٥)

غلقت مجلة البوليس التى كنت أعمل بها صفحاتها لأجل غير مسمى، حدث ذلك تقريبا فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩، ووجدت نفسى وأنا عضو بنقابة الصحفيين بلا عمل، حتى لمنى أنا ومحفوظ عبد الرحمن الصديق الراحل: سعد الدين وهبه للعمل معه فى صحيفة الجمهورية، لكننى لم أمكث بها معه أكثر من ستة أشهر.

وألحقنى الصديق الراحل الشيخ محمد الغزالى للعمل معه بوزارة الأوقاف،

سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإسلام. ويبدو لى الآن أننا، مغرمون بإنشاء لجان الدفاع دائما عن أى شيء.

كان يرأس هذه اللجنة الشيخ محمد سابق، وكانت صحيفة الأهرام قد فرغت لتوها من نشر رواية "أولاد حارتنا" الأمثولة لنجيب محفوظ. وحضرت بحكم عملى مناقشة سرية فى اجتماع لهذه اللجنة، أعتقد الآن أنها لا تقل شأنا عن مناقشات محاكم التفتيش. ولقد آثر الشيخ الغزالى أن يكتب بيده محضر هذه الجلسة، ويصوغ بيده قرار هذه اللجنة الذى سمح لنفسه أن يشق قلب نجيب محفوظ، وهو كسائر القلوب لا يعلم ما فيه أحد سوى الله. وبرغم هول ما أراه أمسكت غضبى فى نفسى، ولذت بالصمت، وأشرفت بحكم عملى على طباعة تقرير هذه اللجنة عن" أولاد حارتنا" ، وسللت نسختين من هذا التقرير، وكان اليوم يوم خميس. وسارعت فى يوم السبت التالى بالاستقالة من وزارة الأوقاف.

يوم الجمعة ذهبت عصرا إلى مقهى ريش، ولسبب لا أعلمه وجدت نجيب محفوظ جالسا وحده قبل موعده المعتاد إلى منضدته الأثيرة على رصيف المقهى. أعطيته نسخة من التقرير، فقرأه على مهل وقلبه ظهرا لبطن كأنه يرى عجيبة من عجائب الدنيا، ثم أطبق ورقة التقرير، ووضعها فى جيبه للذكرى.

ورأيت وجه نجيب شاحبا. ظننت شحوبه خوفا، وتوجسا لشر مستطير، لكننى فوجئت به يقول لى:

– معنى ذلك أن هذه الرواية لن تطبع.

وتنهد نجيب وقال:

– لن تنشرها إذن مطبعة مصر.

أدركت مدى شجاعة هيكل حين نشر هذه الرواية مسلسلة فى العدد الأسبوعى للأهرام. وقلت مؤكدا لنجيب:

– مع ذلك يمكن نشرها ككتاب خارج مصر فى بيروت مثلا. يمكن أن تنشرها دار الآداب، وسيرحب سهيل إدريس. لو وافقت يا عم نجيب سأتصل به.

فقال لى فى الحال:

– يا ليت.

كتبت رسالة أرسلتها بالبريد المستعجل إلى سهيل إدريس، فأبلغنى عن طريق عديله العزيز: فتحى نوفل بموافقته، وطلب منى أن أطلب من نجيب ألا يتصرف فى أولاد حارتنا، وسوف يحضر إلى القاهرة خلال أسبوع على الأكثر.

وبالفعل أقبل سهيل مسرعا إلى القاهرة، وتعاقد مع نجيب على نشر أولاد حارتنا، ومن حسن الحظ أن هذا التعاقد عن أولاد حارتنا بل النشر لها قد تم قبل أن يصدر قرار من جهة ما فى مصر بعدم طبعها، مع أنها كانت قد طبعت، ونشرت مسلسلة بالأهرام. ومع أن آلافا من القراء كانوا قد جمعوا بالفعل صفحاتها المطبوعة بالأهرام أسبوعا بعد أسبوع.

وبرغم قرار الحظر، وقرار التكفير من لجنة الدفاع عن الإسلام، وهو قرار لم ينشر، وربما كان قد أرسل إلى من يعنيهم الأمر من المسئولين، وغير المسئولين، فقد كانت نسخ رواية أولاد حارتنا تتسلل طبعاتها إلى مصر وكان من يريدها يحصل عليها بثمن مضاعف، ومن يعجز عن الثمن يستعيرها للقراءة من سواه، ويعيرها بدوره لغيره، ولم يكن تصوير الفوتوكوبيا قد عرف طريقه بعد إلى مصر.

وظل نجيب محفوظ آمنا يسعى فى مصر يلقى الناس فى ندواته الأسبوعية فى عهد عبد الناصر، ثم فى عهد السادات، ثم فى عهد مبارك إلى أن استشرى فى مصر وغير مصر خطر من أنابوا أنفسهم للتحدث باسم الله، وكل حسب هواجسه وثقافته وهواه.

(٦)

بسبب مقتضيات الأمن كان نجيب محفوظ قد نزح، قبل حين ومن ورائه ندوته إلى مقهى ريش بعيدا عن الطريق الرئيسى للمسئولين إلى قصر عابدين. وكنت قد تجرأت على المشاركة فى ندوة نجيب محفوظ، كلما جئت إلى القاهرة من الإسكندرية فى أشهر الصيف خاصة، وبسبب أنه صدر لى كتاب صرت به كاتبا من الكتاب، وعضوا فى شلة أدبية خاصة غير معلنة، لها ندوتها الأسبوعية المحدودة الخاصة فى بيت صديقى الراحل غالب هلسا كل خميس.

ومن الغريب أننى لم أهتم أدنى اهتمام شأنى شأن غيرى برأى الناس الشفهى فيما أكتبه لا أسأل أحدا عنه، ولا يبادر أحد به، ولم أسأل قط صديقى نجيب رأيه فيما أهديه إليه بانتظام من كتبى، مكتفيا من لقائه بوجهه البشوش المرحب بالجميع، وتقديرى لأنه يعرف حقيقة حجم كل أحد من الكتاب يأتى إلى ندوته الأسبوعية. ولا أعرف، ولم أعرف قط، كيف كان يرد على من يسأله من الكتاب عن رأيه فيما قرأه له.

ثم بدأت سنوات الاشتباك الشخصية فى العلاقة بندوة نجيب محفوظ ونجيب محفوظ نفسه، وبدأت معها سنوات المراقبة والملاحظة لصديق الكل، وحبيب الكل: نجيب محفوظ، مع انتقالى كمدرس إلى القاهرة الكبرى، وبخاصة إثر حرب ٦٧ . وصارت السياسة والحرب وأحوال أهل مصر وعباد الدنيا محور الأحاديث الرئيسية فى هذه الندوات.

وعلى شجاعة نجيب محفوظ الاجتماعية والسياسية فى أعماله القصصية، وتخفيه وراء "المعادلات الموضوعية" كما يقول إليوت، ووراء أنماط من الفتوات والصوفيين والموظفين ليقول للناس ما يريد قوله، وما لا يجرؤ كاتب مقالات أن يقوله فقد كان نجيب فى ندواته، كما فى عمله الوظيفى حذرا غاية الحذر فى التعبير عن رأيه، أو حتى بإخفائه، أو الاكتفاء فى حديث المناضد الشفوية والصحفية بإجابات دبلوماسية، حتى أيقنا جميعا أنه يعيش حالة من حالات انفصام الشخصية ثم أدركنا جميعا نحن أحباؤه أنه يحمى عمله ككاتب ويحمينا معه.

(٧)

أصدرت دار الهلال فى مناسبة من مناسبات أعياد ميلاد نجيب محفوظ الكاتب، الذى لم تحتفل أوساط مصر الثقافية بأحد غيره مثلما احتفلت به، عددا خاصا من أعداد مجلة الهلال عن نجيب محفوظ عملا بتقليد جديد كانت قد استنته فى إصداراتها، حين نشرت من قبل عددا خاصا عن توفيق الحكيم.

واستوقفنى فى قراءتى لهذا العدد، حديث أجراه فيما أظن مع نجيب الكاتب الصحفى: أحمد أبو كف. وأدهشنى رأى لنجيب فى نفسه، هو الذى قد تعودنا منه ألا يقيم نفسه قط، ويترك أمر تقييم عمله لمن يفهم، ولمن لا يفهم مرددا دائما أن عليه أن يكتب فقط، ومن حق الكل أن يقول فيما يقرؤه له ما شاء وكيف شاء.

قال نجيب محفوظ عن نفسه ما معناه، إنه قد ابتكر فى كتابة القصة شكلا جديدا، وإنه يشهد الله أن هذا الشكل من ابتكاره، حتى لا يأتى أنيس منصور، وبين قوسين استدرك قائلا: (آسف. أقصد أحمد عطيه) وكان الأستاذ أنيس قد أوجع نجيبا برأى ما.

وكان هذا الشكل القصصى الذى ظن نجيب أنه قد ابتكره يتمثل فى خمس قصص نشرتها له مجلة الهلال. وكانت هذه القصص الخمس مكتوبة فى قالب الأقصوصة المسرحية، وهو قالب يجمع بين بناء المسرحية فى حوارها الدرامى ولوحاتها، أو فصولها من جهة، والوصف القصصى الخارجى، كبديل عن التعليمات المسرحية، وبصورة تجعل النص يقرأ من جهة كقصة بسهولة، وبيسر ويمكن للمخرج إخراجه بيسر كنص مسرحى.

وكنت قد كتبت مقالا قبل سنين عن هذا الشكل فى القص والمسرحة معا، كشكل أدبى جديد نشرته فى مجلة البوليس، وعزوت هذا الشكل إلى مبدعه الأول والحقيقى وهو الكاتب الأمريكى: جون شتاينبك، وفى خمسة أعمال من أعماله القصصية المسرحية فى آن من بينها: اللؤلؤة، والوهج، وأفول القمر، وفيران، ورجال. وكان كل الشباب من كتاب القصة فى مصر والوطن العربى قد قرؤوا هذه الأعمال المترجمة، وعرفوها معرفة طيبة.

واستخرت الله، وكتبت مقالا عن هذا الموضوع بمجلة المجلة تحت عنوان: "الأقصوصة المسرحية بين نجيب محفوظ وجون شتاينبك، " ولعل نجيبا قد اهتدى من خلال ممارسته لهذا الشكل مرة أخرى بعد جون شتاينبك. ولم يعلق نجيب على ما كتبته كلما التقيت به بكلمة واحدة.

(٨)

كنت حريصا على التعلم من دروس بناء عظيم، وخبير فى فن القص، حرصى على التعلم من فنون البناء القصصى، وكيفيات استخدام وسائل القص عامة، والقص القصير منه خاصة، من أساتذة هذا الفن فى الآداب العالمية منذ

القرن الثامن عشر الميلادى. ولفتت نظرى ثنائيات نجيب محفوظ فى قصصه القصيرة، وهذه الثنائيات الأخرى المتقابلة فى أدب توفيق الحكيم ثنائيات الخير، والشر، والحرية، والنظام، والحاكم، والمحكوم، وهى فى رأيى ثنائيات الفكر اليونانى الفلسفى، والمسرح اليونانى كله، وكتبت عن هذه الملاحظة مقالا قصيرا نشره الصديق الراحل يحيى حقى فى مجلة "المجلة"، وتوقعت أن أواجه بسببه غضبا ما، أو لوما، أو عتابا من نجيب محفوظ لكنه لم يفعل ذلك قط، ولم أجرؤ أن أسأله، أو أفاتحه فى هذا الأمر، وأنا على يقين أن أكثر من كاتب كبير أو صغير قد لفت نظره إلى هذا المقال، وأقنعت نفسى أنه ما دام لا يريد إثارة هذا الموضوع، فمن الأفضل ألا أسأله عنه.

(٩)

أصدر صديقى عبده جبير صحيفة أدبية نصف جرنال عن الكتب الجديدة. كان فى عزمه أن تكون أسبوعية، لكنها لم تلبث أن توقفت لألف سبب وسبب، واستكتبنى عبده جبير، فكتبت مقالا عن رواية "حضرة المحترم" لنجيب محفوظ ، وقلت عنها فى مقالى رأيا لا يسر ففى ظنى أن نجيبا يسلى نفسه أحيانا بمجرد الكتابة، وينفخ روحا فى قصة قصيرة لتكون رواية، وأنه الكاتب العربى الوحيد فيما أعرف الذى يستخدم فى العصر الحديث كلمة: كلا التى تفيد الردع والزجر، وفى سياق لا يقتضى ردعا ولا زجرا، وعلى ألسنة شخصيات لا يسمح لها مستواها الثقافى بمعرفة كلمة: كلا. وشجعنى على أن أكتب ذلك أن نجيبا قد صار قامة قصصية كبيرة، وأن أى كاتب كبير لا يمكن أن يثمر دائما أعمالا عظيمة، وأن نجيبا اعتاد أن يقول دائما ويكرر: أنا أكتب ما أشاء ومن حق الكل أن يقرأ ما أكتبه، وألا يقرأه، وأن يقول فيه ما شاء كيفما شاء، وهو رأى كان طه حسين من قبله يدسه فى ثنايا ما يكتبه من قصص قصيرة فى أواخر سنوات الأربعينيات.

نشر عبده جبير مقالى فى الصفحة الأولى من العدد الأول من صحيفته الأدبية: "كتب جديدة"، وفاجأنى بتقديم نسخة من العدد لنجيب محفوظ، وأنا جالس مع نجيب وأقبل نجيب على قراءة مقالى عنه، وكان مقهى ريش لا يزال شاغرا من رواد الندوة، وحين فرغ منه كان عبده جبير قد سرح بنسخ عدده بعيدا عن المقهى، وفوجئت بنجيب يلتفت إلى قائلا، وهو يطوى الصحيفة تحت مرفقه على المنضدة:

- دا نقد أنت، قليل الأدب.

ابتسمت وقلت:

- مقبولة منك يا عم نجيب.

ولزمت الصمت. وطلب نجيب لى قهوة، ثم دعانى لأجلس بمقابله، وقال لى:

- انس ما قلت.

قلت له بدهشة:

- وأنت ؟

فقال لى:

- نسيت الأمر كله.

وفتح نجيب معى أبواب أحاديث أخرى.

ذلك اليوم حمدت الله أننى لم أصر ناقدا، وأدركت أن عمنا الآخر يحيى حقى قد خدعنا نحن كتاب القصة، وبيوتنا كلها من زجاج حين أشاد فى كتاباته بما يسميه بالنقد الخالق من أهل المهنة لأهل المهنة خاصة، وأن كل شيخ له طريقة، وبسبب هذه المشيخة، وتعدد الطرق ستكون أخطاء المبدعين إذا نقدوا بعضهم بعضا للركب.

(١٠)

أستعرض فى رأسى الآن المسيرة القصصية لنجيب محفوظ، منذ بدأ يكتب أعماله الفرعونية إلى أن واجه فى غفلة منه، ومن الكل طعنة غادرة. فأراه مفكرا سياسيا واجتماعيا من الطراز الأول.

شغلته فى البداية الهوية القومية لمصر المحتلة، فكتب عن مصر التى قاومت الغزاة فى ماض سحيق، وشغله العدل الاجتماعى والشخصية المصرية، فكتب أعمال سنوات الأربعينيات الليبرالية، وحين قامت الثورة أدرك نجيب المفكر دارس الفلسفة وقارئ التاريخ أن الليبرالية قد ضربت فى مقتل. أصابه الإحباط، فترة وفكر أن دوره الليبرالى الممكن ككاتب قد انتهى، لكنه وهو المفكر الذى يعرف أن الأحوال لا تستقر على حال، وأن مسيرة المجتمعات تتغير أبدا، ما لبث أن انتفض، وقبل بينه وبين نفسه فيما أتصور التحدى.

فجر نجيب ثلاثيته ينهى بها عالما كان وحلما يولى، وعصرا يزول، وديموقراطية ستغيب طويلا، وراح بعد ثلاثيته، وهو فى عز سنوات الأربعينيات والخمسينيات من عمره، ونضجها الفكرى، يرصد المتغيرات من حوله ليفهم ما يجرى، ويعبر عنها بلغة الإبداع المخاتلة للرقيب، وللسلطة ولأهل الثقة، ليصل ما يريد قوله، وبلغة القص للناس، قال لنا نجيب مرة على رصيف مقهى ريش: إنه لا يبالى أن تلف فى أوراق قصصه أقراص الطعمية ما دامت هذه القصص قد قرأها الناس.

كان القص عنده، ولا يزال رسالة اجتماعية، نشاطا اجتماعيا يفضح المستور أبدا، ويعرى كل ما يحاول البعض إخفاءه، والتدليس فيه، وفى صحوة الرقباء المترصدين لكتاب المقالات المباشرة، وغيبة النقد الاجتماعى والسياسى لحاضر حزين.

ولنتتبع معا إذا شئنا مسيرة، ورؤى نجيب، ورصده للمتغيرات والقضايا المتفجرة، منذ أولاد حارتنا مرورا بالسمان والخريف، واللص والكلاب وثرثرة فوق النيل، والكرنك ، وحب تحت المطر، وتحت المظلة، ومعها قصة أرعبت السادة هى قصة، سائق القطار. لذلك طعن نجيب غدرا ولم يطعنه السادة.

طعنه ضحية من الضحايا الذين يتحدث عنهم ممن أرعبهم أن يصحوا من نومة أهل الكهف.

(١١)

ذات مساء، راح الصديق الراحل يحيى الطاهرعبد الله يطوف بكتاب "تحت المظلة" لنجيب محفوظ على مقاهى الأدب والأصدقاء فى البيوت، صائحا فى انبهار وغضب:

- اصحوا. سرقنا نجيب.

وبعد لأي نفهم ما يقصده يحيى. لقد خاض نجيب بروح الحداثة، روح قصص الستينيات المبشرة بالحداثة، رؤى الحداثة. وحصد كل ما زرعه الحداثيون وتفوق عليهم. ضحكت عندئذ. قلت ليحيى ما كان قد قاله لى الصديق الراحل الشاعر: عبد الوهاب البياتى: الفنان الكبير حوت كبير، ومن حقه أن يفعل فهو أقدر، لأنه مشروع كبير متواصل الحلقات. وذلك ما فعله بيكاسو مع مدارس الفن.

ذات مساء آخر، وكان صديقى الراحل: يوسف إدريس قد فرغ لتوه من قراءة: رواية: "ملحمة الحرافيش" الملحمة التى أنزلت عالم أولاد حارتنا التاريخى المجازى إلى أرض الواقع المصرى أرض الحاكمين الذين يجربون فى شعب بأسره، ويصيبون، ويخطئون، يحاولون أن يحققوا عدلا بشريا لا تطوله جهود أفراد، ينفردون بالرأى، وبالقوة، ويتساقطون واحدا بعد واحد والكل من حولهم عليه فقط أن يسمع، ويطيع، ويدفع الضريبة أو الإتاوة للحاكمين.

ذات مساء صاح يوسف مبهورا وغاضبا، ربما لأنه ليس هو الذى فعلها:

- ابن الإيه.. لقد فعلها أخيرا.

ذئب وحيد

(١)

لم يطرق باب الغرفة الزجاجى. أدار المزلاج، ودخل على فجأة. رفعت رأسى عن الورق، والقلم لا يزال فى يدى. نبهنى إليه صوته :

- أين مكتب سعد؟

رأيته واقفا أمامى، لصق المكتب تماما ينظر إلى بعينين لا تعبير فيهما، ووجه أصم. غاظنى دخوله المفاجئ وبرود صوته. بدا لى لأول وهلة غير مهذب. فهمت أنه يسأل عن رئيس التحرير. قلت له ببرود مثل بروده :

- نقول له من؟

فقال لى بهدوء: سعد.

ظننت أنه يهزل فقلت له :

- سعد من؟

قال لى بهدوئه الأصم :

- قل له فقط : سعد. بينى وبينه موعد.

ابتسمت له فجأة. نهضت، وصافحته مبتسما:

- أهلا بك. المكتب المجاور على اليمين.

انصرف عنى دون كلمة. وترك الباب وراءه مفتوحا، فسرت وراءه، وأغلقته، وعدت إلى مكتبى.

لم أكد أعود إلى عملى لترتيش تحقيق صحفى للمجلة حتى رأيته يعود. يفتح الباب دون طرق. ويجلس إلى مكتب شاغر، ويضع فوقه أوراقا فى يده، ويفتح حقيبة مدلاة من كتفه، ويخرج منها كاميرا وضعها جانبا ثم مجموعة من الصور.

توقفت عن العمل. فقد راقتنى مراقبته صامتا يعمل بلا صوت. أخذ يرتب الصور. ثم راح يرقمها صورة بعد صورة، ثم راح يكتب كلام الصور صورة بعد صورة. ويقلب كل صورة فوق سابقتها بنظام، لا تنحرف معه صورة عن التى تحتها، ثم شبكها معا بدبوس كبير. وغادر المكتب بالأوراق مدبسة ووضعها أمامى ومعها الصور قائلا لى:

- سعد طلب منى أن أعطيها لك.

نظرت إلى الأوراق. كانت موضوعا صحفيا، مانشته الرئيسي وعناوينه الفرعية، على صفحة مستقلة، وقد كتب عليها سعد الآخر : تنشر في العدد الحالي. على أربع صفحات ألوان. وقرأت اسم سعد الوافد على الأوراق، عرفته على الفور من شذرات في رأسي عن تاريخه الشخصي. قلت له متوددا:

- اجلس. واشرب شيئا.

هز رأسه نفيا. وقال وهو يغادر الغرفة:

- مرة أخرى.

ومرة أخرى ترك الباب مفتوحا. وذهب.

(٢)

أذهلني الموضوع الذي تركه لي سعد. كان تحقيقا حول قضية من قضايا الساعة، صممه سعد بدقة. قدم له بتلخيص أفكاره. حتى ليغني تلخيصه قارئا متعجلا عن قراءة الموضوع كله. مثلما كان يفعل صحفيو مدرسة أخبار اليوم في زمن مضى. وكان من سألهم سعد موزعين في الموضوع كله، بصورة من صور المونتاج، والقص، واللصق، وفق نقاط القضايا المثارة من مسئول إلى آخر. يلتقون، ويفترقون، ويتبادلون، ويتقاطعون، وكأنهم في ندوة مكتوبة تختلط فيها الحوارات. ومن المدهش أنه لم يخطئ أخطاء الصحفيين خطأ واحد في اللغة أو الإملاء أو الكتابة، أو في التصريفات الاشتقاقية للأسماء أو الأفعال أو في استخدامه لحروف الجر والجمل القصيرة. والأسلوب بسيط الكلمات حتى الألفاظ غالبا والفقرات أيضا قصيرة، وبعضها يسلم إلى بعض. "فكر منتظم"، وقلت لنفسي: لصحفي متجول بل لثوري فوضوي متقاعد. يحلو له أن يمارس الكتابة للصحافة.

لم يحتج موضوع مني إلى نقطة أو فاصلة أو تنقيط لحروف ندت عن قلمه. لم يحتج إلى أي تليين للغة أو استبدال لكلمة. احتاج مني فقط إلى تدبيس صفحاته في أوراق سميكة أخرى، من أعلى ومن أسفل، حتى يمكن للتجميع والمصحح الإمساك بها. فقد كانت أوراقه مكتوبة بالحبر على ورق الأرز الشفاف المصقول، بخط أنيق وفي سطور منتظمة، كأنها قد كتبت فوق ورقة مسطرة ذات هامشين رأسيين على الجانبين، ووضعت الموضوع مع الصور بعناية في دوسيه الموضوعات الخاصة بالمشرف الفني. وكان آنذاك هو الفنان "على مهيب".

(٣)

ليلة المونتاج قلت لرئيسي سعد:

- موضوع سعد مدهش. صحفي ممتاز. لم لا تعينه معنا.

فضحك وقال لي:

- هو معين فعلا، ولكن دون أن يعلم. سيكتب لنا بانتظام. لكنني لا أريده أن يكون له مكتب ثابت بالمجلة. ألا تعرف تاريخه؟

وراح سعد يحكي لنا في سهرة المونتاج بالمطبعة، بدار الهلال عن سعد الآخر

الثورى الفوضوى الذى لا يترك وراءه خطأ واحدا فى أى عملية عنف قام بها، فى عهد الأحزاب، والباشوات، والإقطاع. وحين قامت الثورة لم يبق له إلا لأن يكون صحفيا يراقب ما حوله، وربما يبحث عن ثغرة يعبر فيها عن احتجاج عاصف وعنيف بطلقة رصاص أو قنبلة. لكن هاهى سبع سنوات قد مرت من عمر الثورة، ولم يقم سعد بمغامرة واحدة.

(٤)

حكى لنا سعد فى تلك الليلة عن اليوم الذى أسر فيه ضابطا بريطانيا وغمى له عينيه، وأوثق يديه وراء ظهره، وربطه على المقعد الخلفى للموتوسيكل، وقطع به الطريق كله من القصاصين عابرا كل الطرق والمدن، وحين يحتاج الموتوسيكل إلى بنزين يتوقف، ويأمر عامل المحطة بملء الخزان، والتأكد من الماء والزيت زاعما له أن يصحبه معه ضابط بريطانى ومعاقب، وعليه أن يسلمه شخصيا إلى مقر قيادة الثورة، فقد قتل أسرة مصرية بكاملها.

وفى القاهرة توقف أمام دار روز اليوسف، وكانت بمكتبها القديم بشارع حسين حجازى، وترك الضابط موثقا إلى الموتوسيكل، وصعد إلى السيدة روز اليوسف، وقال لها أنه أسر ضابطا بريطانيا، وأن أسيره أمام باب دار روز اليوسف فى حراسة بواب الدار.

وذعرت السيدة روز اليوسف، وأطلت من النافذة، وسألت سعد عن الموتوسيكل فقال لها أنه استعاره بالسرقة من القصاصين. وعندئذ رجت السيدة روز اليوسف سعد ليغطس من الدار كلها بل من القاهرة بأسرها إلى حين. وهى تقول له:

- يا نهار اسود. ستقوم الدنيا ولا اقصد. لو كان ذلك أفضل.

وغادر سعد الدار، والشارع واختفى. واتصلت السيدة روز اليوسف بالداخلية. ولفتت لوزيرها قصة عن وجود ضابط أسير موثق على باب الدار. وسارعت بتصويره، للاحتفاظ بصورته فى أرشيف الدار للذكرى فقط. وتصرفت الداخلية مع الأسير، ومع القيادة البريطانية فى القنال بقصة ملفقة أخرى.

(٥)

كل أسبوع تقريبا كان سعد يهل على المجلة، ويترك موضوعا صحفيا جديدا ويذهب. وكل أسبوع كان ينعقد مساء كل جمعة اجتماع لمحررى المجلة المعنيين وغير المعنيين، لتقييم العدد الذى طبع من المجلة والإعداد للعدد الأسبوعى التالى، وسعد لا يحضر أى اجتماع منها كان مؤسسة يعمل لوحده، ويأتى بما أنجزه، ويذهب، وربما يكون ما كتبه لم يوضع له حساب فى المجلة، فيؤجل موضوع آخر وينشر موضوعه هو فى الفن أو فى السياسة أو فى الاجتماع، أو ما شاء له مزاجه الخاص أن يكتبه. حتى جاء يوم رأيت فيه سعد يأتى إلى المجلة حاملا حقيبة كنت أسميها "بيته " ففيها كل شىء قد يحتاج: الإبرة، والخيط، والزرار، ومطواة قرن الغزال، والمبراة،والحبر، والأقلام المتعددة الألوان، وقطعة

من قماش أصفر يلمع بها حذاءه، وأوراق من شتى المقاسات، والألوان، وما لا يعلنه إلا هو وحقيبته المعلقة على كتفه دائما جالسا كان أو واقفا.

جلس سعد إلى مكتب شاغر، وراح يضع أمامه على المكتب بترتيب، ونظام قصاصات صحف شتى يتأملها لحظة، ويضعها فى مكانها، ويسحب منها على التوالى وهو يكتب. حتى ملأ عشر صفحات أرفق بها صورا، وتركها لى على المكتب نفسه، ومزق قصاصات الصحف، وألقى بها فى سلة، ونهض قائلا:

- أرسلها إلى المطبعة. لن يحتاج سعد إلى الأمر بنشرها.

ثم قال لى:

- اطلب لى قهوة.

وابتسم لى لأول مرة. وسألنى:

- من أنت حدثنى عن نفسك.

(٦)

ألف كل من بالمجلة قدوم سعد وذهابه، يجلس أحيانا ساعة، وأحيانا يقضى معنا النهار بطوله. أحيانا يغيب أياما، وأحيانا يتواصل وجوده معنا أياما متلاحقة. يجلس غالبا صامتا إذا لم يكن يكتب أو يقلب صحفا ومجلات، ويطرحها جانبا، وكأنه قد حفظ ما بها. أغادر المجلة معه أحيانا، وأركب أنا وحمدى لطفى معه سيارته. كانت اقدم سيارة عرفتها مصر أو عرفها الغرب كله. سيارة مكشوفة صغيرة العجل، واطئة المقاعد تكاد فى سيرها أن تنفرط قطعا، وفى بطئها أن تتجاوز قطة. كنت أطلق عليها النكات نكتة نكتة أقولها لسعد، وسعد ينظر إلى، ولا يغضب لسيارته أو يضحك لفكاهتى. زعمت مثلا أن سعد يملؤها بالبنزين بواسطة فنجان، أن بابها يسقط منها، فيمد يده، وهى سائرة يحمل الباب، ويعيده إلى مكانه. وهى تمشى. وأنها هى تتعطل يدفعها بقدمه وهو جالس إلى عجلة القيادة حتى يدور موتورها، وأنه لو نسيها أياما فى حى شعبى، فلم يسرقها أو يمسها أحد.

وأسأله يوما عن حقيقة مشاركته فى عملية اغتيال فلا يجيبنى سوى بقوله:

- ذلك أمر مضى. لم تسأل لم تغرم بالشائعات؟

وأسأله يوما عن رد فعله حين دخل إلى بيت زعيم، ووضع فيه حقيبة متفجرة (لم تتفجر) وعندما عاد وجد "الرصد" المخصص لإنذاره هو ومن معه، قد هرب ليدعى أنه كان موجودا، بمكان آخر لو انفجرت القنبلة فى قصر الزعيم. فيقول لى:

- ذلك أمر مضى. لا تسأل. إنه مجرد شائعات.

أدعوه ونحن بمقهى ريش، ليشرب زجاجة بيرة فيهز رأسه رفضا لها. أقدم له سيجارة فيرفضها. يشرب فقط كوب شاى أو قهوة أو يأكل قليلا، ويروح يرقب ما حوله بعينين ثابتتين، وينصت إلى الأصوات بأذنين مفتوحتين. حتى فكرت أنه مثل أبى الهول. وانتهى بى التفكير إلى أنه ذئب وحيد.

(٧)

لقينى سعد ذات مرة بميدان السيدة زينب. قال لى:

- تعال معى. سنشرب فنجان شاى فى بيتى.

سرت معه بشارع القلعة، كان وقت المغرب قد ولى. انتهى بنا الطريق إلى بقاع خربة متناثرة، تتخللها عشش وبيوت متواضعة. صعد بى تلا خربا مليئا بالحفر والأحجار والنتوءات والمنخفضات، وهو يأخذ بيدى فى ظلام الليل فلا ضوء من حولنا. حتى بلغنا أقصى التل، رأيت ما يشبه أن يكون حجرة وصالة دفع سعد مفتاحا حديديا أخرجه من جيبه فى ثقب الباب، وأداره فى ظلام الليل، ومد يده إلى مصباح نفطى لا أراه، ورفع زجاجته، وأناره، وحمله عبر صالة، ملأى بالكراكيب، وتبعته إلى داخل غرفة. دفع بابها، واشار إلى كرسى وقال لى: اجلس. جلست. ووضع المصباح فى كوة، وجلس على حافة سريره. أشعل موقد سبرتو ووضع فوقه برادا من صاج مطلى بسواد وبياض معا. وملأه بماء من سطل ضخم.

بدت لى الغرفة مكانا محزنا. أهذا هو بيت سعد. السرير متواضع المرتبة. والمرتبة فوق لوحين من الخشب. واللوحان فوق بضعة من الأحجار فى أول اللوحين وآخرهما. وموقد السبرتو فوق حجر هو مائدته. وثيابه معلقة بالمسامير على الجدار بنطلون آخر رمادى، وقميص سادة من اللينو، وبلوفر بأكمام شتوية، والكرسى الذى أجلس فوقه لم يكن مريحا، ويبدو لى أنه صنعه بيده على عجل.

كنا فى الصيف رايته ينهض، ويدفع بمفتاح فى قفل الصندوق، ويرفع غطاءه، ويخرج بحنو وعناية شيئا مستطيلا ملفوفا بقماش سميك، راح يديره حول ذلك الشىء، وراح ذلك الشىء يتبدى لى دبشك سلاح، ثم زناده، وخزانة طلقاته، ثم ماسورته مدفع رشاش قصير. عرفت مثله فيما مضى. مدفع من طراز أعرفه.

قلت له فى دهشة:

- مدفع رشاش؟

فنظر إلى، وقال:

- نعم كيف عرفت؟

لم أجبه. سألته فقط:

-لم تحتفظ به؟

فقال لى:

- من يدرى. قد أحتاجه يوما.

ثم قال لى وهو يقدم لى كوب الشاى:

- هل أخبرك سعد؟ وافق سعد على سفرى كصحفى. إلى لبنان لأغطى للمجلة أحداث الحرب الأهلية فى جبال الشوف.

ثم هز رأسه دون أن ينتظر من تعليقا، وقال لى وهو يملس بحنو على مدفعه:

- كم أود أن يكون هذا المدفع معى. له عندى عمر طويل يزيد عن عشر سنوات.

ثم قال لى:

- أتظن أن سعد يمكن أن يدبر لى هذا الأمر؟

ثم قال لى:

- لى بيت غير هذا البيت. لكن فى هذا البيت أعتكف أحيانا أو أياما، وأخلو إلى نفسى.

سألته:

- حدثنى عن نفسك. أهلك. زوجتك. أولادك. بلدك. حبك.

وفوجئت به ينهرنى قائلا:

- لا تسأل. أنا.

وسكت.

فقلت له:

- ذئب وحيد.

فنظر إلى برهة ثم قال لى:

- أنت فنان. حقا فنان. الاسم يروق لى.

وغادر معى بيت التل، وساعدنى حتى بلغت شارع القلعة، وعاد وحيدا إلى بيت التل.

(٨)

أمده سعدا مالا سائلا وتوصية للسفارة المصرية فى بيروت، لتمد له يد المساعدة فى كل ما يطلبه منها كمراسل صحفى حربى للمجلة فى لبنان، لتغطية أحداث لبنان عامة، وحرب الشوف خاصة، ويسمح له بالحصول على جواز سفر ديبلوماسى يلجأ إليه فى أوقات الشدائد، أثناء وجوده فى لبنان، أو فى غير لبنان، وغادر سعد مصر إلى قبرص ثم إلى لبنان، ولا أعرف إذا كان رحيله بالبحر أو الجو. ولم يعرف أحد منا فى المجلة شيئا عن ذلك كله، فقط عرفت أنه فى لبنان، وأنه انخرط فى حرب الشوف، ليس فقط كصحفى ومرسال حربى، وإنما أيضا كمقاتل محارب فى الجبهة التى أراد الانحياز إليها ضد عصبة شمعون. عرفت ذلك من رسائله التى راحت تتوالى أسبوعيا بانتظام عجيب قادمة من لبنان انتظام، لا يقدر على مثله البريد الدولى العادى، ولا تسمح بمثله الإجراءات العسكرية للسلطة الحاكمة فى لبنان، خاصة حيال رسائل الصحفيين الأجانب من العرب وغير العرب.

لم تكن رسائل برقية كعادة المراسلين الحربيين لصحفهم فى دول العالم كانت رسائل أسبوعية مكتوبة يحملها كل أسبوع مظروف واحد، ومكتوبة أيضا على ورق الأرز الشفاف المصقول الرهيف تعلم الحبر، ويخط سعد المنظم الدقيق من الهامش إلى الهامش، وقدرت أن هذه الرسائل تحمل إلينا بالحقائب الدبلوماسية. ومع الأوراق كانت صور شتى من الجبهة لقادة، وجنود، ومواقع، وجرحى، وقتلى، بل لمانشتات صحف متعارضة الاتجاهات وقد أحاطت ببعض ما تحتها من سطور دالة، ودوائر حمراء، وبيضاوية منتظمة.

وبين هذه الصور كانت صور لسعد يحمل مدفعه، واقفا، وجالسا، ومنبطحا على تبة يطلق النار، ومنخفض، أو فوق هضبة، أو وراء شجرة، وصور لشخصيات شتى لبنانية أجرى سعد معها أحاديث. وأدار حوارات ذكية فاهمة للأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والفنية فى لبنان. وصور لتحقيقات صحفية من الحياة اليومية فى لبنان. ولم أعرف كيف كان سعد عبر عدد من الأيام، والأسابيع، والشهور يجد وقتا لهذا النشاط كله فى الجبهة، ووراء الجبهة فى الغابات، والجبال، والأدوية، والسهول، والمعسكرات، وطرقات المدن، والقرى، بل أيضا دور السينما، والمسارح. وفى كل عدد كنا نفرد لرسائله ملفات بها عدد من الصفحات قد يصل لنصف حجم المجلة بل لقد وصل ذات مرة إلى إصدار عدد خاص عن لبنان، وحرب الشوف فى عدد كامل شمل حتى الأخبار الفنية والأسرار الاجتماعية. ووصل تفرد المجلة صحفيا بفضل سعد إلى درجة أن الصحف والمجلات الأخرى كانت تنقل عن مجلتنا التى يقودها ذو نفوذ ما فى الدولة، وينفذ معزوفاتها ببراعة مدهشة مدير مسرح قدير هو سعد الآخر فى ربوع بلاد الأرز العربية الساحلية.

(٩)

عاد الذئب الوحيد إلينا قادما من لبنان، ليرحل بعد ايام أو أسابيع، لتغطية حرب أخرى فى المغرب العربى الكبير، حرب المقاومة الجزائرية الدائمة ضد الاستعمار الفرنسى، التى لم تكن تخبو طوال أكثر من مائة عامل تشتعل من جديد، فيالقرى، والمدن، والسهول، والجبال من أقصى الشمال فى الجزائر إلى أقصى الجنوب، ومن شرقها إلى غربها رافضة الاحتلال بل الاستيطان الفرنسى الامبراطورى، مرورا بعبد الكريم الخطابى، وانتهاء ببن بيلا وجميلة بوحريد، وهوارى بو مدين.

حمل سعد حقيبته الخاص ومدفعه الخاص، وذهب وغطى للمجلة مرحلة من حرب الجزائر الشعبية ضد فرنسا، مثلما فعل من قبل مع الحرب الأهلية فى لبنان. فى تلك الفترة أوقفت مجلتنا فجأة إلى أجل غير مسمى، فى شهر سبتمبر على ما أذكر عام ١٩٩٥ ، ومع ذلك استمر سعد بمدفعه فى صحارى الجزائر وجبالها. والقصبيا ت بمدنها يواصل قتاله ربما دون أن يرسل اية رسائل صحفية حربية، أو غير حربية إلى صحيفة فى مصر. كانت رسائله الصحفية فيما أقدر أمرا هامشيا، بالنسبة لذئب وحيد بخصوص معارك هو بالدرجة الأولى، فيما أقدر أيضا هى بالدرجة الأولى معاركه الأولى والشخصية.

(١٠)

فى السنوات الأولى من الستينات، اقتصرت الجزائر على فرنسا، كسبت حربها الشعبية الطاحنة، وأقر بالواقع السيد ديجول بعد نحو من عشرين عاما من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وآن على يد ديجول لشمس فرنسا الاستعمارية بأن تغرب مثلما غربت من قبلها شمس بريطانيا الاستعمارية فى قارتى

أفروسيا. ومن الغريب أن سعدا لم يعد إلى مصر، اختار الرحيل من الجزائر إلى المغرب على ساحل الأطلسى، والمتوسط معا ممتطيا سيارته الصغيرة الفريدة التى كان قد آثر الرحيل بها هذه المرة عابرا الصحراء الغربية الكبرى. وليبيا وتونس حتى وصل إلى الجزائر. وكلما عطبت منه توقف، وأصلحها بنفسه، وعاد بها إلى السير فى الرمل، وعلى الطرق المرصوفة فى المرتفعات، والمنخفضات. ولطالما سألت نفسى: ماذا يفعل سعد الآن فى المغرب فى جبال أطلس الكبرى، فى الشمال، وأطلس الصغرى بالجنوب، وأى صراع يخوضه بمدفعه، وفى أى جبهة يقاتل، ولم أعثر على كل تساؤلاتى حتى اليوم على جواب واحد. حتى بالظن، أو الحدس. يمكن أن أخمنه. إلى أن علمت أن سعدا قد قبض عليه بالمغرب، وأودع السجن، عندئذ تذكر قصة الثائر الأبدى المتفرد "تومبين" صديق السيد جيفرسون، والذى علم نفسه بنفسه الفكر والثورة. ولك يكن قد نال من قبل أى قسط من التعليم، ربما مثلما كان من بعده الذئب الوحيد، والذى كتب عنه هاورد فاست ملحمة روائية من جزئين تنافس فى روعة ملحمته الروائية عن العبد الثائر سبارتاكوس، وانتهى به الأمر حين لم يجد ثورة فى أمريكا يوقد نيرانها إلى الرحيل إلى فرنيا، ليزكى نيران ثورة بها، فانتهى به الأمر إلى السجن فى الباستيل بباريس.

(١١)

ثم بلغنى أيها القارئ، غير السعيد. أن سعدا أفرج عنه من سجنه بعد عامين أو ثلاثة أعوام. فوجد سيارته الوفية حيث تركها، لم تغر أحدا فى المغرب كلها بسرقتها، أو العبث بها، أو أخذ قطعة غيار ما منها، ولم تثر طفلا ليكسر زجاجها الأمامى المغبر المسود بحجر.

ولا بد أن الذئب الوحيد، قد سعد بها فراح ينظفها، ويرتبها، ويملؤها بالبنزين، والماء، والزيت، ويعيد نفخ عجلاتها بعدتها الخاصة فى صندوقها الخلفى، ثم امتطاها كفارس عائد من الأسر. وسار بها فى شوارع مدن المغرب، سائحا من طنجة إلى فاس، والرباط ، ومراكش، وهى لا تعصى له أمرا.

وبلغنى أيها القارئ السعيد، فيما بلغنى عن الذئب الوحيد فى بلاد المغرب الوحيد أن سائحا فرنسيا. رأى سيارة سعد، فأدرك قيمتها الأثرية كواحد من جيل ما بين أجيال أوائل السيارات فى الدنيا، فعرض عليه شراءها منه فى سنوات الستينات، وربما كان ذلك بعد حرب ١٩٦٧ ، وساومه على الشراء حتى عرض عليه ثمنا لها سبعين ألف دولار، لكن سعد ربت على سيارته، وابتسم للرجل، ثم قال له ربما ناهرا:

- إنها أنا .. وأنا لا أباع بثمن.

(١٢)

وساق سعد سيارته، وأدرا راديو صغير على المقعد المجاور، فصدحت منه أغنية عربية بموسيقاها الشجية، وراح سعد يوقع بأصابعه إيقاعات الأغنية على

مقود سيارته الحبيبة، حتى عبر أرض الجزائر، ودخل فى ديار تونس. وهنا حدث ما لم يتوقعه سعد، ولم يخطر له على بال. توقفت السيارة كأنها علاها الصدأ، وقاومت لتتحرك، فعجزت، وحاول سعد دفعها فلم يدر موتور. كشف عليها سعد: البطارية سليمة، والبنزين وفير الماء والزيت وأسلاك الكهرباء سليمة، والعجل لا بأس به. لكن البساتم تآكلت. وأجزاء الموتور قد نحلت شاخت سيارته فجأة، وأصابها الضمور، بكى سعد فيما أقدر عندئذ، وادار ظهره لسيارته، تركها وراءه دون أن يلتفت، كمن يودع حبيبا لن يعود إليه. فتوقف ونظر جهتها، لكنها كانت بعيدة لا ترى وراء أفق فسيح.

(١٣)

كانت السيدة روز اليوسف قد ودعت الدنيا. وتولى قيادة دفة الدار تحريرا، وإدارة ابنها الكاتب "إحسان عبد القدوس". وقد بلغنى فيما بلغنى أيها القارئ غير السعيد أن سعدا عندما عاد من المغرب، ولم يجد له على شهرته وخبرته عملا. ذهب إلى إحسان فى مكتبه حاملا حقيبته التى هى بيته، وجلس إلى مكتب إحسان، وطلب منه أن يعينه صحفيا بالدار، فقال له إحسان محرجا ومرحبا ومترددا فى الوقت نفسه:

- أهلا بك يا سعد، اكتب لنا ما شئت أسبوعيا إذا شئت. لكن التعيين مسألة أخرى، فالدار ملآى بالمحريين ثم.

ولم يمهله سعد، فقد انحنى ودس يده فى قلب حقيبته المفتوحة، وأخرج حزمة أصابع ديناميت، ووضعها على المكتب أمام إحسان، وقال له بهدوء:

- هل ستعيننى أم أنسف لك دار روز اليوسف؟

فهب إحسان واقفا وذعورا بلا شك، وقال لسعد:

- حبيبى سعد، أخى سعد، نعينك يا سعد أأمر يا سعد، لكن اخف هذه المصيبة أولا.

وضغط إحسان على زر بمكتبه، ودعا إليه رئيس شئون العاملين، وقال له:

- هات فورا ورقة لتعيين الكاتب الصحفى القدير سعد محررا بدار روز اليوسف.

والتفت إلى سعد قائلا:

- كم تريد أن يكون مرتبك معنا يا سعد؟

(١٤)

انتخب الذئب الوحيد وكيلا لنقابة الصحفيين. صار أحد وكيلين للنقابة، الوكيل الآخر كان كاتبا مبدعا كبيرا ثائرا بدوره على طريقته ، وكان حاكم ولى، وجاء حاكم آخر للوكيلين فيما أعتقد ربما كان ذلك بعد أحداث "الكعكة الحجرية" أن يعلنا اعتصاما بالنقابة. تضامنا مع الطلاب فى الجامعات. وأزعج هذا الاعتصام الحاكم، فقد تناقلت أخباره، وكالات الأنباء الغربية، واحتشد مراسلوها لتغطيته بالصوت والصورة، ودوت أصداء هذا الاعتصام فى أرجاء مصر بأسرها.

ولقد بلغنى أيها القارئ غير السعيد، أن الحاكم أمر أن يؤتى إليه بالذئب الوحيد وحين واجهه أجلسه وأكرمه بالشاى والغداء والقهوة كصديق شاركه أساما فترات من النضال فى سنوات الأربعينيات، ثم انفرد به فى الشرفة، وجذب أنفاسا من البايب. ووضع ساقا على ساق، ونظر قليلا إلى النيل العظيم. وسأله:

- اسمع يا سعد. أما أعرف ثمن وكيل النقابة الآخر. مشكلتى هو أنت. أنا أعرف من صحبتنا القديمة معا أنك مثلى. لا ثمن لك. وثمنك الوحيد هو أن تنفذ ما فى رأسك، ولا تقبل حوله حوارا. فأنت تفتقد القدرة على أن تكون سياسيا، ولا تقبل أى تكتيك، ومشكلتى الآن بالنقابة هى أنت وأنت وحدك.

وظل سعد صامتا. يرنو إليه مرة، وإلى النيل مرة، حتى قال له صديقه الحاكم:

-اسمع يا سعد. لا تقل لنفسك، إننا كنا معا صاحبين، ولا أنك أطلت معى عيش وملح. ولا يوما فى زنزانة واحدة. واسمع عنى. وضع ما أقوله حلقا فى أذنك التى لم يثقبها لك أحد قط: الحاكم لا صديق له. كنت فرفورا بين فرافير سلفى، لكننى قد أصبحت اليوم حاكما، وخلفا له. ولم يعد لى بالحكم من صديق. سوى هذا النيل العظيم وهذه الأرض على جانبيه ومصلحة الناس الذين يعيشون على ضفافه، كما أراها أنا لا أنت. ولا أى أحد آخر. وأعلم يا سعد أننى آخر الفراعنة فى مصر. وحسابى عند الله وحده إن أصبت، وإن أخطأت. فأنا الحاكم الأوحد، وخليفة الله على الأرض فى مصر. وهذا النهر، وترعه تجرى من تحتى. أفهمت.

لم ينطق سعد بحرف، كان يرقبه فقط، ويسمع فلا جدوى الآن من الحديث معه، أى حديث. وأدرك أن صاحبه القديم يخشاه. يخشى شجاعته وحمقه، ووحدته الذئبية معا، ربما أكثر من خشيته لكل الناس.

وانحنى الصاحب القديم نحو سعد، وقال له بحسم:

- اسمع يا سعد. إن بقيت فى مصر. قتلتك ودون تردد أو ندم. سأفرمك يا سعد، وأنت أكثر من كل الناس تعرف كيف أخطط، وأدبر، ولا يبقى لك من أثر حتى الذكرى. فأنت تعيش وحيدا بلا صديق ولا عدد. ولسوف يقول من يتذكرك أنك انتحرت، مثلا انتحرت أو اختفيت فى بلاد، وفى الحالين لا جثة لك.

وصمت الصاحب القديم. ثم ارتد بظهره إلى ظهر مقعده الدوار، وراح يدور به يمنة ويسرة، ثم توقف وقال لسعد ناصحا بحب قديم:

- ارحل يا سعد. ارحل عن مصر كلها. اختر أى بلد تريده الآن، واطلبه منى، وسوف أوفر لك غدا الرحيل إليه غدا، وليس بعد غد.

فكر سعد لحظة جاب فيها بعقله ومشاعره كل بلاد الدنيا ثم قال له:

- أختار العراق.

ضحك صاحبه القديم عندئذ ثم قال له:

- العراق، لماذا العراق لأن بها عبد الناصر آخر؟ تخطئ يا سعد. ولا زلت أبقى عليك. ناصر هنا فى قلبه متسع للحكمة، وللصفح، وللمشاورة. لكن هناك العراق. العراق.

وعاد الصديق القديم يضحك، كأنه يدعو سعدا إلى مغادرة التفكير، لكن الذئب الوحيد، قال مؤكدا:

- اخترت العراق.

فقال له الصديق القديم، وقد شحب وجهه:

- لك ما شئت. اذهب عنى.

ودق جرس فقبل حارس، ونهض سعد ، ولم يصافح أحدهما صاحبه، ولم ينهض من صار حاكما لوداعه. وغادر سعد الشرفة، والغرفة، والدهليز، والحديقة.

أكان ذلك دار حقا من حوار بين الاثنين، لا أملك أيها القارئ غير السعيد مثلى، سوى تخيل ما حدث لك، فأنا كويتب، وأنت مثلى قويرئ، وعلم الحقيقة فى بطن التاريخ، فتحسس أطرافه، ومعالمه، ولا يدونه أحد.

(١٥)

عام ١٩٧٥ ، كنت ضيفا نزيلا بفندق القصر العباسى، كنت بالرقاد فى الساعة الثالثة صباحا، وقد ذهب الأضياف الزائرون عائدين إلى بيوتهم، رن جرس التلفون، وجاءنى صوته أعرف صوته الهادئ هدوء وجهه، ووضوحه من بين مليون صوت على تباعد السنين، وقال لى صوته:

- أنتظرك فى الدور الأول. أنا سعد.

قلت له:

- اصعد إلى . فأنا وحدى.

صعد. ربما لأنه لا يريد مزيدا من الحوار بالتلفون. انتظرته على باب المصعد. دخل الغرفة. كنا فى الصيف، وكان مرتديا نفس البنطلون الرمادى السادة، ونفس القميص الرمادى السادة الذين رأيته به آخر مرة. ودار بعينيه سريعا فى الغرفة. وتوقفت عيناه أمام عدد من برايز الكهرباء بجانب سريرى، ووضع كف يده، فوق ثلاث برايز منها لا توجد بها أى فيش كأنه يغلقها، وقال لى:

- هذه البرايز يسجل منها فى كل غرفة، كل ما يحدث فى الغرف الأخرى من أصوات. ارتد ثيابك بسرعة. سنذهب معا إلى شط دجلة، حيث لا يسمعنا أحد.

بدوت له مبهوتا لا أصدق. أنظر إلى كفه، وإليه، وإلى نفسى ، فكم تحدثت هنا مع زائرى.

وشاء أن يؤكد لى ما يقوله، فوضع سبابته على فمه لألزم الصمت وتحرك نحو عمود بجدار الغرفة به قطعة من الخشب، كأنه نافذة، وبهذه النافذة المغلقة ثقب. وأخرج من جيبه قطعة من السلك ثناها وأدارها فى الثقب، وجذب قطعة

الخشب، فدارت على محاورها. ورأيت ما شدهنى. قرص يحيط به شريط تسجيل ضخم يسجل عليه كل صوت، مثلما يحدث فى شرائط الإذاعات الكبرى طوال أربع وعشرين ساعة كل يوم. وتحت الشريط وفوق الشريط كان سلم من حديد فى جوف العمود كله. وأغلق سعد البويب. وقفل البويب. وارتديت ثيابى وسرنا معا. مغادرين الفندق .

(١٦)

عند قرص تمثال أبو نواس الشاهق البياض، جلسنا معا على شاطئ دجلة، تحيط بنا فى الجوانب الأربعة أربعة جوارى من جوارى الأشعار النواسية، وأضواء الأعمدة الكهربائية، تغمر المكان بضوء ساطع. بدا لى سعد، وقد صار ذا كرش.

سألته:

- سمنت.

فقال لى ما أذهلنى:

- من شرب البيرة وكثرة الأكل، كالمحكوم عليه بالإعدام.

قلت له بأسى:

- أنت. لم أعرفك أكولا أو تشرب.

فقال لى:

- التدخين وحده هو الذى لم أقربه أو يرق لى.

وراح يحكى لي حاله بعد أقل من ثلاث سنين ببغداد، عرفت منه أنه محدد الإقامة تقريبا فى بغداد. يعطى راتبا، ويسكن بيتا متواضعا، ويعمل فى أرشيف صحيفة، وهو العمل الوحيد الذى أسند إليه. ومع الصحفى المهاجر فى سنوات السبعينيات سعد التائه. ومهاجرين آخرين من رجال الإعلام، والفن، والمبدعين. ولم يكتب ببغداد حرفا فى كتاب. أو صحيفة، أو مجلة، ولقد تمنى أن يكتب مذكراته. ولكنه يخشى العواقب. فالناس هنا بلا سعر. أى سعر حتى لو كنت واحدا من رجال الحزب ونسائه. هنا سنة، وشيعة، وخمس قوميات، وخمس لغات. وأرض الجبارين من الأشوريين، والكلدانيين، والسامرائيين ، وأباطرة الفرس، وظلال الله على الأرض من خلفاء بنى العباس، والبويهيين، والسلاجقة، والمغول، وراح سعد يبكى فى صمت، وقال لى:

- أتعرف أنا الآن بلا وطن، ولا أعرف أين سأذهب. هذا إذا سمح لى بالخروج من أرض السواد. فتاريخى قد سبقنى إلى هنا. كان آخر الفراعين على حق. حين ضحك، وحين راجعنى فى قرارى.

(١٧)

سهرت ذات ليلة مع صديقى الناقد "محمد بدوى"، قدمنى إلى شاب صحفى يعمل بآخر ساعة، وقال لى أنه مثقف غاية الثقافة، وأن له مستقبلا عظيما. دارت بيننا حوارات لا أذكرها. وحدث الاثنين عن الذئب الوحيد فانبرى لى ذلك

الصحفى الشاب بقوله: أنه التقى بالذئب الوحيد، فى باريس، وأنه قد تزوج وأنه قد صار له من زوجته الفرنسية بنات وبنين،وأدهشنى حين قال لى أنه أجرى معه حديث صحفيا مطولا ومسجلا دام ثلاث ساعات. وابدى إعجابه بعنوانى: الذئب الوحيد- الذى أعتزم كتابته واستأذننى فى استعارة هذا العنوان لحديثه الذى يعتزم تفريغه ونشره. أمهلته ليكون هذا العنوان له لكننى سأستعيده إذا لم ينشر حواره خلال عام. حتى الآن . مضى عامان. وهأنذا أسترد عنوانى: ذئب وحيد. وأسأل نفسى الآن. الذئب الوحيد. وأظن أن هذا هو اسمه وحده وليس معه أبيه ولا جده. يحمل اسم: سعد زغلول فؤاد. والأسماء فيما نعرف لزعيم وملك.

المـروانى

"حين أكتب عنك فأنا أكتب عن نفسى"

(١)

لقائى الأول معه كان فى الإسكندرية عام ١٩٦٢ ،عرفنى به الصديق الفنان عز الدين نجيب. كان عز وقتها يعمل مديرا لقصر ثقافة الأنفوشى. قال لى عز:

- سأعرفك بصديق جديد على وعليك. عرفته هنا فى الإسكندرية. وهو عاشق للشعر. يحفظ عيونه القديمة والحديثة عن ظهر قلب. وربما أصبح يوما شاعرا كبيرا. فالشعر فى دمه وروحه.

وراح عز يحدثنى عنه قبل أن أراه. كان وافدا على الإسكندرية حديثا. نقل إلى جمرك مينائها من جمرك ميناء السويس. ودعوت عزا وصاحبه معه على الغداء فى بيتى.

حين رأيته رأيت صعيديا جاف العود، له عينان واسعتان تبدوان فى وجهه الضامر، المسفوط الخدين، كجوهرتين على شكل عينين تحب أن تراهما، وتغض الطرف عنهما سريعا، فهما ترقبانك، وتقول لك: "كن على حذر معى. لا تتبسط. وفيما عدا ذلك خذ راحتك. وقال لى عز وهو يقدمه إلى وإلى زوجتى:

- صديقنا الجديد: اسمه دنقل. أمل دنقل. وهو من الصعيد الجوانى. آخر الصعيد.

وضحك أمل، وقال:

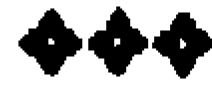
- لست من دنقلة. أنا من قنا.

بعد الغداء استأذن عز ليذهب إلى عمله بقصر الأنفوشى. واستبقيت أملا معى، فقد أنست إليه وأراحنى صمته الطويل، ربما ليترك لنفسه، ولى مزيدا من التفرس فى صاحبه، وربما كان صمته حياء صعيديا، لوجود زوجتى معنا بصالون البيت.



كان الوقت شتاء. وكان مطر الإسكندرية يتساقط رذاذا متتابعا ومنتظما بشارع بورسعيد فى حى الشاطبى، منذرا كالعادة بأنه سيظل كذلك يومين أو ثلاثة، قبل أن تنجاب سحبه أو تتجمع وتسود، وتنهمر مطرا غزيرا، يظل يهطل فوق المدينة أياما متتابعة بلياليها ونهاراتها، حتى يغرق البحر الفسيح.

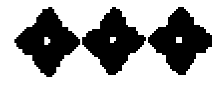
التفت إلى أمل، وقال لى بهدوء:
- ما رأيك فى أن ننزل إلى الشارع ونسير معا. ونزداد تعارفا؟
والتفت أمل إلى زوجتى، قائلا لها:
- بعد إذنك طبعا يا مدام. أحببت رجلك هذا. وسوف نكون صديقين.
وغادرنا البيت وكانت فى يدى مظلة سوداء.



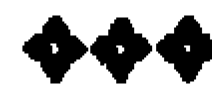
سار بى فى وسط الطريق. كان الرذاذ خفيفا. وفتحت مظلتى، ووسطنتها بيننا، لتحمينى وتحمى أملا معى من قطرات المطر، لكن أملا أبعدها من فوق ناحيتى قائلا لى:
- أحب المطر. أحب أن يغسل وجهى. ويغرق شعرى ورأسى. فى الصعيد نتمنى قطرة منه، وهو هنا فى هذه المدينة مباح حتى للبحر الفسيح الملىء بالماء. وتظل الرمال عطشى بطول الصعيد.
حين دخلنا، ونحن لا نزال بشارع بورسعيد، فى حى الأزاريطة. قال لى أمل:
- عرفتك قبل أن تعرفنى. قرأت لك وأنا بالسويس مجموعتك القصصية: عطشان ياصبايا. أحسبها مجموعتك الأولى. لكنها مجموعة طيبة. إذا اعتنيت بنفسك وجعلت من القص حرمك المقدس، ستكون قاصا حقيقيا.
وتنهد أمل وقال:
- أنا لا أعرف نفسى بعد. لا أعرف ماذا سأكون. أحب الأدب وأحب الشعر خاصة. وأحب ترديده حتى لنفسى فى نفسى، وأحيانا بصوت مرتفع كأننى أحدث نفسى، وحيدا مع نفسى للسياب، والبياتى، ومحمود حسن إسماعيل جدنا كلنا، وعمنا الجواهرى، وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى. هذا الفارس الطاووس. أتعرف حجازى. أنا لم أره بعد. لكننى سأراه يوما وأسمعه ما لم يحفظه هو من شعره.
ضحكت لما يقوله، ولحماسه للشعر الذى سيطر عليه تماما فيما بقى له من العمر. لكن قوله: هذا الشاعر الطاووس، استوقفنى وظل معلقا فى رأسى. سألته:
- كيف تراه طاووسا وأنت لم تره بعد؟
فقال لى وهو ينظر إلى:
- شعره يقول لى ذلك. شعر كل شاعر يقول لى صفة مميزة لقائله. ليس لشكله، ولكن لطبيعته. شعر صلاح مثلا يقول لى إنه كائن متوحد. شعر محمود إسماعيل يقول لى: إنه شاعر يناطح بشعره الكون نفسه. ابن النخيلة هذا صعيدى ممتلئ بالكبرياء.
وضحك وقال لى:
- الكلام أيضا مثل آثار الأقدام. هذه تدل على صاحبها. وهو يدل على قائله.

وتوقف أمل فجأة، وقال لى وقد اجتزنا حى الأزاريطة باتجاه الرمل، والمطر الرذاذ لا يزال يتتبع برتابة، من ثقوب لا ترى:

- دعنا من هذا الهراء. ألا تحب أن تسمع الشعر. الشعر الذى يثقلنى ويبهظنى.



ولم ينتظر أمل منى جوابا، فلم يكن يسأل. وراح يلقى بأداء موقع، بصوت هادئ أشعارا تلو أشعار، كانت كلها لشاعره الأثير حجازى من ديوانه: مدينة بلا قلب. ظننت أنه مع كل سكتة طويلة سيقطعها بشعر آخر لصلاح عبد الصبور من ديوانه الأول: الناس فى بلادى، أو السياب فى: أنشودة المطر، لكنه لم يفعل قط. ولم أسأله. كنت، ولا أزال جاهلا بالشعر. لا أحسن قوله ولا أحسن حفظه. ولا أحب من مطولاته ومقطوعاته سوى عيونه النفاذة إلى القلب، لا تعنيها الكلمات بقدر ما تعنيها الشفافية والصور النفاذة، والبساطة غير المقصودة.



قال لى أمل ونحن نجلس داخل كافتيريا مجاورة لفندق سيسيل، تطل عبر زجاجها على ميدان سعد زغلول، والرذاذ لا زال يتتابع. قال لى:

- منذ متى لم تقرأ شعرا؟

وجمت لسؤاله. فقد كشفنى بحدسه. قلت له بحزن وأنا أدير وجهى عنه:

- بل قل منذ متى لم تقرأ أدبا أى أدب.

ورحت أحدثه عن نفسى. كيف تزوجت، واغتربت، وتقطعت بى سبل القراءة، فى السعودية عامين، ثم فى مركز البدارى بضعة شهور، وهاأنذا بالإسكندرية، وكتبى تتبدد فى بيت الأهل بالقاهرة، وراتبى لا يبقى منه شىء لشراء صحيفة.

وصمت أملا طويلا ساخرا منى فى نفسه ربما، راثيا لى ربما. ثم قال لى:

- أنرت لى طريقى. لن أتزوج. ولن أغترب. فى أى يوم. اسمع. أنقذ نفسك. خذ أهل بيتك وعد إلى القاهرة. بها حياة فيما أسمع. تجعلك تقرأ وتكتب. ولا يموت منك القلب.

قلت له على الفور ضاحكا:

- سأفعل. لكن أنت. لدى حدس بأنك شاعر ستقول الشعر. وربما قلته. لكنك تتحرج أن تسمعنى شعرك.

صمت أمل. وطال الصمت. وقال لى:

- سنلتقى. اطلب الجرسون وحاسب. أمعك ما يكفى؟

حاسبنا على ثمن البيرة. وتصافحنا، وافترقنا على وعد منه بأنه سيطب على فى البيت فجأة، فى أى وقت لكنه لم يفعل، ولم أكن أعرف له بيتا، ولا مكانا يذهب إليه للسهر فى ليالى الإسكندرية. وانقطع صديقنا، عز عن زيارتى، وحين رأيته فجأة بميدان الرمل سألته عن أمل وأخبار أمل ، فقال لى:

- لا تسألنى. لا صلة لى به.

وراح يشكو لى منه، ومجمل شكواه هى قسوة أمل فى التريقة والسخرية

بالغير، وبه هو شخصيا، وهو الذى عرفه بالإسكندرية، وهو الذى صحبه إلى منتديات الأدباء بالإسكندرية.

ولم أر أملا طوال عامين إلا فى القاهرة الباهرة الساهرة.

(٢)

سبقنى أمل إلى القاهرة. لا أعرف متى هبط إليها، ولا متى ترك عمله كموظف حكومى معين. رأيته أمامى بكافيتريا، ريش جالس مع السيدين: خميس وموسى، يرتشفان ماء ذهبيا غير قراح. ويتداولون أخبار النميمة، السارية فى المدينة، بدواوين الثقافة، ومقاهى الأدب، وبيارات المثقفين، والفنانين فى وسط القاهرة من ميدان رمسيس إلى ميدان التحرير، ومن شارع رمسيس إلى ميدان عابدين. وظلوا على هذه الحال إلى أواخر سنوات السبعينيات.

كل مساء، كان أمل يفد إلى ريش قبيل الغروب، مستحما، حليق الذقن، ومعه كومة من صحف الصباح والمساء والمجلات اللبنانية. أراه إذا بكرت بالحضور يحتسى فنجان قهوته، وفى يده قلم رصاص، منكبا بنظره ورأسه على الكلمات المتقاطعة بالصحف والمجلات، صحيفة بعد صحيفة ومجلة بعد مجلة، يفك فوازيرها كلها بسرعة ومهارة. وكلما انتهى من صحيفة أو مجلة يضعها فوق مقعد شاغر بجانبه، ويسحب سواها من فوق منضدة الحديد والرخام. ثم يروح يتصفح عناوينها واحدة واحدة، ولا يتوقف إلا نادرا عند خبر أو مقال أو قصيدة، أو حوار مشاغب مع شاعر من شعراء الأمة فى أقطار العرب. ثم يزعق فى النهاية مناديا ملك الجرسون، ويقول له:

- خذها كلها. أرحنى منها.

ونادرا ما كان أمل يأتى فى النهار صباحا أو ظهرا أو مع العصر. كان الليل ساحته الأثيرة للسهر ولقاء الأصدقاء. ولا يرحل عائدا إلى بيته من وسط المدينة ومشاربها إلا مع الفجر، وربما عند شروق الشمس، حين يصحو النيام، ويبدأ الزحام. بيته الذى لم أعرف قط أين هو، كما لم أعرف أبدا من أين يعيش، ولا من أين يأتى بنقوده القليلة لطعامه وشرابه وصحفه ومجلاته. ولم أسأله قط هيبة له، فهو من الذين يحبون أن يحتفظوا بخصوصياتهم، لا يشكون، ولا يتباكون، ولا يتباهون، ويتعففون عن الدنايا وإظهار الاكتئاب، والشعور بالغربة والوحدة والضياع، كعادة أكثر المثقفين الصغار المحبطين، الباحثين أبدا عن شماعات يعلقون عليها ثمار كسلهم، وزهدهم فى العمل، مع السلطة وغير السلطة.

(٣)

وفوجئت على مقهى ريش بأمل، وقد أصبح شاعرا مقتدرا ومتميزا. لم يعد ذلك الراوية لسواه من المحدثين والمجايلين. نبغ فجأة دون مقدمات أعرفها، أو بدايات تابعتها، وربما لم يعرفها أو يتابعها غيرى. كان شديد الاعتزاز بنفسه لا

يحب أن يرى منه أحد إلا قدرته على السير والجرى والوثب من قمة إلى قمة. احتفظ فيما قدرت بخربشاته الشعرية الأولى لنفسه، يتملاها بحس قارئ ناقد ذواق، يعرف نقطة البدء الحقيقية. يحدسها وينتظرها بصبر، ويمزق فى طريقه إليها كل خربشات البداية ولا يستشير أحدا. وحين قرأ على وجل وترقب فيما أقدر ، قصيدته الأولى لصديق، أو أكثر على رصيف ريش، أو فى ركن بالمستقع، لم أكن بين مستمعيه، والمصفقين له، ومن قبلوه قبلة الشعر الأولى.

ورحت أرقب على مهل، على رصيف ريش، وقت العصر غالبا، كيف تولدقصيدة لأمل. رأيت عجبا من العجب. كان يكتب كلمة، أو يشطب كلمة، أو يكتب سطرا ، أو يشطب سطرا ، على ورقة مطبقة بالطول، وهو يتحدث معنا، وعقله فى الوقت نفسه غائب عنا، وروحه يرتعد لها جسده، ويضطرب فكاه وتتحاك أسنانه، كمن يرتجف بردا ، أو يضطرم غيظا. ويظل على هذه الحال أياما، وربما أسابيع فى قصيدة واحدة، كأنه واحد من هؤلاء الشعراء الحوليين، أو نحات يشكل تحفة من المرمر. الحال نفسه كنت أعرفه عن شاعر مدينة بلا قلب.

وربما تتفجر القصيدة فى يد أمل دفقة واحدة، وتولد كلها بسرعة كتابتها، وكأنه يستعيد كلمات وصورا حفظها من قبل. حدث ذلك يوم كتب أمل قصيدته عن الكعكة الحجرية، وميدان التحرير يغلى بالطلاب الغاضبين، في ثورة المثقفين التى رجت مصر كلها رجا عام ١٩٧٢ . ويومها نسخت القصيدة الرائعة المروعة بيد تلو يد بجانب يد، من قارئ يملى على منضدة هنا ومنضدة هناك، وطارت الكعكة إلى الغضاب بميدان التحرير، فعلت أصواتهم بها كأنها نشيد. وحدث ذلك يوم كتب أمل قصيدته: الطيور، فرحنا نستمع إليها منه، ورحنا ننسخها لأنفسنا غير منتظرين نشرا لها.

حكيت عن قصد لأمل يوما، عن لحظة ميلاد القصيدة عند شعراء عرفتهم، أحدهم كان يفتح الدش ويروح يدندن على صوت مياهه المتسلسلة، وينقر الإيقاع بيد، ويكتب قصيدته باليد الأخرى. وأحدهم كان يطفئ المصباح الكهربائى فى غرفته ويوقد فتيلة مصباح جاز زجاجى، نمرة ٥ ، وعلي ضوئه الوانى يروح يكتب قصيدته ووجهه إلى الحائط. ضحك أمل وقال لى:

- تريد أن تعرف ماذا أفعل حين تولد قصيدة لى وأنا فى البيت. إننى فقط أتمدد على سريرى بالعرض، وأدلى رأسى فى الفراغ خارجه، وأضع الورقة فوق كتاب على الأرض، وأكتب السطور الأولى أو ربما الكلمات الأولى لقصيدتى.

بدت الدهشة على وجهى من الوضع، والطريقة، وأنا أتخيله مستلقيا على بطنه، ويداه أسفل السرير، وقدماه مثنيتان من ورائه فى زاوية قائمة، تلامس معها أصابع الجدار. عندئذ قال لى أمل:

- الدم فى هذا الوضع يتدفق بيسر إلى الرأس. وتمتلئ مراكز المخ بالطاقة الصالحة، للتفكير وللتذكر وللتخيل والتركيز والتكثيف.

(٤)

آنذاك كان الافتتان بمواقف النفرى ومخاطباته، وبشعر أدونيس هائلا، بين الشعراء الشباب على مقاهى البستان عند نهاية عطفة ريش والعجمى والحرية والندوة الثقافية وسوق الحمدية بباب اللوق ومشرب المستقع، وكانت القطيعة فظيعة بين مجموعة أصوات الشعرية، والشاعر أمل دنقل. فقد اختلفت دروب الرؤية بين جيلين، فى عشر سنوات بين منتصف الستينيات، ومنتصف السبعينيات بين جيل لم يفقد انتماءه، بعد وجيل مغترب إلى سراديب الروح، واليأس من الواقع كله، يستشرف أفقا لا ترى له شمس بعد.

سألنى أمل يوما:

- ما رأيك فى أدونيس الشاعر لا المثقف؟

قلت له على الفور:

- شعره محبوك ومتقن، لكنه فيما أرى بلا روح. شعر عقل واع، لكنه بلا روح، ولا يبقى فى النفس منه شىء، ولا تحن إليه.

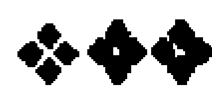
فقال أمل لى وهو يمرر يده على رأسى:

- الآن أنت صاحبى. وأنت مثلى لا تحب نسخ الكربون. لكنهم سوف يفيقون يوما، ويعودون إلى أنفسهم وحدها. بخاصة ثلاثة من بينهم، وأخشى أن يفقدوا قدرتهم كشعراء على الحدس، فيكررون أنفسهم أو يتوقفون. الشعر يحب من الشاعر روح الطائر الحر الطليق.

(٥)

ذات ليلة جرحت اعتزاز أمل بنفسه من حيث لا أدرى. كنا جلوسا بريش، وكانت النقود شحيحة معنا، فانتقلنا إلى المستقع. تحلقنا حول منضدة، وحلا لى أن أداعب أملا. قذفته بحبة ترمس. أصابته الحبة فى وجهه على غفلة، فالتفت إلى، ورفع طبق سلطة من الطماطم والجرجير أمامه. وقذف به فجأة فى وجهى، فأغرقنى بماء الطماطم. ولدهشتى من نفسى رحت أجفف وجهى، وأنظف ثيابى بالمناديل، ولم أعتب عليه، ولم أثر، ولم يبال هو بما فعله معى، وانصرف يتحدث مع غيرى، وكأنه لم يفعل شيئا، وإحدى عينيه ترقبنى على مهل. وبدا لى مندهشا لكظمى لغيظى. فى تلك الليلة ناديت حمادا الجرسون، ودفعت حسابى، وخرجت عائدا أرتجف غضبا وحزنا إلى بيتى.

وظللت شهورا لا أخاطب أملا، ولا أجلس معه حيث يجلس. إلى أن جاء ذات نهار وانحنى على رأسى، وقبلها، وجلس معى، ولم يقل لى كلمة اعتذار. فقط جلس، وراح يسمعنى قصيدة جديدة له. كانت بعض الأمور الصغيرة بيننا لا تستحق أية مناقشة. لمسة واحدة تكفى، وربما بسمة لتزيل جبالا من الثلج، أو الغضب بين صديقين طفلين كبيرين.

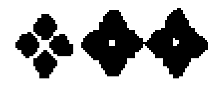


ذات نهار دخلت مقهى ريش. كنت مفلسا تماما. ورأيت أملا جالسا مع

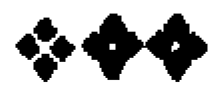
المغترب الأبدى ومن لا أذكرهم من الصحب. جلست معهم. كان الوقت ظهرا وشديد البرد. وكانوا يشربون ويستدفئون بالكلام والشراب المثلج. ملت على صديقى المغترب الأبدى. كان قاصا مثلى. كنا صديقين منذ زمن أبعد من علاقتى بأمل ومن معنا. وقلت هامسا للمغترب الأبدى:

- اطلب لى.

فهز رأسه رفضا. واستمر يتحدث مع أمل. وقدر أمل بفطنته وحضوره ما حدث، فابتسم، ونادى لفوره على ملك الجرسون، وطلب منه أن يضع أمامى وحدى زجاجة كاملة. ولم يظهر انفعال واحد على وجه المغترب الأبدى.



إلى صحبتنا كان يأتى أحيانا إلى كافيه ريش صديق المثقفين من كل الأجيال: جابر عصفور. كان مفتونا بأمل، وشعر أمل، ويضحك معه من قلبه. وكان أمل يثقل عليه أحيانا بمداعباته وتحرشاته، فلا يزيد جابر المحب عن الضحك مع أمل. واعتدنا نحن الثلاثة أن نلتقى أحيانا فى بيت جابر مع من يدعوهم جابر. وأحيانا فى بيتى مع صديقنا المتصوف الديان عبد المحسن بدر، ربما فى مناسبة عيد ميلاد لأمل، أو للناقد الراحل الصديق لويس عوض، وربما لغير مناسبة. وأحيانا فى مطعم فخيم، يدعونا إليه جابر أو أمل. وصرنا صحبة متجانسة محورها أمل، وشعر أمل، فلا صغار بيننا من أحد. وأمل لم يكن يفرسبه شىء سوى صغار الصغار.



أصدق أصدقاء أمل كان سيد خميس. يحب أن يسهر معه، ويشرب معه وينم معه. ولقد افتقده أمل كثيرا حين غاب سنينا فى دمشق. لا أذكر يوما لم يلتقيا فيه معا. وأحيانا كانا يحبان أن يكون معهما ثالث هو: أنا بعيدا عن ريش، ومثقفى ريش وحكمائها. صحبانى معهما إلى مشرب روز. ورأيت روز. كانت فيما مضى فنانة، وحين فقدت دورها الفنى مع تقدم العمر، افتتحت هذا المشرب. كان مشربا هادئا كأنه صالون سمر فى قصر ناء، مع أنه فى قلب مدينة الأسرة العلوية، فى ممر شبه مهجور. وضحكت كثيرا، وسيدى خميس الذى قد يقيمون مولدا، ويشيدون فوقه ضريحا فى قريته، يحكى لى أمام أمل، أن أملا يضع عينه على مدام روز، ويريد أن تكون له زوجة، ولكنها مع أنها تحبه تتأبى عليه. فضحكت وقلت لسيدى خميس:

- سيأتى أمل على ما عندها من مشروبات، ويهجرها.

ومع ذلك تزوج أمل. نجحت صديقتنا عبلة الروينى أن تجعله يتزوج، ونجحت فى أن تجعله يئوب إليها، كلما حاول هو الشاعر الطليق، أن يبتعد عن حياة العائلة، وطقوس حياة العائلة، ونجحت فى أن تحتمل مرضه وواصفه النفسية، والكلامية، وتظل معه إلى لحظته الأخيرة.

(٦)

فى لحظة صفو حدثنى أمل عن سلالته العربية المجيدة. فهو حفيد لأحفاد من أحفاد بنى أمية، الذين لولاهم كرجال دولة، لما قامت للإسلام ولا للعرب دولة ممتدة من هضاب الهند الشمالية إلى جنوب غرب أوربا، والتى راحت من بعدهم تتجزأ وتتفتت طوال تسعمائة عام. وقال لى أمل بزهو الفرسان، فى عصر ولت فيه عصور الفرسان:

- أنا مروانى لا يزيدى. وأعظمهم عبد الملك بن مروان.

وقال لى أمل إن جده كان صوفيا كبيرا بأسوان وما حولها، وإن له ضريحا يزار. وفى غرب أسوان قرية بالصحراء تحمل اسمه: دنقل.

ولم أكذب خبرا. حين عدت إلى البيت فتحت الأطلس العربى المقرر على المدارس، ورأيت اسم دنقل بخارطة مصر غربى أسوان.

وبدأت أفكر فى أنه من الضرورى أن يلتفت ناقد، وهو يدرس شعر أمل إلى هذه العلاقات فى شعر أمل، بين شعوره بجذوره القومية والعرقية، واستثماره فى شعره لحكايا التراث العربى، وروح الفحولة فى شعره المتأبية على سلام الأمر الواقع، خاصة عندما كتب زرقاء اليمامة وأبانا الذى فى المباحث، وعندما فجر قنبلته الشعرية الخالدة المدوية: لا تصالح. ولسوف تظل هذه القصيدة تطارد الأجيال العربية، دون رحمة حتى لو استسلمت بضعة عقود لسلام الأمر الواقع.

(٧)

ثلاثة من الصحب قدموا إلى القاهرة من ديار أحمس مع سنوات الستينيات إلى القاهرة، خرجوا فرادى وتباعا صوب الشمال، وقد تواعدوا على اللقاء بالقاهرة، لغزو القاهرة: يحيى الطاهر عبد الله بقصصه عن فقراء الصعيد، وعبد الرحمن الأبنودى بشعره العامى عن جابر أبو حسين والسد العالى والسيرة الهلالية، وأمل دنقل بشعره عن جساس وكليب. وعلى تباعد اللغة والرؤى بين الأصدقاء الثلاثة، القادمين بعد آلاف السنين من ديار أحمس وكاموزا، فقد نجحوا فى غزو القاهرة، وتحرير قلبها شعرا وقصا، من أسن الحياة فى المدينة.

لم أرهم مجتمعين معا إلا نادرا. مع أنهم كانوا جميعا فى وسط المدينة، وكان بينهم من الحب ما هو أعظم من مودات التلاقى.

كان كل منهم مشغولا بحريه، وإبداعه يدق طبوله الخاصة، إلى أن سقط مصادفة، المتمرد على التقولب يحيى الطاهر عبد الله، فى حادث سيارة، فى رحلة صحراوية، سقطة عبثية مثل سقطة المتمرد العبثى ألبير كامى، على طريق الجنوب الفرنسى.

وبقى صاحباه من بعده وحيدين: عبد الرحمن، وأمل. وكأن رحيل اثنين أمام عينى أمل: صلاح عبد الصبور ويحيى قد أثقل قلبه. وملأه حزنا لا يبوح به

لأحد، فالحزانى يعيشون وحدهم مع أحزانهم، وبرغم صرخة أمل المدوية التى رجت العالم العربى رجا، فقد وقع الصلح المنفرد. أحسب أنه عندئذ امتلأ قلب الفارس المروانى بالحزن والكمد، فنجح المرض الخبيث فى مطاردة غدده غدة بعد غدة.

وعشنا مع أمل أيام فارس يحتضر ببطء، ويتلقى وحده ضربات المرض الخفية بصبر، مصرا أن يحيا حتى أخر قطرة للحياة فى بدنه، وأن يختار لحظة وداعه للدنيا، فى شرفة غرفة، ينتظر أن يرى مثل أخناتون لحظة شروق الشمس، ليغمض عينيه على شعاعها.

(٨)

لن يفارقنى قط مشهده المهيب الساحق، بمسرح السلام، وهو يلقى قصيدته: لا تصالح فى مهرجان للإبداع أقامته وزارة الثقافة.

كان البردونى آخر الشعراء التراثيين الفحول، قد ألقى قصيدته. ونهض أمل متشحا بعباءة سوداء. أبى أن يسنده أحد، ومشى متحاملا حتى وصل إلى الميكروفون. بدا داخل عباءته الفضفاضة ضعيف البدن، أكثر هزالا مصفر الوجه شديد الشحوب. ظل واقفا ثابتا متصالبا، وكأنه يستمد من شعره قوة الروح التى تشد الجسد. وراح يلقى قصيدته للمرة الألف فى المدينة التى جاء لتحريرها، مثل: كاموزا الشاعر الفارس ابن سقنن رع، قصيدته الوصية صرخته الأخيرة: لا تصالح.

ليلتها ساد الصمت لمشهده المهيب الساحق، وصوته القوى الضعيف، وصور قصيدته النارية التى تفجر الماضى فى الحاضر، والحاضر فى الماضى. وحين توقف، ظلت لحظة الصمت برهة. فقد أثقل الكل لمشهده بالحزن، وشعروا لوصيته بالعجز. ثم دوت القاعة بالتصفيق، وقد هب الناس وقوفا، فلم يستطع أحد أن يراه أو يرى ابتسامته الشاحبة، سوى من كانوا فى الصف الأول من الواقفين.

(٩)

اثنان حمل ديوانهما الأخير، فى سنوات المرض الأخير، قصائد الموت فى مرض لا فرار منه إلا بالموت، والمعايشة للموت حتى النفس الأخير: أمل دنقل صاحب: أنشودة لا تصالح، وبدر شاكر السياب صاحب: أنشودة للمطر. سلاما أمل.

إصـــدارات دار مـــصـــر المحـــروســـة

١- قضاء يسحق العدالة نظام قضائي ضد الإصلاح السياسي في السعودية تأبط خيرا	
٢-الوجه الآخر للخلافة الإسلامية	سليمان فياض
٣- كتاب النميمة	سليمان فياض
٤- حكايات المجاورين	سليمان فياض
٥-عفاريت التراث... وتراث العفاريت	د. سيد القمني
٦- أهل الدين والديمقراطية	د. سيد القمني
٧- الإخوان المسلمين في الميزان	محمد حسن أحمد
٨- الشيعة والسنة بين التاريخ والسياسة	د. محمد عبدالعظيم
٩- تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية	د. كمال حبيب
١٠- موقف القرآن من خصومه	د. عمر عبدالرحمن
١١- النوبة اللامعقول في بلاد الإتر والفول	حجاج أدول
١٢- ماذا تريد أمريكا للشرق الأوسط	شهدي عطية الشافعي
١٣- إخلعوا الأقنعة	لنيين الرملي
١٤-في بيتنا شبح	لنيين الرملي
١٥- حلاق الشرق	ترجمها عن اليابانية: د. وليد فاروق
١٦- كافافي.. الشاعر والمدينة	وسام الدويك
١٧- الرقص علي المية	أبو العلا عمارة

